

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

كلية : أصول الدين والشريعة
والحضارة الإسلامية
قسم : الدعوة والإعلام

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية - قسنطينة

الرقم الترتيبي /...../2001
رقم تسجيل الطالب (ة).....

البعد الدعوي في أعمال
مولود قاسم نايت بلقاسم

بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير
شعبة : الدعوة والإعلام
من الطالب(ة) : بوعلام جوهري

أمام اللجنة	الإسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية
1- الرئيس	أ.د عبد الرزاق قسوم	أستاذ	جامعة الجزائر
2- المقرر	د. مولود سعادة	أستاذ محاضر	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
3- العضو	د. بشير بوجنانه	أستاذ مساعد مكلف بالدروس	جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

توقفت (ت) يوم 22 ذي الحجة 1421 الموافق لـ 18 مارس 2001

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
- قسنطينة -

معهد الدعوة و أصول الدين
قسم الدعوة و الإعلام

الْبُعد الدَّعوي في أعمال

مولود قاسم نايت بلقاسم

بعضة مقدّم لنيل درجة الماجستير في الدعوة و الإعلام

تحت إشراف:

د/ مولود سعادة

إعداد الطالب:

بوعلام جوهري

هيئة المناقشة:

/رئيساً

/ مشرفاً

/ مناقشاً

/ مناقشاً

/ مناقشاً

السيد:

السيد:

السيد:

السيد:

السيد:

الأبعد الدعوي

في أعمال

مولود قاسم نايت بلقاسم

بحث لنيل درجة الماجستير

في الدعوة والإعلام

تحت إشراف:

د/ مولود سعادة

إعداد الطالب:

بوعلام جوهري

الإهداء

- إلى كلّ أستاذ علّمني و ساهم في تكويني.
 - إلى أصدقائي، عمدتي و أوتادي في الحياة.
 - إلى المؤطر و المشرف المحترم - الدكتور مولود سعادة - الذي ظلّ ورائي يستحثّ همّتي و إرادتي كلّما فشلت.
 - إلى عائلي التي حفّنتني بالرّعاية و الإهتمام.
 - إلى روح الفقيه المغفور له الأستاذ مولود قاسم نایت بلقاسم.
 - إلى روح كلّ مفكّر و عبقرى جزائري غمره أهله في غيابات التّاريخ و لم يعطوه حقّه من التّقدير.
 - إلى هيئة المناقشة الموقرة عضواً عضواً
- أهدي رسالتي لنيل شهادة الماجستير في الدّعوة و الإعلام،
تحت عنوان :
- ﴿ البعد الدّعوي في أعمال مولود قاسم نایت بلقاسم ﴾.

الحق كنهه

جامعة الأديب
القادر للعلوم الإسلامية

المقدمة

- بسم الله الرحمن الرحيم -

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبع هُداة واستن بسنته إلى يوم الدين.

عنوان الرسالة: ﴿البعد الدعوي في أعمال مولود قاسم نایت بلقاسم﴾.

إن موضوع الرسالة يبحث في طروحات وأفكار الأستاذ الراحل مولود قاسم نایت بلقاسم -رحمة الله عليه- عن آليات ووسائل ومبادئ وفلسفة بناء المجتمع الإسلامي الحديث، بين ما هو أصل فيه و مرجع، يجب الاستناد إليه في عملية تركيب الحاضر والمستقبل وبناء الأجيال بعيداً عن الانفصال عن ماضيها وعوامل شخصيتها وهويتها -أو إنيتها كما يحلو لمولود قاسم أن يسميها-، وبين ما دخل في عمق المجتمع من انفصال عن الذات، ومسح وفسخ ونسخ وجود وهمود وهود وركود، يهدّد كيانه بانزلاق الشخصية عن مسارها وسكنها.

و يبحث كذلك موضوع الرسالة في مجهود الأستاذ مولود قاسم وكفاحه الدعوي العلمي في بناء جزائر ما بعد اسرجاع الإستقلال، إذ أنه من أحد صنّاع جزائر ما بعد الإستعمار -كما سنرى و نبيّن- بمشاريع عرفت التجسيد والتواصل، ومشاريع أخرى عرفت الإجهاض أو الإستئصال والإماتة.

و إلى جانب ذلك، تبحث الرسالة، في مشكلة المجتمع الجزائري الحديث، مشكلة الهوية وتصادم الأفكار والمدارس ومعالم الشخصية الجزائرية في معارك حقيقية، وأخرى مفتعلة ليس لها أساس، وتبيّن الرسالة رؤى الأستاذ مولود

قاسم في حسم هذا الإشكال و رسمه لمخطّط هذه الهوية التي لا ينبغي مستقبل جزائريّ إلاّ عليها - أو ينبغي أن يكون مبنياً عليها-

و تظهر أهميّة هذه الرسالة، في حالة ما إذا كنّا حقاً نضع وزناً لعظماننا و عباقرتنا و أفكارهم و طروحاتهم و مدارسهم و فلسفاتهم، لنستفيد منها في بناء حياتنا و نسج ماضيها بحاضرنا و مستقبلنا. قال نيتشه⁽⁴⁾ في فصل «الصنم الجديد» من كتابه المشهور: «هكذا تكلم زرادشت»: «لم يزل في بعض الأرض شعوب و جماعات. إنّ أمّا نحن فليس عندنا سوى حكومات... أعيروني أسماعكم لأخاطبكم عن موت الشعوب. إنّ الشعوب قد كونها المبدعون الذين نشروا الإيمان و المحبة، فأتوا بأجلّ خدمة للحياة. و ما ناصبو الأشرار للجماهير إلاّ أولئك الذين يهدمون كيانها ليشيدوا الحكومات على أنقاضها و يعلّقوا سيفاقاطعاً فوق رأس الشعب و ينصبّوا مئات الشّهوات أمام عينيه».

و أخالني لست مخطئاً حين أعدّ الأستاذ مولود قاسم نایت بلقاسم من أولئك المبدعين الجزائريين عبر طول زمن التاريخ المجيد لهذا الشعب، الذين كونوا تركيبة المجتمع، أو على الأقلّ حاولوا تنقيتها من الشوائب و الدخيل، عن طريق التّأصيل إلى مقومات الشخصية الجزائرية الحقيقية دون زور و لا تلفيق أو جور و تفریق.

إنّ الأستاذ مولود قاسم نایت بلقاسم و أمثاله من المفكرين، هم الضمير الناطق لدستور و ميثاق المجتمع الثقافيّ، اللذين وُضعا منذ أن عرف المجتمع الجزائري الحياة، و وقعا كلّ مرة بتوقيعات متجدّدة بمختلف التّضحيات و الدماء و الحضارات المتلاحقة مع بقاء ذلكم الدّستور و الميثاق بعيدين عن التّحريف و التّزييف بفضل أولئك الرّجال و المفكرين، و من بينهم مولود قاسم.

أمّا أولئك الذين وضعوا أنفسهم للتّنظير و التّخطيط لمستقبل الشعب و البلاد دون أن تنصّبهم الأمة في تلك الأماكن أو تنتخبهم و تزكّيهم، فإنهم قد خطّوا و رسموا ميثاق و دستور الدولة بعيداً عن ميثاق الشعب

⁽⁴⁾ نيتشه: فيلسوف ألماني توفي سنة 1900، كان لفلسفته تأثير عظيم في خلق الرّوح الوطنيّة الألمانيّة التي عرفت بعد ذلك بإسم "النّازية" -نسبة إليه- في عهد هتلر. من كتاب: "معركة المفاهيم"، ل:د/عبد الله شريط، - الشركة الوطنيّة للنشر و التوزيع - الجزائر 1981، الطبعة الثانية، ص113.

و دستوره الثّقافين. إنهم أرادوا أن يتجاهلوا التاريخ و الثّقافة العميقة المتجذّرة للمجتمع الجزائري، و بينوا مجتمعًا حديثًا مُجتثًا عن جذوره و أصوله، ليصلوا إلى تكوين مجتمع مُمَيِّع و مسلوب الشّخصية لا تحكّمه سوى الحدود و الجغرافية و كلمة «الجزّارة» دون أن تعني لديه شيئًا غير الجنسية التي يحملها الفرد على أوراق إثبات الوطنية و الهوية. لقد أرادوا أن يصلوا به إلى أن يصبح مجتمعًا لا يدري من عمق تاريخه شيئًا سوى أنّه قاوم الإستعمار الحديث لتكوين مجتمع جزائريّ حديث لا هو أمازيغيّ و لا هو عربيّ، و لا متّصل إلى قيم و مبادئ و تشريعات دينه، و لكن جزائريّ فحسب -دون مضمون و لا مغزى- مولود من ثلاثين سنة خَلَّتْ. إنهم أرادوا أن يُفقدوا المجتمع الجزائري مناعته أمام كلّ دخيل.

و تظنّ صرخة شعبنا و صرختنا متجسّدة في كفاح أولئك المبدعين من أمثال مولود قاسم الذين ذكرهم نيتشه، و تتّضح أهميّة هذا البحث في أن نجدّ هذه الصرخة عن طريق أحد عظماء صنّاع المجتمع و المحافظين له على ميثاقه و دستوره الثّقافين، لأننا و حسب تجارب الزمن التي قرأناها أو سمعنا عنها، تعلّمنا أنّ التاريخ لا يكتب السكوت و السكون، و إنّما يكتب النطق و الأفعال.

و إن كنّا من خريجي قسم «الدّعوة و الإعلام» فإنّ دورنا أن نحافظ على صدى صوت هذه الصرخة ما دُمنا أحياء، و لسنا نقلد في ذلك إلّا من أحسنّ قبلنا بهذه المسؤولية فقال: ﴿أعيش للجزائر﴾، و هو إمام النهضة الجزائرية الشيخ عبد الحميد بن باديس -رحمه الله-.

* دوافع البحث:

بعد مرور ما يقرب من سبع سنوات على وفاة الأستاذ مولود قاسم نابت بلقاسم -رحمه الله-، لا يسعنا إلّا أن نقف ووقفه تأمل و اطلاع على فكر هذا الرّجل العبقريّ، و وقفة تقييم و تقويم موضوعي لإسهامه الفكري و السياسي و الثّقافي و توجيه حركية المجتمع الجزائري، مفكرًا و فاعلًا، باعتباره تقلد مناصبًا حسّاسة في مختلف معارك كفاحه من أجل أفكاره و فلسفته و بناء مجتمعه.

إنّ الأستاذ مولود قاسم يُعتبر من صنّاع الجزائر الحديثة و من عباقرتها في الفكر و الميدان، أولئك العباقرة الذين سيبقى ذكرهم خالدًا ما دام التاريخ يكتب عن نفسه.

و لعنا -نحن الجزائريون- بأمثال هذه الرسالة سوف نتخطى مرضنا الأزلي المتمثل في نسيان و تجاهل أبطالنا و عظمائنا وعباقرتنا، فنهدى هذا البحث إلى روح أحد أولئك بعد مرور زمن قصير على وفاته لا يتجاوز السبع سنوات.

و لأن شخصية البحث (مولود قاسم) بالغة في التعقيد، في أفكارها و أعمالها و انشغالاتها، أجهضها المخاض الصّعب لظروف المكان و الزمان، و لأن كثيراً من الناس لا يستطيعون تعيين مولود قاسم في خانة هؤلاء أو أولئك من المدارس المتنافسة و المختلفة، و يصعب عليهم إطلاق أحكام تقييمية على مجهوده و إسهامه الفكري الذي بقي دفين الشخصية و إسهامه المادي المتجسد في مشاريع خنقتها أيد آثمة، و أخرى تركزت ميدانياً و لازالت تعرف بريق الحياة و لو حياة البقاء. أمام هذا، وجدت نفسي تواقّة إلى حلّ بعض ألغاز حياة هذا العملاق و جهوده، و رغبة في رفع الغطاء عن حياته المطموسة بعد وفاته، و إحياء فكره و رؤاه و فلسفته و مدرسته الدّعوية حول تركيب أدوات قيام المجتمع الجزائري، ثم إسقاطها على حال وواقع المجتمع من بعد موته، و إعطائها ثقافياً و أكاديمياً للحياة بعدما دُفنت معه يوم دُفن في مقبرة العالية بالجزائر -رحمة الله عليه-.

(* أهداف البحث: تتمحور مرامي هذه الرسالة حول تحقيق ما يلي:

- أ- إعطاء نفس جديد لأفكار الأستاذ مولود قاسم نابت بلقاسم و طروحاته الفلسفية و الحضارية،
- ب- إكتشاف الأنا الحقيقي و الهوية الصحيحة للمجتمع الجزائري، الأنا و الهوية المفقودين في خضمّ بناء جزائر ما بعد استرجاع الإستقلال.
- ت- الإطلاع و الوقوف على حياة و جهود و كفاحات عملاق من عمالقة هذا الشعب الجزائري، و الذي أفنى حياته في خدمة الوطن و الفكرة و الحضارة و الشخصية الأصالية.
- ث- إجلاء الضباب عن فكرة القومية الجزائرية، و البحث عن محتواها لا عن عنوانها.
- ج- إبراز معالم مدرسة مولود قاسم الدّعوية و الحضارية، أو تلك الفلسفة التي بنى عليها مولود قاسم جهوده و كفاحاته الحضارية الرسالية.
- ح- ردّ ما لقيصر لقيصر، أو بتعبير أدق؛ ربط المنجزات الوطنية الأصالية إلى أصحابها و موجدتها، إعرافاً بالجميل لمن قدّم الكثير مؤسساتياً للدعوة الإسلامية في نطاقها الحضاري داخل الجزائر،

و هو مولود قاسم نایت بلقاسم، إعرافاً سيكتبه التاريخ أكاديمياً كما سبق و أن سجّله في

ذاكرة شعبية و لخبوية سرعان ما تنسى و تُهمل، أو يمضي عليها الزمن فتغفل.

(* الفكرة الأساسية للبحث:

تبحث الرسالة في إشكالية الأرضية الفلسفية و الثقافية و الفكرية التي طرحها مولود قاسم نایت بلقاسم لتعتمد في البناء الحضاري الوفي للموروث، و المصطلح بمهامه الرسالية في مواجهة مستجدات العصر، من أجل الوصول إلى إيجاد عملية تواصل و استمرارية في البناء الاجتماعي تأصيلاً إلى التاريخ و التراث و الشخصية، حيث يكثُر الاختلاف و سوء الفهم و الإستعمال لاختلاف المدارس الفكرية لصنّاع القرار السياسي الحاسم لمستقبل الشعب الجزائري. ثم تبحث في بعض تطبيقات مولود قاسم لأفكاره و طروحاته الحضارية، و المجسدة في بعض الأعمال و المشاريع و المؤسسات الفكرية التي كانت وسائلاً عند مولود قاسم لبلوغ تحقيق فلسفته في بناء الحضارة الأصلية غير الانفصالية.

(* الأفكار الجزئية للبحث:

أ- إظهار الصّراع الفكري و الحضاري في حركية بناء المجتمع الجزائري لما بعد إسترجاع الإستقلال، و الكامن في معركة بعض المشارب و المدارس الفكرية المتصادمة داخل المجتمع الواحد، و مخلفات هذا الصّراع من بزوغ نمط إجتماعي و ثقافي و اقتصادي و حضاري فيه من التناقضات ما جعل الأمة حائرة في واقعها و حائرة حول شكل مستقبلها بين أمم الأرض.

ب- إبراز آليات البناء الحضاري لمشروع المجتمع الجزائري المرغوب من طرف الأستاذ مولود قاسم نایت بلقاسم.

ت- إبراز واقع المجتمع الجزائري الذي استشرت فيه الانفصالية عن سكة الحضارة و الشخصية الموروثة.

ث- الخروج في آخر البحث بمعالم مدرسة فكرية يُعتَبَرُ مولود قاسم صاحبها و مؤسسها.

(* الدراسات السابقة في الموضوع:

لا أعرف وجود دراسة علمية سابقة بحثت في هذا الموضوع و لا عن حياة الأستاذ مولود قاسم نایت بلقاسم، و لا وجود من كتب عنه سوى كتابين إثنيين لا يرتقيان إلى مستوى العلمية و الأكاديمية، أولهما سرّد لبعض الأحداث التي أشركت الأستاذ مولود قاسم بالأستاذ محمد الصالح الصديق، عنوانه هذا الأخير: «خواطر و ذكريات عن الأستاذ الراحل مولود قاسم نایت بلقاسم»، و ثانيهما كتابٌ للدكتور أحمد بن نعمان أسماه: «مولود قاسم نایت بلقاسم، رمز كفاح أمة»، جمع فيه بعض مقالات المرحوم مولود قاسم، و بعض شهادات بعض المفكرين و السياسيين و الصحافيين عن مولود قاسم و بعض جهوده.

(* مراجع البحث: إضافة إلى الكتابين المذكورين سابقاً، فإنني إعتمدتُ كمراجع للبحث و الرسالة كتابات مولود قاسم نایت بلقاسم المنشورة في شكل كتب لا تتعدى أربعة كتب سوف نذكرها في قائمة مراجع البحث في أواخر صفحات الرسالة، أو المنشورة في بعض المجلات و الجرائد على شكل مقالات أو دراسات أو حوارات للأستاذ مولود قاسم. و قد يتقال القارئ و الدارس لهذه الدراسة و الرسالة عدد المراجع المعتمدة، لكنّها هي كلّ المراجع الموجودة عن هذه الشخصية و أعمالها، إذا استثنينا الشّهادات الحية من أصحابه و رفاقه في الدّرب، و التي يصعب اعتمادها لحالة البلاد الطّائرة التي تعيشها، و صعوبة الإتصال بالشّخصيات بل و استحالتها في أغلب الأحيان. لذلك فقد إستبعدتُ الإعتماد على الشّهادات الحية، و هي إحدى مآخذ هاته الدراسة إقتضتها الضّرورة و الظروف.

* المنهج المعتمد في البحث:

بحكم الدّراسة التي تهتم بأقوال و خطابات مولود قاسم في الغالب، فإنّ المنهج الذي يطرح نفسه منطقيًا هو المنهج الوصفي التحليلي أحيانًا، إضافة إلى المنهج التاريخي لمختلف محطات حياة المرحوم أحيانًا أخرى ، و ذلك يتم باستقراء تراث مولود قاسم المكتوب للوقوف على الخطوط العريضة لتوجهاته الفكرية و جهوده الدّعوية و الحضارية.

* الصّعوبات المعترضة: اعترضني خلال هذا البحث عدّة صعوبات، أهمّها:

- أ- صعوبة تحليل شخصية الأستاذ مولود قاسم نابت بلقاسم لكثرة إضطرابها و تقلّبها في بعض المواقف و الطّروحات، و لكونها شخصية تكتسي طبع الشمولية لها عدّة جوانب و لم تهتمّ بجانب واحد فقط دون جوانب أخرى، بل مسّت تقريبًا بكلّ إهتمامات البشر المختلفة.
- ب- قلّة المراجع التي يّستند عليها للبحث و الدّراسة، بل و انعدامها، إذا إستثنينا كتابات مولود قاسم التي هي موضوع الرّسالة تقريبًا.
- ت- الحالة الأمنيّة السيّئة التي تعيشها الجزائر، ممّا منع الإتّصال بالشّخصيات السياسيّة لتُسدلي بشهاداتها الحيّة حول مشوار و أفكار مولود قاسم نابت بلقاسم.

* عنوان البحث: «البعد الدّعوي في أعمال مولود قاسم نابت بلقاسم».

* خُطّة البحث:

• المقدمة

• مدخلٌ في مفهوم الدّعوة و البعد الدّعوي

• الباب الأوّل: «المركز الفكري لمولود قاسم نابت بلقاسم»

• الفصل الأول: «ترجمة حياة مولود قاسم نایت بلقاسم»

- مولده و تعليمه
- إنتقاله إلى تونس
- سجنه و محاكمته
- في تونس
- هجرته إلى مصر
- إنتقاله إلى باريس
- مغادرته لباريس
- تنقله بين بلدان أوروبا
- بعد إسترجاع الإستقلال
- مؤلفاته
- ميزاتة

• الفصل الثاني: «موجّهات الفكر الدّعوي عند مولود قاسم نایت بلقاسم»

• المبحث الأول: موجّهات الفكر الدّعوي عند مولود قاسم من جهة

السلب

• المبحث الثاني: موجّهات الفكر الدّعوي عند مولود قاسم من جهة

الإيجاب

• الفصل الثالث: «الهوية قالبًا و منطلقًا للدّعوة عند مولود قاسم»

• المبحث الأول: توظيف عنصر التاريخ

• المبحث الثاني: توظيف عنصر الدين

• المبحث الثالث: توظيف عنصر اللغة

• المبحث الرابع: توظيف عنصر القومية

• الباب الثاني: «الكفاحات الدّعوية لمولود قاسم نایت بلقاسم»

• الفصل الأول: «الكفاح الدّعوي في عمل مولود قاسم الفكري»

• المبحث الأول: كفاح مولود قاسم في تنظيم وزارة الشؤون الدينية

• المبحث الثاني: كفاحه في إرساء مؤسسة ملتقى الفكر الإسلامي

• المبحث الثالث: كفاحه في تحديد منظومة فكرية إسلامية.

• الفصل الثاني: «الكفاح الدعوي في عمل مولود قاسم الثقافي»

• المبحث الأول: كفاحه في إرساء الفكر الإسلامي داخل المدرسة

الجزائرية

• المبحث الثاني: كفاحه في إرساء الفكر الإسلامي داخل الجامعة

الجزائرية

• المبحث الثالث: كفاحه في ترشيد العمل الثقافي و الفني بالخصوص

• المبحث الرابع: كفاحه في ترشيد الثقافة الإجتماعية للأمة الجزائرية.

• الفصل الثالث: «الكفاح الدعوي في رؤى مولود قاسم السياسية و الإقتصادية»

• المبحث الأول: الكفاح الدعوي في رؤى مولود قاسم السياسية

• المبحث الثاني: الكفاح الدعوي في رؤى مولود قاسم الإقتصادية.

• الخاتمة

و الله من وراء القصد، و هو المستعان، و هو يهدي السبيل.

مدخل

في مفهوم الدّعوة

و البعد الدّعوي

مدخلٌ في مفهومِ الدَّعوةِ و البُعدِ الدَّعويِّ

عنوان البحث الذي بين أيدينا: ﴿البعد الدعوي في أعمال مولود قاسم نايت بلقاسم﴾ يتضمن كلمتين أساسيتين يتمحور حولهما الموضوع، و يدور عليهما مدار الدراسة بالارتباط مع شخصية البحث المراد كشف الأضواء على عملها و ممارستها في البناء الحضاري الإسلامي داخل الجزائر، هاتان الكلمتان هما البعد و الدعوة. لذلك نفرّد هذا المدخل حتى نضبط المصطلحين و ما نريد منهما من خلال هذا البحث، و الدين سيعودان مرارا و تكرارا طوال مراحل الدراسة و يرتكز عليهما الموضوع شكلا و محتوى.

1- مفهوم الدعوة:

أ- الدعوة لغة: جاء في المعجم العربي الأساسي لمؤسسة "لاروس" لسنة 1989، ما يلي: ﴿دعوة: مصدر دعا، نشر الإسلام و شهادة ألا إله إلا الله، قام الرسول بتبليغ الدعوة على أحسن ما يكون﴾ (1)، و جاء فيه حول كلمة دعا، ما يلي: ﴿دعا يدعو دعوة داع (الداعي) مدعو﴾:

1. إلى عقيدته بشر بها "دعا إلى الإسلام"

2. الشخص إلى وليمة: إستضافه "دعوت صديقي إلى العشاء"

3. دعا الله: سأله حاجته "و قال ربكم أدعوني أستجب لكم"

4. دعا فلان: طلب له الخير

5. دعا علي فلان: طلب له الشرّ

6. دعا فلاناً، بفلان: ناداه و صاح به "دعا المؤذن الناس إلى الصلاة"

7. الشخص: إستعان به "واذعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين"(2). و جاء فيه حول كلمة "داعية":

"داعية: داع جمعه: دُعاة: من يدعو إلى دين أو فكرة (التاء للمبالغة)(3).

و جاء في كتاب ﴿الدعوة قواعد و أصول﴾ لمؤلفه جمعة أمين عبد العزيز، ما يلي:

"من معاني الدعوة لغة:

(1) النداء، يُقال دعا فلان فلاناً إذا ناداه، و دعوت الرجل إذا صحت به و إستدعيته.

(2) الدِّعاء إلى الشيء بمعنى الحثُّ عليه

(3) الدعوة إلى قضية يراد إثباتها أو الدفاع عنها كانت حقاً أو باطلاً.

(4) المحاولة القولية أو الفعلية لإمالة الناس إلى مذهب أو ملة.

(5) الإبتهال و السؤال، جاء في المصباح المنير، دعوت الله أدعوه و أدعوه دعاءً أي أبتهل إليه

بالسؤال و أرغب فيما عنده من الخير﴿(4).

ب- الدعوة اصطلاحاً: إن الدعوة المراد هنا التطرق إليها و جعلها محورا للبحث، بالإرتباط الوثيق -

طبعا- مع شخصية البحث"مولود قاسم نابت بلقاسم"، هي الدعوة الإسلامية، فربط هذه الدعوة بموضوعها و هو الإسلام و نضيفها إليه. جاءت التعاريف و المفاهيم كثيرة في مراجع عدة، هذه الدعوة، نسردها بعضها التي تكون أقرب إلى مفهومها كما نعتقد، و نخدم في الوقت نفسه بحثنا هذا، و تتوافق مع فهمنا الشخصي هذه الدعوة و تبرز قالب هذه الدراسة، و توجهها داخل نطاق العمل الدعوي في شكله الشمولي الذي يمس أي عمل إسلامي يرمي إلى الرّفع من مستوى إسلام المؤمنين أو إلى رفع الناس إلى مستوى الإسلام.

جاء في كتاب "الدعوة قواعد و أصول" لمؤلفه السابق الذكر، ما يلي:

"الدعوة إلى الله التي نعنيها، و التي يجب على المسلمين القيام بها هي التي تهدف إلى ما يلي:

1. تأسيس مجتمع إسلامي: كدعوة الرّسل عليهم الصلاة و السلام، التي كانت تبدأ في المجتمع الجاهلي من دعوة

الناس إلى دين الله سبحانه، و تبليغهم وحيه، و تحذيرهم من الإشراك به.

2. دعوة الإصلاح في المجتمعات المسلمة: التي أصيبت بشيء من الإنحراف، و ظهر فيها بعض المنكرات و ضيَّع فيها بعض الواجبات.

3. استمرار الدعوة في المجتمعات القائمة بالحق: للحفاظ على سلامتها بالموعظة الدائمة و التذكير و التزكية و التعليم" (5). فالدعوة لها ثلاثة مستويات و ثلاث مهام حسب هذا التعريف، فهي دعوة مرتبطة بالإسلام إقناعا و إصلاحا و محافظة على المنجزات.

و جاء في كتاب ﴿الدعوة الإسلامية و المعادلة الاجتماعية﴾ لمؤلفه الأستاذ الطيب برغوث، ما يلي:

"موضوع الدعوة إلى الله، هو: واقع الإنسان فردا أو مجتمعا، فالداعي يسعى إلى 'أسلمة' هذا الواقع الإنساني بصورة عميقة و شاملة، تخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله و وحده، و من ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا و الآخرة، و من جور الأديان إلى عدالة الإسلام" (6). مستندا في ذلك إلى مقولة ربيعي بن عامر لما سأله كسرى ملك الفرس عمّن يكونون هؤلاء المسلمين. فالداعي إذن يسعى إلى تغيير واقعه و ما حوله نحو الرّفَع به إلى مستوى تعاليم الإسلام و تجسيدها واقعا، و هي مهمة المسلم الأساسية حتى يتسنى له يوم القيامة أمام الله أن يشهد على واقعه أو لواقعه، فالدعوة و حسب الأستاذ الطيب برغوث هي "تحقيق مقتضيات الشهادة بالقيام بفريضة الدعوة إلى الله التي تنقل حقيقة الإسلام إلى الناس كما هي، شاملة متوازنة متكاملة، معجزة، تأخذ بألباب المدعوين و تتملك نفوسهم، توجّههم إلى المساهمة في تحقيق أهداف الدعوة الإسلامية" (7). إن الدعوة الإسلامية هي مهمة المسلم الأساسية، و بدونها لا معنى لإسلامه الله، "فالنظرة الشمولية العميقة ترينا بجلاء أن مهمة الإنسان المسلم في هذه الدنيا تتلخّص في أمرين أساسيين:

• السعي المستمر لتحقيق العبودية الذاتية لله ربّ العالمين.

• السعي الجادّ لتعبيد الناس جميعا لله ربّ العالمين" (8).

و الدعوة الإسلامية هي عملية التواصل الإسلامي مع الواقع و مع الآخرين لتجسيد الإسلام عمليا حتى يكون الدين كلّهُ لله، فهي بالتعبير القرآني أمر بالمعروف و نهي عن المنكر في قوله تعالى: ﴿و لتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر، و أولئك هم المفلحون﴾ (9). يقول الأستاذ جمعة

أمين عبد العزيز: "نحن ابتداءً ندعو الناس إلى دين الله، ودين الله هو الإسلام، ﴿و من يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه و هو في الآخرة من الخاسرين﴾، الإسلام بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، إسلام الوجه لله في صغير الأمر و كبيره، الإسلام بشموله، و عمومه، بدينه و دولته، بحقيقته و شريعته، بنظامه و أخلاقه، بقيادته و ريادته، بجهادته و عبادته، بديناه و آخرته، بكل ما أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه و على آله و سلم من فعل المأمور، و ترك المحذور، و الصبر على المقدور، مقتفين أثره، متبعين خطاه، سائرين على نهجه متبعين لا مبتدعين، محبتين لله، متميزين برسالاته، محققين لقوله: ﴿فلذلك فادع و استقم كما أمرت و لا تتبع أهواءهم، و قل آمنت بما أنزل الله من كتاب و أمرت لأعدل بينكم، الله ربنا و ربكم، لنا أعمالنا و لكم أعمالكم، لا حجة بيننا و بينكم، الله يجمع بيننا و إليه المصير﴾ (10).

يقول الله تبارك و تعالى: ﴿و كذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا﴾ (11). و الدعوة إلى الإسلام و عرضه على الناس هما السيلان إلى إتاحة القيام بهذه المهمة، مهمة الشهادة يوم القيامة، و "من شروط الشهادة، الحضور في عالم الآخرين، فالغائب عن الأحداث أو الحدث ليس بإمكانه أداء الشهادة على غيره لأن فاقد الشيء لا يعطيه و هذا مما يجبر المسلم -إذا كان يريد تبرئة ذمته من المسؤولية الضخمة الملقاة على عاتقه في الآية السالفة- على الحياة في إتصال و وثيق بأكثر عدد ممكن من الذوات البشرية، و مشاكلها كذلك" (12). إن عملية التواصل مع الواقع و المحيط و الناس تفرض على المسلم ألا يغفل أبداً عن عملية الدعوة، إذ هي السبيل الأوضح إلى تحقيق عبوديته لله، إذ هي مرتبطة بأفعاله فردياً و جماعياً لن تتحقق بمعزل عن تأثيرات الناس سلبياً أو إيجابياً، "فالدعوة إلى الله هي الدعوة لدينه، و إتباع هدايه، و تحكيم منهجه في الأرض، و إفراده تعالى بالوحدانية و العبادة، و الإستعانة به و الطاعة له، و البراء من كل الطواغيت التي تطاع من دون الله، و إحقاق ما أحق الله و إبطال ما أبطل، و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و الجهاد في سبيله سبحانه" (13)، و كل هذه الأعباء لا يستطيع الإنسان المسلم تحمّلها لوحده و بمفرده، بل كثير منها يستحيل تطبيقها إلا في جماعة من الناس، لذلك فالدعوة هي منطلق إبتكار

و تكوين الجماعة التي تتصدى لكل هذه المهام من تحكيم منهج الله في الأرض و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و الجهاد.

و الدعوة هذه التي نقصدها ليست مجرد جهد بشري عشوائي، بل تتطلب فهما لنفسها و فهما لواقعها، و تحركا و اعيا منظما إيجابيا يوازن معادلة مهمة هي الأهداف المرجوة و المرغوبة في مقابل الظروف و الوسائل، يقول الأستاذ الطيب برغوث:

﴿و لعل المؤسف حقاً، هو أن يظل المسلمون يجهلون أو يتجاهلون الجقائق السابقة، فلا يدرسون ميدان الدعوة، و لا يدركون المؤثرات السلبية و الإيجابية فيه، و لا يجددون وسائلهم و أساليبهم و مناهج عملهم، و يصرون على مواجهة النظام بالفوضى و التخطيط بالإرتجال، و الإعداد بالعفوية، و الحركة بالسكون، و العلم بالجهل، و المكر بالغفلة، و العقلانية بالعواطف ... بحجة البساطة، و مخالفة الكافرين، و التوكل على الله و تفويض الأمر له﴾ (14)، فالدعوة علم مستقل بذاته، و فن يتصدى له من كان في ذلك فناً صقل معارفه و سلوكاته و أفكاره و أهدافه و طموحاته و تحركاته حسب منهج يلائم الواقع المحيط به، بحيث يكون عمله فعالاً و مثمراً، فالدعوة علم و فن، تتطلب الفقه و العلم و الحكمة، و نقصد بالحكمة وضع الأمور في أماكنها و إمكانيّة إستغلال الفرصة أو تفويتها و حسن التصرف بإستعمال الذكاء لا الغباء. يقول الأستاذ جمعة أمين: "أصبح على الداعي مهمة جليلة هي معرفة أساليب الإقناع و طرقه و مناهجه المختلفة مثل:

1. حسن العرض

2. جمال الأسلوب

3. الترغيب في الحق

4. إستعمال الحكمة و الموعدة الحسنة

5. المجادلة بالتي هي أحسن

6. مراعاة مقتضى الحال

7. إستخدام أفضل وسائل الإعلام و منجزات العصر.

و من هنا كان لابدَ للداعي أن يكون عليماً بما يقول، حكيماً بما يدعو" (15).

هذا فيما يتعلق بفقهاء الأساليب و الطّرق، و لكن الأمر يستوجب فقهاً آخرًا هو علم إختيار الوسيلة المناسبة أو عدم إختيارها، الشئ الذي يرتبط بالواقع أصلاً و مدى فقه الداعية له و لتقلباته و ترصد ردود أفعاله بما له من معلومات عن طبائع الناس و همومهم و أفكارهم و توقعهم الثقافي، و هو ما يعبر عنه البعض بالسنن، إذ يقول الأستاذ الطيب برغوث: ﴿فمن تأمل الوصف الشامل لرسول الله صلى الله عليه و سلم، أدرك السرّ من نجاحه في دعوته و تجاوزه لتلك العقبات و الحواجز الضخمة، التي كانت تقوم في (طريق) دعوته. و لولا إستيعابه الفدّ لدعوته و واقع بيئته نظرياً و عملياً، لما أحدث تلك التحولات الجذرية في المجتمع الجاهلي يومئذ، و هو ما يُطالب به المسلمون في كل زمان و مكان لأداء المهمة بكفاءة كما أداها عليه الصلاة والسلام. و ذلك يتطلب فقهاً عميقاً في علم الدعوة إلى الله على ضوء:

- فهم النفس البشرية

- و فهم السنن الإجتماعية

- و معرفة أحكام الشريعة و مقاصدها ﴿(16)﴾.

و لعل أقرب تعريف إلى فهمي الشخصي لهذه الدعوة، التعريف الذي أخذته في الجامعة عن أستاذي الطيب برغوث، و لا أعلم أين ضمنه من خلال كتاباته المختلفة، بل تلقيته عنه مشافهةً، و لكنني سأسرده دون أن أضبط المرجع الذي تتطلبه مثل هذه الدراسات التي بين أيدينا، عملاً بقول أحد كبار المفكرين (17) الذي أعلن قائلاً: "غايي أن أصل إلى الحقيقة و أعرفها، و لا أتمسك في ذلك بكوني ممن أخذتها، فما دمت وصلت إلى إدراك الحقيقة و أيقنتُ بها فلا حاجة لي إلى قائلها فهو ليس وحده الممتلك لها"، فهذا التعريف أهضمه حتى أصبح جزء من أفكاري، يقول الأستاذ الطيب برغوث: "الدعوة هي ذلك الجهد النهجي المنظم الهادف إلى:

• تعريف الناس بحقيقة الإسلام،

• والعمل على إحداث تغيير جذري شامل متوازن في حياتهم على طريق الوفاء بواجبات الإستخلاف

إبتغاء مرضاة الله تعالى و الفوز بما أذخره لعباده الصالحين في عالم الآخرة".

فالتعريف السابق يشمل جوانب التعريف و التبليغ و الإنجاز حسب منهج و نظام في إطار الإحساس بمسؤولية الشهادة على الناس لكونها من واجبات الإستخلاف، فالمنهج هو جملة الكيفيات العملية المنظمة التي يُعرض بها الإسلام أو يُرفع بها مستوى تعلق الناس بدينهم نحو النموذج الأمثل لتقديم القدوة في العالم. و الأمر الثاني الملفت للنظر في التعريف قضية التغيير الجذري الشامل و المتوازن، فالدعوة الإسلامية تهدف إلى تغيير الكلّ إذا حادوا عن الحقّ. و الأصل، و إلى تعبيد كلّ الناس لله، كل في موقعه الإجتماعي، فالدعوة عمل شامل لا يمسّ جانباً من المجتمع دون جانب، إذ يقول أيضاً الأستاذ الطيب برغوث: ﴿أخطر مشكلة واجهت الدعوة الإسلامية خلال تاريخها الطويل هي انفصال الرعاة عن الدعاة، و إستقلال كلّ منهما بناحية من نواحي الحياة الإسلامية، في الوقت الذي كان يجب فيه أن يلتحم الطرفان، كما كان ذلك زمن النبوة، و الخلفاء الراشدين﴾ (18).

و الشخصية التي نحن بصدد دراستها و تسليط بعض الأضواء على أعمالها، قد إجمعت فيها صفات الراعي و صفات الداعي، فقد مزج مولود قاسم بين هذين الميدانين، أو بطريقة أخرى إستطاع أن يلحم الراعي مع الداعي طوال عمله في مختلف الوزارات و المراكز القريبة من القرار، و أراد أن يوجّه عمل الراعي بطموحات الداعية، إذ كان عمله ينصبّ على محاولة إيجاد نموذج حضاري إسلامي جديد حسب ظروف واقعه و ما أتبع في يديه من وسائل، "فالداعي إلى الله هو الذي يحاول دعوة الناس بالقول و العمل إلى الإسلام و إلى تطبيق منهجه و اعتناق عقيدته و تنفيذ شريعته" (19)، و بهذا فإن مولود قاسم نابت بلقاسم يُعتبر داعية، يشهد على ذلك عمله الدؤوب من أجل الفكر الإسلامي و نشر الدين و تقوية إرتباط الجزائريين به، من موقع وجوده، وزيراً أو مستشاراً أو مفكراً أو حتى مواطناً. و لعلّه -وحسب رأبي- أكبر داعية أو مفكر كان له التأثير الفعّال في عملية التغيير و الدعوة و الإصلاح في جزائر الإستقلال إلى يومنا هذا، لكونه داعية وصل إلى بعض مراكز

القرار أو القرية منه، يقول الأستاذ الطيب برغوث عن مساوي إبتعاد الدعاة عن الرعاة: ﴿هذه الأوضاع الجديدة كان لها تأثير قويّ و معاكس في حياة "الدعاة و العلماء" الذين أخذوا يبتعدون شيئاً فشيئاً عن "الرعاة"، و يستقلّون بالشؤون الفكرية و التربوية و العلمية، و هي ناحية خطيرة دون شك، لكنها تنمو و تتحرّك تحت رقابة و إشراف و رحمة الناحية التنفيذية﴾ (20)، و لعلّ التجارب أثبتت أنّ تغيير الشعوب فعّال جداً لما يأتي التأثير من فوق، و أنّه بطيئاً لما يأتي من القاعدة، لا حول له و لا قوة، و لا وسائل ناجعة و واسعة لفرض نفسه، فيصطدم دائماً بالناحية التي تتولى رعاية المجتمع مهما ما يصل إليه من إستقطاب. فالدعوة التي نقصدها هنا هي دعوة إسلامية، إسلامية الموضوع، إسلامية الهدف، حكيمة المنهج، و إسلامية الوسيلة، ترمي إلى دعوة الناس إلى الحقّ، أو تصويب طريقهم إلى الحقّ، أو ضمان بقائهم على الحقّ وذلك بالوسيلة الناجعة و الفعّالة، و بالمنهج الملائم لتموّعهم في خارطة القرب أو البعد عن الحقّ.

2- مفهوم البعد: لقد عنواننا هذه الدراسة "البعد الدعوي في أعمال مولود قاسم نايت بلقاسم" الشيء الذي يستدعي منا التطرّق إلى مفهوم البعد حتى نضبط الموضوع و ما نريد أن نصل إلى كشفه من خلاله، جاء في المعجم العربي الأساسي لمؤسسة "لاروس"، ما يلي: "البعد: أ- مصدر بعُد و بعُد ب- جمعه أبعاد (سيكولوجيا): أبعاد الشعور: سمات هي مظاهر عملياته من شدة أو ضعف أو غموض، و طول أو قصر. ج- (في الهندسة): ما بين نهايات الجسم و هو من حيث الوضع طول و عرض و عمق، ثلاثي الأبعاد: له ثلاثة أبعاد طول و عرض و عمق.

د- إمتداد موهوم غير محسوس كالبعد الثقافي و البعد العلمي و البعد الحضاري 'لا بد من تغطية كل أعمال عملية التدريس الأكاديمية و التربوية و المهنية' (21).

و ما يهمنا من التعريف هو الشرح الرابع من الكلمة أي الإمتداد الموهوم غير المحسوس المضاف إلى مجال من مجالات المعرفة أو الثقافة أو الفن، و هنا نحن أضفنا البعد إلى الدعوة، أي أننا نريد أن نبرز الجهود الدعوي و امتداداته في بعض أعمال المرحوم مولود قاسم، و كيف بنى دعوته و كفاحه طول قرابة ثلاثين سنة من أجل

تعريف الناس بحقيقة الإسلام والعمل على إحداث تغيير جذري شامل و متوازن في حياتهم. ويشهد المقربون منه انه ما أفنى حياته سوى من اجل العمل لبلوغ هذا الهدف، فسخر قلمه ووقته وصوته و شغله تحقيقاً لأفكاره. ونحن نتطرق الى بعض أعمال الفقيه و بعض آرائه و أفكاره، و نبحث فيها عن الصبغة الدعوية، و نصيحتها في قالب الجهود الحضاري المتواصل منذ أكثر من قرنين لإعادة الأمة الإسلامية الى مسار سكة التآلق الحضاري في فجر الإسلام، أي في قالب عملية الإصلاح أو النهضة كما يحلو للكثير تسميتها.

إن الجهود توالى و تابعت من قبل المفكرين و العلماء، علّمهم يصلون إلى إيقاظ الأمة من سباتها و تماوتها، و كلُّ بذل جهده حسب ما رآه ملائماً لوضع واقعه و محيطه، منهم من أسس حركات و جماعات، و منهم من نشر علمه، و منهم من كثر من أسفاره ناشراً الوعي، و منهم من خاض غمار السياسة و حاول الإشتراك في صنع أقدار الأمة، عساه أن يبعد و يدرك المفسدة و يجلب المصلحة. و أعمال مولود قاسم نابت بلقاسم تدخل ضمن هذا الجهد الرامي إلى إصلاح ما فسد في الحركة الحضارية الإسلامية، و إلى ترقية ما هو صالح محافظ عليه و ضمان الدوام له، فهي إذن -وبهذا الشكل- أعمال دعوية مادامت الدعوة يبنى موضوعها و إهتمامها في العصر الحديث على هذه المهمة، مهمة الإصلاح و إعادة الأمة الإسلامية إلى سيادتها.

إن هذا البحث المقدم يأتي لتأكيد هذه الفكرة المسبقة عن الصبغة الدعوية لأعمال مولود قاسم و توضيحها، و تجلية بعض معالم العمل الدعوي و مرتكزاته عند الفقيه مولود قاسم، و كيف إنضبط بها و مشى على مسارها خلال كل مجهوده الحضاري إلى أن فارق الحياة و هو يكافح لأجل إبتكار و تجسيد نموذج راق للحضارة الإسلامية، أو على الأقل المحافظة على ما تبقى من النموذج السابق الذي وجد نفسه أنه يعيش هو و مجتمعه على أطلاله، تزصده المخاطر من الداخل و الخارج، يعاني من الفسخ و النسخ و المسخ، فحارب كل ذلك و دعا إلى اليقظة و النهوض بالنفس نحو الإبداع الحضاري و صنع إسم و مكان بين أمم الدنيا، و تفانى من أجل البقاء الثقافي و الحضاري في حالة ما إذا لم يكتب مجتمعه الفتي حياة الإبداع الحضاري التي لا تتاح سوى للشعوب الراغبة و المريدة.

إننا نستطيع أن نعنون البحث، من خلال الشرح الذي قدّمناه بالعنوان التالي: ﴿الإمتداد أو الصبغة الدعوية في أعمال مولود قاسم نابت بلقاسم﴾، و بذلك يتضح جلياً ما نرمي إلى تحقيقه من وراء هذه الدراسة، و هو

إبراز صفة الداعية في شخصية مولود قاسم، وإبراز صفة الدعوة على عمله و جهده الفكري و الوزاري و القومي و الوطني و الحضاري. إذ كان كل ذلك مقولبا بتعاليم الإسلام و هادفا إلى إعادة العزة للإسلام و تعاليمه و لغته و أمته، و لكنه فعل ذلك بأسلوبه الخاص و المتميز، فأبدع و أتقن و أدهش العدو قبل الصديق، و أسس ربّما لمدرسة فكرية و دعوية تجد يوما ما الحياة إذا ما إهتمّ الباحثون بها و وفّوها حقّها من الدراسة و التمحيص.

أمة الأمير
عبد القادر للعلوم الإسلامية

الهوامش:

- (1) "لاروس"، المعجم العربي الأساسي، تحت إشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ALESCO)، (1989، مادة: دع و، ص 453).
- (2) المصدر السابق: مادة: دع و، ص 452.
- (3) نفس المصدر، مادة: دع و، ص 452.
- (4) جمعة أمين عبد العزيز، ﴿الدعوة قواعد و أصول﴾، دار الصديقية للنشر (الطبعة الثانية، الجزائر 1989)، ص 13-14 يتصرف.
- (5) جمعة أمين عبد العزيز، المصدر السابق، ص 16.
- (6) الطيب برغوث، ﴿الدعوة الإسلامية و المعادلة الإجتماعية﴾، ص 24.
- (7) الطيب برغوث، المصدر السابق، ص 16.
- (8) المصدر السابق، ص 9.
- (9) القرآن الكريم، ﴿آل عمران، 104﴾.
- (10) جمعة أمين عبد العزيز، مصدر سابق، ص 28.
- (11) القرآن الكريم، ﴿البقرة، 143﴾.
- (12) الطيب برغوث، مصدر سابق، ص 11.
- (13) جمعة أمين عبد العزيز، مصدر سابق، ص 39-40.
- (14) الطيب برغوث، مصدر سابق، ص 29.
- (15) جمعة أمين عبد العزيز، مصدر سابق، ص 26.
- (16) الطيب برغوث، مصدر سابق، ص 36.
- (17) مالك بن نبي - رحمه الله -.
- (18) الطيب برغوث، مصدر سابق، ص 52.
- (19) جمعة أمين عبد العزيز، مصدر سابق، ص 14-15.
- (20) الطيب برغوث، مصدر سابق، ص 53.
- (21) "لاروس" المعجم العربي الأساسي، مصدر سابق، مادة: دع و، ص 165.

المباني الأول

جامعة الأمير
علاء الدين
العلوم الإسلامية

الباب الأول:

المرتکز الفکری

لمولود قاسم نایت بلقاسم

الفصل الأول: ترجمة حياة مولود قاسم نایت بلقاسم

الفصل الثاني: موجّهات الفكر الدّعوي عند مولود قاسم

الفصل الثالث: الهويّة قلبا و منطقا للدّعوة عند مولود قاسم

أفردنا بابا كاملا لهذا الجزء الهام و هو المرتكز الفكري، لنبين و نوضّح معالم مدرسة مولود قاسم نايت بلقاسم الفكرية و الدعوية و الحضارية، و كيف كان يرى قيام البناء الحضاري الذي ينشده من خلال مرتكزات و أسس و دعائم يقف عليها النموذج الذي رسمه مولود قاسم في عقله لجمعه و دولته.

إن هذا الباب توطئة نظرية للباب الذي يأتي من بعده و هو الكفاح الدعوي لمولود قاسم نايت بلقاسم، و لا معنى للباب الثاني بعيدا عن محتوى الباب الأول الذي يحوي المدرسة الفلسفية و الفكرية لمولود قاسم و أهم أعمدها، و الرؤية الفكرية التي تُنبئ عن توجهات مولود قاسم الحضارية و كيفية تشخيصه للواقع و محاولته إيجاد الدواء له إنطلاقا من إجهاداته الذاتية النابعة -طبعاً- عن تأثراته المختلفة بمختلف المدارس الفكرية و الإصلاحية و الفلسفية.

لذلك فنحن نقسم هذا الباب - لنؤفيه حقه و لنبرز هذا الجانب النظري من جهود مولود قاسم - إلى ثلاثة فصول هي:

• الفصل الأول: ﴿ترجمة حياة مولود قاسم نايت بلقاسم﴾، و فيه إبراز معالم هذه الشخصية، و تأثيراتها

و بعض ميزاتها.

• الفصل الثاني: ﴿موجهات الفكر الدعوي عند مولود قاسم﴾، و فيه إبراز لأهم العوامل و الأفكار

و الإبداعات الذاتية التي تميّز فكر مولود قاسم عن فكر غيره، و إبراز الأرضية الفكرية و الفلسفية التي يرسي عليها مجهوداته الدعوية و الحضارية.

• الفصل الثالث: ﴿الهوية قالبا و منطلقا للدعوة عند مولود قاسم﴾، و فيه إبراز لتأطير مولود قاسم

لمدرسته الفكرية و الدعوية بالهوية الجزائرية بحكم الجغرافية، و بحكم الممارسة، و بحكم الواقع المفروض عليه ليطبق فيه مدرسته الدعوية.

والله المستعان

ترجمة حياة مولود قاسم نایت بلقاسم

- مولده و تعليمه
- إنتقاله إلى تونس
- سجنه و محاكمته
- في تونس
- هجرته إلى مصر
- إنتقاله إلى باريس
- مغادرته لباريس
- تنقله بين بلدان أوروبا
- بعد إسترجاع الإستقلال
- مؤلفاته
- ميقاته

بسم الله الرحمن الرحيم

مولود قاسم نایت بلقاسم (ترجمة)

أ- مولده و تعليمه:

هو مولود بن محمد أوسعيد نایت بلقاسم، و الإسم المستعار قاسم (1)، من مواليد 06 جانفي -يناير- 1927 في

قرية بلعيال، دوار بوني، بلدية آقبو، إحدى ضواحي بجاية.

تلقى سورا من القرآن الكريم و مبادئ القراءة و الكتابة على الشيخين محمد أمقران شقار و محمد آقسوح، ثم التحق بزاوية تاموقرة، فأكمل حفظ القرآن و درس بعض مبادئ القواعد و الدين(2)، و قد كان نابغة منذ نعومة أظفاره، "إذ كان المعلم يضرب الجميع إلا مولود فإنه لا يضربه، و كان والده يوصي بأن يوقف عن القراءة عندما يعود إلى البيت، كان يقول لهم: إنني أخاف عليه من كثرة القراءة"(3)، لينتقل منها إلى مدرسة قلعة بني عباس العصرية، التي تشرف عليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فدرس على المرّبي الكبير الأستاذ المرحوم الشيخ محمد وعمر جلواح عليه رحمة الله، و قد أعدّه تلك الدروس العصرية المفيدة إلى الإلتحاق بالكلية الزيتونية(4).

كان شديد الإرتباط بأرضه و مسقط رأسه، و أثرت فيه طفولته أيّما تأثير، إذ كانت و لطوال حياته تمثل جذوره، فكان مغرما بقريته، إذ يحكي عنه الأستاذ محمد صالح الصديق فيقول: «حدثني الأستاذ محمد نسيب و قال: رافقت الأخ مولود يوما إلى قريته -و كثيرا ما أرافقه إليها- و يقول عنها في إعتراز أنها القرية التي ولدت فيها، و ترعرعت في أحضانها، و شربت من ينابيعها الصافية، و طبعني بطابعها !! و تركت في بصماتها التي لا تمحوها الأيام - فأمضينا فيها ثلاثة أيام، بين البيت و الحقل، لا يفتأ خلالها يحدثني عن طفولته البريئة، و كيف كان يجمع الزيتون و يجني العنب و الرمان، و يحدثني عن كل شجرة أو نبتة نقف عندها و يقول: "يجب على الإنسان أن يمتن إرتباطه بأرضه و بكل شجرة من

أشجارها، و بكل حجرة من أحجارها، فالذي ينفصل عن أرضه ريشة في الهواء، أو نبتة بلا عروق، أو موجود بلا وجود" (5).

ب- إنتقاله إلى تونس:

في تونس، إلتحق بالزيتونة سنة 1946، و هناك وَّزَع جهوده بين الدراسة و السياسة، فكان الطالب الناجح دائما لذكائه الخارق و حافظته القوية مع أن أغلب أوقاته يقضيها بين الدراسة و النضال السياسي بما يتطلب من التنظيم و مطالعة الكتب التاريخية و الصحف السياسية ذات الإتجاهات المختلفة(6). فهو يقول في حوار أجري له مع جريدة "الجمهورية": «درست العربية في مسجد القرية، حيث بدأت بحفظ القرآن، و في المدرسة الإبتدائية الفرنسية و واصلت تعلّمي بالمدارس المحلية التقليدية حيث أكملت حفظ القرآن، و بمدرسة الزبية و التعليم بقرية آيت عباس، لأخذ مبادئ واسعة في العربية و الفقه، ثم سافرت إلى تونس في يناير سنة 1946، لمواصلة الدراسة بجامعة الزيتونة، و أذكر أنني قطعت الحدود بين تبسة و تالة في تونس ليلا على البغال مع تجار السوق السوداء، و في الزيتونة كنت أحد المسؤولين الستة على إتحاد حزب الشعب الجزائري للطلبة، و ذلك حتى يوليو 1949» (8).

ت- سجنه و محاكمته:

عاد إلى مسقط رأسه أثناء العطلة الصيفية سنة 1947 و كانت أحداث 8 ماي شديدة الوقع دامية الجراح، فأخذ يتصل بالناس و يتحدث عن مجازر سطيف و عموشة أحداث مؤثرة فبلّغ به (القايد) و ألقى عليه القبض فحوكم في بجاية و أدين بعشر سنوات سجننا و خمسمائة ألف فرنك غرامة... و هنا ينبغي أن نشير إلى موقف أبيه الذي يرجع إليه الفضل في إبراز عصاميته و عبقريته بفضل تشجيعه له و وقوفه إلى جانبه... لقد كلّف محامين للدفاع

عنه إلى جانب محاميين كلفهما حزب الشعب الجزائري الذي كان المرحوم من أبرز مناضليه... فاستؤنف الحكم
و حصل على البراءة من المحكمة العليا في الجزائر. (9)

و عند محاكمته حضر كل طلبة المنطقة إلى جانب أسرته للإستماع إلى نتيجة الحكم... فكان الإفراج عنه...
فاستحالت الجلسة إلى فرحة و إستبشار و إتجهنا بعمية والده رحمه الله إلى المقهى القريب لتناول القهوة و الشاي
تعبيرا عن الفرحة بالنجاة، و من هنا بدأت خطواته تدخل المجال السياسي بصورة فعالة، و قد يكون هذا الإعتقال
المبكر من الأسباب المشجعة على مواصلة التّرب بكل ثقة و إقتدار (10).

ث- في تونس:

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله -المؤرخ المعروف- : ﴿أول ما رأيت سي مولود كان بتونس حوالي
سنة 1948 حين ذهبت، و أنا اليافع العزيز القادم من إحدى واحات الصحراء، إلى مقر جمعية الطلبة
الجزائريين لاستخراج بطاقة العضوية، و لم نتعارف عندئذ، فقد كان هو في مكتب شؤون الطلبة مع
أحد زملائه، فقضيت حاجتي و انصرفت، ولكن صورته لم تفارقني أبدا؛ شاب متحمس ينبض
حيوية، على خلاف بعض تلاميذ الزوايا إذا تجلببوا و اعتراهم الكسل في المظهر و المخير (11)، فكان
فارسا في كل النشاطات إلى جانب تحصيل العلم، إذ يقول عنه الأستاذ محمد الشريف بن شيخ -
أحد أصدقائه-: "و مما يجدر ذكره في هذه المناسبة أنّ الأخ 'مولود قاسم' كان معروفا بحيويته
الفائقة التي ما كانت تعرف التّراخي و لا الكلل، كما أنّه كان معروفا بذكائه الوقّاد في دروسه، و في
مناقشاته، و كان يجمع بين طلب العلم و التّفغل في عالم السياسة، و كنت لا تجده إلاّ في حلقات
الدّرس، أو في مطالعة الكتب، أو في النّشاط الحزبي الذي كان أحد فرسانه" (12).

إنه كان وبالرغم من صغر سنه يشتغل بأمور عظيمة، إذ كان من أهم إنشغالاته الميدان السياسي و الميدان الحضاري اللذان كان يتكلم فيهما غالبا، إذ يقول عنه الأستاذ محمد الصالح الصديق: ﴿واعتدنا في فترة لم تدم طويلا أن نجتمع مساء كل يوم ههنا للتمرّن على الخطابة، مكتوبة ومرتجلة. و كان كل واحد منا يكتب في موضوع يختاره أو يعدّ عناصر لكلمة يرتجلها، فكان منا من يتحدّث في الدّين، و منا من يتحدّث في الأخلاق، و منا من يختار بيتا شعريا في الحكمة، إلّا الأخ الراحل مولود قاسم فكان يتحدّث في النّقد أو السياسة أو في التّنديد بتأخّر المسلمين مع أنّهم يدينون بأفضل الأديان و أرقاها﴾!! (13).

ج - هجرته إلى مصر:

بعد أن تحصل على شهادة الجامعة الزيتونية في تونس سنة 1949، ذهب إلى فرنسا حيث كان والده عاملا، فوجّهه إلى مصر على حسابه الخاص، فالتحق بكلية الآداب بجامعة القاهرة حيث تحصل على الليسانس في الفلسفة، و من أساتذته هناك الدكتور علي عبد الواحد وافي، و الدكتور عثمان أمين رحمهما الله، و كان الإعجاب و المحبة متبادلين بين الطالب و أستاذه. (14) و هو بنفسه يقول عن هذه الفترة:

﴿ثم إنتقلت إلى باريس حيث أمضيت بضعة شهور بمعهد اللغات الشرقية بباريس لأتعرّف على مناهج المستشرقين، و كنت أشتغل في نفس الوقت بمكتبنا الدائم لإتحادية حركة إنتصار الحريات الديمقراطية، مع إخوان منهم محمد يزيد و الدكتور شوقي مصطفى و بلقاسم راجف و المرحومين محمد خيضر و عابد فيلاي (الخفيف)، و في فبراير سنة 1950 إستدعيت إلى القاهرة من طرف الأستاذ الشاذلي المكّي، ممثّل حزب الشعب الجزائري إذ ذاك بالقاهرة في إطار لجنة تحرير المغرب العربي، إستدعيت لدراسة الطيران العسكري بالعراق، و لكن، أثناء تلك المدة حصل خلاف بين البلدين مصر و العراق و قطعت العلاقات الدبلوماسية بينهما، و عوضا عن أن أدرس

الطيران، الذي إنتقلت من أجله من باريس إلى المشرق العربي، إنتحقت بكلية الآداب -جامعة القاهرة حاليا- لأدرس الفلسفة... و ما كنت أدري إن كنت سأصلح طيارا، و لكني غادرت باريس بهذا القصد، و حصلت على الليسانس في الفلسفة في يوليو 1954 بدرجة إمتياز، و اسمحوا لي ألا أكون هنا متواضعا و أقول أنني كنت الأول في الدفعة... و كنت الجزائري الوحيد في القسم مع إخوان مصريين و لبنانيين. و كنت في نفس الوقت أساعد الإخوان في مكتبنا بالقاهرة، أنا و الأخ المرحوم قاسم زدور إبراهيم بن المرحوم الشيخ الطيب المهاجي، من وهران، الذي إغتاله الإستعمار... ﴿(15)﴾.

و في كلية الآداب بجامعة القاهرة، نبغ أيضا في ميدان تخصصه، إذ يقول عنه الدكتور أحمد بن نعمان: ﴿إنه على الرغم من حبه الشديد للعلم كما يشهد الجميع، و الطموح المشروع و الخلق به لنيل الصدارة فيه و اعتلاء كرسيه، و قد كان بحق مؤهلا تأهيلا فائقا في مدارج التحصيل سواء في جامعة الزيتونة (الأول على دفعته 1949) أو في جامعة القاهرة (الأول على دفعته أيضا) في تخرجه بامتياز من قسم الفلسفة سنة 1954!! لكن رغم هذا التفوق الباهر و الطموح الشخصي الشديد... نجده، و من أجل الجزائر، يزهده في مناقشة الدكتوراه في الصربون و في ألمانيا ثم هنا في الجزائر بعد ذلك، و هذا كله من أجل الجزائر وحدها !! ﴿(16)﴾.

ح - إنتقاله إلى باريس:

بعد أن تخرّج من جامعة القاهرة بليسانس في الفلسفة، و الأول في دفعته، سنة 1954، "عاد إلى الوطن و قد آله إنقسام حزب الشعب كل الأمم، و لكنه لم يياس، فإخنة عنده تولّد الهمة، ثم عاد إلى مصر أثناء سنة 1954 ... و ما إن إندلعت الثورة حتى كان بين الملبين لنداء الجبهة المنضمّين إلى صفوفها بإيمان عميق و عزم بالنّار" (17).

بعد ذلك إنتقل إلى فرنسا، العاصمة باريس بالتحديد حيث سجل بجامعة (السربون) سنة 1954 رسالة لنيل دكتوراه الدولة تحت عنوان ﴿الحرية عند المعتزلة﴾، و لكنه لم يستطع إنهاء الرسالة، نظرا لضيق الوقت و لأدائه واجبه في إطار جبهة التحرير الوطني إذ إندلعت الحرب بأسابيع قليلة بعد ذلك، و كان يشتغل في الوقت نفسه لسدّ حاجيات المعيشة بسفارة العراق آنذاك، إلى أن أعلن الإضراب بتكليف من الجبهة(18).

خ- مغادرته لباريس:

ثم يروي لنا تفاصيل حياته بعد ذلك، و كيف إضطر لمغادرة باريس نحو براغ بتشيكوسلوفاكيا ثم بون بألمانيا الغربية -سابقا- فيقول: ﴿بعد الهجوم الثلاثي الفرنسي الإنجليزي الصهيوني على بورسعيد، و قطع العلاقات الدبلوماسية بين العراق و جميع الدول العربية من جهة، و فرنسا من جهة أخرى، ألح عليّ الإخوان في الجبهة أن أعاد فرانس حتى لا يلقى عليّ القبض، و أعطيت منحة لدراسة الفلسفة في براغ حيث أقمت بضعة أشهر فقط من ديسمبر 1956 حتى مارس 1957 إذ لم أتمكن من دراسة الفلسفة هناك لعدم تدريسها بالطريقة المعروفة حيث أن الدراسة الفلسفية الوحيدة الفريدة هناك هي الماركسية، فقررت أن أنتقل من براغ في مارس 1957 إلى ألمانيا الغربية، حيث إضطرت أن أصارع الحياة مدة شهرين إلى أن إستقرّ بيّ المقام بمكتب جامعة الدول العربية في بون، حيث كنت أشتغل نصف النهار و أدرس في جامعة بون لتحضير دكتوراه في الفلسفة حول مبدأ الحرية عند كنت، و أقوم في الوقت نفسه بنشاط الجبهة لأتصل بها و ألقى المحاضرات...﴾ (19).

و قد أصيب بإبتلاء عظيم -و هو الشغوف للهوف لتحصيل العلم و الشهادات- أنه لم يوفق لإكمال دراسته العليا لنيل الشهادات الجامعية الكبرى، بالرغم من نبوغه و تمكّنه في ميدان العلم، مما ترك في نفسه عقدة أراد أن يتجاوزها و يتغلب عليها طوال حياته بعد ذلك - كما يتكلم عنه من يعرفه-، إذ يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: ﴿و من هذه التفاصيل أن السي مولود لم يكمل دراسته العليا، لماذا؟، ذلك أمر لم يتحدث عنه

هو و لم نعرفه من خلال نشاطه الآخر، هل لعدم إستقراره في جامعة واحدة خلال مرحلة الثورة ؟ هل تغلبت عليه الأنشطة السياسية و الطموح السياسي الذي أوصله إلى العمل في السلك الدبلوماسي و التوزر و نحو ذلك ؟. يبدو لي أن هناك منرجا في حياته لم يكشف عنه بعد، و أقول "منرجا" لأنه ترك نوعا من القلق في شخصية سي مولود تحسّ به عندما يخالط حملة الشهادات العليا أو يتحدث عنهم. كما يظهر من محاولاته اللاحقة لتدارك ذلك (20). و يقول عنه الأستاذ سليم شيخاوي في نفس الموضوع ساردا مواضع دكتوراه الدولة التي أراد مولود قاسم مناقشتها: ﴿و مولود قاسم قبل أن يكون محدثا بارعا و محاضرا متمكنا و باحثا مستقصيا، كان طالبا مجتهدا في مطلع شبابه، حيث حصل على الليسانس في الفلسفة بدرجة إمتياز من جامعة القاهرة حاليا عام 1954، و سجّل لشهادة دكتوراه الدولة ثلاث مرات في مواضع مختلفة:

- 1- "الحرية عند المعتزلة" في جامعة الصربون بباريس تحت إشراف البروفيسور موريس دي قندياك MAURICE DE GANDILLAC في أكتوبر 1954، و لم يتم ذلك بسبب إضراب ماي 1956.
- 2- "مبدأ الحرية عند كانط" في جامعة (بون بألمانيا الغربية) عام 1957، مع الأستاذ البروفيسور توسن DR. TYSSEN و قد شغلته مهمة نائب رئيس الوفد الدائم لمكتب التنسيق و التنفيذ، و الحكومة المؤقتة، عن مواصلة إنجاز البحث.
- 3- "اللغة و الشخصية عند فخته" في جامعة الصربون الأصلية مع الأستاذ موريس دي قندياك في عام 1973، إذ كان وزيرا للتعليم الأصلي و الشؤون الدينية، فلم يتمكن مع مهمته هذه من إنجازها (21).

يعين من مواضع الدكتوراه التي إختارها، أنه متأثر ببعض الشخصيات و المذاهب الفكرية و الفلسفية، مثل المعتزلة، و كنت، و فخته، "كما كان معجبا بالأديب الكبير مصطفى صادق الرفاعي، مغرما بكتبه إلى حدّ

المهام" (22)، الشيء الذي يشكل محطات فكرية هامة في حياته كان لها وقعها على مجهوده الفكري و الحضاري فيما بعد. كما كان يطرب لشعر رفيقه مفدي زكريا، و لسمفونيات بيتهوفن الموسيقار العالمي الكبير، و قد كان صاحب فكرة "إلياذة الجزائر" التي جسدها مفدي زكريا رحمه الله في الف بيت عن تاريخ و أمجاد الجزائر.

د - تنقله بين بلدان أوروبا:

بعد أن أصبح يشتغل بمكتب جامعة الدول العربية في بون، و يدرس في بون لتحضير شهادة الدكتوراه في الفلسفة، كُلف أيضا بمهام أخرى تختص بواجبه الثوري و الوطني لحساب جبهة التحرير الوطني، إذ يقول هو بنفسه عن هذه المهام: ﴿عُيِّنْت هناك نائبا لرئيس الوفد الدائم ببون المكلف ببلدان ألمانيا و النمسا و هولندا من مارس 1958 إلى مايو 1961، ثم استُدعيت مع رئيس الوفد إلى جنيف من وفدنا المتفاوض في إيفيان حيث كُلفت ببعض الأبحاث التاريخية عن حدودنا الجنوبية من طرف الأخوين المرحوم بلقاسم كريم و سعد دحلب﴾ (23). فعين على رأس ممثلية الثورة الجزائرية في أوروبا متنقلا بين سويسرا و ألمانيا و بعض الدول الإسكندنافية، فلفت نشاطه الأعين إليه، و سعت فرنسا ضده في ألمانيا فألقي عليه القبض مع الأستاذ حفيظ كرمان و طُردا من ألمانيا... بعد إيقاف دام ثلاثة أشهر و ذلك سنة 1961 و كان بين المكلفين بالتفاوض مع الأعداء في المحاولة الأولى (24). "و لقد أنقذ الموقف و أنقذ الوفد الوطني المتفاوض من مكائد العدو و شراكه الخبيثة، و مناوراته الماكرة و مؤامراته الدنيئة ضدّ المتفاوض الجزائري القادم من الجبل، و الذي وجد نفسه وجها لوجه أمام تعالِب و جنرالات الحلف الأطلسي المتخرجين من "سانسير" و غيرها من المدارس العليا" (29)... ثم يقول:

﴿ثم إنتقلت من هناك في ديسمبر 1961 لنفس المسؤولية التي كانت لي في بون إلى إستوكهولم للبلدان الإسكندنافية الخمسة: السويد، النرويج، الدنمارك، فنلندا، و إسلندا، أي نائبا لرئيس الوفد الدائم الإقامة بالسويد إلى أن إسترجعنا الإستقلال في 1962 حيث أمرنا بالدخول فدخلت و فود الجبهة الممثلة للحكومة المؤقتة في الخارج و ألحقنا بوزارة الشؤون الخارجية﴾ (26).

ذ - بعد استرجاع الإستقلال:

عاد إلى الوطن بنفس منتشية و همة لا تعرف الملل ليكون على رأس إدارة الشؤون السياسية بوزارة الشؤون الخارجية، ثم مستشارا سياسيا في الرئاسة(27). و قد شغل منصب المستشار السياسي لدى الرئاسة لمدة أكثر من أربع سنوات، من أبريل 1966 إلى يونيو 1970.

بعد ذلك عيّن وزيرا للتعليم الأصلي و الشؤون الدينية في يونيو 1970، أين قضى قرابة سبع سنوات مليئة بالمشاريع الحضارية المصرية - حيث كان يسجل بصماته على كل عمل من أعمال الدولة و تطوراتها في إخلاص و تفان. "لقد وجد هذه الوزارة شبه إدارة في وزارة، فنفخ فيها من روحه ووصل بها إلى مستوى عاد على الإسلام و لغة القرآن بنتائج ما كانت لتصدّق لولا أنها تجسّدت واقعا ملموسا في:

أ. توسيع مهام ملتقيات الفكر الإسلامي التي أصبحت مجالا واسعا للدراسات الإسلامية الرفيعة، و منتدَى علميا يجمع علماء الإسلام في مختلف الأقطار، و قد صدرت عنه عشرات المجلدات في مختلف الموضوعات زيادة على مجلة الأصالة للدراسات الفكرية و التاريخية و الأدبية.

ب. تطوير المعاهد الدينية التي بلغت قمة النجاح و برهنت عن عظمة لغة القرآن و قدرة رجالها، و ذلك بالنتائج الباهرة في إمتحانات البكالوريا، إلا أن ردّ فعل أعداء الإسلام و لغة القرآن على ذلك يتمثل في إجهاض هذا العمل الجبار بحجة توحيد التعليم و "إنّا لله و إنّا إليه راجعون"... و سعى خصوم الأصالة لإبعاده نهائيا عن الوزارة خوفا مما عسى أن يفاجئهم به رغم تجربته من أخطر سلاح يهدد مشاريعهم التحذيرية، و عاد إلى الرئاسة مستشارا سياسيا مرة أخرى... و منها إنتقل إلى رئاسة المجلس الأعلى لتعميم إستعمال اللغة العربية فبدل جهودا تنوء بها الجبال، و لكن بدون جدوى لأن خصوم الأصالة كانوا يتبعون خطاه بأسلوب مخابراتي جهنمي، فلا يكاد ينتهي من وضع لبنة مكهربة حتى ينتزع منها الفتيل، فُستفرغ من شحنتها الإيجابية بكل خبث و دهاء"(28). و يكفي له فقط أن غيّر إسم الوزارة من وزارة أوقاف إلى وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، ليخرج بها من التفوق و التقزيم المفروض. و كان يؤدي واجبه على أحسن وجه، و لا يفرط في حق بلاده و تراثها و تاريخها و سيادتها، ملتزما بمبادئه مهما عصفت به رياح الجازفة. "ففي عزّ أيام

العسل الأحمر بين الجزائر و موسكو سنة 1971، جازف بمنصبه الوزاري و كلّ رصيده (المادي و المعنوي) لىدى بومدين (الذي لم يكن عنده وزراء يستقبلون و إنّما وزراء يُقالون!)، جازف بكل شيء و ربما بالسجن!! دفاعا عن سمعة و عزّة و كرامة الجزائر في موسكو... عندما رفض الدخول من القاعة الشرفية بالمطار بعد أن إستم (بحسّ الدبلوماسية و السياسي الرفيع) رائحة الإهانة في نوعية الإستقبال المخصص للوفد الجزائري الزائر الذي كان يزأسه، فألقى الزيارة الرسمية و عاد أدراجه إلى أرض الوطن متسببا في أزمة دبلوماسية كبيرة بين البلدين "الصديقين". و لم تنته الأزمة إلاّ و كلمة الجزائر هي العليا، مشفوعة بإعتذار رسمي للدولة الجزائرية من ربّ نصف الكرة الأرضية في ذلك الوقت!! " (29).

و أثناء هذه المرحلة إهتمّ اهتماما كبيرا بالمشروع الثقافي الذي كان يرى أنه على الدولة الجزائرية أن تقوم عليه في العصر الحديث و فاء لأمتها في العصور السالفة. فكان ينصبّ نشاطه على تنظيم هذه الوزارة، و إحداث ما يسمى بالتعليم الأصلي، و تطوير ملتقيات الفكر الإسلامي و إعطائها صفة المؤتمرات العالمية، دون أن يهمل جانب المحاضرات و المقالات التي كان يتطرق فيها إلى كل ما يمس بناء الدولة الجزائرية الحديثة، في الثقافة و الفن و الفكر و السياسة و الإقتصاد و الإجتماع، إذ كان يحاول أو يوجّه كلّ عمل توجيهها إسلاميا. " و قد أصبح ملتقى الفكر الإسلامي مدرسة" لتكوين رأي عام شعبي لمقاومة المدّ الإشتراكي (ولا أدري إن كان ذلك قد جاء عن قصد و تخطيط أو كان عفويا أيام الثورة الزراعية و غيرها من المظاهر التي فهم منها أنها من التأثير الشيوعي) و أصبح أيضا مدرسة لإحتضان جيل من الشباب و الشابات الذين كانوا بدون مأوى فكري" (30).

" و أمام إمكانات الجزائر المادية و إمكانات سي مولود الفكرية توسّع التعليم الأصلي و أخذ يتجذّر بمدارسه و معاهده عبر الوطن، ثم أخذ سي مولود يتحدث عن مواصلته إلى الجامعة، و وضع لذلك مشروعا لفتح جامعتين إحداهما في الشرق و الأخرى في الغرب، للدراسات اللاهوتية و الأديان المقارنة و الفلسفة، بالإضافة إلى علوم الدين و اللغة و العلوم الحديثة و اللغات. و إذا كان ملتقى الفكر الإسلامي لا يخيف خصوم سي مولود إلا بقدر ضعيل، فإن مشروع التعليم الأصلي قد أخذ يثير الرعب في الأوساط الشيوعية و الفرنكوفونية معا، ألا يعني نجاح المشروع تكوين كتائب من الشباب المتضلع في الحضارة الإسلامية و المتضلع أيضا في اللغة العربية، لغة التعليم الأصلي؟ و ذلك ما لا يريد و لا يتحملة لا أولئك و لا هؤلاء. و قد أظهر هذا النوع من التعليم نجاحه و تفوق أبنائه إذ كانت نسبة النجاح فيه في البكالوريا عالية بالقياس إلى الأبناء الآخرين. و أخذت المكائد تحاك

ضمة المشروع إلى أن جانت فرصة مناقشة ميثاق 1976 فاغتمتها الخصوم للمناداة جهارا بإلغاء التعليم الأصلي باسم توحيد التعليم" (31).

و كانت المحاور الكبرى التي كان يركز عليها و يوليها الإهتمام الأكبر من إهتماماته، تتمثل في: التعليم الأصلي، و الثقافة الإسلامية ممثلة في ملتقيات الفكر الإسلامي و فتح المراكز الثقافية الإسلامية و إصدار مجلة الأصالة، و النشاط المسجدي حيث "قام الوزير مولود قاسم بتحسين الأوضاع المادية لرجل السلك الديني، و إدماجهم في سلك الموظفين العموميين، ابتداء من عام 1972، و ترتيبهم حسب درجاتهم العلمية، على غرار العاملين في قطاع التربية و التعليم. وهذا إنجاز لا يُستهان به، إذا ما علمنا أنهم كانوا من قبل ممنوحين، يتقاضون منحا مؤقتة مزرية، تقل عن الحد الأدنى للأجور! حرص مولود قاسم على النهوض برسالة المسجد، و فرض على الأئمة برنامج عمل يتضمن تعليم الكبار الأميين، و الشباب الذين فاتهم سن التعليم، أو أخرجوا من المدارس، و تحفيظ القرآن الكريم للأطفال، و بإلقاء المحاضرات، و إعطاء دروس في الفقه و التفسير و الحديث، بأسلوب ميسر للخاصة و العامة" (32).

إثر تعديل الدستور سنة 1976، عرف مشروع التعليم الأصلي الذي كان يريعه -و هو صاحبه- إجهادا، مما أثار ثأرته، لكنه لم يتوقف عن الأعمال الأخرى التي كان يوليها الإهتمام و المتابعة، لعل فرصا أخرى ستتاح له لتحقيق مشاريعه الثقافية و الحضارية، فواصل نضاله السياسي كوزير من سنة 1977 إلى سنة 1979، و زيرا لدى الرئاسة مكلفا بالشؤون الدينية، حيث رسى مشاريع الجامعات الإسلامية و وضع آفاقا لها تحقّق منها بعضها و لم يتحقق أغلبها. و واصل إهتمامه خاصة بملتقيات الفكر الإسلامي حيث جعلها تربط بين الموضوعات الثقافية أو الدينية، و مجالات الحياة الوطنية و العالمية عموما، حاضرا و مستقبلا، و تناولت على سبيل المثال، مجالات الشباب، و الأسرة، و المغزبين، و الفلاحة، و الصناعة، و الطاقة، و التعليم، و التربية، و الثقافة (33). و هو يقول عن مشروع الجامعات الإسلامية: «أنا الذي إقترحت توسيع مشروع قسنطينة إلى جامعة كاملة بعد أن كان في عاصمة ماسينيسا و أحمد باي و ابن باديس (قسنطينة) زيادة على جامع كبير جدا الأول الذي إقترحه اللجنة الدينية في قسنطينة بإشراف العقيد عبد الغني مقتصر على الجامع فقط، و قلت للرئيس الراحل -هواري بومدين- أن الجوامع عندنا موجودة و كثيرة نسيها و الذي نفتقر إليه

أكثر، خاصة في قسنطينة و العاصمة الأولى منذ ما قبل الإسلام تفتقر إلى جامعة إسلامية كبيرة تمتد فروع كلياتها المتعددة من الهندسة و الطب و الزراعة... إلخ، إلى سائر أنحاء البلاد، و هذا زيادة طبعاً على الكليات الإسلامية التقليدية الموجودة في البلدان الإسلامية و هي كليات الشريعة و أصول الدين و اللغة العربية، و مهمة هذه الجامعة مثلثة:

1. أنها تكون الجامعة المعربة الأولى تعريباً كلياً التي منها ينطلق تعريب الجامعات الأخرى.
2. أنها تكون بدرجة الليسانس و حتى الدكتوراه خريجي ثانويات التعليم الأصلي كأئمة خطباء ممتازين للمساجد الكبرى و المتوسطة في البلاد.
3. أنها بكلياتها الأخرى العلمية (طب، زراعة، هندسة و إلكترونيك... إلخ) المنتشرة في أنحاء البلاد تساهم -زيادة تعريب الجامعات الأخرى كما ذكرنا- على تزويد الخريج من الكليات المذكورة بعنصرين أساسيين جوهريين زيادة على مادة التخصص و هما إنغراس الروح الأخلاقية الإسلامية في الطبيب و المهندس... و العنصر الثاني هو إشباع المهندس و الطبيب المسلمين بدور الحضارة الإسلامية في مجالات تخصصه (34).

كان شديد الحرص على تحقيق مشاريعه، و يتابع كل عمل حضاري دعوي بنفسه دون أن يسأم أو يمل، في لطف أحياناً، و في قسوة أحياناً أخرى يقتضيها الموقف، إذ يحكى عنه -مثلاً- الأستاذ محمد الشريف بن شيخ، فيقول: "لقد كنت أزوره من حين لآخر في مكتبه و كان كثيراً ما يحب هذه اللقاءات التي تجمعهم بزملائه رغم تراكم الأعمال و الإنشغالات لأنه كان يمقت الإنغلاق الإداري الموسوم بالبيروقراطية. و لقد كنت جالساً في قاعة الانتظار أنتظر دوري ضمن جماعة من السفراء و المسؤولين، و لم تكدر دقائق حتى جاءني إلى القاعة و هو ممسك بيدي نحو مكتبه، و عندما أشرت إلى أولئك الزوار قال: فلينتظروا حتى يأتي دورهم... و بينما نحن في هذه الجلسة المريحة حيث كان يحدثني عن بعض الكتب و المخطوطات التي كان يعتقد أنها في منطقة بجاية، رنّ الهاتف ليتصل به أحد المسؤولين على بناء المعاهد الإسلامية من تلمسان و أعلمه بأن بعض الأعمال ربما تعطل لأسباب موضوعية،

و لم يكده السائل ينتهي حتى ثار عليه قائلا: لو لم يكن عندي أحد الزملاء للعتت الدين... فانددهشت لما سمعت و قلت له: كيف يتأتى أن يلعن الدين من كان وزيرا للدين... فقال: إن مثل هؤلاء ليس لهم دين" (35).

لكن هذا لم يمنعه من أن يكون لطيفا متواضعا حين تقتضي الضرورة بالرغم من الظاهرة التي عرف بها، إذ يقول عنه الأستاذ محمد الصالح الصديق: "من الصفات البارزة التي تميز الأخ مولود، ما يسميه الأستاذ عباس محمود العقاد ب(القلق الروحي)... و قد كان طلعة نزاعا إلى الجديد، تواقا إلى ما وراء الستار، متلهفا إلى المعرفة، متحرقا إلى الأحسن!! و من ثم فهو كثير البحث، كثير التساؤل، كثير التطع!!" (36)، و كأنه يعيش في ضجر دائم ناتج عن تضايقه بالخيوط السائتة الذي لا يشجعه، بل يثبطه، أو يعرقله، أو يعاديه، أو على الأقل لا يفهمه و لا يتفهم طموحاته الحضارية و الفكرية، يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: "كان سي مولود عاطفيا إلى أقصى حدود العاطفة، و كان سريع البكاء و التأثر، و كان عصيبا شديد الإنفعال، و ما ذلك إلا من علامات الذكاء المفرط. من جالسه أو سمعه يتكلم يعرف أنه صندوق معرفة و خزانة كتب، عيناه اللامعتان و شعره المنفوش و حركته الإنفعالية تجعلك تحكم بأنه نيتشه الذي قيل عنه أنه مجنون فلسفيا. و كان سي مولود يغطي إنفعاله بوضع يديه على بعضهما ماشيا أو جالسا، و لكنه إذا تكلم أو حاضر يطلق العنان ليديه و رأسه و لسانه و عينيه فلا يكاد يمسكه كرسي و لا تحتويه منصة" (37). و لكن هذا الإنفعال كان له أسباب، فيضيف الأستاذ محمد الصالح الصديق مفسرا ذلك إذ يقول: "و آفة صاحب القلق الروحي أن يعيش غريبا بين من بلغت بهم الطمأنينة و الرضى بالواقع حدّ السكون و الجمود و الإخلاق إلى الأرض" (38). فإذا سبب هذا القلق الروحي كونه يعيش الإغتراب بين أناس إطمأنوا على واقعهم و رضوا به و أخلدوا إلى الكسل، و هو ناقم على هذا الواقع و يريد تغييره إلى الأحسن. يذكر الدكتور أبو القاسم سعد الله ذلك، فيقول: "و هناك إغتراب من نوع آخر كان يعيشه سي مولود دون أن يصارح به اللهم إلا ما صدر منه أحيانا من وخزات ضد أبناء ثقافته أنفسهم. فهو بالرغم من ثقافته العربية الإسلامية قد أضاف إليها كما ذكرنا، رصييدا من الثقافات الأخرى و اللغات و الفلسفات و التجارب التي تعزز أبناء مدرسته الأولى. فهو من جهة منهم، و من جهة أخرى خارج عنهم، و كان يراهم كسالى و مشتتين و سطحيين و غير منظمين و لا منتظمين، و من ثمة فوتوا على أنفسهم فرصا ثمينة لو عرفوا كيف يتحركون و يستقون و يستهدفون هدفا بعيدا بوسائل فعالة لصنعوا بها المعجزة التي كان هو يريد تحقيقها بهم

و معهم، و في نفس الوقت كان لا يستطيع ان يعاديهم لأنهم هم حزبه و عشيرته" (39). فكان هذا الإغتراب و الإحساس بالهوة البعيدة السحيقة بين ما يرغب تحقيقه و ما يبذله أبناء ثقافته من جهد زهيد غير منظم و لا متقن لأجل تحقيق ذلك، يُرجّمان في إنفعال شبه دائم، لما يعيشه من إحباط متلاحق للحلقات لإجهاض مشاريعه، فكان يعاني ("الإغتراب" في وطنه الذي أحبه حتى الشمال، و كان يحس بالعرقلة لمشاريعه و تصوراته في الرقي بهذا الوطن. فكان يجاري أحيانا كما تقتضي المسؤولية التي يتحملها، و لكنه كان أحيانا يعبر عن إحباطه بالإشارات المعبرة و بالكلمات الساخنة التي كان يتفوه بها على الملأ، و التي كان يغلفها بنكتة مرة أو تلويحة بيده إلى الجاهل. و لعل أقوى إحباط واجهه سي مولود تمثل في مشروعيه العزيزين على نفسه، و هما: التعليم الأصلي و مجمع اللغة العربية، ففي الأول رأى الهرم الذي أخذ يشيده، ينهار بين يديه، و في الثاني وقفت العراقيل المرئية و المخفية دون ظهوره للنور) (40).

و من بعض صور تواضعه، ما يرويّه عنه الأستاذ محمد الصالح الصديق، إذ يقول: "كنا نتحدث يوما بالمركز الثقافي الإسلامي فخطبه أحد الحاضرين باسمه مجردا من صفة الوزارة أو لقبها ثم إعتذر له عن ذلك، فقال له مولود: إن إعتذارك هذا يجب أن تعتذر عنه... قلت له: التلقب قد جرى به العمل منذ نشأة الإنسان فلم تنكره على هذا الأخ؟، فقال: ليس كل ما جرى به العمل محمودا يتبع، و خاصة في هذا العصر الذي أصبحت الألقاب فيه مثار التعاطف و التفاخر و أصبح ذوو هذه الألقاب يعضبون إذا لم يُنادوا بها، حتى أن بعض الذين أدوا فريضة الحج يحرصون أشدّ الحرص على لقب الحاج، فإذا ناديتُهُ مجردا منه تسأثر و إستاء!! و أعظم عبرة في هذا الموضوع أن أفضل البشر على الإطلاق لم يكن يُدعى إلاّ (محمدًا) مجردًا من كلّ لقب" (41).

و كان يكره أي مظهر يدلّ على الفخخة و الترف، حتى في ثيابه، و الصور الفوتوغرافية الباقية عنه و عن حياته تدل على ذلك، فكان لا يرتدي البدل الفخمة التي كانت عادة الوزراء، و كان يكتفي بلباس يقيه الحرّ و البرد كما يلبسه عامة الناس. بل أنّ هذا الخلق كان من سماته البارزة في أعماقه، ينبع من فكره و تشبّهه ببعض المبادئ، و يقول في ذلك الأستاذ محمد الصالح الصديق: "لثقت إليّ الأخ مولود و قال في عصبية حادة ما معناه: من صفات الرجل العظيم السداجة، و معناها أن يكون طبيعيا لا يعتمد إلى التكلّف و التصنّع و التظاهر و الفخخة، فإنّ الشخص الذي يشك في قيمته هو الذي يحتاج إلى الدفاع عن نفسه و الجدل في شأنها و إقامة الدلائل و البراهين على أهميتها في الوجود، أما الواثق من نفسه فلا يحتاج للتكلّف و التصنّع و الظهور بين الناس، و ليس من شكّ

أن قصير القامة هو الذي يحتاج إلى كرسي أو مكان مرتفع يظهر عليه، أما طويلها فحسبه الأرض مكانا يظهر منه" (42). و يشهد من كان يعمل معه أنه كان أميناً، متفانياً في إتقان أي عمل يتولاه حسب الإمكان.

فقد (أصدر أمراً في وزارة التعليم الأصلي يقضي بتعويض كلّ متلف ما أتلف، و ذات يوم حطّم زجاج إحدى النوافذ، فأخبر بذلك المحاسب المالي، و قال له: "إخفض ثمن الزجاج من شهرية مولود!!" (43). و قد عُرف عنه تبدل المزاج، و كثرة الإضطراب، و تحوله من حالة نفسية إلى أخرى، إذ يقول عنه الأستاذ محمد الصالح الصديق: "أبرز ما يلاحظ على الأخ مولود -رحمه الله- أنه عصبي المزاج إذا تكلم شعرت بحدة صوته، و قد تنهياً له ظروف ينسبط فيها و يميل إلى الفكاهة و المزاح و لكنه لا يلبث أن يعود إلى جديته و صرامته، و إذا حاوره أحد في قضية يعلم أنه على الصواب إشتدت عارضته، فأربك الخصم و ألزمه الصمت" (44).

و كان شديد الحرص على النظام و رعاية الأدب في السلوك، و كان يؤله جدّ ألم أن ينتهك أحد حرمة النظام أو يتصرف تصرفاً غير حضاري، أو يخالف الوعد بلا مبرر شرعي. أو يستهين بعمل فيؤخره عن وقته!! كل هذا كان يثير غضبه، و يفجّر ثورته، و يجعله أحياناً يتصرف تصرفاً لا يقبله منه إلا من عرف طيبة قلبه، و حسن نيته، و قد يتخذ أحياناً مواقف قد يندم عليها!! (45).

بعد سنة 1979، إعتزل الوزارة، و بقي عضواً باللجنة المركزية لجهة التحرير الوطني، مستشاراً بالرئاسة مكلفاً بالثقافة إلى سنة 1983، ثم عضواً بالأمانة الدائمة للجهة، مكلفاً بالمجلس الأعلى للغة العربية، أين كانت له صولات و جولات في هذا الميدان إلى أن أتت تغيّرات سياسية من إنتقال من نظام الحزب الواحد إلى التعددية السياسية سنة 1989، و على إثر التغييرات الدستورية الحاصلة إنتقلت عملية متابعة موضوع تعميم التعريب من حزب جبهة التحرير الوطني إلى يد الدولة و رئاسة الحكومة، فإنتهت بذلك مهمته على رأس المجلس الأعلى للغة العربية، و بقي فقط باللجنة المركزية لحزب جبهة التحرير الوطني، و لم ينقطع عن النشاط الدعوي و الفكري و الثقافي، إلى أن وافته المنية يوم 27 أوت من سنة 1992 عن عمر يناهز ستاً وستين سنة مليء بالكفاح السياسي و الفكري و الدعوي و الوطني. و هو بنفسه يلخص مسيرة كفاحه، السياسي خاصة، في مطبوعة كتبها بطلب من إدارة حزب جبهة التحرير الوطني بتاريخ: 20 فيفري 1984 (46)، نأخذ منها ما يلي:

• مناضل في حزب الشعب الجزائري منذ سبتمبر 1946 (في تونس و في العطل الصيفية في الجزائر)

- عضو لجنة إتحادية حركة الإنتصار للحريات الديمقراطية في باريس (1949-1950 إلى جانب الدراسة)
- مناضل مع الوفد الدائم لحزب الشعب الجزائري في القاهرة، مكتب لجنة تحرير المغرب العربي (1950-1954 إلى جانب الدراسة)
- مناضل في جبهة التحرير الوطني في باريس (ديسمبر 1954-ديسمبر 1956، إلى جانب الدراسة لإعداد دكتوراه الدولة في الفلسفة في السربون قبل الإضراب في مايو 1956)
- مناضل و طالب بجامعة براغ (تشيكوسلوفاكيا) (ديسمبر 1956-أبريل 1957)
- مناضل و طالب بجامعة بون (لإعداد دكتوراه في الفلسفة) وموظف بمكتب جامعة الدول العربية (أبريل 1957-مايو 1958)
- نائب رئيس الوفد الدائم في بون للجنة التنسيق و التنفيذ للجهة ثمّ لحكومتها المؤقتة (مكلفين بألمانيا و النمسا و هولندا: مايو 1958-أبريل 1961)
- منقول إلى جينيف حيث كلفت من السيد سعد دحلب و قمت بدراسات تاريخية عن الصحراء لوفدنا المفاوض في إيفيان (أبريل-ديسمبر 1961) للردّ على جو كس الذي كان ينكر صفتها الجزائرية
- نائب رئيس الوفد الدائم للحكومة المؤقتة في ستوكهولم (مكلفين بالسويد و فنلندا و النرويج و الدانمارك، ديسمبر 1961-سبتمبر 1962)
- مدير مكتب الأمين العام للمكتب السياسي، المرحوم محمد خيضر، مكلفا بالشؤون الدبلوماسية (منتدبا من وزارة الشؤون الخارجية بطلب من المكتب السياسي: نوفمبر 1962-أبريل 1963) حتى إستقالته
- رئيس قسم البلدان العربية بوزارة الشؤون الخارجية (مارس-سبتمبر 1964)
- مدير الشؤون السياسية بوزارة الشؤون الخارجية و وزير مفوض (سبتمبر 1964-أبريل 1966)
- مستشار سياسي و دبلوماسي في الرئاسة، منتدبا من الخارجية إلى الرئاسة بطلب من هذه الأخيرة (أبريل 1966 - يونيو 1970)
- وزير التعليم الأصلي و الشؤون الدينية (يونيو 1970-1977)
- وزير لدى الرئاسة مكلفا بالشؤون الدينية (1977-1979)
- عضو اللجنة المركزية، مستشار بالرئاسة، مكلفا بالثقافة (1979-1983)

• عضو اللجنة المركزية و أمانتها الدائمة ، مكلفا بالمجلس الأعلى للغة الوطنية (1984)

• معتقل سياسي مرتين و لمدة قصيرة في آقبو (يونيو-نوفمبر 1947) و في بون مع رئيس الوفد، سفيرنا الأول فيها

فيما بعد (أبريل-يونيو 1961)

• عضو المنظمة الدائمة (مداوم) لجهة التحرير الوطني.

ر - مُؤَلَّفَاتُهُ: (47)

قائمة إنتاجه و قد كتبها هو بنفسه في آخر كتاب له و هو "شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل سنة 1830":

1. "الجزائر Algérien" - Arabische liga, BONN, BRD, 1957 - و هو كتاب بالألمانية.

2. "إنية و أصالة"، (نشر وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، مطبعة قسنطينة، 1935 هـ - 1975م).

3. "أصالية أم إنفصالية؟"، (في جزئين، وزارة الشؤون الدينية، مطبعة البعث، قسنطينة 1400 هـ - 1980م).

4. "مآثر فاتح نوفمبر"، طبع بدار البعث 1403 هـ (1983م).

5. "شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل سنة 1830"، في جزئين، طبع بدار البعث للطباعة و النشر 1405 هـ (1985م).

عدا مقالات نُشرت في "المغرب العربي" (الجزائر) 1947-1949م، و "لسان العرب" (تونس) فيما بين 1947 و 1949، و "الشعب"، و "المنار" (الجزائر) 1951-1954م، و "البيان" و "الفيحاء" و "الزّمان" و "النصر" (سوريا) 1953، و كذلك في مجلة علم النفس (القاهرة) فيما بين 1950-1954م، و « Die Arabische Korrespondenz » في بون (ألمانيا الغربية)، و النمسا، و السويد، و فنلندا، أثناء كفاحنا التحريري، و في تلفزة لندن، و الجزائر، و في الصحافة الجزائرية، و محاضرات في الجزائر، بعد استرجاع الإستقلال، لم تُجمع و لم تُنشر، و مقالات (الثقافة)، و "المجاهد" اليومية الفرنسية، و "الجزائر الأحداث" بالفرنسية أيضا.

هذا هو إنتاجه المكتوب الذي تركه من ورائه، و "إنه يبدو لنا و قد فارق هذا العالم على أنه رجل عملي أكثر منه رجل تأليف، و على ما يبدو أن المرحوم لم يترك مكتبة ضخمة على غرار أمثاله، و إنما ترك مكتبة علمية قد تقتصر على مراجع إهتمامه بالدرجة الأولى" (48).

هذا إلى جانب أنه تقلد عدة مناصب سياسية و ثقافية جسّد من خلالها بعض مشاريعه الثقافية و الفكرية و الحضارية لإهتمامه البالغ بالثقافة و التعليم و الجامعات و المساجد و المجلات، إضافة إلى كفاحه اليومي الدائم من أجل الدين و اللّغة و التاريخ و القومية طوال مدّة حياته.

ز- مميزات

من أهم ميزات مولود قاسم نابت بلقاسم أنه رجل موسوعي، أراد أن يُلمّ بكثير من الإختصاصات و العلوم، و استطاع تحقيق بعض ذلك، "فهو يكتب و يحاضر بخمس لغات: العربية و الفرنسية و الإنجليزية و الألمانية و السويدية - إلى جانب لغته الأم اللغة الأمازيغية -، و له معرفة أقل و متفاوتة بأكثر من عشر لغات أخرى: اليونانية و اللاتينية و الجرمانية (أي السلافية) و لغات رومانية أخرى" (49). و يقول عنه الدكتور عبد الرزاق قاسم في ذلك: "خاصية أخرى، هي خاصية الثقافة الموسوعية التي هي من خصائص منهج القدماء، و التي جسّدها مولود قاسم، فالموسوعية الثقافية تتجلى عند فقيدنا في جمعه بين ما يبدو نوعا من التّضاد، بين الفلسفة و الفقه، أي بين العقل و النقل، و أيضا بين العربية و الألمانية، و الإنجليزية و الفرنسية، و كلّها أضداد لا تجتمع إلا في عقل مولود قاسم" (50).

و كان أغلب تكوينه عصاميا، اللهم إلا مجال الفلسفة الذي كان إختصاصه في الدراسة الجامعية، أما إهتمامه بالتاريخ مثلا أو بالفقه، أو باللغات، فقد كان من تلقاء نفسه حبّا في الإطلاع و التعلّم و التزوّد بالمعارف. "إنه كان ذا فكر موسوعي بحق: ذاكرة قوية، و عقل مستنير، و نظرة تحليلية ثابتة، و روح متوثّبة، و نفس توافقة إلى الإستزادة من التحصيل و العلم، كان يطالع كلّ ما يقع تحت يده من كتب و مجلات و جرائد، ترافقه في حلّه و ترحاله، و كأنه لا يستطيع العيش دون أنيس من كتاب أو مجلة أو بحث، تضلّع في علوم اللغة العربية، فأهله ذلك ليكون عضوا في مجمعين لغويين عربيين، و ساعده إتقانه لعدد من اللغات الأجنبية على إكتساب المعارف العالمية... و مع إكتسابه هذه الموسوعة اللغوية الهائلة، ظلّ معروفا بحبه للغة العربية، و دفاعه عنها، و مكافحته عن

حياتها، و غيرته الشديدة عليها، حيث سخر جهوده في فترة حياته الأخيرة، لمتابعة تعريب الإدارة، و الإعداد لإقامة المجمع الجزائري للغة العربية، حلمه الكبير الذي لم يتحقق، على الرغم من الجهود المضنية التي بذلها في سبيل ذلك، طيلة السنوات التي قضاها على رأس المجلس الأعلى للغة العربية، و إلى أن وضع التصور العام لياكل المجمع المادية البشرية، لكن الأجل المحتوم وافاه قبل إتمام المشوار" (51).

لم يتزوج إلا بعد أن تجاوز الأربعين من عمره، و لم يُرزق إلا ولدا و بنتا، سمّاهما يوغرطة و جزائر، و كأنه يعبر بأعز ما يملك عن شدة إرتباطه بقوميته، بأرضها و تاريخها، فجسدهما في أسماء أبنائه، لنخلص إلى ميزة أخرى كانت تطبع كل مراحل حياته، هي تفانيه اللامتناهي في خدمة الجزائر، فقد كان يعيش بها و لها و من أجلها، يقول عنه الأستاذ محمد الصالح الصديق: "ليس من طبع مولود و شيمته أن يسكت عن إعادة الحقّ إلى نصابه، أو يتساهل في أمر يتعلق بالدين أو بالجزائر" (52). و يقول: "إن أبرز المميزات الشخصية للأخ الراحل الأستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم إفتتانه بحبّ الجزائر... و أمجادها، و إعترازه ب (جزائريته) إلى أبعد الحدود، فإذا أحسن أن أحدا ما يريد النيل منها أو بأمجادها أو بثورتها بكلمة أو إشارة، ثار ثائره، و هاج هائجه، و لا يعرف في ذلك قريبا و لا صديقا حميما!!" (53).

و من جوانب عظمته أنه إلى جانب إنشغاله بكبريات الأمور و الشؤون السياسية و الفكرية و الثقافية، لم يهمل الجانب الاجتماعي في حياته، فكان مثلا كثيرا ما يكرر الزيارات لقريته و مسقط رأسه يعقد و يترأس جماعتها و يُقيم أعراسها و جنازاتها و يرعاها، و يُتابع أحداثها، فلم ينقطع عن مجتمعه القروي الصغير بالرغم من إهتمامه بالمجتمع الكبير الجزائري عامة، و كان لا يغيب عن مواعيد حفلاتها و عاداتها الموسمية الفلاحية حتى وقت أن كان وزيرا. و من جوانب هذه النزعة الاجتماعية، أنه بالرغم من كونه أبا لإثنين من الأطفال -وقد رُزق بنعمة البنين-، من صلبه و دمه، إلا أنه لم يهمل واجبه الاجتماعي. و قد أحسنَ بثقل المسؤولية و خطورتها تجاه الأبناء المحرومين، فتكفلَ بشمانية منهم و كفّلهم، و هو بنفسه -و ربّما لرسم القدوة- كتب هذا في الوثيقة الملخّصة لحياته و نضاله السياسي بطلب من إدارة حزب جبهة التحرير الوطني سنة 1984، قائلا: ﴿عدد الأطفال: 1 (+ثمانية في الكفالة)﴾ (54). هكذا كان "سي مولود" أحد عباقرة الجزائر، المثل الأعلى في العمل و الإنتاج في مختلف

مجالات الحياة، و ما كان ليؤثر فيه إرهاق و لا مرض، و كلّ ذلك سهل هين ما دام العمل من أجل مصلحة الوطن و بناء كيان هذه الأمة.(55)

و على الرغم من حبه الشديد للعلم و المعرفة، و شغفه بإدراك الدّرجات العليا من الدراسات الجامعية، نجده يزهّد و لثلاث مرات في مناقشة الدكتوراه، لأجل الجزائر و تفرّغه لها قبل تفرّغه لأمواره الخاصّة، في السربون أولا، ثم في ألمانيا ثانيا، ثم في الجزائر أخيرا أيام أن كان وزيرا و كان يخوض معركة التعليم الأصلي.

و أخيرا، تتضح عظمة مولود قاسم في تأثيره في كلّ ما يحيط به، سياسيين و مثقّفين و فنّيين و علماء و فقهاء، ثم فلاّحين بسطاء، إذ يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: "حين سمعتُ بوفاته التي حدثت أثناء غيابي عن الوطن، ظللت فترة من الزمن مشدوها و مصدوما و لا أكاد أتصوّر كيف ستكون حياتنا الفكرية و الثقافية بعد غيابه، فقد كان حاضرا في كلّ محفل، مشاركا في كلّ مناسبة، في المنصة أو في القاعة، محاضرا أو مقلّقا، تاركنا لوسائل الإعلام بعد ذلك أن تنقل صورته و صوته و آراءه التي تهّمّ الجزائر و لغتها و تاريخها و تعليمها و حياتها الإجتماعية و حتى الفنية"(56). ثم عودته لخدمة الأرض و فلاحها كأبسط واحد من أفراد شعبه، هي عظمة في تواضع و سداجة لا يقدر عليها إلاّ من كان من طراز مولود قاسم، الفيلسوف، و المفكّر، و السياسي، و الثوري، و الفنان، و الفلاح. يقول ابنه يوغرطة: "إنّ والدي كان منشغلا طوال النهار و طوال السنة و لا يعود إلاّ في الليل، لم يمارس هواية معينة و لا ضربا من ضرب التسلية، إلاّ أنّه كان منهمكا باستمرار في قضايا التاريخ و الوطن و أنّه مشغوف بحب مسقط الرأس (أقبو ولاية بجاية) في نهاية كلّ أسبوع تقريبا... يعيد ذكر الأيام الخوالي، يعمر الأرض و يعيد سيرة الإنسان الجزائري، يقلّم الأشجار، يمهد التربة، يجني الزيتون و يقيم عرس القرية و الفلاحة... فلا ترى مولود المثقف و الوطني و الحاضر و الكاتب و الألسني (متعدّد اللغات) سوى فلاح جزائري أصيل، يمسك القاس و يهوي على الأرض يفجّر الحياة"(57).

إنه يعبر عن حبه للجزائر بكل ما يملك، و يجعل بصماته كلها تنطق عن مبادئه و أفكاره التي عاش من أجلها، و بها و لأجلها، و قد بنى أفكاره و أعماله على أساس مبادئ ابتكرها ثم مشى عليها هي الإنية و الأصالة ضد كل مسخ و نسخ و فسخ و مركوبية و انفصالية، و بنى (إنيته بالوعي بالوجود على ثلاثة عناصر هي اللغة و الدين

و التاريخ، و يقول المرحوم في شأن الإسلام: ﴿إن الإسلام هو الذي إبتدع أحسن النظم الإقتصادية و الإجتماعية... فهو يستطيع أن يتجدد إن تجدد المسلمون﴾ (58).

إنه يبدو لنا و قد فارق الحياة أنه لم يعمل عملا و لو صغيرا لصالح مصلحته الخاصة، بل و منذ نعومة أظافره كان مثالا للإخلاص لهويته و وطنه و دينه و تاريخه و لغة دينه، بذل كل ما يملك من أجل ذلك.

"مولود فاسم نايت بلقاسم... (65 سنة)، مليئة بالجهاد المتعدد، فمن الجهاد في سبيل الوطن إلى الجهاد في سبيل الفكر و الرأي و الثقافة، التي تبرز جميعا في عمله الدؤوب في سبيل نشاطه في ميدان المحاضرة و المقالة و الكتاب الذي يجعل من التاريخ محورا أساسيا لعمله. حياة مليئة بالعمل المتواصل، لم يترك في هذه الدنيا سوى 'يوغرطة' الإبن الأكبر و 'جزائر' البنت الصغرى، و أربعة جدران و على الدنيا السلام" (59).

الهوامش:

- (1) محمد الصالح الصديق: "خواطر و ذكريات عن الأستاذ الراحل مولود قاسم نایت بلقاسم"، ص7.
- (2) أحمد شقار الثعالبي، "الجهاد" (4/09/1992)، عن د/أحمد بن نعمان، "مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة"، ص28.
- (3) سليم شيخاوي، "السّلام" (06/10/1992)، عن د/أحمد بن نعمان، "مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة"، ص26.
- (4) أحمد شقار الثعالبي، نفس المصدر، عن د/أحمد بن نعمان، نفس المصدر، ص28.
- (5) محمد الصالح الصديق، مصدر سابق، ص92.
- (6) أحمد شقار الثعالبي، مصدر سابق، ص28.
- (7) مولود قاسم نایت بلقاسم، "الجمهورية" عدد (13/07/1985)، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص10.
- (8) سليم شيخاوي، مصدر سابق، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص26-27.
- (9) أحمد شقار الثعالبي، مصدر سابق، ص28-29.
- (10) محمد الشريف بن الشيخ، جريدة "السّلام" (01/10/1992)، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص17.
- (11) د/ أبو القاسم سعد الله، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص262.
- (12) محمد الشريف بن الشيخ، مصدر سابق، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص16-17.
- (13) محمد الصالح الصديق، مصدر سابق، ص25.
- (14) أحمد شقار الثعالبي، مصدر سابق، ص29.
- (15) مولود قاسم نایت بلقاسم، "الجمهورية"، مصدر سابق، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص10-11.
- (16) د/ أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص253.
- (17) أحمد شقار الثعالبي، مصدر سابق، ص29.
- (18) عن مولود قاسم نایت بلقاسم بتصرف، "الجمهورية" مصدر سابق، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص11.
- (19) مولود قاسم نایت بلقاسم، نفس المصدر، عن د/أحمد بن نعمان، نفس المصدر، ص11.
- (20) د/ أبو القاسم سعد الله، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص263.
- (21) سليم شيخاوي، مصدر سابق، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص26.

- (22) محمد الصالح الصديق، مصدر سابق، ص28.
- (23) مولود قاسم نايث بلقاسم، "الجمهورية" مصدر سابق، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص12.
- (24) أحمد شقار الثعالبي، مصدر سابق، ص29.
- (25) د/ أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص254.
- (26) مولود قاسم نايث بلقاسم، "الجمهورية"، مصدر سابق، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص12.
- (27) أحمد شقار الثعالبي، مصدر سابق، ص29.
- (28) أحمد شقار الثعالبي، مصدر سابق، ص29-30.
- (29) د/ أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص256.
- (30) د/ أبو القاسم سعد الله، عن د/ أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص268-269.
- (31) د/ أبو القاسم سعد الله، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص271-272.
- (32) المأمون القاسمي، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص294.
- (33) المأمون القاسمي، نفس المصدر، ص293.
- (34) مولود قاسم، "الشعب" جريدة (1992/02/02)، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص230-231، بتصرف.
- (35) محمد الشريف بن الشيخ، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص18.
- (36) محمد الصالح الصديق، مصدر سابق، ص101.
- (37) د/ أبو القاسم سعد الله، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص273.
- (38) محمد الصالح الصديق، مصدر سابق، ص102.
- (39) د/ أبو القاسم سعد الله، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص264-265.
- (40) نفس المصدر، ص264.
- (41) محمد الصالح الصديق، مصدر سابق، ص75-76، بتصرف.
- (42) نفس المصدر، ص47-48.
- (43) نفس المصدر، ص46.
- (44) نفس المصدر، ص80-81.
- (45) نفس المصدر، ص81-83.
- (46) عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص8-9، بتصرف.
- (47) عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص32.

- (48) سليم شيخاوي، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص24.
- (49) محمد الصالح الصديق، "خواطر و ذكريات عن الأستاذ الراحل مولود قاسم نايت بلقاسم"، صفحة 9، نقلًا عن مولود قاسم بقلمه عن نفسه.
- (50) د/ عبد الرزاق قسوم، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص281.
- (51) محمد المهدي القاسمي الحسني، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص308-309.
- (52) محمد الصالح الصديق، مصدر سابق، ص98.
- (53) محمد الصالح الصديق، مصدر سابق، ص137.
- (54) عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص8.
- (55) محمد الشريف بن الشيخ، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص19.
- (56) د/ أبو القاسم سعد الله، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص261-262.
- (57) سليم شيخاوي، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص24-25.
- (58) صادق سلامية، "أنوار الحق" في: (1992/10/11)، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، الصفحة: 344.
- (59) سليم شيخاوي، عن د/أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص24.

الفصل الثاني:

موجّهات الفكر الدّعوي

عند مولود قاسم نايث بلقاسم

المبحث الأول: موجّهات الفكر الدّعوي عند مولود قاسم نايث بلقاسم
من جهة السّلب.

المطلب الأول: الجمود

المطلب الثاني: الانفصالية

المطلب الثالث: المركوبية

المطلب الرابع: الثالث الجهنمي "الفسخ و المسخ و النسخ"

المبحث الثاني: موجّهات الفكر الدّعوي عند مولود قاسم نايث بلقاسم
من جهة الإيجاب.

المطلب الأول: الأصالة أو الأصالية

المطلب الثاني: الإتيّة

المطلب الثالث: الصّحوة.

نقصد بموجهات الفكر الدعوي مرتكزات هذا المجهود و منطلقاته، و القاعدة الفكرية التي يستند إليها و يتقرب على إثرها و شكلها في اختيار الأهداف و تكييف الجهود و اختيار المراحل المتبعة نحو تطبيق و بلوغ الأهداف البعيدة. فالموجهات هي القاعدة الفلسفية لفكر معين يريد أن يضع لنفسه مكانا في المجتمع و يهيكل الطموحات الحضارية في مشاريع ملموسة منطلقة من أفكار و أرضيات يأمل هذا الفكر بواسطتها تجسيدها في البناء الحضاري المرتقب. و الموجهات، بهذا، هي المحددات التي يجب و ينبغي أن يُعمل الفعل الدعوي في إطارها و يحترمها و يراعها، و تُبنى المنجزات و المراحل بالإتفاق معها.

لما تنقص أعمال مولود قاسم المكتوبة و نبحت عن أصول و قواعد الفعل الدعوي فيها، نكتشف أن هذه المحددات و التي يضعها قاعدة خلفية لتحركه، هي مُحدّرة في نوعين، موجهات توجه الفعل و الفكر الدعويين من جهة السلب بحيث يتفادى الوقوع فيها، بل يحاربها و يبذل جهدا في التصدي لها. و موجهات من جهة الإيجاب يجعلها أفكارا و منطلقات سيبيي عليها مجهوده و أهدافه المتوخاة.

الموجهات من جهة السلب التي تضبط و توجه عمله الدعوي و أفكاره، تتلخص في ضرورة نبد أمور و التخلي عنها و محاربتها تمهيدا للبناء الحضاري الأمثل لمواكبة الزمن و العصر، فهي معيقات للإنتلاق أو لإستئناف العجلة الحضارية الإسلامية. و قد لحصناها و حدّدناها في أربعة موجهات:

- الجمود أو الهمود و الخمود
- الانفصالية
- المركوبية
- النسخ و المسخ و الفسخ.

و هي كلها أفكار ذاتية للمرحوم مولود قاسم تعود مرار و تكرارا من خلال كثير من كتاباته و خطاباته، و جعلها توجه من جهة السلب كل جهوده من أجل الحضارة الإسلامية كمنطلقات و مرتكزات لأعماله الدعوية في هذا المجال، و سيأتي التفصيل فيها بإذن الله.

و الموجهات من جهة الإيجاب التي جعلها مولود قاسم فكرة خلفية أطر من خلالها و بها عمله الدعوي من أجل الحضارة أو الإستناف الحضاري، و جعلها قاعدة فلسفية ذاتية، و مخاضا لمدرسة فكرية و حضارية و دعوية، تتلخص في ثلاثة مفاهيم - سوف يأتي التفصيل فيها- هي:

- الأصالة
- الإتيية
- الصّحوة.

و هي كلها محددات و موجهات لفكره الدعوي، و جسدها من خلال عمله المتواصل في كفاحه من أجل الحضارة، و أضفاها على كل تدخل في أي مجال من مجالات الحياة العامة التي أراد التأثير فيها و الإدلاء برأيه حولها و تقديم النموذج الأمثل في مجاها، إنطلاقا من مفاهيم الإنية و الأصالة و الصحوة التي حدد معانيها و محتوياتها، سواء كان ذلك في المجال الديني المختصّ أو في المجال الإقتصادي و المجال الإجتماعي و المجال السياسي بل و حتى في المجال الثقافي و الفني - كما سوف نرى-، فأعلن أفكاره و فلسفته في الحياة، ثم مشى على إثرها، توجهه هذه الأفكار في كل عمل يراه حضاريا يعيد بالأمة الى سكة التائق الحضاري الأوّل، و يضمن لها العزة و الكرامة حاضرا، و الريادة و السيادة مستقبلا.

و قد سبق لكثير من العلماء و المفكرين و الدعاة الكبار، أن تطرّفوا الى وضع قاعدة خلفية لتحركهم الدعوي نحو التغيير أو نحو الإصلاح. فلقد أعلى الشهيد حسن البنا عن أصول دعوته العشرين، و أعلن المرحوم مالك بن نبي عن شروط النهضة التي يراها في أوّل كتاب نشره، و كتب الفقيه عبد الرحمن عبد الخالق كتابه: ﴿الأصول العلمية للدعوة السلفية﴾ (1)، و غيرهم من الدعاة و المفكرين و العلماء كثير ممن أعلنوا عن أصول دعواتهم و موجهاتها و محدداتها ثمّ نهجوا على إثرها تحقيقا لأهدافها.

يأتي هذا الفصل من الدراسة لتوضيح أصول دعوة مولود قاسم و مدرسته الدعوية و الحضارية، فنقسّمها إلى قسمين: الموجّهات من جهة السلب، و الموجّهات من جهة الإيجاب، كما سبق و أن ذكرناها، لنصل إلى الإلمام بالجانب النظري من البعد الدعوي في أعمال مولود قاسم نأيت بلقاسم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

موجهات الفكر الدعوي عند مولود قاسم من جهة السلب

تهديد: نتناول في هذا المبحث معالم الواقع المفروض و الملفوظ من طرف مولود قاسم نايت بلقاسم، والذي إنطلق منه لإيجاد الحلول المناسبة له. فالمبحث يُعتبر تشخيصا للواقع بحثا عن الداء و المرض الذي تعاني منه أمتنا الإسلامية و يُعيقها في مسيرتها نحو استئناف المسيرة الحضارية المتوقفة.

و معرفة الأدواء المعيقة للمجتمع مسألة هامة جدا، حتى يكون الدواء المقدم ناجحا و فعالا، لذا، نرى مولود قاسم يُركّز جيدا في دعوته و عمله على لبذ بعض الأمور التي يراها مميّزة للأمة، مخالفة لمسارها الحضاري الطويل، و عراققتها، مُشكّلة لبذور فئائها. فهو ينطلق منها محاربا لها، لذلك سمّيناها بموجهات الفكر عنده من جهة السلب، و قد جمعناها في أربعة محاور كبرى بعد إستقراء كتاباته، وهي:

- الجمود
- الانفصالية
- المركوبية
- و الثالوث الجهنمي: الفسخ و المسخ و النسخ.

و ستأتي علاجات هذه الأدواء في المبحث الثاني من هذا الفصل، ليكتمل لدينا بعد ذلك الجانب النظري في عمل مولود قاسم الدعوي من تشخيص الداء و إختيار الدواء. و هي القاعدة الفلسفية لدعوته و الخلفية الفكرية التي تحكم سلوكه من أجل التواجد الحضاري المتميز بين الأمم، و الوفي لتعاليم الوحي و عزة الأمة. و سنتطرق إلى هذه الموجهات عنصرا بعد عنصر لإيضاح مضامينها و مقصود مولود قاسم منها و كيف تجلّى كفاحه ضدها من خلال خطاباته و كتاباته خاصة، أما الجانب العملي المشاريعي فسيظهر من خلال الفصل الرابع من هذه الدراسة، و هو غني أيضا بالتجسيّدات العملية لهذه القاعدة الفكرية و الفلسفية، نجدها في كلّ عمل و قصد و كفاح و إنشغال لمولود قاسم نايت بلقاسم.

الجمود موجّها سالباً

إن أولى الآفات التي تصدّي لها مولود قاسم نابت بلقاسم - رحمه الله - و حاربها و جعلها موجها من الموجهات من جهة السلب لفكره الدعوي، هي آفة الجمود. و قد يسميها هو نفسه في بعض خطاباته و كتاباته بمسميات أخرى مرادفة مثل الركود و الخمود و اللأهوت و الكهنوت و التخلف و الظلمة و الإختناق و التقليد و التوقّع و التزمت و الإنزواء و الإنكماش و الإنغلاق، و كلها مصطلحات أو ألفاظ وظّفها مولود قاسم للتعبير عن هذا الجمود، و تصبّ جميعها في مفهوم رفض الأمة في معظمها للحركة و العمل و الإصلاح و التغيير و التطور و الرقيّ. فالجمود عنده هي عملية سكون، و السكون يعني التوقف، و التوقف يعني التأخر عن الركب. فالتأخر يؤدي إلى المدلّة و الهوان بعد إستتباب الضغن، و المدلّة تؤدي إلى التبعية و هي المنيّة الموت الحضاري عنده. لذا ينبغي رفض الجمود و محاربتة، بل و قتله لبعث حياة العمل و النشاط و حبّ التغيير و التقدّم نحو الأمام لضمان البقاء الحضاري. و رفض الجمود هو أوّل خطوة و لبنة في طريق التحرك، ثم تأتي بعد ذلك موجهات و محددات هذا التحرك، لذلك لا معنى لما سيأتي إذا فُقدت البداية، و ليست مجرد بداية بل الحركة ترافق دوما العمل الدعوي و العمل الحضاري رفضاً للتوقف و توقفاً إلى الأحسن و ضمان التواصل مع الحاضر و المستقبل. يقول مولود قاسم: ﴿إن لكل حضارة أسسها و مبادئها، و عهود نموها و إرتقائها، ثم جهودها و ربما إنهارها، فحسب حرصها على تلك المبادئ و الأسس و تمسكها بها، أو التهاون فيها، و التخلي عنها. كلنا نعلم ما كانت عليه الجزيرة العربية في الجاهلية، و كلنا نعرف ما تطورت إليه و تطور إليه العالم الذي شمله نور الإسلام، في مدة أدهشت بقصرها مؤرّخي الحضارات و الأديان.

و ذلك أن الإسلام ثورة شاملة لمختلف نواحي النشاط الإنساني، بما يشمل عليه من قيم و معان، و يحمله من روح لا تكفي بالزقيع و التصليح، و إنما تتوق دوما إلى التغيير الجذري، روح يتمثل فيها بكل معاني الكلمة ما نسميه اليوم بالثورة التي تقوّض الهياكل القديمة المهلهلة، و تقيم على أنقاضها صروحاً جديدة شامخة تستعصي على الحداث(2). فالبقاء الحضاري عند مولود قاسم مضمون و مرهون بمدى إبتعاد الجمود عن حياة الأمة، و تواجد

فكرة الثورة و التغيير الجذري و روح البحث عن حياة الغد التي يجب أن ترافق العمل الحضاري دوماً، فالحي لا يتوقف عن التنفس، كذلك الأمة لا يجوز لها أن تتوقف عن إكسير حياتها و هو حب التغيير و التحرك نحو الأمام، و عدم الركون إلى السكون و التوقف و الكسل. و هذا قانون كل الحضارات لضمان البقاء، مهما كان مكان تواجدها، أو زمن حياتها، إذ يقول مرة أخرى: ﴿إن التقدم الحق بالعلم يا سادة، لا بالترنح و الوسادة!؛ إنما بالقيم تكون للأمم قيمة، لا بالرقص و العُري و الأصوات الرخيمة، في أجمال القصور أو رحاب خيمة!﴾ (3)، و العلم طبعاً لا يأتي بواسطة الجمود الذي عبّر عنه هنا بالترنح و الوسادة. فمسألة الرقي و بلوغ السيادة، و بالتالي فرض العزة، مرهونة بمدى اجتهاد الأمة أفراداً و كتلة في رفض الجمود و قتله و إبعاده عن حياتهم، و ربما لأجل ذلك كله شرّع الإسلام الاجتهاد، و بشر الرسول الكريم -صلى الله عليه و سلم- بجميع من يحدد هذه الأمة أمر دينها كلما حمد لبيب حب الحياة و حب العزة و الكرامة و السيادة، أو على رأس كل مائة عام، أي جيلاً بعد جيل لضمان بقاء الحياة الحضارية.

و الجمود عكس التجديد طبعاً، و من معاني التجديد و وسائله الاجتهاد لمقابلة الواقع المتجدد هو أيضاً و المتحرك و غير القابل للسكون و التوقف، فنجد مولود قاسم أيضاً يقول: ﴿فلن ينقذ عالم الإسلام إلا الرجوع إلى إسلامه، و لن تكون نهضته باستسلامه، الذي هو ربما أعلى أحلامه؛ فقيمه تكفي بل و زيادة، لتدارك الفائت بل و للريادة؛ و إذا كانت ضرورات العصر تقتضي عن الغير القرض، فللسيوطي "الردّ على من أخلد للأرض، و جهل أنّ الاجتهاد في كلّ عصر فرض"﴾ (4). فرفض الاجتهاد هو بعينه الخلود في الأرض، و هو الجمود القاضي على الأمة بالموت و الختف و الإنتحار. إذا كان الاجتهاد مشروعاً بل و مطلوباً في الإسلام، فالجمود إذن و الذي هو عكسه، مضادٌ لتعاليم الإسلام و مخالف لروح الدين الرامي إلى بناء حضارة الإنسان الربانية فوق الأرض و ضمان استمرارها في صراع و معركة الخير و الشرّ و حرب الحقّ و الباطل الأبدية. و لذلك نجد مولود قاسم -رحمه الله- يتطرق إلى نبذ الجمود إنطلاقاً من تعاليم الإسلام بحثاً اهمم على العزم مخاربة الركود، من جهة ليبريّي الإسلام من وضع المسلمين الرّاهن المتخبط في ظاهرة الجمود و منذ ما يقارب من ستة قرون، و من جهة أخرى ليجعل الإسلام منطلقاً في كل تغيير يودّ أن يمسّ أمته و مجتمعه،

فيقول: ﴿إِنَّ الْإِسْلَامَ دِينُ النَّظَرِ، وَ الرَّؤْيِيَّةِ، وَ الْفِكْرِ، وَ إِنَّ الْآيَاتِ الَّتِي تَدْعُو إِلَى اسْتِعْمَالِ الْعَقْلِ تَتَجَاوَزُ الْخَمْسِينَ، وَ الَّتِي تَدْعُو إِلَى السَّيْرِ فِي الْأَرْضِ لِلنَّظَرِ إِلَى التَّذَكُّرِ وَ التَّفَكُّرِ لَا تَكَادُ تُحْصَى!﴾. وَ الْإِسْلَامُ ثَوْرَةٌ ضِدُّ الْكَسَلِ، وَ السَّلْبِيَّةِ، وَ التَّوَاكُلِ، وَ الْإِعْتِمَادِ عَلَى الْغَيْرِ، وَ ضِدُّ الْبَطَالَةِ، الَّتِي هِيَ فِي مَفْهُومِهَا الْأَصْلِيِّ الْحَيَاةَ عَالَةً عَلَى النَّاسِ، وَ الْإِمْسَاكَ عَنِ الْعَمَلِ ﴿(5)﴾.

إِنَّ الْكَسَلَ وَ السَّلْبِيَّةَ وَ التَّوَاكُلَ وَ الْبَطَالََةَ، كُلُّهَا مَرَادِفَاتٌ لِكَلِمَةِ الْجُمُودِ، لِأَنَّ الْجُمُودَ إِسْمَاكَ عَنِ الْعَمَلِ وَ رِضَاءِ بِالْمَوْجُودِ، وَ دُخُولِ فِي عَمَلِيَّةِ الْإِسْتِهْلَاكِ دُونَ الْإِنْتِاجِ الَّتِي يَحْتَاجُ إِلَى إِعْمَالِ الْعَقْلِ وَ الْفِكْرِ وَ عَدَمِ تَعْطِيلِهِ وَ الْوُقُوفِ دُونَ أَدَاءِ وَظِيفَتِهِ الْإِبْدَاعِيَّةِ وَ الْإِبْتِكَارِيَّةِ، وَ حَجْرِهِ، وَ الْإِسْتِسْلَامِ وَ الْخُمُودِ لِحَيَاةِ الرَّاحَةِ النَّاتِجَةِ عَنِ ضَعْفِ النَّفْسِ فِي مَوَاجَهَةِ الْوَاقِعِ لِمَجَارَاتِهِ وَ مَوَاكِبَتِهِ، وَ نَجْدِ مَوْلُودِ قَاسِمٍ يَقُولُ مَرَّةً أُخْرَى فِي ذَلِكَ: ﴿كَانَ الْإِسْلَامُ ثَوْرَةٌ عَلَى الْجُمُودِ وَ الرُّكُودِ، وَ عَلَى التَّقْلِيدِ وَ التَّبَعِيَّةِ الْعَمِيَاءِ، وَ كَمِ نَعْيِ فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ عَلَى الَّذِينَ كَانُوا يَقُولُونَ "إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ"، وَ كَمَا قَالُوا: "بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَ لَا يَهْتَدُونَ؟" وَ شَبَّهُوا فِي الْقُرْآنِ بِالَّذِي "يَنْعَقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاءَ وَ نِدَاءً، صَمَّ بِكُمْ عَمِيًّا فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ"، أَيِ كَالْحَيَوَانَاتِ الَّتِي تَسْمَعُ نَعْيَ الرَّاعِي وَ لَا تَعْرِفُ مَغْزَاهُ، وَ لَا تَفْقَهُ مِنْهُ شَيْئًا، بَلْ وَ مَفْضَلًا عَلَيْهِمْ هَذِهِ الْحَيَوَانَاتُ الصَّمَاءُ إِذْ قَالَ عَنْهُمْ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ "أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ" ﴿(6)﴾.

لَقَدْ نَشَأَ مَوْلُودُ قَاسِمٍ فِي مَجْتَمَعِهِ فِي وَسْطِ وَجْدِهِ جَامِدًا خَامِدًا رَاكِدًا مُتَوَقِّفًا، وَ كَأَنَّ الْحَيَاةَ لَمْ تَتَحَرَّكَ لِمُدَّةِ قُرُونٍ، وَ تَقْرِيْبًا فِي كُلِّ مَجَالَاتِهَا، وَ حَتَّى فِي بَعْضِ الْعَادَاتِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي قَطَعَتْ الْأَزْمَنَةَ وَ عَاشَتْ غَيْرَ عَصْرِهَا، تَأْكُلُ جِسْمَ الْأُمَّةِ وَ لَا أَحَدٌ يَنْتَفِضُ ضِدَّهَا، فَالْمَةُ الْأَمْرُ وَ عِلْمُ أَنَّ بَدَايَةَ الطَّرِيقِ هِيَ رَفِضُ السَّكُونِ وَ الْجُمُودِ، وَ التَّنَطُّعُ لِحَوِّ تَغْيِيرِ الْأَوْضَاعِ بِطَرِيقَةٍ أَوْ بَأُخْرَى، لِأَنَّ مَا وَجَدَهُ فِي الْكُتُبِ الَّتِي تَتَلَمَّذُ عَلَيْهَا مَقْدَسَةٌ كَانَتْ أَوْ غَيْرَهَا، لَا يَعْكِسُهُ الْوَاقِعُ الَّتِي تَعِيشُ فِيهِ أُمَّتُهُ، أُمَّةٌ جَامِدَةٌ نَائِمَةٌ تَنْهَشُهَا الْمَقْرُوسَاتُ مِنْ حَوْلِهَا، وَ الْعَجِيبُ أَنَّهَا لَا تَفِيْقُ وَ لَا تَسْتَيْقِظُ مِنْ فِعْلِ هَذَا الْعَضِّ، أُمَّةٌ يَحْلِسُهَا التَّمَاوُتُ مِنْذُ قُرُونٍ وَ لَا تَحِبُّ أَنْ تَنْهَضَ وَ تُعِيطَ الْأَذَى عَنْ نَفْسِهَا

و تتحمّل مسؤولية الدّفاع عن تعاليم السّماء في الأرض و حضارة الإستخلاف الإلهي للبشر، حضارة رعاية حقّ الله و حقّ النفس و حقّ الناس و حقّ الكون، فوقف مولود قاسم مستنكراً يصرخ:

﴿و لكن الذي يجب علينا ان نقوم به، و قد نكون قد قصرنا فيه التّقصير الكبير، منذ وفاة شكيب أرسلان، هو دحض الأباطيل و ردّ المفترّيات التي تبثّها أوساط مختلفة المشارب، و لكنها موحّدة الهدف ضدّ الإسلام، لإبانة وجه الروحي و الثقافي الصّحيح، و إمطة السّتار الذي أسدلته على دوره الحضاري الإنساني قرون من الجمود، و الرّكود، و التخلّف، و عمّقه الإستعمار و ركائزه من تبشيرية، و أيديولوجية مختلفة، من صهيونية و غيرها، و ما أكثر ألوانها و أصباغها﴾ (7). فدعا إلى ضرورة التّحرك و العمل و قوفاً أمام المسؤولية الملقاة على العاتق، لوصول الحياة الإسلامية بطموحات الوحي و ترجمة الخيرية الحاصلة لأمة الإسلام إلى واقع ملموس، هذا الواقع الذي إفتقده مولود قاسم في حياة مجتمعه وقرأ عنه فقط في الكتب التاريخية و بعض أطلال و بقايا الأوّلين من أمته، فأعلن خطورة الوضع و دقّ ناقوس الخطر بقروب الحثف الحضاري الذي ينبغي ألاّ يحصل، إذ نجده يقول: ﴿فنحن على موعد صدق، يقابل فيه ما حبر فيه الأوراق بما يقدم في الأطباق، و تلقى فيه نظرة فاحصة، ناقدة لا حاقدة، على مدى الجديّة و الحرص في وصل القول بالفعل، لتهيئة الأفكار و خلق المناخ، و الإعداد للتغيرات الجذرية بكل حرص و إلتزام﴾ (8)، فوجد الكتب تدعو إلى التّحرك، و كل قواعد الدّين دافعة إلى الإجتهد، و نتاج السابقين من العلماء هو الذي كتب صفحات العزّ و السيادة لهذه الأمة بواسطة حبّ العمل و التطلّع لمستقبل و غد أفضل حتى لا يتساوى يومهم بغدهم، و نظر إلى واقعه فرأى أنه لا يخلو إلى من يمكنهم بعث روح الثورة و التغير في المجتمع المسلم و قتل الجمود المستشري فيه، و هم العلماء ورثة الأنبياء في قيادة أممهم نحو العزّة و السيادة، و ترشيدها إلى مصالحها الدنيوية و الآخروية، فدعاهم إلى ضرورة التّحرك و الإجتهد و عدم الوقوف مذهولين أمام نتاج السابقين ضعفاء غير قادرين على الإتيان بالجديد إستسلاماً لعلم السابقين تحت حجّة أنّهم أعلم منهم، فيلجؤون إلى التقليد، فما ترك الأسبقون للمتأخرين نقصا في الدّين، و ما عليهم سوى التمسك و التمسك.

فرفض مولود قاسم هذا الوضع المريض و المتأزم، لكون الأسبقين تصدّوا لأزمانهم بظروفها، و ظروف زماننا

مختلفة، فما هو المطلوب منّا كمسلمين؟!، و ما هو المطلوب من علمائنا و أمتنا خاصة في عصر تطورت فيه الحياة و اختزلت المسافات و عمّقت المعارف و أصبحت في المتناول؟!، فأشاد مولود قاسم بمعارف السابقين و جهودهم، و لكنّه دعا إلى السير على نهجهم علماً و عملاً، و خاصة في الفكر الإجهادي، و ليس الوقوف فقط عند علمهم بتمجيدهم و التغيّي يانتاجهم دون محاولة التطوير و الإضافة، لأنّ ذلك يعني الجمود أيضاً الذي ينبغي أن يُحارب، فقال مشيراً إلى جهود علماء الأمة في الماضي و عبقريتهم: ﴿ما أروعنّ تلك القاعدة الذهبية المنبثّة عن عبقريتهم و المتمثلة في الإستصلاح و الإستحسان!، و ما أروعنّك يا عمر الفاروق قبلهم، و ما أجلنّكم أيها الأئمة الأجلّاء بعده، و ما أعظمنّك يا سيوطي في كتابك المشار عليه في بدء هذه الكلمة! و ما أبلغنّ و أصدقنّ عنوانه: "الردّ على من أخلد للأرض، و جهل أن الإجهاد في كل عصر فرض"، و ما أصلنّه و ما أعصرنّه، فالإجهاد لم يُغلق بابّه إذن و ليس في الإمكان إغلاقه، على أنّه أيضاً ليس لأيّ جاهل العبث به و إطلاقه! لا لإغلاق الأبواب و التّوافذ أمام مسيرة الأئمة حسب العصر، و لا معوّل هدم للسّقوف في أيدي مخربّيها من ذوي الخمر و الخصر، الذين لا يرون أمام المفاسد من ضرورة المنع أو الحصر، لكنّهم بخصوص الفصائل يوخّون الحذف و القصر، و يرون في الإنحلال النّصر كلّ النّصر!.

هل أنّ "عالم" الأمس بأقوال الفقهاء، و الأصوليين، و المحدثين، و المفسّرين، القابع في صحراء نجد، أو جبال اليمن، أو آية صحراء أو جبل من أيّ بلد إسلامي كان، أو حتّى في جنان غرناطة، أقدر من مماثله "عالم" اليوم، الذي كثيراً ما تتعدّد ثقافته و يسمع بما يجري في العالم في لحظة تقريباً، بكل ما لدى هذا العالم من وسائل عجيبة هي في تحسّن مستمر و تطوّر مطّرد مذهل، أقول: هل عالم الأمس -و العالم في الإسلام هو العالم بأسرار الكون!- أقدر من عالم اليوم، المماثل له في التخصّص، و الذي يزداد عنه في ميادين كثيرة، على القياس، و الإستنباط، و النّظر، و الإجهاد و معرفة مصلحة الأئمة و الفرد؟!، لن يقول هذا إلّا مكابر عنيد! ﴿9﴾. فإذن، نجد مولود قاسم يربط جمود الأئمة

بمدى جمود علمائها، لأنهم أول المسؤولين عليها، وبهم يُنابذ التقدم أو التأخر. و الخطورة تكمن في كون هؤلاء العلماء أو المثقفين ثقافة شرعية هم الذين ينشرون الجمود في جسد الأمة، بفهمهم الخاطي للإسلام فتنقاد الأمة وراءهم نائمة راضية بنومها لا تجد في ذلك عارًا أو حرامًا، بل هو عندها عين الصواب و الواجب المطلوب منها، ما دام علماؤها هم الذين أرشدوها إلى هذا أو أفتوا به. فبالإضافة إلى الجمود في الحياة السياسية و الإجتماعية و الاقتصادية و العلمية و التكنولوجية و الإنسانية، تُضاف إليه الطامة الكبرى و هي الجمود في فهم الدين و تعاليمه و مبادئه، و من طرف من؟!، من طرف علمائه، فتدخل بذلك الأمة في المازوخية الحضارية كما أسماها مولود قاسم بنفسه و ذكرها في كثير من كتاباته و تعني تلذذ المعذب بعذابه، فالأمة جامدة هامة و هي راضية و متلذذة في جمودها و نومها غير مدركة للخطورة، فيقول: ﴿تمرّ أمة الإسلام اليوم بظروف عصبية، إن لم تعالجها بسرعة تصبح مصيبة. ظروف حرجة خانقة، إن تبادت فيها أضحت شائقة!، تجربة مرّت بأمام مضت، و عرفتتها حضارات قضت!.. تعلّقت قرونا بالخرافات، أصبحت تكملها بالإنحرافات!، فبعد أن وقفت من التقدم الحقّ موقف السلب، إنقلبت على القيم بالسبّ و الثلب!، فلا تقدّمًا فعلاً حققت، و لا تخلفًا حقًا سحقت، و لا روايب عميقة محقت، و لا بالركب السائر لحقت!﴾ (10).

و لم يتوقف مولود قاسم عند تشخيص وضع الأمة، بل كشف عن وضع أول المسؤولين على هذا الوضع و الحال المتأزم، و الذين بوسعهم أن يغيّروه، و هم أئمة و علماء الدين، فأعلن في وجوههم صراحة يقول: ﴿الإسلام لا يعترف بهذا اللاهوت و الكهنوت، ذلك السلك الديني الخاص بالطقوس الدينية فقط، المفصول عن الدنيا، لا، لأن الإسلام، كما قلنا، دين و دولة، و نظام إجتماعي كامل. إذن، الإمام يؤمّ المسلمين، فينبغي أن يكون متحصلاً على جميع هذه الجوانب، و ينبغي أن يساهم في جميع هذه الجوانب على مستواه و بقسطه﴾ (11)، فهو يُحمّلهم المسؤولية، و سبق أن كتب في هذا الموضوع قائلاً: ﴿لقد كتب جمال الدين الأفغاني و محمد عبده أن الخائن ليس فقط الذي يبيع وطنه، و إنّما هو ذلك الذي في استطاعته أن يفعل شيئاً لصالحه و لم يفعله!﴾ (12)، فلقد وجد هؤلاء جامدين هامدين نائمين عن طموحات أمتهم و هي في أمس الحاجة إليهم، سلوكهم مقزّم لا يعملون شيئاً سوى شعائر لاهوتية

كهنوتية و طقوس دينية فحسب، مختصرين جهدهم في ذلك فقط. ولكن، وأكبر من ذلك، أن هذا الجمود لا يتجلى في السلوك فحسب، بل يتعداه إلى الفكر والفهم. فأمّا نموذج الجمود في العمل، فقد ذكر عليه مثلاً، إذ قال: ﴿إن الطريقة التي يستعملها المسلمون برجال الدين عندنا طريقة جامدة وميتة جداً. فيبقون في الجوامع، ويرددون أشياء تقليدية معروفة، و يقتنعون بالمسنين الذين يأتون إليهم إلى المسجد. و قد طلبنا إليهم أن يركزوا نشاطهم على الشباب، و أن يذهبوا إليه حيثما هو، في المقاهي، و في النوادي، و في كل مكان، و أن يستعملوا معه طرقاً حديثة. و قد أمددناهم بكثير من هذه الطرق الحديثة، التي ينبغي أن تقوم على أسس إجتماعية و إقتصادية، حتى تكافح كل هذه التيارات الأجنبية التي تخرب جسم الأمة﴾ (13).

و أمّا نموذج الجمود في الفهم و الفكر، فيضرب عليه مثلاً بمن ينتقدون بعض أفكاره و مشاريعه في تحريك عملية الدعوة إلى الإسلام و الإصلاح، و ينتقدون ذلك باسم الدين و الإلتزام بتعاليمه، إذ يقول مثلاً: ﴿هناك بعض الناس الذين إنتقدوا التعليم في المساجد، و قالوا أنه حرام لأن هناك أناساً لا يصلّون و يدخلون إلى المسجد غير أطهار، و يحضرون دروس نحو الأمية. هذا غير صحيح. فالإمام ابن باديس -رحمه الله- كان يقف أمام الجامع الأخضر و يدعو الناس، يقول لهم أدخلوا إلى الجامع، أدخلوا، حتى إذا كنتم لا تصلّون في اليوم الأوّل، و اليوم الثاني، و اليوم العاشر، و اليوم الثلاثين، ستنتهون فيما بعد بالصلاة. إنّما المهمّ أن يأتوا ليتعلّموا القرآن. فلا ينبغي أن نتجمّد هكذا؛ فهؤلاء الجامدون يغلقون أمام تطوّر الأمة الإسلامية جميع الأبواب و النوافذ، و يقولون هذا حرام، و هذا حرام، كلّ شيء حرام﴾ (14).

و نراه يحدّد مهمّة هؤلاء الأئمة و العلماء في مجتمعاتهم، و يضع في أولى مسؤولياتهم محاربة الجمود، و نشر الشعور في ضرورة التحرك لمواكبة و ملاءمة العصر، فيقول لهم: ﴿عليكم أن توضّحوا لهم المعالم بين الربوبية و الإلحاد، أن تُنبهوا أذهان من يغلقون على كلّ شيء، و لا يريدون تتبّع العصر، مصرّين على

مواصلة الهمود في أعقاب عصور الجمود والجمود، ويُحوِّلون عند سماع كلمات مثل الرّوبية والفلسفة، وأن تفتحوا بهم آذان وأعين الذين يرمون بجميع القيم عرض الحائط، المعرّضين للتحلل، والإنحلال، والإلحاد؛ ليكن الأئمة كالإمام عليّ، وتكن الأمة إماماً للبشرية! ﴿15﴾.

ومن كلامه هذا يتضح جلياً أنّ محاربة الجمود هو أوّل الطريق في الدعوة إلى النهضة الحضارية الإسلامية الحديثة، وأنّه بعد التخلّص من الجمود، فقط، يتيسّر الإنطلاق في المراحل الأخرى، مثل التصدي للإيديولوجيات الحديثة بتقديم البديل لها والملائم لهذا العصر. أمّا قبل ذلك، فلا يتيسّر شيء، والمهمة ليست سهلة بل إنّها تحتاج إلى توضيحات متواصلة وحكيمة تربّي الأجيال لتعدّهم للتغيير والإصلاح وبلوغ الريادة والسيادة. لكنّ الطريق طويلة نحو التألّق الحضاري، وأوّل العقبات التي يجب تجاوزها فيها هي هذا الجمود في الفكر وفي العمل الذي ضرب أطنابه في الأمة. ولجّد مولود قاسم يقرّ ذلك، لما كتب يقول: ﴿لا بد هنا أن نعرّف طبعاً أن رواسب الإستدمار لا يمكن أن تمحى هكذا بجرّة قلم، وبعضاً موسى. فهذا يتطلّب مجهودات متواصلة، متوالية، منتظمة، ولمدة طويلة، لتدارك النقص الذي ورثناه عن عهد إستخراي طويل، وعن عهد طويل أيضاً من الهمود والجمود، والجمود﴾ ﴿16﴾. فإذن ما تحتاجه الأمة في أوّل الأمر هو القيام والنهوض والإفاقة من حياة الرقود والجمود، وتحتاج إذن إلى من يوقظها ويهزّها ويزلزها لينفض عنها الغبار المتراكم منذ قرون، فجعل مولود قاسم من أجل ذلك يُعنون مثلاً مقالاً في كتابه: أصالية أم إنفصالية؟، بالعنوان التالي: ﴿أنيام في خيام؟ ألا من قيام؟﴾ ﴿17﴾، فلقد آله جدّ الأئم ما آلت إليه صورة رجل الدين أو الإمام، من أنّها صورة لاهوتي، أو أكثر من ذلك صورة صوفيّ طُرقيّ، وذلك أدهى وأمر، إذ يقول: ﴿موضوع الطّرقية موضوع قديم، وهو داء من الأدواء (لا من الأدوية!)، التي عانى منها العالم الإسلامي وخاصة منذ بداية انهيار الحضارة الإسلامية في أواخر العصر العباسي، وازداد الداء إستفحالاً فيما سمّاه ابن خلدون عصر الجمود، وزدنا لهم الهمود والهمود!﴾. وقد لعبت الشطحات الصوفية وغير الصوفية دوراً بالغ السلبية في التّعجيل بإنهيار العالم الإسلامي، كما كانت معوّلاً من معاول

الهدم لما تبقى له من طاقة و حيوية، عند قدوم الإستعمار الأوروبي ﴿(18)﴾، فكان دائماً يدعو إلى التخلص من مظاهر القعدة و الوعدة و الزردة، و التخلص من كل ما يحجر العقل و لو كان شيئاً مكتوباً، لأن هذا أخطر، فهو يُرَبِّي صنف الجامدين الذين سيرشدون الناس إلى ضرورة الركون إلى ظاهرة الجمود و الهمود، فيكونون معاول هدم بدل أن يكونوا وسائل بناء حضاري، فيقول: ﴿إن هناك تفاسير يجب أن تحرق لأنها تشلّ العقل، و تثير سخرية الأجانب، و تُشوّه الإسلام، و لأن أصحابها جامدون خاملون متزمتون يجوز عليهم التيمم﴾ ﴿(19)﴾، فالمسؤولية -إذن- الملقاة على عواتق الأئمة و العلماء و المثقفين ثقافة شرعية، كبيرة، و هي في منتهى الخطورة. و هذا شيء، ربّما، هو الذي أدى بمولود قاسم إلى الإشادة بشورة الخميني في إيران و بشخصه، أكثر من مرة، لكونه توصل إلى إحداث هذه الهزة النوعية، و هذه اليقظة التي تنفض عن الأمة قرون الخمول و الجمود، فجعله بمثابة المنبّه للأمة من غفلتها فعلياً بعد محاولات فكرية عديدة لكثير من الأئمة مثل جمال الدين الأفغاني و محمد عبده و حسن البنا و بن باديس و غيرهم، فيقول مولود قاسم خصيصاً عن الخميني: ﴿إني لأظنّ أنّ الإمام الأكبر -و هو الوحيد الآن في العالم الإسلامي الذي يستحقّ هذه الصّفة! - آية الله روح الله الخميني، قد أزاح جلباب المذلة، و الهوان، و المسكنة عن جميع الأئمة في العالم الإسلامي، على مختلف المستويات! و كم نأمل أن يمتدّ هذا القبس الإلهي، الربّاني، الإنساني إلى جميع الأئمة في جميع أنحاء العالم الإسلامي الواسع، ليهزّوا هذا المليار من البشر النائمين، ذوي الإمكانيات القصوى اليوم... و لكن ذوي المنزلة الدّنيا في العالم! و إنّنا لنكاد نحلم، و نحن نستمتع إلى أخبار إيران!﴾ ﴿(20)﴾، بل و ذهب شوطاً بعيداً في تمجيده ليضربه مثلاً حسناً يشنّع به علماء الصّحون الذين يخافون و يهابون السّجون، فلا يُسمع صوتهم إلّا بالمدح و المجارة و الإشادة بالحكّام و المنجزات، و الدّعاء لهم بالبقاء و دوام الملك و الصّحة و الحياة، و الحفظ من الأمراض و الأزمات، ملوكاً كانوا أو رؤساء حكومات، فيقول في ذلك: ﴿و خاصة "علماء" اليوم الذين يطوفون حول القصور الأميرية، أو الملكية، أو الإمبراطورية، أو الجمهورية، كالبيغاوات، أو "العلماء الدّواجن"، كما سمّاهم الأستاذ عبد المجيد مزبان، فيما سمعت، همّهم إصدار الفتاوى الإدارية، و تحرير البرقيات المنمّقة، تأييداً لحطّي و بواذر،

مهما كانت للأمة خدعا غوادرا، و لولا طابعها المأساوي لكانت أشبه بالنوادير! و من هنا فإننا مهما مجدنا هذا الإمام الخميني، و سابقه أمثال الإمام الكاشاني، فلن نفهم حقهم. فالخميني خاصة قد ردّ الإعتبار لعلماء الإسلام، و شيوخه، و مفاتيحه، و ردّ الإعتبار لرجال الدين عموماً، و ردّ الإعتبار للإسلام في نظر الشعوب الإسلامية و غير الإسلامية، بل و العالم بأسره!.

و سوف يسجل له التاريخ هذه المأثرة، و سيخلّد له هذه المفخرة. فلقد ردّ للقيم قيمتها! و أعاد الحقّ إلى نصابه، و الحياة إلى مجاريها الطبيعية! إنّه القبس الحيّ للإمام عليّ، كرم الله وجهه! فليحيى الخميني، و لتكثر أمثاله في ديار الإسلام! ﴿21﴾.

إنّ مولود قاسم نابت بلقاسم -رحمه الله- كان يعرف حقّ المعرفة أنّ المذهب الشيعي مخالفٌ لمذهب أهل السنّة و الجماعة، و يخالفهم كلّ المخالفة في المذهب جُملة و تفصيلاً، لكنّه يعترف بالجميل للمجتهد فيهم، لكونه أتى بسابقة و فتح باباً للنبنة، و هي سنّة التجديد و رفض الوقوف عند نتاج الآباء و الأجداد، و تحقيق بشارّة الرّسول -صلى الله عليه و سلّم- ببعث الله من مجدّد هذه الأمة أمرّ دينها على رأس كلّ مائة عام، فهو بذلك يحكم على العمل الحضاري الذي قام به الخميني و ليس إنتصاراً لأفكاره و آرائه مثلاً في العقيدة و التشريع، إذ أنّ المسألة تختلف اختلافاً كبيراً مع ما يحمله مولود قاسم من أصالة و إنّيّة، و لكن الفعل الحضاري و هو قتل الجمود هو الذي يستحقّ الإشادة و الإعتراف بالجميل، و نجده يستنكر على علماء أهل السنّة و الجماعة عدم إقتدائهم بمثل الإمام الخميني ما داموا أقرب إلى الحقّ الموحى به، فيقول في شأن الإمام الخميني و في شأن أولئك من علماء أهل السنّة و الجماعة المتقاعسين عن القيام بالمسؤولية الحضارية المصرية:

﴿و تلك هي الإمامة و السياسة! فهو الإمام عليّ و معاوية في واحد، و هو الأشعري و بن العاص متكاملين! إنّها حقيقة ثابتة أنّ الذين تُسمّهم الشيعة و المعتزلة و الزيدية و الخوارج، أجنح إلى قول الحقّ و لو كانت تهدّدهم السيوف و الطائرات و البوارج، فهم دائماً أحياء، و حسّهم السياسي مُرهف، و تعلقهم بالعدل و الكرامة شديد، ثمّ هم بعد ذلك و قبله إلى الثورة دوماً ميّالون!﴾

أما نحن و أنتم يا من نسميهم أهل السنّة و الجماعة، المعروف عن أكثرهم بالقراءة و المشاهدة و السّماع، أنهم العلماء الأجلّاء الميامين، المشهورين أخيراً برفع الأكَفّ و قوله آمين، و تأكيدهم دائماً لذوي الساعة عميق الولاء، مهما كانوا على شعوبهم هم عين البلاء، فليلتكم زاهية هنيئة سعيدة، و أحلام لذيذة عن آمال الأمة بعيدة! طاب نومكم، و لو تعذب قومكم، الذي ضرب فيه الإلحلال أطعابه، و غرس فيه الإستعمار أذنابه، و يحرق الإستغلال الفاحش أجنابه ﴿(22)﴾.

ثم إننا نجد مولود قاسم يضرب لنا مثالا عن جهود هؤلاء العلماء و الأئمة حتى في مجال التعامل مع نصوص الدّين، و لا يقبلون آية مبادرة ترفع من مستوى المسلمين و تحقّق عزّتهم و لا تجعلهم مسخرة لدى باقي الأمم و الشعوب، كأولئك الذين يجرّمون التصوير الفوتوغرافي و كلّ ما يتعلّق بفن الصّورة، أو حين نادى بضرورة العمل بالحساب الفلكي لتحديد الأشهر القمرية، إضافة إلى الرّؤية ليلاد القمر و إستهلاله بآلات العصر للرؤية عن بعد، و بدأ يعمل بذلك عندما تولى وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، و ذهب حتى إلى الكويت لعرض فكرة و إجتهد بلاده في ذلك، أمام جمع من العلماء و وزراء الأوقاف في بلاد المسلمين ﴿(23)﴾. فيقول: ﴿طبعاً وجدنا أمامنا بعض من ظلّ أياماً يردّد ذلك الحديث: "إنّا أمة أمية لا تقرأ و لا تحسب، الشهر هكذا و هكذا و هكذا، أو هكذا و هكذا و هكذا، و عقد إبهامه" أي 30 أو 29 يوماً ﴿(24)﴾، ثمّ يضيف مبيّناً مدى تأخّر هؤلاء العلماء عن فهم عصرهم، و جهودهم في فهم النّصوص، و توقّفهم عند ظواهرها دون أدنى وعي و فقه علمي و حضاري، فيقول: ﴿و اسمحوا لي أن أضيف إلى هذا أنه من العجب العجاب -مهما كانت أسانيد الحديث المذكور- أن نطلّ نتمسّك بظاهرة بعد أربعة عشر قرناً من نزول "إقرأ"، الذي فرض علينا العلم بعدد السنين و الحساب، في أمة كانت حقّاً أميّة، و من أكثر الأمم أميّة، و جهلاً، و تأخراً، و لكنّها أصبحت بذلك "إقرأ يا سم ربك" معلّمة البشرية ﴿(25)﴾، ثمّ نجدّه يُشنع بهذا الوضع الذي تعيشه الأمة و هذا الفهم الذي يمتلكه و ينشره علماؤها خاصة، غير واعين و لا مدركين لحقيقة التطور العلمي و تخلف أمتهم عن الركب و مواكبة الحياة السّريعة و الدقيقة الحديثة، فيقول: ﴿ماذا فعلتم

ياقرأ باسم ربك يا ناس؟ أمة بن جابر، و الخوارزمي، و بن حمزة الجزائري، التي علمت البشرية الحساب، أيجوز أن تقول عن نفسها إنها "أمة أمية"، بعد أربعة عشر قرناً من نزول إقرأ؟ و ندعي بعد ذلك أننا نحتفل بدخول القرن الخامس عشر هجري؟ ﴿(26)﴾.

إن ظاهرة الجمود هذه، هي التي كانت تشكل عند مولود قاسم العائق الأول أمام أي طموح مشروع في النهضة و اليقظة الحضارية للعالم الإسلامي، و أول من يجب أن يتخلص منه أئمة و علماءه، الذين يرى فيهم عامل تبييه و إيقاف مستقبل إذا ما أطاقوا هذا الجمود عن أنفسهم، و يرى فيهم عامل الفناء للأمة إذا ما تمادوا في الرقود و الهمود و في هذه الظاهرة المميتة، إذ يقول عن المستقبل المشهود فيهم: ﴿للقيام بدعوة ما لا بد من دعاة، و دعاة الإسلام في عالم اليوم ينبغي أن يتسلحوا بوسائل اليوم، فحتى داخل العالم الإسلام ينبغي لأئمة المنابر أن يقلعوا عن طرقهم القديمة، التي لا تقنع إلا الكبار المسنين المقتنعين. فطريقة الوعظ و الإرشاد ينبغي أن تتغير جذرياً. فالدعوة الخصب المثمرة هي التي تنصب على غير المقتنعين لتقنعهم، و على المزعزعين المذبذبين لتعيدهم إلى الجادة الصحيحة و تحصنهم، و خاصة منهم ما يُسمى بالشباب المثقف، الذي هو ليس في الغالب إلا متعلماً لا مُثَقِّفاً﴾ (27)، فمولود قاسم يضع المسؤولية على عواتقهم، و يحملهم عبء تولي إيقاف الأمة من سباتها، و هي مسألة وجود أو لا وجود كما يراها، إما أن يتصدوا لما هو مطلوب منهم، و إما أن ينسحبوا من الساحة حتى لا يكونوا سبباً يعيق الإسلام من التواصل مع أبنائه، رفعاً للهمة التي تعيب الإسلام و العيب في غير الإسلام الموحى به، و قديماً قيل:

نعيب زماننا و العيب فينا و ما لزماننا محبب سوانا

و نصبو حنا الزمان بغير حنوب و لو نطق الزمان لنا لعجانا

فهو يرى في علماء زمانه -إلا القلة منهم- عيب أمته، و معول هدم لما تبقى فيها من حبّ النشوة للحياة الحضارية التي تكون الند للند، لذلك مجده يعلن في وجوه الأئمة أيام كان وزيراً، محملاً لهم المسؤولية بأسلوبه التهكمي الساخر النابع من غضبه في أغلب الحالات و الأحيان، فيقول لهم: ﴿هذا عبء قبلتم به، هذه مسؤولية تحمّلتموها. فينبغي أن تقوموا بها، و تؤدّوا هذا الدور، و إلا فقولوا: نحن لا نستطيع أن نقوم بهذا،

لتكأفوا بعمل آخر، و البلاد محتاجة إليكم في قطاعات أخرى، و تستطيعون أن تقوموا بالتعليم، تعليم القواعد، كمدرس للنحو مثلا. و المنتظر منكم عند تدريس قواعد النحو فعل و فاعل، عوض أن تقولوا: قام زيد بدوره! فعل و فاعل. جاز و مجرور و مضاف إليه! ﴿28﴾.

إننا نجد مولود قاسم يدعو إلى الوسطية التي يجب أن تتحقق بإستفاقة أئمة أمته و علمائها، للتصدّي لظاهرة الإنزلاق الخطيرة أيضا و التي تقابل هذا الجمود و الهمود، و التي يسميها المرحوم بالإنفصالية، و ما تعانیه الأمة من مكر أعدائها و دهائهم - و هم لا يأسون في ذلك - من مسخ و فسخ و نسخ، هذا الثالث الجهنمي الذي يجب أن يُقاوم بثلاثي ذهبي سَمَاه مولود قاسم بالحزم و العزم و الجزم، و لكن لا يتيسر هذا إلا بعد التخلص من حياة الجمود المستشرية و المستفحلة و النّاخرة في جسم الأمة. فهو يدعو إلى هذه الوسطية التي تعيد الأمور إلى نصابها، و سوية عادلة مقنعة مستقطبة للأنصار من حولها، لكونها تبعث نياما حياة الإستفاقة و اليقظة، لا لتدخلهم في سكر، فيكونوا قد خرجوا من سكر هو الجمود إلى سكر جديد هو التبعية و الإنفصال عن الذات و الشخصية الحضارية، فيقول: ﴿إننا أمام فريقين نرى أنّ كلاّ منهما مُغال و واقع في الشطط: أحدهما فريق المتقوقعين، المتزمتين، المنزوين، المنكمشين، الرّاكدين، المغلقين، الجامدين، الذين يدعوننا باسم المحافظة على التقاليد إلى عدم الإكتفاء بإقفال الأبواب، بل يطلبون منا أيضا سدّ النوافذ، حتى لا يتسرّب إلينا بصيص من نور، أو نسمة من هواء، و تبقى في الظلمات، و نتعرّض للإختناق! و الفريق الآخر يلحّون علينا باسم التقدمية و الثورية و التطور و التمدّن و سعة الأفق، و التفتح و العالمية، داعين إيانا إلى عدم الإكتفاء بفتح النوافذ واسعة، و الأبواب على مصاريعها، بل يصمّون آذاننا بالناداة بضرورة نزع السّقوف أيضا، و هم المغامرون، السّطحيون، الممسوخون! ﴿29﴾، و كأنّ الأمة و إسلامها معرّضان للضياع بين هاتين الفتنتين من الناس، الجانحتين نحو التطرف، فإما إفراط ليس بمعنى التمسك الشديد و إنّما بمعنى التمسك الأعمى و الفبي غير الواعي و لا المتبصر، و لا عملاً بقول عليّ بن أبي طالب - كرم الله وجهه - ﴿حدّثوا الناس بما يفهمون، أ تُحبّون أن يُكذّب الله و رسوله؟!﴾، و إمّا تفريط نابع عن إنفصال و مسخ و المحلال أو تحلّل كما قد يجلو لمولود قاسم أن يسميه،

بمعنى أنه خروج من الذات و كل رصيدها الحضاري، و العيش في ذات الغير دون أن يكون هناك تناغم، و قد وجدناه يخاطب عن هاتين الفئتين و خطورتهما و يصل إلى أن يستعيد منهما و من طامتهما التي ستلحق الأمة منهما، إذ المفسدة فيهما شيء ظاهر، و المنفعة أو المصلحة غير مرجوة منهما، فيقول: ﴿و استعذتم بالله من كلّ أعشى غاسق، من النور و الأوكسجين آبق، يسدّ علينا منافذ الضياء و الهواء، ناصحاً بإختيار الظلمة و الإختناق، و من كل أهوج فاسق، لكلّ آفة ناسق، يدعوننا إلى هتك السّتر، و ما يسمّيه التحرّر و الإنعتاق، يريد لأبوابنا الإنشقاق، و لسقوفنا الإنفتاق﴾ (30).

إنّ كلّ هذا يدخل في تشخيص داء الأمة و مرضها و البحث عن اسباب النكسة و الوكسة و النكبة التي يعيشها المسلمون في هذا الزمان، الشيء الذي يحتاج إليه كلّ داعية يريد أن يباشر عمله الدعوي في أرضية يعرفها جنة المعرفة، فالوقوف على الخلل في المجتمع و مسيرته الحضارية هو الكفيل بجعل هذا العمل فعالاً و ذا مردود. يكون الجمود هو أوّل الأمراض التي تعاني منها الأمة، و بالتالي فهو موجة للعمل الدعوي عند مولود قاسم من جهة السلب، يرتكز عليه هذا العمل الدعوي فكرة و تجسيدا لخاربه و التخلص منه و تخليص الأمة من خيوطه، و في أوّل الأمر تخليص علمائها و أمتها منه.

الإنفصالية موجهاً سالياً

تأتي الإنفصالية كثنائي موجّه من موجّهات الفكر الدعوي من جهة السلب عند مولود قاسم، وهي تقابل دائماً داء الجمود في كثير من طروحاته وتحليلاته، فهي دائماً تأتي كردّة فعل لظاهرة الجمود في التعامل مع الذين ومع التراث، إذ تنشأ دائماً فنة متطرفة من الجانب الآخر تحاول أن تعتق من كلّ ما يُحتمل أن يربطها بماضي الأمة. فمولود قاسم يحارب هذه الفنة وتلك، الجامدون والمنفصلون على حدّ سواء، فالفنة الأولى جاهلة أو متجاهلة، والفنة الثانية فاقدة للأمل فيما تحمله أمته من تراث ودين، تبحث عن علاج فيما وراء ذلك، ولا تراه ناجعاً أو فاعلاً و مناسباً إلاّ من خلال الإنفصال عن ذاته الحضارية والتشبه بالغير قلباً وقالباً، باطناً وظاهراً، وجهاً و صدرًا، عمقاً و سطحاً، في كل مجال من مجالات الحياة، فتفصل عن الذين، وتفصل عن التاريخ، وتفصل عن العادات والتقاليد، وعن ثقافة الأجداد، وعن لغة أو لغات أمتهم، وتفصل عن السلوك العام الذي يعكس عمق مجتمعا الحضاري الذي تشمئزّ منه لاعتبارات عدّة. ويكون هذا حاصلًا بفعل دوافع عديدة موهومة، هي العصرية أحياناً، والحداثة أحياناً أخرى، والتقدّم والرقيّ والتطور في أغلب الأحيان.

لجد مولود قاسم -رحمه الله- يصف هذا الصنف من الإنفصاليين وصفًا دقيقًا، يبيّنهم ويكشف عن أحوالهم النفسية والعملية تجاه كلّ ما يتعلّق بالأصالة والدين والتاريخ والتراث، فيقول: ﴿فكم ممن هو في الغربة الروحية ثاو، ونصيبه من فكر أهله ناقصّ ذاو، ولكلّ أصيل أصلي لديه شاو، ولتراث و قيم أهله كاو، وللحقيقة والأصالة العنق لاو، وإياهما من أمتة بقصد أو عن سداجة زاو، لأنه لهما أبداً غير حاو، ولئن كان منهما فهو فيهما ضاو، وللغو الكلام عن الأغرّاب راو، وبما لقنوه من عقّد ضدّها عاو! فلن ينقذ عالم الإسلام إلاّ الرجوع إلى إسلامه، ولن تكون نهضته بإستسلامه، الذي هو ربّما أعلى أحلامه!﴾ (31). إنه يرى في هذه الإنفصالية إستسلامًا بكل معاني الكلمة، لكلّ ما هو خارج عن الذات والشخصية الحضارية، وهو نوعٌ من الموت نابعٌ عن القصد أحياناً، و نابع عن السداجة والجهل

أحيانا أخرى بفعل العقدة و الإحساس بالدونية و الإنهزام أمام من يظنّ المنفصل أنه قد وصل إلى التآلق الحضاري في عينه، فيحاول أن يُقلّده في كلّ شيء مُجسّداً الحمق في أعمق حالاته عند مولود قاسم، إذ يقول عن ذلك: ﴿إيه، يا من كنتم للأمم العير، هل أخذتم الحمق و الخير، من الغراب أضحوكة الطير؟ إيه، أمة الإسلام، أصالية أم إنفصالية؟!﴾ (32). ووصل الحال بمولود قاسم إلى أن يُعنون كتابا كاملا في جزئين بالعنوان التالي: ﴿أصالية أم إنفصالية؟﴾، دليلاً على محاربه هذه الظاهرة الإستنزافية التي تمسّ أصالة الأمة و انتماها الحضاري، فيطرح السؤال على شعبه: ماذا يريد؟، أمة أصاليّة متمسّكة بعمقها التاريخي و اللغوي و الحضاري، عاملة من أجل صقل شخصيتها للتعايش مع العصر، و التمايز عن الأمم من حولها؟، أم أنه يريد أمة إنفصالية لا ثقة لها في تاريخها و لغتها و حضارتها، تعلن الإنهزام أمام الأمم بأسرها و تقبل الدونية، و تقضي على نفسها بيدها مقلّدة في كلّ شيء لغيرها حتى و لو دخلوا جحر ضبّ دخلتة، لإتباعها الأعمى غير المتبصر، فتشتم نفسها باقتلاعها جلدوها عن أرضها، فلا هي ستصبح معززة لأنها لم تتميز حتى تبرز، و لا هي ستصبح غيرها لأنها لن تستطيع ذلك ما دام الصراع سيحكم ساحتها و قاعدتها البشرية بين أصالتها و إنفصالتها، و هو تصادم قد يؤدي بحياتها بين الأمم؟، فهو يؤكد أمراً مهماً في حياة الأمة أو موتها، و يجعل ذلك مرهونا بتمسّكها بأصالتها أو إنفصالها عنها، إذ يقول: ﴿فالأمم إذن بشخصيتها، و بأصالتها، و بأصاليّتها التي هي ضمان هذه الأصالة! إنّ الأمم بالوعي بذاتها، و الشعور بنفسها، و الإعتزاز بقيمها، و التمسّك بما يميّزها عن غيرها، مع الإستفادة من تجارب الغير. تلك هي أصالية الأمم، التي تمثل في الوقت نفسه أثرها و ثراءها، و إسهامها في الجهود الحضاري و الفكري البشري المشترك. و كلّ ما عدا ذلك فهو إنفصالية!﴾ (33). فالإنفصالية، و بذلك، هي فقدانٌ للشخصية بكلّ أبعادها التاريخية و اللغوية و الدينية و الأصالية، و هي ضياع الإعتزاز بالنفس و رصيد الأجداد في الإسهام في الجهود الحضاري و الفكري البشري، و الإنعتاق من كلّ ما يربط الجيل بالذات و الأنا و يتواصل معها حضاريا و ثقافيا، و البحث عن الخلاص و النجاة بالتخلّص من مضمون الأمس بكل ما فيه من إنتماء و ثقافة و عادة و تقليد و لغة و تاريخ و دين، و الإنفصال هنا يعني التخلّي و الترك و الإنعتاق، و ذلك تحت غطاءات كثيرة مغرية تدخل في كون المغلوب مولعاً بإتباع الغالب،

إذ يقول مولود قاسم عن ذلك: ﴿و الفريق الآخر يلحون علينا بإسم التقديمية و الثورية و التطور و التمدن و سعة الأفق، و التفتح و العالمية، داعين إيانا إلى عدم الإكتفاء بفتح النوافذ واسعة، و الأبواب على مصاريعها، بل يصمّون آذاننا بالمناداة بضرورة نزع السقوف أيضا، و هم المغامرون، السطحيون، الممسوخون!﴾ (34)، و ليس المشكل كامنا في ترك هؤلاء للأصالة فقط، بل المشكل أنهم لن يصلوا بهذا الفكر إلى تألق مأمول و منشود و لن يمضوا بعيدا، لأنهم سوف يعمقون الهوة بين حياة مجتمعاتهم النفسانية و حياتهم الملموسة أو المادية، فيحصل الصدام و اختلال الشخصية على مستوى الأفراد و الجماعة بالدخول في صراع داخلي بين القيم المتوارثة و التي لا يُتخلّص منها بسهولة، و بين الأفكار و السلوكات الانفصالية الداخلية و التي لا تعبّر عن عمق تفكير حضاري بل تدلّ على تفكير آني مصلحي و سطحي، سرعان ما يجبو أو يصل إلى التحلّل و المسخ، لأنّ الإنتقال إلى جعل النفس نسخة من الغير أمرٌ مسحيل قلبا و مضمونا، و إن تيسّر ذلك قلبا و ظاهرا.

إنّ مولود قاسم نايت بلقاسم يرى هذا الفريق من الناس و تفكيرهم سطحيًا، بالرغم مما يبدو أنه في كلامهم و سلوكياتهم من أنهم عصريون، فإراهم منهزمين هارين، لا عزة لهم و لا أنفة و لا تميّز حتى يستحقوا و يكسبوا إحترام الغير، و هم سواء في التفكير مع أولئك الجا مدین الهامدين القاعدين المتفوقين الذين سبق و أن تكلمنا عنهم، فالجامد المتفوق مقلّد، و المنفصل المنعق مقلّد كذلك، و ليس فيهما من تخلّص من التقليد و الإبتاع بكل مظاهره السلبية. فالأول مقلد لنسخة سابقة لم يطورها، و الثاني مقلد لنسخة حاضرة و راهنة بحيث أنه لم يخترع و لم يُبدع و لم يتكر شيئا غير مساواته و مجاراته للجامد المتفوق في التقليد. و في ذلك يقول مولود قاسم: ﴿فالعصرانية ليست أبداً بالمروق، و الإستنارة ليست بالحروق، و لا القمّة بإجتثاث العروق، و بين الحق و الباطل فكم من فروق!﴾. كما أنّ التزاث و الماضي ليسا بالجمود، و النار إذا لم تغذى صارت حمود، و هل في المنهزم الهارب من صمود؟ إيه، أمة الإسلام، أصالية أم إنفصالية؟﴾ (35)، هذا خاصة وأنّ الانفصالية في أوّل مظاهرها هي الإبتعاد عن الخلق العام و القيم و المبادئ المتوارثة، و ليست فقط انفصالية فكرية بل هي نوع من الزندقة و الخروج عن الدين في أغلب مظاهرها، لذلك يعبر مولود قاسم عنها

بالمروق و إجتثاث العروق، و تتجلى في التفسّخ و الإنحلال و لور كبت متن الأفكار و الأيديولوجيات و الفلسفات الحديثة من الشرق مستوردة أو من الغرب.

إن مرض الانفصالية نابع من فقدان الثقة في النفس، و الإنهيار و الوقوف باندهاش أمام قوة الغير و الذهول قدام نموذج حياته دون الالتفات إلى وجود المساوى المغطاة، و محاولة نقل الذات إلى معيشتها، أو نقل معيشة الغير إلى الذات و لو بالبداية بنقل المظاهر في اللباس و الكلام و السلوك العام إلى أن يتيسر نقل الأفكار و الأيديولوجيات و الثقافات و الفنون لتحلّ مكان الأفكار و الثقافة و الفن و الدين المتوارثين، و التي يراها المنفصل سبباً في تخلف مجتمعه و عائقاً يحول دون العصرية و الحداثة، و لربما يراها تعارض معنى الحضارة بمعانيها الإنسانية (النبيلة) التي لُقّنها من التسامح مع كل شيء و لو حتى مع الشذوذ و التفسّخ و الإنحلال، فيتأفف منها و يدّعي التوق للحرية و يبدي العقدة في الإنسحاب إليها. إن هؤلاء الانفصاليين، أو المنفصلين أولاً، حتى ولو لم يعملوا لأجل هاته الفكرة، بل يجسدونها فقط تقليدياً، إذ الانفصالية على غرار الانفصال هي عمل ماثب فيه لأجل الوصول إلى فصل الناس عن أصلهم و أصلتهم، فالمنفصل متأثر ساذج مغفّل، أما الانفصالي فهو واع بما يعمل، و يعمل عن قصد و تخطيط و بعمد عساه يؤثر في باقي الناس؛ إن كلّ هؤلاء يجعلهم مولود قاسم فاقدين لأدنى إحساس بالاعتزاز، يعيشون حياة الحيوان فقط، حياة الإستهلاك و البحث عن غذاء البطن، يبحثون عن قوت اليوم - إن صحّ التعبير-، لا همّ لهم سوى المعيشة الحسنة مظهرًا، في الثقافة أو في الإجتماع أو في الإقتصاد، رافضين معيشة الشرف، قابلين بالمدلة الثقافية و الحضارية، مستسلمين لفكرة الإستهلاك الحضاري بكل معانيها، لا ينتجون إنطلاقاً بما عندهم، بل يستهلكون ثقافات غيرهم ليس إلّا. فيقول مولود قاسم على ذلك: ﴿إنّ الأمم بأصلها و أصالتها، و إنّها لا ينكر أصله و أصالته إلّا من لا أصل له و لا أصالة﴾ (36)، فتذهب القيم و المبادئ التي بها تُبنى المجتمعات، و التي تصمد أمام الأزمان و تقلبات الدهر، تحفظ العنوان و المضمون لحضارة الأمة، و مهما تغيّرت الأوضاع، فلا يتغيّر سوى الظاهر، أما الباطن فيقطع مسافات التاريخ مهما تبدّلت الأبدان لأن الشخصية و الذات الثقافية هما اللتين تبيان الكيان، فنصل الانفصالية إلى خلق حضارة بلا عنوان، أو إلى ترك العنوان حاوياً بلا مضمون و لا كيان. و هذا ما تجسّد أمام عينيّ مولود قاسم من أوضاع بلاده -الصغيرة منها و الكبيرة- و جعله يصف أمته الغارقة في الانفصال عن ذاتها و مضمون حضارتها و أصالتها، فيقول: ﴿فلا هي

أُجزّت هذه التنمية، و لا حفظت لشخصيتها عدا التسمية؛ فإذا بها في الخسران مثل تركية، فقدانٌ و مسخٌ مثل الحركية... إنها بزائف الرقيّ هي الحاملة، و لأصالتها هي الثالثة، و لإيتها هي الكاملة، و لنفسها عين الظالمّة، عمدًا و كأنها غير العالمة؛ فأمست في قبح التقليد غرابًا، و ياليتها كانت ترابًا، و في البلاده تحكي النعمة، و كل قبيلة في ذلك تنوي الزعامة ﴿37﴾.

لقد قضى مولود قاسم كل حياته فيما بعد إستعادة إستقلال البلاد، مناضلاً من أجل نيل هذه الإنفصالية و إستصالتها و العمل في سبيل ربط شعبه بأصله، فكان في كل مجمع و محفل يذكر الناس بأفكاره و فلسفته في الحضارة، و يجذّر من الموجهات السالبة للبناء الحضاري في أمته من جمود و انفصالية و مركوبية و فسخ و مسخ و نسخ و المحلل، و ربما حتى ملّ منه من يسمعه يكرّر و يعيد نفس الكلمات، لكنها كلمات هادفة و موزونة نابعة عن فكر عميق و إحساس بالمسؤولية لا يمتلكها سوى العظماء، و هو واحد منهم، إذ يقول في ذلك: ﴿بالنسبة إلى التكرار، فأنتم تعلمون تلك الطريقة التي ركّز عليها علماء كبار، مثل إينغاوس، و هيلمهولتز، الألمانين و آخرون، و هي الآن مكرّسة في علم النفس و علوم أخرى و قد قال بها أجدادنا قبل هؤلاء الألمان و غيرهم، حيث قالوا أن التكرار هي الأداة الأساسية الأولى في التعليم و التلقين و التأثير، فأنا أكرز هذه الحقائق لأنني مهما كررت و كرر غيري معي، و كرر غيري للتصحيح، فلا بد من مدة طويلة جدا لنمحو ما كرره غيرنا في مجال التزوير و التحريف، و من هنا قال الإمام عليّ -رضي الله عنه و كرم وجهه- لأصحابه في موقف من مواقف الحرب، في لحظة إنفعال و تأثر و إنزعاج، قال: "ما بال أقوام يصرون على الباطل و لا يملون و لا يكلون من تكراره، و أنتم -متّجها إلى أنصاره- تملّون من ذكر الحق؟"، أو كما قال في نهج البلاغة ﴿38﴾، فكان مولود قاسم يردد نفس الكلمات، و قد تجدها من خلال كتاباته معادة و مكررة في أكثر من موضع، و من بين تلك الكلمات ما يأتي مركزًا و موزونًا يتعمّد فيه السجع لا للجمال اللغوي فعسب، بل لهدف آخر هو ترسيخ المعنى في أذهان القراء أو المستمعين لوجود نغمة موسيقية و شاعرية فيها، فيقول عن هذه الصيغة من الكلام: ﴿هذه الصيغ

المركزة هدفها تلخيص الفكرة و تركيزها ليتذكرها القارئ أكثر مما لو وردت بالأسلوب العادي أو الهيكلي غير المهيكل بل الهزيل المخلخل» (39). و من هذه الصيغ مثلاً ما استعمله ليعبر عن معاني الإنفصالية، مخاطباً به القارئ مباشرة، جاعلاً إياه في محط المسؤولية و الشعور بالواجب نحو الأصالة و حضارة الأمة، ما كتبه قاتلاً: «إذا لم يكن لديك إستعداد، إذا ما نال منال من ركن من أركان شخصيتك، و مكوّن من مكوّنات ذاتيتك، و عنصر من عناصر إنيتك و أصالتك، أو لحق مساسٌ بإسم بلدك، مولد أبيك و ولدك، و لم تثر إنسانيتك أو آدمك، و لم يستنكر عقلك و يفرد دمك، و لم يجنّد العقل و الروح إذ يغلي، و لم يتملّكه الغضب المشروع ليملي، فأنت ليس لك إذن من آدم حظّ، و لأنت إذن لحيوان فظّ، غليظ القلب و السّلي الأناي، و لست من النوع الإنساني!». و كُنْ متأكّداً في هذه الحال أنّك إنفصالي، و لا يحقّ القول أنّك أصالي؛ فأنت قد اخترت الإنفصالية، و نبذت ما يتصل بالأصالية، و ما أبعد نك عنها بالزّمخشري، و ما أقربنك إلى قتلة الهمشري!» (40).

و بهذه الكلمات المباشرة التي يفهمها العام و الخاص، يعبر مولود قاسم عن فكر فلسفي هو الفيصل بين بناء حضارة أو هدمها، و لكننا نجد و بكلمات أكثر عمقاً و أكاديمية و علمية يعبر عن نفس الفكرة لمن يفهم أو بوسعه أن يفهم المخاطبة الفكرية الفلسفية الجادة الداهية إلى المقصود مباشرة، و المختصرة للطرق المتبوية، فيقول عن وصف هذه الإنفصالية في معانيها المتعلقة سلباً بالشخصية و القيم و الأصالة و الإنية و اللغة و الدّين و التاريخ و الوطن و العرف العام - و التي تحدّد الإنفصالي بإتصافه بالتخلي عنها أو عن جزء منها - ما يلي:

«إنّ مجرد القول أو القبول بالتبعية في أي ميدان كان و بالإنفصال عن القيم، و التهاون في تعزيز مكونات تلك الشخصية، و عدم العَضّ بالنواجذ على عناصر تلك الأصالة، و الإسترخاء في التثبّت بمقومات تلك الإنية، التي هي اللغة، و الدّين، و التاريخ، لغرس حب الوطن، و الحياء أو العرف العام، الذي هو شرط الوازع الأخلاقي في الفرد و الأمة، و سدى المجتمعات و لحمها، و ما يجعل من الإنسان الإنسان، و يوثق عضويته من الإنسانية، أقول إنّ مجرد التهاون في التثبّت بهذا

كله هو ذوبان الشخصية، و إنعدام الأصالة، بل أكثر من هذا كله: أن هذا كله هو موت الأنا، فضلا عن الإنية؛ فهو إنفصام الشخصية؛ وإنه هو الانفصال عن الذات، هو إستئصال النفس، هو الانفصالية؛ إيه، أمة الإسلام في مجموعها: أصالية أم إنفصالية؟ ﴿41﴾.

ثم إنه يحدد مواصفات هذه الانفصالية التي تتلخّص في الإنعتاق من كل ما يُتُّ بصلة إلى تراث الأجداد و نتاجهم بين الشعوب و الأمم، و المعيشة بعيدًا عن آمالهم لو كانوا أحياء، و التخلي عن نمطهم و فلسفتهم في الحياة بلفظ و رفض مبادئهم و قيمهم و معتقداتهم و أعرافهم الإجتماعية و الثقافية، و محاولة العمل من أجل التحرر منها طمَعًا في محاكاة الغير و مجاراته و الوصول إلى النموذج الأمثل بعيدًا عن هذه الأصالة المقلقة و المعيقة للمنفصل للحصول على رضا غالبه الثقافي و الحضاري، إذ يقول مولود قاسم مرة أخرى موضِّحًا ذلك: ﴿إنَّ تلك الأوصال التي تربطك بالأسلاف، و تضرب بجذورها في أعماق التاريخ، هي مكونات الشخصية، و عناصر الذاتية، و هي الإنية و الأصالة.

و الدعوة إلى الحفاظ عليها، و التمسك بها، و السهر عليها، و التحمّس لها، و العمل دوْمًا لتعزيزها، و لغرسها و لتغذيتها، و التضحية من أجلها، هي الأصالة؛ و اللامبالاة بها، و التهاون فيها، و ضرب الصّفح عنها و طيّ الكشح عن مصيرها، و عدم رعايتها، و إدارة الظهر لها، و الإشتزاز منها، و النظر شزرا إليها، و البصاق عليها، و الإستهانة بها، و الدعوة إلى إضعافها، فضلا عن السعي لإغفالها، و العمل على محوها، هو ما نسميه بالإنفصالية؛ أمّا عناصر هذه الإنية، أمّا مكونات هذه الشخصية، أمّا أركان هذه الأصالة، التي تمثل التضحية من أجلها ما سمّيناه بالأصالية، فهي اللغة و الدين، و التاريخ، و حبّ الوطن، و الثقافة المتأصّلة، و التقاليد، و ذكريات الأجداد ﴿42﴾. و نجد في بعض الأحيان يضرب أمثلة على هذه الظاهرة المرّضية التي بدأت تنفّس في مجتمعه و أمته، ليثيرها و يجعل الناس ينتهون إليها و يهتمّون بها بالعلاج و الخاربة، و لقد كرّر جملة هامة في مقدمة كتابه: ﴿أصالية أم إنفصالية؟﴾، فقط أكثر من عشر مرات على مدار ستين صفحة، هي جملة عنوان الكتاب:

﴿أصالية أم انفصالية؟﴾، و ذلك بعد فقرات يحلل فيها واقعاً مريراً تعيشه أمته، و من أمثلة ذلك ما أورده عن انفصالية المرأة في لباسها و سلوكها، و إلى أن وصل الحال ببعض النسوة إلى المجاهرة بفكرة الانفصالية عياناً كاختيار فكري و ليس مجرد التفسّخ و الإلحلال الأخلاقي، بل نابعة عن قناعة و توجه فكري مضاد للأصالة لا مجرد تمعّ و نزوة شيطانية عابرة، فيقول: ﴿بل أكثر من هذا: ألم يخرج قطع من أمثال تلك المخيخات الهزيلة في مظاهرة في العاصمة الفرنسية بعنوان: (رابطة النساء العربيات في باريس)، و هنّ يصرخن: "إرتعد أيها الإسلام!" مطالبات "بتحرير المرأة" في منشور و زعنه هناك؟، أصالية أم انفصالية؟، تحرّر من أيّ شيء؟، و الإسلام يرتعد منكنّ؟ طبعاً لا! فالإسلام كرسالة إلهية لا يرتعد و لكن بقية أركان العالم المنتسب إليه، أي العالم الإسلامي، ستتهار، إذا إستمر الحال على هذا المنوال، و ستحقيق به أشدّ الأهوال، و ستكون عنه للتاريخ أحكام و أقوال! أصالية أم انفصالية؟﴾ (43).

و نوع آخر من هذه الانفصالية ما يتعلق بالدين و التعامل معه فكراً و عملاً، و ما يشعر به أهل مجتمعه من إشتزاز و عقدة إذا ذكر التمسك بالدين و الشعائر، فيقول عن ذلك في صيغة إستنكار لما آل إليه حال المسلمين: ﴿و نودّ هنا أن نتساءل -لفتح عيون المعتقدين من المسلمين الواصمين لكل ما يتصل بالدين بالرجعية-، لم تُعجّد أوروبا، حتى الصحف و الشخصيات السياسية منها، إهتمام إسرائيل بالدين، و تلومنا نحن على ذلك؟، لم تهلّل أوروبا و تصفّق لتمسك بولونيا بالدين، مدعّمة مقالاتها و تصريحاتها بأعمدة من الأرقام و الأسماء... بحماس و تقدير، و إجلال، مشيدة بتدين "الشعب البولوني الذي يرى حصانته، و أصالته، و إستمرارية أمته و وحدته في تمسّكه بدينه"، و يسرعون إلى وصم المسلمين "بالتعصّب، و الرجوع إلى القرون الوسطى" و غيرها من الشعارات و الصيغ التي يعتقدون بها -مع الأسف- الكثير من أشباه المسلمين، و لا مسلمين، أو كما قال الحجاج: (أشباه الرجال، و لا رجال)﴾ (44).

و فيما يتصل بالتاريخ الذي هو مهمّ جدا في فلسفته لبناء الحضارة و الدعوة إليها، فإن مولود قاسم كتب في مقدمة كتابه: ﴿شخصية الجزائر الدولية و هيبته العالمية قبل 1830﴾ كلامًا يشير إلى إنفصال شعبه عن بعض تاريخه، فيقول: ﴿كنت نويتُ أن أعنونَ مقدمة هذه الدراسة هكذا: (فصل المقال و حدّ النَّصال، فيما بيننا و تاريخنا من الإتصال أو الإنفصال)﴾ (45).

و في موضوع آخر يستنكر حالة الإنفصال عن جزء من تاريخ هذا الشعب بدافع من الدوافع، حيث آلمه هذا الأمر، فكتب يقول: ﴿و الصّمت عنه ينبغي ألاّ يستمرّ!، لا!، ينبغي ألاّ يكون الإستخفاف بالأُمور إلى هذا الحدّ يا جماعة!، إذا بدأنا هكذا نُجزئُ تاريخنا، فبعضنا يقول بإسم الإسلام، أنّ الفترة النوميديّة هذه جاهليّة، إذن لا نعرّف بها، و غير تاريخيّة، و بعدها الفترة الإسلاميّة بمختلف عهودها، بما فيها العهد العثماني، فتأتي جماعة فتقول "هذه الفترة كذلك لا نعرّف بها لأنّها غزوة، أو "سيطرة" و "إحتلال"﴾ (46).

و عن بعض السلوكات الأخلاقيّة و الاجتماعيّة التي تُنبئ بتفشيّ هذه الإنفصاليّة في أوساط شباب مجتمعه، بواسطة تنكّرهم للعرف العام المتوارث و تقاليد و عادات شعبهم، إذ يقول عن التراث - كما يؤدّ و يرغب أن يكون مفهومًا لدى الجميع-: ﴿التراث ليس الآثار التاريخيّة فقط، و ليس الكتب، و المخطوطات فحسب، بل و أيضا العادات الصّالحة و التقاليد، التي تحفظ لها جزء من كيّانها، و توطّد مظهرها من مظاهر وحدتها، و تمثّل العرف العام الجامع بينها، و هو السلوك العام المشترك بين جميع أفراد الأمة، و الدستور غير المكتوب المتعارف عليه بينهم﴾ (47)، ثم يرى سلوكات خارجة عن هذه العادات و التقاليد و العرف العام، هذا الدستور غير المكتوب، يراها تعلن الإنفصال عنها و تعاديها، فيصرخ باستنكار مثالٍ على سبيل الذّكر من هذه السلوكات، قائلا: ﴿أمّا الآن... فإنّي سمعتُ... أنّ الخمر كثيرًا ما تُشرب على حواشي العديد من تلك القرى، و أنّه قد إنفكّت تلك القيود و العرى! و أنّ أحدا لم يعد يدفع شيئًا للجماعة، إذ قد ذهب كثير من تلك المناعة! بل يشربون في نفس تلك القرى و إن على الحواشي،

من الزجاجاة رأساً أو من أقداح كالشواشي بقصد توفير الماء للمواشي... و الكسرة لم تعد تُصنع في البيت بل يأتي الخبز من الكواشي!. ألا فإستمروا في هذا "التقدم" حتى تصيب الشعب الغواشي ﴿48﴾.

أما عن الانفصالية التي تمس التفكير الحضاري - والسلوك طبعاً لا ينفك عن التفكير-، و كيف عاد الناس ينظرون إلى دينهم حضارياً، فإن مولود قاسم يرى أن جهود المسلمين وخاصة منهم الطبقة النخبوية من علماء و أئمة، هو الذي دفع بالناس إلى الانفصال عن جعل دينهم أساساً لبناء حضاري حديث، و مع ما يشاهدونه من أخطأ حضارية و فكرية ناجحة في العالم -في عيونهم-، أو على الأقل حققت شيئاً أحسن من الواقع المتردي الذي يعيشونه في بلادهم، فإنهم يجذبون مباشرة إلى إتباع الغير، و في تقليد الغير نكراناً للذات بكل ما تحمله هذه الذات من تراث و شخصية و دين و قيم، فيقول على هذه الظاهرة: ﴿من الضروري أن نقوم بهذا الجانب من التربية لأبنائنا، لأنهم عندما يسمعون بنظام إجتماعي في هذه البلاد أو تلك في العالم، يظنون أن الإسلام خال من ذلك، و ينظرون إلى الجانب السلبي فقط الموجود حالياً، و الإسلام دين و حضارة، و الحضارات قد يبقى منها الجانب الديني و الجانب الروحي كما كانا، و لكن الجانب الإنساني الذي هو إسهام الإنسان في تطبيقه هذه التعاليم الدينية، يعزّيه التفهقر، يعزّيه جمود و ركود، يعزّيه الإنهيار عندما يختل ذلك الإسهام، و يضعف تطبيق التعاليم.

نعرف من تاريخ الحضارات أنها كلها تنهار إذا لم يسهر عليها باستمرار، هذا من طبيعتها، فحضارات الإنسان، ككائن حيّ، تموت، و تحيا، و تزدهر، و لكن القيم الروحية لا تموت. القيم الروحية التي أنشأت هذه الحضارات، التي أنشأت قطرة الحليب لصالح الدين الأيوبي بقرون قبل مانديس فرانس، و عمر بن الخطاب الذي أنشأ الضمان الإجتماعي، و بعده عمر بن عبد العزيز، بقرون قبل أوروبا، هذه القيم لا تزال موجودة اليوم، لأنها مستقاة من روح الإسلام، و الإسلام

دين خالد، دين و دولة و نظام إجتماعي كامل، و ليس كما يظنّ الكثير ينظر فقط إلى

الصلاة على الموتى أو الأعراس... ﴿49﴾.

فتأتي، و بهذا إذن، الانفصالية كموجّه ثان من موجّهات العمل الدعوي من جهة السلب عند مولود قاسم، بعد ظاهرة الجمود، و جعلنا الجمود مسبقا على الانفصالية لكونه المسبب المباشر لميلاد هذه الانفصالية النابعة كردّ فعل على عدم وجود حلول إسلامية في مستوى تطوّر الحضارة البشرية الحديثة، و إن وجدت فهي مجرد إرهابات تحتاج إلى كثير من الاحتكاك السلمي حتى تُصقل و تُتقن، و خاصة في زمن طغيان الحريات بأنواعها الكثيرة على الفكر الإنساني، الشئ الذي يستهوي عددا كبيرا من الناس فينصلون عن كل ما هو في نظرهم يجمع هذه الحريات، إما عن سوء فهم لها، و إما عن واقع حقا يعكس جمودا في فهم الدّين و تعاليمه و مبادئه و قيمه. فهناك أسباب واقعية و مبرّرة موجودة لظهور هذه الانفصالية، و هناك أسباب موهومة مفتعلة لا أصل لها في الواقع نابعة عن نفاق أو سوء فهم أو مكر أو تحلل و المحلل.

المركوبية موجهها سالبا

يأتي ما يسميه مولود قاسم بالمركوبية كموجه سالب للعمل الدعوي يجب أن تحارب و تُستأصل من نفوس المسلمين المنهزمة القابلة للمدلة و المتلذذة في ذلك، و قد شرح هذه الظاهرة بما فيه الكفاية من خلال كتاباته و تطرق إليها في أكثر من مناسبة كلما إقتضت الضرورة أن يتكلم عليها.

إن داء المركوبية - كما سماه مولود قاسم- هو ما يعرف عند مفكر جزائري آخر هو مالك بن نبي -رحمه الله- بمرض القابلية للإستعمار، و الذي إشتهر به هذا لمفكر أنه نبه إليه بعد تشخيص أحوال المجتمع المسلم ليصل إلى وجود رغبة نفسية ملحة للإنقياد وراء الأجنبي الغالب و إستعداد رهيب للتبعية بكل أنواعها و في كل مجالات الحياة. و قد تكلم مولود قاسم عن تقارب فكرته التي أسماها بالمركوبية أو مطابقتها لفكرة القابلية للإستعمار التي هي من وضع مالك بن نبي، فقال: ﴿هذا المرض هو الذي سماه المرحوم مالك بن نبي "القابلية للإستعمار"، (أي الإستعمار)، و هذا المرض: القابلية، سميته في خريشاتي: "المركوبية"، أي: "تعالوا تعالوا لتركبونا! لتحتلونا، لتهينونا!"، و هو ما سماه بن منظور في "لسان العرب" "المحكدية"! و المحكد هو الأصل، و المحكدية هو ذلك المرض النفساني الذي يتمثل في أن ييصق الإنسان إلى أعلى ليسقط البصاق على وجهه، أي إهانة الذات، إذلال النفس، و يسميه علماء النفس "مرض المازوخية" (بالحاء، و ليس بالشين) من صاحب ذلك المرض الطبيب النمساوي الدكتور مازوخ، و ينطق بحاء لأن ذلك الطبيب كان مريضا نفسيا و يطلب من عشيقاته أن يضربنه بالسوط، و يصبين عليه أنواع الإهانة و الإذلال، و يجد هو كل لذته القصوى و متعته العليا في ذلك الإذلال و تلك الإهانة! هذه الدعوة من المسلمين للدول الأوروبية إلى السيادة علينا: "يدعون أعداءهم للسيادة عليهم" كما قال جمال الدين، هو ما سماه المرحوم مالك بن نبي: "القابلية للإستعمار"،

(و أنا أقول الإستدمار)، و سمّيته أنا "المركوبية"، أي تعالوا يا ناس لتركبونا! كالتبعية للمؤرخين الأجانب، التقليد الأعمى لهم و اعتماد كل ما يكتبونه و يقولونه ضدّنا، و متعتنا بإذلالهم ذلك لنا و تلذّذنا بشتهم لتاريخنا و ديننا و لغتنا و أصلتنا! . أمّا أن يتّحد المسلمون فيما بينهم، و يثقوا بأنفسهم، فهذا ما لا يريدون!﴿(50).

و للشهادة التاريخية أنّ الفكرة ليست من إنتاج مولود قاسم، بل إنّ مولود قاسم بنفسه يشهد على أنه لم يكن موافقا لفكرة "القابلية للإستعمار" التي كان يطرحها المرحوم مالك بن نبي، بدافع من الوطنية و الإعتزاز بنفسه و شعبه، و لكنه بعد مرور الزمن تأكد لديه وجود الفكرة و تأصلها في مجتمعه، و رأى أنها حاصلة وواقعة، بل و ربما متفشية لا يستطيع أن يغطيها بأي دافع من دوافع العزة و الكرامة و الوطنية التي كان مولود قاسم فارسا فيها، فعلمته الحياة الواقعية و بعض النكسات الحضارية و الفكرية التي إستسلم فيها شعبه و ياحتكاكه معها، أنه هناك ظاهرة مقيتة يمتلكها مسلمو هذا الزمان، و قد أسماها بالمركوبية. لقد كان معروفاً عن المرحوم مولود قاسم أنه كان يحبّ الإستفزاز، حيث رأى أنّ كلمتي "القابلية للإستعمار" لا تثيران في النفس ما تثيره كلمة "المركوبية" من مسّ بالشرف و الكرامة مباشرة، فاختيار الكلمة مقصودٌ للتشجيع بوضع يجب أن يشير في الأنفس الهمم نحو التخلّص من هذا العيب الذي يندش في العزة و الكرامة و الشرف.

لقد تكلم مولود قاسم عن هذا التحوّل الحاصل في أفكاره و توقّعه الفلسفي بالانتقال من موقع عدم الإيمان و الإعتراف بالفكرة و الشكّ فيها إلى موقع الإيمان بها و التأكّد من وجودها، فقال:﴿أريد أن أسوق مسألة هامة جدا، و هي أنني عندما كنت شاباً حضرتُ محاضرةً للأستاذ مالك بن نبي تحدّث فيها عن فكرة مشهورة له، و هي أننا لدينا قابلية للإستعمار... و أذكر أنّني عارضته بشدّة و قوة و حماس الشباب، كنت أنا طالباً و كان هو الأستاذ، و لكنني فيما بعد و بعد وفاته تأسّفتُ كثيراً لأنني لم أستطع أن أعتذر له في حياته، و لكنني إعتذرت له في كتاباتي و مقالاتي، و تراجمت عن موقفتي و قلت: نعم، عندنا تلك القابلية ليس عند الشعب، بل أولئك المازوحيين و المحكيديين و المركوبيين

الذين ينكرون على الجزائر تاريخها المجيد... و كلمة مالك بن نبي تنطبق على هؤلاء المخربشين و المخربشات هؤلاء الذين أسميهم "الحركة" (51).

سمى مولود قاسم هذا المرض بالركوبية كما سماه المازوخية و المحكدية و البخسية، و كلها تسميات تؤدي إلى نفس المعنى، و قد تكلم عن معناها من خلال كلمة المحكدية لما رأى بخسية أهله في تعاملهم مع تاريخهم -مكمن عزهم أو هوانهم بين الأمم-، فقال: ﴿عندما تستخلص هذه العهود، حسب هذه الخربشات و الثورات، و تستعرض تاريخك، تجد أنك بلا تاريخ، تخرج من هذا صفراً، بدون شيء! و هذه التصرفات، أي تعذيب الذات، مسخ الذات، إهانة الإنسان لنفسه، هي التي يسميها لسان العرب "المحكديّة"، "أساء عبد سوء محكده"، يعني سبّ نفسه، و شتم نفسه، و ألصق بنفسه حتى ما لم يكن فيها، هكذا، و يجد متعة في ذلك، يتمتع بمسخ نفسه﴾ (52).

يربط مولود قاسم ظاهرة الركوبية بمسألة الشرف مباشرة، ذلك حتى يحسن المسلم فردياً أنه معني بالظاهرة على مستواه، و يرى أن الذي لا يستطيع أن يغار على شيء يخصه شخصياً أو أسرياً، فإنه لا يستطيع أن يغار على شيء يخص جماعته و مجتمعه و قيمها و مبادئها و تراثها و دينها، فالمدلة لا تأتي إلا عند فقدان الإستقامة و ضياع الشجاعة و الأنفة و الكرامة، فيقول: ﴿إن من لا يغار في أسرته على الشرف، و يعتبر تلك الغيرة من عابر الشرف، و التذكير بذلك لأذنيه أشدّ القرف، لا يمكن أن يغار على شرف أمته، بل يزيد الشعب في غمته. و هل لمن ليس له نحو شرفه ذمة، أن تكون له إزاء الوطن غيرة و همّة، و أن يضع شرف الأمة في القمّة؟﴾ (53).

ثم نجد مولود قاسم يصنّف أمثلة على هذه الركوبية و القابلية للمدلة و الهوان، فيضرب مثالا على المحكدية في مجال التاريخ، و آخرها في مجال الإجتماع و الحياة العامة، و ربّما أخرى في المجال الثقافي و الفني، و هي كثيرة. يقف مولود قاسم أمامها مذهولاً و كأنه فقد الأسلحة لمواجهة هذا الواقع الذي لا يكاد أن يتبدّل و ينتهي. فكلّ مرة إلا و الركوبية تقوى و تخلق و جوهاً جديدة و تلبس ألبسة مخالفة متغيرة، لكنّها تعيش و تحيا برغم كل ما حدث من هزات في المجتمعات الإسلامية حديثاً من قيام ثورات تحرر و إسترجاع للكرامة.

فالخيانة دائماً موجودة و بأساليب جديدة، و ربّما هي لا شعورية عند بعض أناس لهم التأثير في الحياة العامة، وكأ نها حالة مرّضية و إختلال عقلي لا يشعر به المصاب و المريض، و يظنّ أنّ حالته على ما يُرام، فتستيقظ هذه الظاهرة فيه من حيث لا يعلم و تفعل مفعولها المقيت لتبيع جزء من التاريخ و القيم و التراث و الدّين بشيء من سلعة العدو التي يبهز بها، و يحترق نفسه و رصيده أمامها إعلانا للهزيمة الحضارية التي هي أسهل من إمتلاك الشجاعة في المقاومة و البحث عن العزّة و الكرامة و الشرف، فيمهّد الطريق للعدو و يسهّل عليه المهمة لقتله حضاريا دون عنت، فيصدق على المركوبين الوصف بأنهم يخزّبون بيوتهم بأيديهم، إذ يقول مولود قاسم عن هذه الروح الإنهزامية بالم شديد: ﴿و لكن مع الأسف، هذا لا ينبغي أن يستمر! فإذا كنتُ ربّما مخطئا في هذا التصوّر، في هذا الفهم، في هذا التأويل لشيء واضح صريح لا يحتاج إلى تأويل، فربّما صحّحني بعض الإخوان هنا، و لهذا جئنا إلى هنا لهذا النقاش، و ربّما أقنعتموني بأنّي واهمّ في هذا العذاب الذي أتعدّب به عندما أقرأ الجرائد، بل و بعض الكتب، فيزول عنيّ و أستريح! و لكن إذا كنت أنا على صواب فينبغي أن يتغير هذا التزييف لتاريخنا من طرف بعضنا، ينبغي أن تزول هذه المحكديّة، و المازوخية، و البخسية، شيئا فشيئا، عند الذين يمسون بمقاليد الأمور في خلق التصورات، في توجيه التصورات، في وضع الصيغ، في صياغة تاريخنا، في توجيه أذهان الشباب، في تضليلهم أو في إرشادهم إلى الطريق المستقيم﴾ (54). بل يذهب مولود قاسم بعيدا في جعل هذه الظاهرة سببا في نكسات مجتمعه داخل الجزائر، و يشير إلى أنّ وجودها متعمّد و مقصود و نابع عن بعض الناس عن قناعة فكرية أو عن خيانة إن شئنا أن نختصر. و قد تكلم عن هذا صراحة بعد إلغاء التّعليم الأصلي في نهاية السبعينات، و صرّح بالحرف الواحد بما يلي: ﴿هناك حزب خفيّ وراء ذلك، حزب خفي مكشوف، نقول دائما لإخواننا أنكم تقلّدون أوروبا، و أمريكا، و أستراليا في الشّطيح و الرّديح، و الدّربة و الخلاعة، و الفضائح و إختلال الأخلاق، و الإنحلال، فقلّدوهم — و لو مرة واحدة في الإيجابيات أم أنّ الإنحدار دائما أسهل، هذه هي الحكاية كما كان يقول أستاذنا المرحوم أحمد فؤاد الأهواني، الذي قتلناه بالجوع في جزائرنا الحبيبة﴾ (55).

و يظل مولود قاسم يستاء دائما للتقليد للغرب في الأمور التي تقتل و تمحو القيم و المبادئ، و خاصة أن هذا الإتياع لا يتجسد إلا في المزالق و الإنزلاقات و الإنحرافات الخلقية، فيصبح المسلم بعد زمن من التميّع و الإنحلال الحاصل عن إتياع مظاهر الحرية عند الغير، قمامة أخلاقية يحوي كل الإنحرافات الإنسانية، إنحرافات ذاتية ورثها عن عصر الجمود، و إنحرافات تطعّ بها بواسطة ظاهرة تقبله للغزو الثقافي و الحضاري الحديث، و تخنفي منه روائح العزة و الكرامة و الإستقامة، و ينتشر الإستخفاف و الفسق و المذلة و حتف الشخصية، فيقول في ذلك مولود قاسم: ﴿إنّ هذا كلّه من سوء التقليد، و من آثار ما عانيه من جهد التبلد، من إستدمار رام لنفسه فينا التخليد، و كأنه سحر سقراط في فنّ التوليد!﴾. نعم، و هذا كله هو بيت القصيد! ﴿(56).

و الشيء الذي كان يخيّر مولود قاسم و يجعله يستغرب و يتعجّب، هو التناقض الصارخ الحاصل في كون قومه يقلّدون الغرب في السلبيات فقط دون الإيجابيات، و كان هذا الحكدية و المركوبية فعلا هي تابعة عن كون أهله و مجتمعه يتلذذ في إذلاله و تسليط أنواع الإهانات عليه، و هي مفارقة عجيبة، من جهة المغلوب مولع بإتياع الغالب و لا يبدي في ذلك مقاومة، و من جهة أخرى يتأفف المغلوب من إتياع الغالب في الأمور و القضايا الجديدة و الجادة، و هذا الشيء هو الذي لم يفهمه مولود قاسم أو لم يرد هضمه، و لا يفسره سوى بكون الإنحدار أسهل من الصعود، فيكتب قائلاً: ﴿أهذه هي المجتمعات التي نود أن نتخذها كنموذج؟ و في الجوانب السلبية فقط؟ فعندما يدعون إلى التحلل و الإنحلال نقلدهم، و نضاعف الخطى لتدارك ما فاتنا في هذا السبيل، مغزفين من غير السلسيل، فنحقق في سنين ما وصلوا إليه في قرون! و عندما يدعون مما وصلوا إليه، و يحذرون من مغباته، و ينادون بالرجوع إلى القيم، نغض النظر عن دعوتهم، و نتصامم عن إنذاراتهم لأنفسهم، و نستمر في الطريق المعوج الذي عدلوا عنه و تركوه!، فكيف يسمى هذا المسلك؟ أصالية أم إنفصالية؟﴾ (57). ثم إنه يضرب مثالا على ذلك فيما تنهجه مؤسسة التلفزة أو السمي البصري ككل، في عملها الثقافي و الفني و التعليمي، ناهجة طريق التبعية المقيتة و القابلية للمذلة و الخدش في الحياء و المبادئ و القيم العليا، معلنة المركوبية و تخريب البيت بأيدي أهله دون ضغط من الخارج أو تحايل عليه، فيقول: ﴿أليس ما نشاهده اليوم، و يصرخ الكثير منا ضده - و لا من يجيب! - من مخاز

يعرضها علينا النخاسون في العالم العربي من أهل السينما، و تجاريهم فيه تلفزاته، مما يخرب بقية ماء الوجه: الحياء، الذي قال عنه -صلى الله عليه وسلم-: "إذا لم تستح فاصنع ما شئت"، من أكثر مظاهر هذه التبعية تخريبا لمجتمعاتنا، و إيلا ما لضمائر الأحياء، إذا كانت و لا تزال هناك بقية من صدق الضمائر، و الشرف ذرة من صالح الخمائير؟ ﴿58﴾.

يتكلم مولود قاسم عن أسباب هذه النخاسة من المتاجرة بالحياء و القيم و المبادئ، و التي تتم بكل بلاهة و انهزامية و إحساس بالدونية و تهديد لطريق الإمساخ و الإنحلال، فيقول: ﴿ألا إنها الأذواق التي سمجت، و في السلبيات الغربية إندمجت، و بتلوثاتها خمجت، و النفوس التي فسدت، و العقول التي كسدت، و الأرواح التي إنخرفت و الحدود التي إنخرفت، فطوت الصفحة طيا، و لقد أسمعنا لو ناديت حيا، و لكنك مسموعا لو قلت غيا﴾ ﴿59﴾.

إن المركوبية نوع من الإحساس بالدونية يجعل من المجتمع مُذَلَّلا لأن يركب، شعر بذلك أم لم يشعر، فهي عقدة نفسية مستحكمة في الأذهان و متجسدة في التفكير و في الأعمال، تنزل بالمركوبي أو القابل للمركوب إلى أدنى مستويات التذلل و الإنهزام، لا يمتلك إستقلا حضاريا، بل حتى إستقلا فكريا، فييدي إحتقار النفس من تلقاء الذات دون دافع يضطره لذلك أو يضغظ عليه.

إن المركوبية هي عدم البحث عن المجد و صنع العزة و الكرامة، بل العكس من ذلك هي رضوخ لأية إستهانة بالأمجاد و صانعي العزة و الأنفة، طمعا في عدم الخدش و المس بنفسية الغالب. فالمركوبيون أناس منقادون بسهولة دون أن يُستفروا: ﴿فالتعقد مستحكم في أذهانهم، على سيماهم ظاهر و أبدانهم، شغلهم الشاغل: "كيف نرضي الغرب، و لو أعلننا على الروح و القيم الحرب، و أشبعناها شديد الركل و الشرب، حتى نصبح فعلا على الدرب، يزاح بيننا و إياه الزرب، و يزول عنا غدا كل الكرب!﴾ ﴿60﴾.

كان أكبر ما يحز في نفس مولود قاسم و يؤله أشد الألم، هو إنهزام مفكري شعبه تاريخيا، و بعدهم عن الحقائق الممجدة لأمتهم بإجتزارهم للكلام (العلمي) الصادر عن مؤرخي الغرب الذين يصنعون مجد أممهم بتوسيع تاريخنا و تشويهه، و كان مولود قاسم قد إشتهر عنه أنه كان يردد جملة مرارا يقول فيها: ﴿التاريخ علم وضعي و ليس

علما موضوعياً ﴿ كما ينقل عنه بعض أصحابه مشافهة، حتى وصل به الأمر إلى أن يكون يقظا حتى في إطلاق بعض المصطلحات التي تعارض المصطلحات الشائعة والمعروفة، كمصطلح "الإستعمار" مثلا بدل "الإستعمار" عملا على زرع روح نقدية لكل ما يחדش بالعزة والأنفة والكرامة ويعمل على تطبيع العلاقات بين أجيالنا الناشئة وأعداء حضارتهم في الماضي والحاضر بإبعاد الحقائق كما هي عنهم، ففي سؤال جريدة الجمهورية وجهه له الصحافي: "لماذا تلحون على استعمال بعض المصطلحات التي لها مقابلها بين الجميع، ومتفق عليها، مثل تعويضكم كلمة إستعمار بإستعمار؟"، فأجاب مولود قاسم قائلا: ﴿السبب هو أن هذا يחדش عيني و يجرح أذني عندما أسمع! فعندما أسمع "المعمر" يثور إحساسي اللغوي، كيف؟ عمرونا؟ بل هم دمرونا! صحيح أنهم عمروا أنفسهم، أخذوا أموالنا، واشتروا بها أملاكا في فرنسا، مزارع ومصانع، لكنهم خربونا خاصة في الأبخاخ! إذن فهم مدمرون، لا معتمرون، ومستدمرون، لا مستعمرون! ﴿(61). فهو يرى أن مجرد النطق بمثل هذه المصطلحات تمهيد لنشوء جيل يرى في قدوم الإستعمار نعمة ليها لم تكن زالت، ولم يحاول مولود قاسم أن يسمي هذه الظاهرة بالإحتلال حتى، لأن الإحتلال هو شغل الفراغ، و بلادنا لم تكن فارغة، بل سماها بالإستعمار حتى يثير في النفوس الحقيقة المرة و يجعل المصطلح يحمل حقا الخجوى التاريخي الحاصل.

كتب مولود قاسم في هذا السياق من العلاج و التصحيح محاربة لظاهرة المركوبية، مقالا في مجلة "الثقافة" التي كانت تصدرها وزارة الثقافة و السياحة سنة 1986، عنوانه: (مفاهيم وصيغ خاطئة عن تاريخنا) حاول فيه أن يصوّب بعض الإعوجاجات التي تدل بشكل أو بآخر عن المحكدية و المركوبية التي يمتلكها بعض مؤرخي بلاده في نظرتهم لتاريخ أمتهم الجزائرية، فكتب فيه يقول: ﴿... ولكن لم نلوم الغير، ونحن ننكر أنفسنا من حين لآخر، و بعضنا يكرّر ببلادة، و مازوخية، و محكدية، و بخسية، و مركوبية: "لسنا أمة" ! ﴿(62).

و عن إعلان الإنهزام الحضاري من تلقاء النفس تمهيدا و تمكينا للعدو منا، يعلّق مولود قاسم عن آخر معاركه الثورية الحاسمة لدفع الأمة إلى العزة و الإستقلال و التي أجهضت بأيدي بني جلدته، و يعتبر مولود قاسم ذلك نوعا من أنواع المركوبية، إذ يقول: ﴿إن مشروع الجّمّع الجزائري للغة العربية القائم بهياكله و وثائقه

و ميزانيته دُفن إلى الأبد، و أوراقه موجودة حالاً في الأدرج، و آخر من دفنه السيد عبد الحميد مهري و مولود حمروش! ﴿63﴾.

إن كل الأمراض التي سبق أن تطرقنا إليها في طروحات مولود قاسم كموجهات سالبة للفكر الدعوي و العمل في مجال الدعوة نحو التائق الحضاري المتأصل، هي كلها موجهات يودّ من خلالها البحث عن حلول لها. فالجمود و الانفصالية و المركوبة كلها أمراض نابعة من داخل العالم الإسلامي، فهي ذاتية متجذرة في مسلمي هذا الزمان، ينبغي التخلص منها بواسطة فعل دعوي فاعل و مؤثر. أمّا ما سيأتي من موجهات سالبة فمصدره العدو أو الغير من المسلمين من الأمم التي تودّ من الأمة المسلمة أن تتبع ملتها، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿و لا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دِينكم إن استطاعوا﴾ (64)، و قوله تعالى: ﴿و لن ترضى بحبكم اليهود و لا النصارى حتى تتبجّ ملتهم﴾ (65)، فهي خطط و أساليب ضمن الصراع الحضاري المتواصل ما دام دين الله على الأرض و أمته قائمة به و له.

الفسخ و المسخ و النسخ

الثالوث الجهنمي موجهاً سالياً

هكذا سمي مولود قاسم -رحمة الله عليه- الثلاث كلمات هذه، سماها بالثالوث الجهنمي، و قد سبق و أن أشرنا أنها تحدث بتأثير من المنافس الحضاري أو المصارع الثقافي، تفادياً لأن نقول العدو. فيمثل الفسخ و المسخ و النسخ ما عانتها الأمة المسلمة من خدش و إفساد بواسطة الغزو و الإستعمار المختلف عنه دينياً و ثقافياً، فتعرضت إلى كلّ أنواع الغزو في كل مجالات الحياة، إذ يقول مولود قاسم: ﴿لا غرابة في هذا عندما ترون أن البلدان التي لم تتعرض أبداً لذلك الثالوث الجهنمي الذي تعرضنا له نحن، أو كما تعرضنا له نحن، و هو المسخ و الفسخ و النسخ، و مع ذلك تحرص كلّ الحرص على تعزيز هذه الأصالية عندهما، فأحرى و أولى نحن، إذن!﴾ (66).

و يجدر بنا الحال أولاً أن نتعرض إلى التفسيرات اللغوية لهذه الكلمات الثلاث و نكتشف لماذا إختارها مولود قاسم، و على النحو من السجع و الجناس، حتى نقف على معانيها التي تقرب من تجسيدها في واقع الناس الحضاري.

جاء في المعجم العربي الأساسي لمؤسسة "لاروس" عن هذه الكلمات ما يلي:

﴿فسخ يفسخ فسحاً فهو فاسخٌ : 1- العقد أو البيع: نقضه، أبطله.

2- الفصل و نحوه: أزاله عن موضعه من غير كسر.

و تفسخ الثوب: تقطع، و تفسخ الشعر عن الجلد: زال و تطاير.

تفسخت الجنّة: إنحلت و تغيرت معالمها.

و فسخٌ: مصدر فسخ، و إدارياً هو إنهاء الرابطة التعاقدية بقرار إداري أو بحكم قضائي نتيجة خطأ جسيم

يرتكبه أحد الطرفين﴾ (67).

﴿مَسَخَ بِمَسْخٍ فَهُوَ مَسْخٌ﴾: - حَوْلَ صَوْرَتِهِ إِلَى أُخْرَى أَقْبَحَ "مَسَخَهُ اللَّهُ قَرْدًا"

و مَسِيخٌ: 1- مَشْوَةٌ الْخَلْقَةُ "رَجُلٌ مَسِيخٌ" 2- ضَعِيفٌ أَهْمَقٌ.

3- مِنَ الطَّعَامِ: لَا مَلْحَ فِيهِ أَوْ لَا طَعْمَ لَهُ ﴿(68)﴾.

﴿نَسَخَ يَنْسَخُ نَسْخًا﴾: 1- الْكِتَابَ: نَقَلَهُ وَكَتَبَهُ حَرْفًا بِحَرْفٍ 2- الشَّيْءَ: صَوَّرَهُ "نَسَخَ الْوَيْثِقَةَ"

3- اللَّهُ الْآيَةَ: أزال حكمها 4- الشَّيْءَ: أزاله

و تَنَاسَخَتِ الْأَرْوَاحُ: إِنْتَقَلَتِ مِنْ أَجْسَامٍ أُخْرَى بَعْدَ الْمَوْتِ كَمَا يَزْعَمُ بَعْضُهُمْ ﴿(69)﴾.

فالفسخ من معانيه التقطع والتطأير والزوال والنقض والإبطال والذوبان والإنحلال وتغير المعالم للرصد الثقافي والحضاري الحاصل الذي توارثته الأمة عن أسلافها. وهي حالة انفصال عن المبادئ والقيم والأعراف والعادات، ودخول في عالم الإنحلال وإطلاق العنان للأهواء والشهوات والرغبات الحيوانية في أول الأمر، كتمسح حاصل يؤدي بالأمة إلى الفراغ، ليأتي بعد ذلك المسخ الذي هو تشوه الخلقة وتحويل الصورة إلى القبح، ليتسنى بعد ذلك وبسهولة للمنافس الحضاري أن ينقل إلى هذا الوسط الفارغ والمتسع نموذج الفكري والثقافي والحضاري، فينسخ نسخة طبق الأصل منه ينتقل فيها النمط الذي يعيشه إلى الأمة الضعيفة الهزيلة المسوخة والمفسوخة وتوحد بينهما الصورة الثقافية والحضارية. وهذا ما يحصل الآن بما يُسمى بعولمة الثقافة والحضارة وجعل الكرة الأرضية قرية واحدة أزقتها العواصم الكبرى بحيث لا تختلف كثيرا معالم المدن بين بعضها البعض ما دام جميع البشر يتلقون نفس الأخبار ويتواصلون ثقافيا بتبادل الفنون والمعارف، ولكن ليست هذه العملية إلا تطبيقًا وتجسيدًا لهذا الثالث الجهنمي "الفسخ والمسخ والنسخ" كما سُمي ذلك مولود قاسم.

فأما عن المرحلة الأولى في هذا المخطط الجهنمي، مرحلة المسخ، فإنه يحللها مولود قاسم تحليلا دقيقا يكشف به عن أسباب حدوثها، فيقول: ﴿إنها نجمت عن إهمال حقيقة، هي في حسم المصير فاصلة دقيقة، وللقدر المحتوم أخت شقيقة، وهي أن الأمم الحية من جسم وروح، يعثر بها موت وجروح، فياهمال

أحدهما تحلّ قروح، وبتكاملهما أعياد و فروح. و أمة الإسلام بعد أن أهملت الجسم ننت
بالروح ﴿(70)﴾.

فيإهمال الحياة الروحية و الأخلاق ينتشر الإلحلال و الفساد و الفسخ داخل المجتمع الذي لم يعد يتبقى عنده وازغ
ينعه من إطلاق العنان للتحرّر في كلّ شيء، من كلّ شيء يضبط الأخلاق و السلوك العام، فيقول مرة
أخرى: ﴿الآ إنّه الأخلاق التي سمجت، و في السلبيات الغربية إندمجت، و بتلوثاتها همتجت،
و النفوس التي فسدت، و العقول التي كسدت، و الأرواح التي إنحرفت، و الحدود التي إنفرجت،
فطوت الصفحة طياً، و لقد أسمعتَ لونا ديتَ حياً، و لكنك مسموعاً لو قلتَ غياً﴾ ﴿(71)﴾، فأصبحت
النفوس لا تستمع إلاّ للغيّ و الأهواء و المغريات و اللغو و اللّهُو، و لا تمتلك القدرة على التفكير في المصلحة
و المنفعة الحضارية، فتدخل في إستهلاك و نهم كبيرين يعميان البصيرة و الوعي و الإدراك. و يجعل مولود قاسم
عملية الفسخ أو النفسُخ مقدمة لإنهيار الحضارات مهما كانت، فيقول: ﴿إنّ اليونان و الرومان و أوروبة
و أمريكا، لم تترنح منذ البدء على الأريكة، و دمشق و بغداد و الأندلس الأمس، و أما أخرى هي
الآن في الرمس إنما إنتهت إلى العُري و الرقص، اللذين هما البداية في النقص، بعد الكمال
و القمة، و لم تبدأ بالسقوط و ضعف الهمة!﴾. وصلوا إلى النهاية بعد البداية، لا كعالم الإسلام اليوم
أعوزته الهداية، فعكس الترتيب كالأهق الأجهل، لأنّ الإندثار أسرع و أسهل، و الصعود بطبيعته
أصعب و أمهل ﴿(72)﴾. و لا يزال ينبه مولود قاسم إلى هذا و خطورة المشي في الطريق السهل و يطرح قاعدته
في موت الحضارات بسبب إنتشار النفسُخ و الإلحلال فيها، و تضعف من جرّائهما الهمم و العزائم، و تستسلم
النفوس بدون مقاومة، فما تبقت فيها نسمة من روح أو شرف أو كرامة، فيقول: ﴿و إذا ما ألقينا نظرة فاحصة
على تجارب الأمم، و تفحصنا سجلّ التاريخ، و إستعرضنا ماضي الحضارات، وجدنا، بدون أي
جدال أو تردّد، أنّ الإختلال و الإلحلال يعقبهما دائما الغزو و الإحتلال!... و تلك سنة الله، فيمن

سبق، و فيمن هو موجود، أو سيلحق، و لن تجد لسنة الله تبديلاً، و لن يلومن ظالم نفسه إلا نفسه في الظالمين! ﴿73﴾.

و السبب في ذلك يلخصه مولود قاسم بأسلوبه الإستفزازي المعهود عنه و الذي يفهمه العام و الخاص و حتى الذي له أدنى رصيد ثقافي، فيقول: ﴿إن من لا يغار في أسرته على الشرف، و يعتبر تلك الغيرة من عابر الترف، و التذكير بذلك لأذنيه أشد القرف، لا يمكن أن يغار على شرف أمته، بل يزيد الشعب في غمته، و هل لمن ليس له نحو شرفه ذمة، أن تكون له إزاء الوطن غيرة و همّة، و أن يضع شرف الأمة في القمّة؟﴾ (74).

و من الأمثلة التي يضربها مولود قاسم عن مظاهر هذا الفسخ، ما يتعلق مثلا بانتشار الخمر أم الخبائث، و إنتشار الفن الهابط و الساقط، و ذبوع الرذيلة من زنا و ما شابهه. فعن الخمر يقول: ﴿سمعتُ ... أن الخمر كثيرا ما تُشرب على حواشي العديد من تلك القرى، و أنه قد انفكت تلك القيود و العرى! و أن أحدا لم يعد يدفع شيئا للجماعة، إذ قد ذهب كثير من تلك المناعة! بل يشربون في نفس تلك القرى و إن على الحواشي، من الرّجاجة رأسا أو من قدام كالشواشي بقصد توفير الماء للمواشي... و الكسرة لم تعد تصنع في البيت بل يأتي الخبز من الكواشي!، ألا فاستمروا في هذا "التقدّم" حتى تصيب الشعب الغواشي!﴾ (75).

و عن الفن الهابط الساقط غير الباني و لا الأخلاقي الملتزم، إذ أن الفن عنده سلاح ذو حدين، يُستعمل للصالح و الإصلاح، و يُستخدم للطلّاح و الإفساد، فيقول في كلمته الختامية لأحد ملتقيات الفكر الإسلامي، كتلخيص لنقاطه و نتائجه و تعليماته، ما يلي: ﴿و نقدتم النظرية القائلة بأن الفن للفن، و رأيتم أن الآداب و الفنون ليست غاية في ذاتها، لإشباع نزوات الأمة و لذاتها، و إنما هي وسيلة و سلاح ذو حدين، للدّفاع عن الأمة أو سلخها، و لإبراز شخصيتها أو مسخها، و لرفع معنوياتها أو إهباطها، و لإعزاز

جهودها أو إحباطها، و أنه آن الأوان لأمتنا خاصة أن تدرك هذا و تفيق، قبل أن يلحق بها الإنحلال و يحيق ﴿(76)﴾، فهكذا يرى مولود قاسم الفنّ في رسالته.

ينقل الأستاذ محمد الصالح الصديق في كتابه عن مولود قاسم حواراً جرى بينهما أيام إعتزال مولود قاسم للوزارة، فيقول: ﴿ماذا أعدت وزارتك لهذا الشهر المبارك؟﴾، فقلت له: ما تعدّه كلّ سنة؛ أحاديث إذاعية، و تلفزيونية، و دروس مسجدية، و ندوات و محاضرات، فقال: و على الساحة أيضاً رقصات و تمثيلات، و حفلات تحييها فنانات، و مسلسلات غراميات! و الحقّ أنّهم لم يبتخلوا على الشعب بشيء يثير الغرائز، و يفجّر كوامن الهوى، و يحارب جلال هذا الشهر المعظم. و هل تعلم أنّ الفنّانة (...). أخذت على حفلاتها المجنونة في السنة الماضية ما تطيع به مجموعة من كتبك؟. و هكذا نكرّم من يُفسد شبابنا، و يلوّث أخلاقهم، و يجيد بهم عن الحداثة، و هل رأيت من يُبالغ في إكرام من يقتله غيرنا؟ ﴿(77)﴾.

بل إنّ مولود قاسم يضع هذا التّميخ ضمن مخطط محكم الضّبط، وليس أمراً إعتباطياً عفويّاً يصدر عن سدّج الناس من مجتمعه و رذّهم، بل هو أمر مرغوب و مقصودّ و مشجّع من طرف فئات ضاغطة و مؤثّرة، لها صيطة و صدى أمام سلطات القرار في البلاد، و لها خزّعات و خيوط تشيكها كلّما تعلق الأمر بإعادة الأّمة إلى الفضيلة، و الإستقامة و الكرامة، فتضرب على خيوط التّميخ و التّفسيخ، و الشعب الذي يُدعى دهماء سهل يستنيخ، فيقول: ﴿هناك حزب خفيّ وراء ذلك، حزب خفيّ مكشوف، نقول دائماً لإخواننا أنّكم تقلّدون أوروبا، و أميركا، و أستراليا في الشطّيح و الرّديح، و الدّربكة و الخلاعة، و الفضائح و اختلال الأخلاق، و الإنحلال﴾ ﴿(78)﴾.

يأتي المسخ كثنائي مرحلة من مراحل إستنزاف ما تبقى من صورة الأّمة الثقافية و الحضارية فيصبح المجتمع غير المجتمع الذي عاشه الأسلاف و نظّموه و ضبطوا مبادئه و أسسه، و رسموا معالمه، و يضحى مجتمعا مشوّه الحلقة تتسمّ فيه كلّ أنواع التّخلف على المستويات الروحية و الفكرية و الأخلاقية، إضافة إلى التّخلف المادي الموجود. و هي مرحلة بدورها تكون أولى في طريق مرحلة النّسخ على شاكلة المجتمعات الغالبة، فعن مرحلة المسخ و الفسخ

يقول تبارك و تعالیٰ: ﴿... و لا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن

إستطاعوا﴾ (79)، لتأتي بعد ذلك مرحلة النسخ و التي عبّر عنها القرآن بقول الله -عزّ و جلّ- في الآية

الكريمة: ﴿و لن ترضى عنك اليهود و لا النصارى حتى تتبّع ملتهم﴾ (80)، و التي أخير

عنها الرسول الكريم -صلى الله عليه و سلّم- بقوله: ﴿لتتبّعنّ سنن من قبلكم شبراً بشبر

و ذراعاً بذراع، حتى إذا دخلوا جحر ضبّ دخلتموه، قالوا: "أاليهود

و النصارى يا رسول الله؟"، قال: و من غيرهم؟!﴾ (81). فمرحلة المسخ هي إنسلاخ عن

الدين إيماناً و عملاً، و مرحلة النسخ هي إعتناق لأنماط حضارية أخرى غير مستمدة من تعاليم الإسلام، فيبقى العنوان و يُفتقد المضمون الإسلامي، و هي حالة إنشطار فكريّ و نفسي لن تؤدّي سوى إلى مزيد من التآزم و المرض.

بالتحديد التاريخي لمرحلة العصر الحديث، يجعل مولود قاسم إبتداء هذه المراحل المتعاقبة و المتشابكة -في الآن نفسه- بأوّل يوم و طأت فيه أقدام المستدمر أرض بلاد المسلمين، و التي أوّلها الجزائر، فيعبّر عن الشروع في هذا المخطّط بكلام أشبه إلى عملية التاريخ يحكي فيه عن عمل رمزيّ عند بعض الناس، و لكنّه لديه يدلّ على مضمون الصّراع بين الإسلام و النصرانية و غيرها من الأديان و الأفكار و الأيديولوجيات المتحالفة ضدّ تيار الحضارة الإسلامية المتدّ من عهد النّبوة، هذا الصّراع الذي هو أبديّ، فيقول:

﴿ذهب الجنرال "دوبورمون" رأساً إلى جامع كتشاوة، و نزع من فوق صومعته النّجمة و الهلال و وضع مكانهما الصّليب، ثم ذهب من هناك إلى قصر الدّاي القصر الإداري، قصر الجمهورية (لأنّ الجزائر كانت جمهورية في ذلك الوقت و الدّاي رئيس جمهورية فهو يُنتخبُ إنتخاباً و وصف "جمهورية" رسمي في وثائق المراسلات مع سائر الدول و كذلك في المعاهدات)، فانترع من مبنى

الدولة و يُسمّى في ذلك الوقت "الديوان" أي المقرّ كما نقول الآن! و موقعه كان في مكان الجنيينة الآن، ميدان بور سعيد، إنتزع من فوقه العلم الجزائري و وضع مكانه العلم الفرنسي.

منذ ذلك اليوم، أي منذ 5 يوليو 1830 و الإعتداء على مقومات الشخصية الجزائرية من دين و لغة و تاريخ و تعليم إلخ، مستمرّ و متتابع الحلقات و مكثّف و متصاور و متغيّر حسب الوسائل الجهنميّة الأكثر تطوّرًا بمرور الزمن ﴿82﴾.

و يجعل مولود قاسم إلغاء مشروع التعليم الأصلي -الذي كان مصيريًا و ثوريًا في عينه يُجسّد إبداعًا لبعث العلم الحضاري في أمة إسلامية تبحث عن ذاتها الحضارية التي إفتقدتها- حلقة هامة من هذا الإعتداء على مقومات الشخصية الجزائرية من دين و لغة و تاريخ، و وسيلة من وسائل الفسخ و المسخ و النسخ، إذ لسؤال مجلة "الإرشاد" الذي كان محتواه: (ما هي الآثار المترتبة عن إلغاء التعليم الأصلي؟)، أجاب مولود قاسم قائلاً: ﴿من الآثار السلبية لإلغاء هذا الجانب الأساسي و الحاسم من تكوين شبابنا و شاباتنا و من شخصيتنا و هويتنا، أن فقدوا شخصيتهم، إذ لما ألغيناه و عوضناه بهذه الشعب القليلة التي ما أدت الغرض، لأن هناك مراحل تمهيدية أُلغيت و إكتفينا بالتعليم الثانوي، و هذا بترّ و تزوير للموضوع، و كذب و تحدير للنفس و الطلبة الذين يذهبون بهذا التكوين إلى كليّة قسنطينة، يذهبون بتكوين أعرج أعوج، و بهذا الشكل الأبرّ فتح الباب في وجه المنقرّين و الملحدّين و اللادّينيين و اللاتّكيين و كلّ ما هو نسخّ و فسخ﴾ ﴿83﴾.

و مما يدخل أيضا في مجال المسخ، ما أضحت عليه فئات من مجتمعه، و انتشر فيها الفساد و الإنحلال بدل إنتشار الخير و الفضيلة و الرّجولة و الشّهامة و الشّجاعة، هذه القيم المتوارثة عن الأسلاف و الأجداد، فنجدّه يحدّر من السّفوط في ما يحدّش بأحد هذه المكونات الأساسية للعقلية الإجتماعية و هذا الدّستور الأخلاقي الرّاقسي، فيقول: ﴿عندما تسترّجّل النساء، و يتخنّث و يتأنّث الرجال، فتنعكس الأدوار، و تقع الكارثة! إنّه التغيّي بالغلّمان ... و التفرّغ للصيد و مختلف أنواع اللّهُو، و الإستهتار بشؤون الدولة و الأمة!

هذا ما حدث لبابل و الفراعنة، و هذا ما صار لليونان و الرومان، و الأمويين و العباسيين، و هو نفس ما تسبب في إنهيار دولة بني حماد بعدها و دول أخرى بعدها... و أخرى ستلوها! ﴿84﴾.

و من ظواهر الإمساخ أن المسلمين في هذا الزمان ما عادت تربطهم رابطة أخوية، بل أصبحوا لقمة سائغة لأي مفرس، تتداعى عليهم الأكلة من كل مكان، لا من قلة هم فيها، و إنما من غثائية أصابتهم و أفقدتهم كل رابطة وحدة و تماسك و تعاون، و هي فوضى ناجمة عن الإبتعاد أيضا عن تعاليم الإسلام فكراً و عملاً، و عن الإبتعاد عن الوعي الحضاري بمسؤولية المسلمين في هذا الزمان بين الأمم و الحضارات، فيقول مولود قاسم: ﴿في الوقت الذي يتوحد فيه هؤلاء في المجال الإقتصادي و الصناعي، و يلغون جوازات السفر و الحدود... إلخ، و ينشئون عملة واحدة و يحون في المجال الديني الفروق المذهبية، يحون المحن و الأحقاد و الضغائن المذهبية، و يقول البابا أن هذه المذاهب كلها اليوم ثروة للمسيحية الموحدة و هي دارات في دار المسيح الكبرى (فيلات في القصر الواحد).﴾

في هذا الوقت نأتي نحن لنشتت و نفتت و نقل الاختلافات السياسية العابرة إلى المجال الديني الروحي الثقافي الذهني المعنوي الخلفي لنفرق ما تبقى بيننا من عناصر الأخوة، و نشتت و نفتت شملنا، و نزرع و نطلق في الهواء سباباً و شتائم و أحقاداً و ضغائن و لغطاً جديداً لتزيد الطنبور نغمة و الطين بلة كما يقول أدباؤنا القدماء ﴿85﴾.

أما عن المسخ و النسخ في المجال اللغوي و ما يرتبط به من قومية و شخصية و رصيد حضاري، فإن مولود قاسم يشير بوضوح أن مخطط العدو في إذلال شعوب الأمة الإسلامية في هذا النطاق و منها الشعب الجزائري يجعلها نسخاً منها تحذوها في إعتناق لغة الحضارة المعمولة، فيقول: ﴿كانت الإحصائيات الرسمية الفرنسية التي نشرها الملعون سوستال تقول في نشرة 1956 أن نسبة الأمية في الجزائريين الرجال 94% و بين النساء 96% بالنسبة لـ 10 ملايين من الجزائريين الموجودين آنذاك. و الآن عندما نقول 6 ملايين و نصف فهؤلاء من الذين يدرسون حالياً فضلا عن الذين تخرجوا و أكملوا دراساتهم. إذن فهذا العدد

يعطي صورة فصيحة بليغة جزلة واضحة عن الفرق الهائل بين العهد الإستدماري الفرنسي من حيث تعليم الفرنسية و الوضع القائم الآن، فإذا نحن الذين نشرنا اللغة الفرنسية، الجزائر المستقلة التي إستعادت إستقلالها هي التي نشرت اللغة الفرنسية ﴿86﴾، و يقول عن مستوى أمته الذي وصلته في الإنهزام الحضاري و اللغوي و خاصة في بلدان ما يسمى بالمغرب الإسلامي التي إمسخت و نسخت على شاكلة حضارات و شعوب أخرى غالبية و فقدت في ثانيا ذلك لغتها ففقدت بالتالي شخصيتها و هويتها: ﴿إن بعض الإخوان في البلدان العربية يحاولون أن يعللوا تخلفهم عن سوريا في مجال تعريب العلوم، و أقصد البلدان العربية في المشرق التي لها مسؤولية كبرى، و عليها لوم كبير، و ليس البلدان في المغرب، لأن هذه لا كلام عليها في هذا الميدان، فهي غارقة في المصيبة و فرحانة بهذه المصيبة و مسرورة بها. يقول هؤلاء الإخوان أنّ الطبيب، مثلا، الذي درس في مصر أو العراق بالإنجليزية و في لبنان بالفرنسية متقدم على زميله في سوريا الذي درس بالعربية.

و لكنّي أنا لا أصدق بهذا أبدا، لأنني عندما أنظر إل الجوانب التكنولوجية الأخرى فأرى سائر البلدان العربية متخلفة، لماذا؟. فإذا كانت سوريا متخلفة لأنها تدرّس بالعربية و لكن أنت يا مصر و يا جزائر و تونس، و المغرب و العراق و ليبيا و الكويت و باكستان و الهند، و يا ... و يا... من تدرسون بالإنجليزية أو الفرنسية الأجنبية، وصلتكم؟ أيت تقدّمكم هذا؟، هل هناك بلد من هذه البلدان ينتج طائراته أو دباباته أو...؟ فكلنا في العالم الثالث، رغم الإنجليزية في المشرق، و الفرنسية في المغرب، فكلنا إذن في همّ سواء أو كلنا في التخلف.

إذن فكلّ من الفرنسية و الإنجليزية لم تجعلنا نتقدم على سوريا التي تدرس بالعربية، و بالتالي فالعبرة ليست باللغة بل بالإنسان، و إنّما اللغة تضيف شيئا إيجابيا عندما تكون اللغة لغتك، تعطيك بعدا أكبر، و إعتزازا أكثر، و قوة لشخصيتك، و ثقة في النفس أكثر، فهذا مكسب و بعد إضافي ﴿87﴾.

و يبين مولود قاسم أنّ الصراع الحضاري ينبني في أوضح صورته على صراع اللغات، لأنّ اللغة وعاء الثقافة و حاملتها، و أيّ إنّهزام فيها يؤدي إلى الإمساخ و الهزيمة الحضارية، و كان يدعو إلى تعزيز وسائل هذا الصراع مع العدوّ و تقويتها، و أول اللبّات في ذلك تمكين اللغة العربية من مواكبة العصر السريعة المتراكمة، محو لهذا الثالوث الجهنمي الفسخ و المسخ و النسخ، فيقول: ﴿نحن نقول: نبتدئ بالأشياء السهلة البسيطة نعرّبها منذ الآن و تبقى المسائل الأخرى التي تحتاج إلى قدر من الوقت تنتظر تعريبها التدريجي المنهجي. و قلنا أنّ الإستدمار عمل بكل جدّ، و حزم و استمرارية و مثابرة و مواصلة، على تجريدنا من هذا العنصر الأساسي من عناصر الشخصية الوطنية، و استعمال طرقاً جهنمية لحصّتها في هذا الثالوث المشؤوم المسخ و النسخ و الفسخ، و قلنا إذا أردنا أن نمحو هذه المياسيم السلبية الثلاثة فلا بدّ لنا من ثلاثي آخر سمّيته ثلاثي الحزم و العزم و الجزم طبعاً مع المنهجية، و مع التوقيت، و مع التخطيط، و مع التدريجية، و لكن لا بدّ من هذا الثلاثي الإيجابي نحو آثار ذلك الثلاثي السلبي﴾ (88).

إنّ المجتمع المسلم و أمته يعانين في العصر الحديث من الأمراض التي شخّصها مولود قاسم و أفاض في الكلام عنها و البحث عن علاجاتها، و تلخص هذه الأمراض في أربعة أمور: الجمود، و الانفصالية و المركوبية، و الفسخ و المسخ و النسخ، و قد سبق و أن شرحناها و بينا ماهيتها و كيف جعلها مولود قاسم تقضي على حياة الأمة الإسلامية حضارياً، و كلّها متشابكة و متداخلة و متعاونة في خلق الأزمة و تفاقمها و دوام معيشتها، و كيف أنّه على الأمة أن تتخلّص منها إذا ما أرادت الحياة في البشرية بعزّ و كرامة و سيادة، و بذلك ركّز مولود قاسم فكره الدعوي و عمله في هذا المجال على محاربة هذه الأمراض و إيجاد الحلول المناسبة لها لتخطّيها و تجاوزها، و قد نجح في بعض ذلك، و تأمرت عليه قوى المركوبية و الجمود و قوى الانفصالية و الفسخ و المسخ و النسخ و الجمود، فأجهضت كثيراً من أعماله و كثيراً من مشاريعه، و كان التيار قويا و جارفاً حتى جرف بأعزّ مشاريع مولود قاسم من ملتقيات الفكر الإسلامي و تعليم أصلي و جامعات إسلامية كآية و مجمّع لغة عربية، فأماتت المفكّر قبل موته المؤجّل و المكتوب، أماتته بقُرحة في زمن يرى فيه بلاده مبتعدة عن فكرة الأصالة يوماً بعد يوم.

الهوامش:

- (1) عبد الرحمن عبد الخالق، "الأصول العلمية للدعوة السلفية"، جمعية إحياء التراث الإسلامي إدارة بناء المسجدو المشاريع الإسلامية، مكتبة الفيصل، الكويت 1982.
- (2) مولود قاسم، "إنية وأصالة"، ص 210-211.
- (3) مولود قاسم، "أصالية أم انفصالية؟"، ص 21.
- (4) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 22.
- (5) مولود قاسم، "إنية وأصالة"، ص 212.
- (6) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 212.
- (7) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 403.
- (8) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 575.
- (9) مولود قاسم، "أصالية أم انفصالية؟"، المقدمة، ص 34-35.
- (10) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 11.
- (11) مولود قاسم، "أصالية أم انفصالية؟"، الجزء الأول، ص 248-249.
- (12) مولود قاسم، "أصالية أم انفصالية؟"، المقدمة، ص 69.
- (13) مولود قاسم، "إنية وأصالة"، ص 397.
- (14) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 181.
- (15) مولود قاسم، "أصالية أم انفصالية؟"، الجزء الأول، ص 264.
- (16) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 233.
- (17) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 265.
- (18) مولود قاسم، "أصالية أم انفصالية؟"، الجزء الثاني، ص 179.

(19) مولود قاسم، عن محمد الصالح الصديق، "خواطر و ذكريات عن الأستاذ المرحوم مولود قاسم"،

ص 59-60.

- (20) مولود قاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، الجزء الثاني، ص 359.
- (21) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 362-363.
- (22) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 364-365.
- (23) ، (24)، (25) "إنية و أصالة"، ص 380 و 381.
- (26) مولود قاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، المقدمة، ص 37.
- (27) مولود قاسم، "إنية و أصالة"، ص 404-405.
- (28) مولود قاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، الجزء الأول، ص 249.
- (29) مولود قاسم، "إنية و أصالة"، ص 544-545.
- (30) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 579.
- (31) مولود قاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، المقدمة، ص 22.
- (32) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 65.
- (33) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 71.
- (34) مولود قاسم، "إنية و أصالة"، ص 545.
- (35) مولود قاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، المقدمة، ص 70.
- (36) مولود قاسم، "إنية و أصالة"، ص 14.
- (37) مولود قاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، المقدمة، ص 12.
- (38) مولود قاسم، عن الدكتور أحمد بن نعمان، "مولود قاسم نابت بلقاسم رمز كفاح أمة"، ص 173.
- (39) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 175.
- (40) مولود قاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، المقدمة، ص 66-67.
- (41) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 71-72.
- (42) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 65-66.

- (43) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 60-61.
- (44) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 29.
- (45) مولود قاسم، "شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل سنة 1830"، ص 9.
- (46) مولود قاسم، مجلة "الثقافة" لوزارة الثقافة و السياحة، العدد 96 لسنة 1986 شهري جويليا-أوت، ص 17.
- (47) مولود قاسم، "أصالية أم انفصالية؟"، المقدمة، ص 32.
- (48) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 52.
- (49) مولود قاسم، "إنية و أصالة"، ص 605-606.
- (50) مولود قاسم، عن الدكتور أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص 111-112.
- (51) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 226.
- (52) مولود قاسم، مجلة "الثقافة"، مصدر سابق، العدد 96، ص 14.
- (53) مولود قاسم، "أصالية أم انفصالية؟"، المقدمة، ص 42-43.
- (54) مولود قاسم، مجلة "الثقافة"، مصدر سابق، ص 15.
- (55) مولود قاسم، عن الدكتور أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص 247.
- (56) مولود قاسم، "أصالية أم انفصالية؟"، المقدمة، ص 44.
- (57) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 56.
- (58) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 14-15.
- (59) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 18.
- (60) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 45.
- (61) مولود قاسم، عن الدكتور أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص 170.
- (62) مولود قاسم، مجلة "الثقافة"، مصدر سابق، ص 27.
- (63) مولود قاسم، عن الدكتور أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص 238.
- (64) قرآن كريم ﴿البقرة، 217﴾.

- (65) قرآن كريم ﴿ البقرة، 120 ﴾.
- (66) مولود قاسم، عن الدكتور أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص 164.
- (67) "لاروس"، المعجم العربي الأساسي، مادة: ف س ش، ص 931-932.
- (68) "لاروس"، المعجم العربي الأساسي، مادة: ف س ش، ص 1134.
- (69) "لاروس"، المعجم العربي الأساسي، مادة: ف س ش، ص 1189.
- (70) مولود قاسم، "أصلية أم انفصالية؟"، المقدمة، ص 11.
- (71) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 18.
- (72) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 21.
- (73) مولود قاسم، "أصلية أم انفصالية؟"، الجزء الأول، ص 94-95.
- (74) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 53.
- (75) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 52.
- (76) مولود قاسم، "أصلية أم انفصالية؟"، الجزء الأول، ص 228.
- (77) محمد الصالح الصديقي، "خواطر و ذكريات عن الأستاذ المرحوم مولود قاسم"، ص 62.
- (78) مولود قاسم، عن الدكتور أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص 247.
- (79) قرآن كريم ﴿ البقرة، 217 ﴾.
- (80) قرآن كريم ﴿ البقرة، 120 ﴾.
- (81) حديث شريف، رواه البخاري و مسلم.
- (82) مولود قاسم، عن الدكتور أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص 197.
- (83) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 246.
- (84) مولود قاسم، "أصلية أم انفصالية؟"، الجزء الأول، ص 140.
- (85) مولود قاسم، عن الدكتور أحمد بن نعمان، "مولود قاسم نايت بلقاسم رمز كفاح أمة"، ص 236.
- (86) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 200.
- (87) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 219-220.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

موجهات الفكر الدعوي

عند مولود قاسم من جهة الإيجاب

تمهيد: نتناول في هذا المبحث معالم الواقع المنشود و المأمول من طرف مولود قاسم نيت بلقاسم، و هي حلول متوخاة عمل على تجسيدها فكرا و واقعا و قضى قرابة ثلاثين عاما يكافح من أجل ترسيخها داخل مجتمعه. فبعد تشخيص الأدواء العميقة التي يعاني منها المجتمع الإسلامي -و كله في الهمّ سواء من طنجة إلى جاكارتا- من جمود و جحود و انفصالية و مركوبية و مسخ و فسخ و نسخ، و كلها أمراض مزائمة و متشابكة، أراد مولود قاسم أن يطرح بدائل مناسبة و ناجعة، و عرض أفكارا يراها مهمة و فاعلة إذا ما وجدت من يؤمن بها و يحاول أن يجسدها في مشاريع حضارية لا تزول بزوال الرجال. و بذلك فنحن نتطرق إليها بتسميتها موجهات الفكر الدعوي من جهة الإيجاب عنده، إذ هي في الأصل منطلقات فلسفية و نظرية للفكر و العمل الدعويين ضمن الجهود الحضاري الذي يراه مولود قاسم و يؤدّ أن يهجه جميع من يحمل أدنى أفكار و طروحات الحضارة الإسلامية التي يأمل عودتها و انبعاثها. و قد حصرناها في ثلاثة موجهات:

- الأصالة - الإتيية - الصحوّة

و بعد أن نكون قد تطرّقنا إليها بالشرح و التذليل، سيكتمل لدينا الجانب النظري من البعد الدعوي في أعمال مولود قاسم. هذا الجانب الذي يمثل القاعدة الفلسفية لدعوته، و الخلفية الفكرية التي تحكم سلوكه و تحركه من أجل التواجد الحضاري المتميز بين الأمم و الوفي لتعاليم الوحي و عزّة الأمة و كرامتها و سيادتها. و سننتظر إلى هذه الموجهات عنصرا بعد عنصر، لإيضاح مضامينها و مقصود مولود قاسم منها، و كيف تجلّى كفاحه لأجلها من خلال خطاباته و كتاباته خاصة، أما الجانب العملي المشاريعي -إن صحّ التعبير- فسيظهر من خلال الباب الثاني من هذه الدراسة، و هو غنيّ أيضا بالتجسيّدات العملية لهذه القاعدة الفكرية و الفلسفية نجدها في كل عمل و تصدّ و كفاح و إنشغال لمولود قاسم نيت بلقاسم.

الأصالة موجهاً موجباً

لقد كتب مولود قاسم نايت بلقاسم -رحمه الله- عن نفسه وارتباطه بفكرة "الأصالة" يقول: ﴿في النسخة التي أهدانا إياها الأستاذ الدكتور الفيلسوف المجمعى عثمان أمين -رحمه الله- من كتابه "الجوانية" أثناء الملتقى الخامس للفكر الإسلامي في وهران سنة 1391 (1971) كتب، رحمه الله، "إلى فيلسوف الإنيَّة والأصالة، إلخ" (1). وهذه شهادة يفخر بها مولود قاسم، إذ أنها نابعة من فيلسوف معروف في العالم الإسلامي والعالم أجمع، وتدل على تفرد مولود قاسم بأطروحات الإنيَّة والأصالة وأفكارهما وإستقلاله بالفلسفة والتفكير فيهما وبهما. ولقد عنون كتاباً كاملاً يفوق الست مائة صفحة بعنوان: ﴿إنِّيَّة وأصالة﴾، ثم عنون كتاباً آخر من جزئين يفوقان معاً الثمانمائة صفحة بعنوان: ﴿أصالية أم إنفصالية؟﴾، ويكفي هذا دليلاً على أنه جعل هذه الأصالة إضافة إلى فكرة الإنيَّة منطلقاً لدعوته وعمله في سبيل بعث الحضارة الإسلامية داخل مجتمعه الصغير، المجتمع الجزائري. وقد كتب الدكتور عبد الرزاق قسوم عن مولود قاسم يقول: ﴿إنَّ الإنِّيَّة والأصالة إبداع فكريّ وأيديولوجي إنفرد به في العصر الحديث فيما أعلم مولود قاسم، وأضحى اليوم مذهباً يمكن وصفه بالمذهب الإنوي، والأصالي، إن صحَّ الإشتقاق﴾ (2). وقال مولود قاسم في إحدى كتاباته ليوضح أنه صاحب الفكرة وأبوها وأنها مذهب في إيجاد النهضة الحضارية الإسلامية الحديثة المنشودة: ﴿هذا التجديد، أو الأخذ بإيجابيات العصر، أو المعاصرة السليمة، بحيث يكون الإنسان ابن عصره، مع البقاء على أديم مصره، ودون أن يصبح نسخة غيره، وهو ما نقصده بالأصالة. ولولا إستكافنا عن إنشاء صيغة مذهبية جديدة، وزيادة ياء وهاء جديدتين، أو إزم ISM إضافي، إلى قائمة الإزمات التي هي كلّها في الواقع صدّي لأزمات، لسمّينا إتجاهنا هذا بالأصالية﴾ (3). وأكثر من ذلك كله أنه جعل فلسفته وفكرته هي حسم المصير في حياة أمته، فيها تحيا ويكتب

لها العزّ والسيادة، و بدونها تضحّل و تزول من على وجه الأرض، أو تبقى مذلولة مقهورة مغلوبة على أمرها لا حول لها ولا قوة، فهو يقول: ﴿إِنَّ الْأُمَّمَ بِأَصْلِهَا وَأَصَالَتِهَا، وَإِنَّهُ لَا يَنْكُرُ أَصْلَهُ إِلَّا مِنْ لَا أَصْلَ لَهُ وَلَا أَصَالَه!﴾. إنه الفرق بين أمم تتعزّز بأجداد ماضيها، و تفاخر بعراقة أصلها، و عمق جذورها، و تمكّن قدمها في السباق الفكري و الحضاري على مرّ التاريخ، و تقول في إستعلاء و كبرياء عن نفسها أنها تحريقة، تاريخية، أي أنها ليست من اليوم، و أخرى ترفع عقيرتها منادية بولادتها اليوم، و بروزها إلى الوجود من العدم، و الخروج من الفراغ ﴿(4)﴾. و سنطرّق إلى مقصود مولود قاسم من كلمة و مذهب الأصالة.

- التعريف:

جاء في المعجم العربي الأساسي لمؤسسة "لاروس" ما يلي:

﴿أَصْلٌ يَأْصُلُ أَصَالَةً فَهُوَ أَصِيلٌ: 1- النَّسَبُ، شَرْفٌ 2- الْأَسْلُوبُ: كَانَ مَبْتَكِرًا مُمَيِّزًا وَ جَيِّدًا

3- أَصْلَ الشَّيْءِ: جَعَلَ لَهُ أَصْلًا ثَابِتًا يُبْنَى عَلَيْهِ

و أَصْلُ الشَّيْءِ: أَسَاسُهُ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ.

و أَصْلِيٌّ: مَا كَانَ أَصْلًا، عَكْسُهُ فِرْعِيٌّ أَوْ زَائِدٌ أَوْ إِحْتِيَاطِيٌّ أَوْ مُقَلَّدٌ.

و تَعْلِيمٌ أَصْلِيٌّ: أَسَاسِيٌّ.

و أَصِيلٌ: 1- شَرِيفُ الْأَصْلِ عَرِيقٌ 2- رَاسِخٌ ذُو جُذُورٍ

و أَصَالَةٌ: مَصْدَرُ أَصْلٍ "أَصَالَةُ الْأَسْلُوبِ" "أَصَالَةُ الطَّرَازِ".

- أَصَالَةُ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ: سِمَاتُهَا الْأَصْلِيَّةُ الْمُمَيِّزَةُ.

- أَصَالَةُ الرَّأْيِ: جُودَتُهُ.

- أَصَالَةُ الْعَمَلِ الْفَنِّيِّ: تَمَيُّزُهُ بِالْإِبْدَاعِ وَ الْإِبْتِكَارِ ﴿(5)﴾.

هذه بعض التفسيرات اللغوية لكلمة "الأصالة" وبعض الكلمات التي هي من نفس العائلة، وتدلّ جميعها على الشرف والعراقة والرّسوخ وامتلاك الجذور مع التمسك بالقواعد والأساس والصادر إضافة إلى التميّز والإبداع والإبتكار والجودة، وهي كلّها معانٍ يُضمّنُها مولود قاسم في تعريفه وشرحه لهذه الأصالة بأسلوبه السّجعي السّهل الجامع والملتصق. ففي كلام له، يذكر الأساس ويذكر التاريخ أو العراقة ويذكر الجذر والوصل بالجذر، وكلّها ألفاظ تدلّ على هذه الأصالة لغويًا، وما سمّي مذهبه بهذه الكلمة وتبناها إلا من خلال معانيها اللغوية، فيقول: ﴿إنّ أمة لا تحافظ على الأساس والأصل، لن يكون لها في التاريخ فصل! تدخل المعارك بلا نصل، ولا تربطها بالجذر همزة وصل﴾ (6)، فسيف آية أمة تريد دخول التاريخ هو حفاظها على الأساس والأصل وابتكارها همزة وصل فاعلة بينها وبين الجذر.

و في كلام آخر له فإنّ مولود قاسم يشرح معاني هذه الأصالة إنطلاقاً من اسمها، فيقول: ﴿أمّا الأصالة، فما يدل عليها اسمها، هي شعور الإنسان أو إقتناعه العميق بانتسابه إلى مجموعة بشرية هي أمته، و إلى أديم هي بلاده، و تشبُّعُه بتصورات و مفاهيم و أفكار إنحدرت إليه من الأسلاف في أعماق التاريخ، و يبلغها إلى الأجيال على مرّ الزمن، و يكون هو، على مستواه، حلقةً أو حلّيقةً في تلك السلسلة المحكمة الحلقات التي يانفصام حلقة منها ينتشر العقد و يمتحي الوجود. و هذه الأصالة إذ تفرضُ على الإنسان أن يكون هو هو، غير مجتثّ الأصول، بل يضرب بجذوره في الأعماق، تستلزم في الوقت نفسه خلق سياج، و المشاركة في الوجود، و أخذ حظه كاملاً من الضّوء و الأوكسجين اللذين هما إكسير الحياة، أي أنّه إذ يبقى عالقاً بأصله، محافظاً على عناصر ذاتيته و مكوّنات شخصيته، يواكب الوجود في الوقت ذاته، و يساهم في المسيرة الإنسانية، و يتمثّل من الغير ما ينسجم و تكوينه ليبقى عضواً من مجموعة و متميزاً عنها معاً. هذه هي الأصالة كما أتصوّرّها

و أفهمهما. و من هذا يتضح كلّ الإتّصاح أنّها تتعارض مع الإنسلاخ و الإنزلاق و الإجماع و الدويان في الغير، كما تتنافى كلّ التنافي مع الجمود، و الخمود، و الهمود، و التّفوق و الإنغلاق، و الإنزواء، التي هي كلها ضدّ الحياة و الحيوية، و تمثّل جميعها بداية الشّلل، ثمّ الإندثار﴿7﴾. فالأصالة و بهذا الشرح الوافي، تعني الإحتفاظ بالأساس و التراث المتواصل المتوارث و الوفاء للأسلاف، و ذلك مع محاولة الإسهام في الجهود البشري المشترك من بحث عن الحقيقة و القيم و الرقيّ، هذه الثلاثة التي تقوم عليها الحياة، فالقيم و المبادئ تضبط الحقائق العلمية و الحقائق الواقعية و ذلك في سبيل الرقيّ و الإرتقاء نحو الأعلى، و تسعى كل الحضارات إلى مسألة إيجاد التّألق في كل ما يتعلّق بالإنسان و حياته، من تألق أخلاقي، و تألق معرفي، و تألق عمراني. و الأصالة عند مولود قاسم تتضمّن كلّ هذه الأمور و التألّقات، فهي ضدّ القابع الجامد المنغلق المتفوق الجامد، و ضد المنزلق الذائب المنسلخ المنفصل المستسلم و التّسخ بكل دجيل و افد. فالأصالة تضمن للمجتمع المحافظة و المواكبة في الآن نفسه، و بدونهما يحجر المجتمع بنفسه و يرسم حدود رسمه. فكلّ بناء يُبنى على الأساس، و لا أساس يصلح و يبقى بدون بناء، فكلاهما متكاملان، بأحدهما يكون الآخر، و بانتفاء واحد منهما لا قيمة و لا دوام يُكتب للآخر، فمذهب الأصالة عند مولود قاسم يمثّل الوسطية بين فئتين متطرفتين يقول عنهما: ﴿إننا أمام فريقين نرى أنّ كلّاً منهما مغال و واقع في الشّطط: أحدهما فريق المتفوقين، المتزمتين، المنزوين، المنكمشين، الرّاكدين، المنغلقيين، الجامدين، الذين يدعوننا باسم المحافظة على التقاليد إلى عدم الإكتفاء بإقفال الأبواب، بل يطالبون منا أيضاً سدّ النوافذ، حتى لا يتسرّب إلينا بصيص من نور، أو نسمة من هواء، و نبقى في الظّلمات، و نتعرّض للإختناق!﴾.

و الفريق الآخر يلحّون علينا باسم التّقدّمية، و الثورية، و التطوّر، و التمدّن، و سعة الأفق، و التّفتح، و العالمية، داعين إيانا إلى عدم الإكتفاء بفتح النوافذ واسعة، و الأبواب على مصارعها، بل يصمّون آذاننا بالمناداة بضرورة نزع السّقوف أيضاً، و هم المغامرون،

السّطحيون، المسوخون» (8). ثمّ ينتقد هـما مولود قاسم و يطرح البديل الوسط لهما بإبداء عدم موافقته لهذا الفريق أو ذاك، فيقول: ﴿فنحن، لسنا مع هؤلاء و لا مع أولئك، بل ننادي بالإنية و الأصالة، و إن شئتم سميتموها الأصالية التي تتضمن بالضرورة كلاً من الجذور و الفروع كشجرة أصلها ثابت و فروعها في السماء، تقيها جذورها من الإقتلاع، و تجلب إليها شرايينها من الأعماق عنصر الحياة، كما تضمن لها فروعها مواكبة الطبيعة و الإستمرار، أو كحصن حصين تُفتح نوافذه لتسرب الضوء و الهواء، و لكنّه يحتفظ بسقفه للحماية من الحرّ و القُرّ. هكذا نتصوّر هذه الإنيّة و الأصالة اللتين تتضمنان بالضرورة التفتح و العالمية» (9). و تشبيه الأصالة هنا في كلامه بالشجرة الثابتة في الأرض بجذورها، و الباسقة في السماء بأغصانها و فروعها، جديرٌ بأن يشرح بما فيه الكفاية هيئة تلك الحضارة التي كان يشهدها مولود قاسم في أمته، أو مجتمعه على الأقلّ، فالأصالة بهذا هي حضورٌ في العصر بمحصول التألق فيما تألق فيه الغير، مع المحافظة على الموروث الحضاري الذاتي و الإستناد إليه كمنطلق في عملية بناء الصّرح الذي له نفس عنوان صرح الأسلاف و الأجداد، فنقول مثلاً: الحضارة الإسلامية في العصر الأموي، أو في العصر العباسي، أو في العصر المملوكي، أو في العهد الفاطمي، أو في العهد العثماني، و نفسها سواء في العنوان، فنقول: الحضارة الإسلامية في العصر الحديث، فهي عملية تواصل مع الأجداد و عملية مواصلة طريقهم الحضاري بإضافة حلقة أو حلقة للسلسلة المحكّمة الحلقات التي بدأوها، و تتسلسل جيلاً بعد جيل مضافاً إليها تجارب اللاحقين بتجارب السابقين، لإثبات الوجود بين الأمم عراقية و رسوخاً من جهة، و تألقاً و تميّزاً من جهة أخرى، و بالأصالة فقط يُثبتُ هذا الوجود في بُعديه ماضياً و حاضراً. يقول في ذلك مولود قاسم في مقدمة كتابه ﴿إنّيّة و أصالة﴾، ما يلي: ﴿كنا نؤيّننا أن نعنون هذه الوريقات بعنوان النقطة الخامسة من جدول أعمال الملتقى الثامن للفكر الإسلامي في بجاية في ربيع 1394-1974، هكذا: "الإنّيّة و الأصالة مع التفتح و العالمية"، ثمّ عدلنا عن ذلك لوضوح الرؤية الآن لدى الكثير أن الأصالة تتضمن بحكم الحدّ و المضمون التفتح، و العالمية،

و التطور، و التقدم، إذ أنّ الأصالة لسيت الإنغلاق و التجمّد، بل هي بقاء الإنسان هو هو مع الاستفادة من إحتكاكه بالغير، و مسابرة الركب الإنساني فيما ينسجم مع عناصر ذاتيته، و يتناغم مع مكونات شخصيته، إذ بتميزه ذلك فقط يكون عنصراً يقدم مساهمته للفكر الإنساني و الحضارة العالمية، و بدونه لا يثريهما بشيء، بل يعيش على حسابهما عالّة، يُثقل الركب، و لا يقدم الإنسانية قيد شبر! ﴿(10)﴾.

إنّ الأصالة تأخذ من الماضي و تأخذ من الحاضر، بكيل ذكيّ بحيث تصنع من واقعها نموذجاً يشرف الأسلاف إذ يحمل الوفاء لهم في الإسم و العنوان و المضمون القيمي و المبدي، و يشرفهم هم شخصياً إذ يأخذ بالعصر و التقدّم ليكتب لهم السيادة أو على الأقل الكرامة، و بذلك فالأصالة وسط تجمع القديم بالجديد، أو بالأحرى تصقل الحديث بالقديم الموروث، و في ذلك يقول مولود قاسم: ﴿إنّ مبدأنا معروفٌ جدّاً، و قد أعربنا عنه في عدّة مناسبات، و هو يتمثّل في التوفيق بين القيم الحقيقية و ضرورات العصر، و هو ما أسميناه "الأصالة تتضمّن العصرية"﴾ ﴿(11)﴾، و يقول أيضاً: ﴿فالأصالة ليست جمود القابع في بالي التقاليد السّجين، و لا إتساخ التابع لكلّ المستوردات المهجين﴾ ﴿(12)﴾. فهذا المذهب الذي ذهبه في تشكيل هيكل الحضارة الإسلامية في العصر الحديث مذهبٌ وسط، لا إفراط فيه و لا تفريط، لا تحييز فيه إلى الماضي و لا إلى الحاضر، و إنّما هو أخذ ذكيّ من هذا و ذاك، و مجد مولود قاسم يشير إلى وسطية هذا المذهب الذي يدعو إليه قائلاً: ﴿يبقى أنّ هذا الكلام قد لا يُعجب لا أولئك الذين يرون في كلّ دعوة إلى التّجديد بدعةً و مروفاً، كما لو لم يكن الإسلام صالحاً لكلّ زمان و مكان، و كما لو لم يجتهد عمر حتى في السّنة و القرآن، و يفضلون إستمرار التوقّف، و زيادة التخلف، فالركود و الموت، و لا أولئك الذين يعتبرون كلّ تذكير بالماضي حيناً إلى ما فات و مات، و كل رجوع إلى الأصل

رجعية، و يودون لنا الإنسلاخ، فالإنسلاخ، سواء في ذلك منهم القوم التبع للغرب أو لشرقه، كما لو كانت الأمم تنشأ من العدم، أو تتولد عن "جيل تلقائي" ﴿(13)﴾.

و كي يُظهر لنا مولود قاسم أن الأصالة هي تشریف الأسلاف و تشریف الذات بإثبات الوجود الحضاري المتميز و المتألق في المجالات الثلاثة الأخلاقية و العرفية و العمرانية، فإنه يقول: ﴿فالأصالة ليست الجمود في المكان، و الجمود في الزمان، و التقوقع حول النفس، و الإنغلاق عن الغير، و التوقُّف عن السير، و التخلف عن الركب العلمي، بل هي الزحف إلى الأمام، و البروز إلى فوق، و الضرب بالمنكبين، و رفع الراية عالية لتنبئ عن الوجود المتميز المزاحم!﴾ (14).

إن مولود قاسم كان دائما يريد أن يوضح فكرة الأصالة على أنها مواكبة العصر بالحفاظ على التراث و الأصل، لذلك نجده يعرف هذه الأصالة في معادلة حاسمة بين موروث الماضي و جديد الحاضر، يجعل فيه البناء الحديث مراعيًا للنمط القديم حتى و لو إستحدثت فيه بعض التعديلات لملاءمة العصر و مبدأ المزاحمة و المدافعة الحضارية، فيقول: ﴿فهي بالصالح من القديم التشبُّث و التمسُّك، لا عن الصالح من الجديد الإعراض أو التمسُّك. و هي بترائنا و على ترائنا التأصل، لا من ضرورة الأخذ و السير في الأرض التنصُّل!﴾ (15).

أما عناصر هذا التراث الذي ينبغي التأصل عليه، فإن مولود قاسم يوضحها في قوله: ﴿أما عناصر هذه الأمة، أما مكونات هذه الشخصية، أما أركان هذه الأصالة، التي تمثل التضحية من أجلها، ما سميته بالأصالية، فهي اللغة، و الدين، و التاريخ، و حب الوطن، و الثقافة المتأصلة، و التقاليد، و ذكريات الأجداد، التي يخلدها التاريخ الضارب بجذوره في أعماق الدهر، و الباسقة فروعه إلى عنان السماء، و الممتد بساطه عبر السهول و الوديان، و الجبال و الصحاري، و الوهاد، و الأنجاد، التي هي كلُّها السجلات الخالدة للأجداد و الأجداد!﴾ (16). و قد تطرَّق مولود قاسم في هذا المقال إلى كلمة جديدة وهي "الأصالية"، و قد

جعلها تعني التّضحية من أجل الأصالة. و بهذا فإنّ الأصالة فكرة و منهج و فلسفة، أمّا الأصالية فهي عمل بهذه الفلسفة و بهذا المنهج. ثمّ يشرح هذه الأصالية في موضع آخر، فيقول: ﴿إذا لم يكن لديك إستعداد، إذا ما نال منال من ركن من أركان شخصيتك، و مكوّن من مكوّنات ذاتيتك، و عنصر من عناصر إنيتك و أصالتك، أو لحق مساسٌ باسم بلدك، مولد أبيك و ولدك، و لم تثر إنسانيتك أو أدمك... و لم يستنكر عقلك و يفرّ دمك، و لم يجنّد العقل و الروح إذ يغلي، و لم يتملكه الغضب المشروع ليملي، فأنت ليس لك إذن من آدم حظّ، و لأنّك إذن حيوانٌ فظّ، غليظ القلب و السّليبي الأناني و لست من النّوع الإنساني! و كُن متأكّدًا في هذه الحال أنّك إنفصالي، و لا يحقّ القول أنّك أصالي! فأنت قد اخترت الإنفصالية، و نبذت ما يتّصل بالأصالية﴾ (17). فالأصالة عند مولود قاسم هي الحفاظ على الأصل و الفصل و التّفريق بينهما لخلق التّناغم، و الأصالية هي العمل بالأصالة و محاولة الدّفاع عنها في كلّ الأحوال، فهي ضمن هذه الأصالة، و هذا ما يؤكّده في قوله: ﴿و قد ذكرنا غير ما مرّة أنّ الأصالة هي "أن يكون الإنسان ابن عصره، مع البقاء على أديم مصره، و دون أن يصبح نسخة غيره"، و الدّعوة إلى هذه الأصالة، و الإيمان بها، و العمل لها، هو الأصالية التي هي عكس الإنفصالية التي يدعو لها الكثير في عالم الإسلام اليوم، مع الأسف، بمختلف الوسائل﴾ (18).

أمّا التعريف الذي يفى بمعنى الأصالة كما يُريده مولود قاسم، فهو تعريفٌ يجمع بين المحافظة على الأصل و المواكبة مع الفصل مع التّميز و التّفرد بطابع حضاري فريد من نوعه يُنبئُ مباشرة عن عنوان الحضارة المتوارثة و يُظهر تألقها في أحلى ثوب بين حضارات الأمم، فلا تألّق إلاّ بهذه الأصالة، إذ يقول: ﴿إنّ أصالة الأمم هي الحصانة، ملتزمة في الأخذ و التّرك الرّصانة. فالتّقليد المُخرّب ليس التّقدم، كما أنّ الجمود عينُ التّردّم. فالأصالة هي الماضي و العصرية، و تلك هي فلسفة

العمرائية؛ فالأصالة الجمع و هو عين الصّواب، و عن تحديّ العصر صحيح الجواب؛
و من هنا قلنا أصالة و أصاليّة، و ضدّ كلّ فصل و إنفصالية ﴿(19)﴾. و الرّصانة هي الثّبت
و الإستحكام و الرّزانة، فهي ترافق أي أخذ أو ترك، من التّراث المتوارث، أو الجديد المستحدث.
فالأصالة أخذ بالحسن، توقّفاً إلى ما هو أحسن، مع البقاء على الأصل ما أمكن، و تطويع الجديد لخدمة
المبادئ و القيم. و لذلك عرّف مولود قاسم هذه الأصالة قائلاً:

﴿أن يكون الإنسان ابن عصره، مع البقاء على أديم مصره، و دون أن يصبح نسخة غيره،
و قد عكسنا التّرتيب، فبدأنا بالعصرانية أو العصر، لا على سبيل الأولوية و الحصر، و ثبنا
بالأديم شرط النّجاح و النّصر﴾ (20). و بهذا التعريف الذي يعيده و يكرّزه مولود قاسم كلّما
تطرق إلى موضوع العصرية أو الحدائث أو التراث، فإنّ الأصالة هي مسابرة العصر و كلّ ما هو مستحدث
و دون الغفلة عن أيّ ابتكار بشريّ حاصل، مع البقاء مشبّين بالتّراب و الأرض، بها نبني الحضارة
و عليها و لأجلها، و الأديم يأتي بمعنى الجلد و يأتي بمعنى الوجه الظاهر، و كلّ منهما يؤدّي المعنى بكون
الإنسان لا يخرج عن جلده أو عن شخصيته، أو أنّه يحافظ على وجه بلده و أرضها دون أن يلبّطها
و يمسخها بالذّخيل الوافد أو الجديد الذي يغيّر من شكلها و لونها، وذلك بالآب يصبح نسخة لغيره
مفسوخاً ممسوخاً منسوخاً منفصلاً عن شخصيته و جلدته. و لأجل ذلك كان مولود قاسم يطوّع
ملتقيات الفكر الإسلامي لتحقيق أهدافه من خلال هذه الفكرة و الفلسفة، و يختصر البتغي منها
بقوله: ﴿هذا هو المقصود بها، هو أوّلاً، أعيد و أكرّر، و لن أملّ و لن أكلّ من تكراري هذا،
هو أن نعلّم شبابنا أن يحرص على أن يكون ابن عصره، مع البقاء على أديم مصره، و دون
أن يصبح نسخة غيره﴾ (21).

ثمّ إنّنا نجد مولود قاسم و بنفسه يشرح تعريفه لهذه الأصالة المتضمّن ثلاث جمل أساسية، فيقول: ﴿أن
يكون الإنسان ابن عصره، أي يأخذ بآخر إكتشافات العلم، بآخر إبداعات الفنّ، بآخر
إختراعات الصناعة، و آخر إنجازات الزراعة و مختلف أنواع النّشاط البشري، و في نفس

الوقت يحافظ على عناصر شخصيته، يبقى متمسكاً بجذوره، ملتصقاً بأعماق أعماق عروقه ﴿22﴾، و كذلك فإنه يشرح هذا التعريف في موضع آخر، فيقول: ﴿إبن عصره أي مع زمانه، على أديم مصره: أرضية بلاده، واقفاً بقدم ثابتة على أرضية بلاده، لا معلقاً بين بلدان، و مؤزغاً بين حضارات، و مُبعثراً بين ثقافات، مُشتتاً، مُمزقاً! و إنما بكلّيته، بتكامل شخصيته، بعناصره مجتمعة، و في نفس الوقت يكون إبن عصره، يستفيد من تجارب الغير، يستقي من ثقافات الحضارات البشرية كلّها، لأنها كلّها تكون شيئاً متكاملأً، لأنها كلّها تكون وحدة، لأنه لا يمكن أن تنسب إلى آية أمة من الأمم، في القديم، و لا في الحديث، و لا حتى في المستقبل، حضارة أو ثقافة بعينها، و إنما البشرية كلّها شاركت بقدر متفاوت، بدرجات متفاوتة، في هذا التراث البشري المشترك المتكامل﴾ ﴿23﴾، فالمسلم يأخذ بالحكمة أنى وجدها و من أيّ فاه حضارية خرجت مع شرط عدم مخالفة شرع الله، فيقيس كلّ وافد رافد، بميزان القديم الذي لا يجب أن يفهم أنه باتد. و قد استقى مولود قاسم هذا المفهوم من الإمام عبد الحميد بن باديس -رحمة الله عليه- الذي لم يُسمّه أصالية، و إنما عبر عنه بفقرة كاملة نقلها مولود قاسم و وضعها في أوّل كتابه ﴿أصالية أم إنفصالية؟﴾ قبل الشروع في المقدمة، و بالخطّ الكبير، و نصّ الفقرة الذي إعتده مولود قاسم كأصل فكري هو كالتالي: ﴿لا يمكن أن ينفع أيّ أحد نفسه، و لا أمته، و لا البشرية، مادام مهملاً، مشتتاً، لا يهديه علم، و لا يُمتنه خلق، و لا يجمعه شعورٌ بنفسه، و لا بمقوماته، و لا بروابطه. و إنما ينفع المجتمع الإنساني، و يُؤثر في سيره، من كان من الشعوب قد شعر بنفسه، فنظر إلى ماضيه، و حاله، و مستقبله، فأخذ الأصول الثابتة من الماضي، و أصلح من شأنه في الحال، و مدّ يده لبناء المستقبل يتناول من زمنه و أمم عصره ما يصلح لبنائه، مُعرضاً عمّا لا حاجة له به، أو ما لا يناسب شكل بنائه، الذي وضعه على مقتضى ذوقه و مصلحته﴾ ﴿24﴾. و كأن مولود قاسم ماض على نهج المدرسة

الباديسية، إستقى منه أفكار بن باديس، ثمّ حاول التأسيس لها بأفكار فلسفية تتّماها بالأصالة أو الأصالية،
و بالإنيّة، و بعد ذلك حاول تجسيدها كمشاريع حضارية بكلّ ما أوتى من قوّة و مناصب قرار إلى أن
مات.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإنية موجهاً موجباً

يقول الدكتور عبد الرزاق قسوم: ﴿إنَّ الإنِّيَّةَ و الأَصَالَةَ إبداعَ فكري و أيديولوجي إنفرد به في العصر الحديث فيما أعلم مولود قاسم، و أضحى اليوم مذهباً يمكن وصفه بالمذهب الإنوي، الأصالوي، إن صحَّ الإشتقاق﴾ (25)، و لقد عنون مولود قاسم تدخُّله في كلمة إختتام الملتقى الثامن للفكر الإسلامي ببجاية سنة 1974، بعنوان حاسم: ﴿إِنِّيَّتًا أَوْ مَنِّيَّتًا﴾ (26)، و عنون كتاباً كاملاً بعنوان يحتوي هذه الكلمة، فسماه: ﴿إنِّيَّةَ و أصالة﴾. و لكن مولود قاسم لا ينسب فكرة الإنِّيَّة لنفسه، بل ينسبها إلى مفكرين و فلاسفة آخرين هم الذين ابتكروها، ثم تبناها هو و اهتمَّ إهتماماً كبيراً، و أراد أن يجسدها في المجتمع الجزائري لما بعد إستعادة الإستقلال. ففي كلمة عن أستاذه عثمان أمين يؤبَّنه فيها، يقول مولود قاسم: ﴿و إننا لندينُّ لأستاذنا الكبير بإهتمامنا بمفهوم الإنِّيَّة، بمبناها و معناها، وهي الواردة في الإشارات و التَّنبيهاات لأبي عليّ بن سينا، و قد كان أستاذنا -رحمه الله- و هو الذي كتب عن ديكارت و فلسفته- لا يفتأ يذكرنا بأن ديكارت لم يأخذ ذلك المبدء الذي جعله محور فلسفته، الكوجيتو: "أفكر فأنا إذن موجود!" إلا من إنِّيَّة ابن سينا المذكورة﴾ (27)، و بذلك فإنَّه ينسب فكرة و فلسفة و كلمة "الإنِّيَّة" إلى الفيلسوف المسلم ابن سينا. ثمَّ إنَّه في موضوع آخر ينسب هذه الفكرة و الفلسفة لفيلسوف آخر تأثر به كثيراً، هو الفيلسوف الألماني فيخته دون أن يفكر أن الكلمة من إبداع ابن سينا، فيقول: ﴿يرى فيخته، صاحب فلسفة الإنِّيَّة أو الذاتية (و كلمة إنِّيَّة هذه لابن سينا)، أن وجود أمة من الأمم بوجود إنِّيَّتها التي هي شخصيتها، و أن هذه الشخصية تتكون من عناصر ثلاثة: الدِّين،

و اللغة، و حبّ الوطن ﴿(28)﴾، و لقد تأثر بهذا الفيلسوف تأثراً كبيراً و شرب من فكره و فلسفته إلى حدّ الثمالة إلى أن وصل به الأمر أن يكتب آراء الفيلسوف المذكور في كتابه ﴿أصالية أم إنفصالية ؟﴾، في الجزء الثاني منه، دون أن يعلّق أو يضيف عليها، فكتب في الهامش يقول: ﴿هذه الفقرات المقتبسة سبق أن نشرناها فيما مضى. و لكننا نعيدها نظراً لما أثير حول موضوع اللغة في السنوات الأخيرة﴾ (29).

في كلام آخر، يؤكّد مولود قاسم أنه ليس منشىّ الإنيّة و إنّما فقط تبنّاها، و عمل بها، و يحدّد معناها المختلف عن فكرة الأصالة، فيقول: ﴿أظنّ أنه بجهود الجميع، أصبح شبابنا الآن يحسّ أكثر من قبل بكثير بأصالته و إنّيته (و كلمة إنيّة لابن سينا و ليست من إنشائي، و إن كان لي إنشاء فهي كلمة "أصالية" أي العمل من أجل الأصالة)، أقول: هناك إهتمام كبير جداً من شبابنا بكل هذا، و يبدو ذلك في إهتمامهم بتاريخهم، و تعلقهم بدينهم و لغتهم و تقاليدهم - الصالحة طبعاً- و يتجلّى في اعتزازهم بوطنهم، و في انغراسهم في أديم هذه البلاد، هذا كلّ هو ما أسميه بالأصالة. الأصالة هي التمسك بالأصل، التعلّق بالأصل، الإعتزاز بالأصل، و الأصل يمثله كلّ هذا: التاريخ، و اللغة، و الدّين، و حبّ الوطن، و التجارب المشتركة، و الآلام و الآمال، و الكفاح و الصّراع المرير في الماضي، و الإنتصارات، فالتعلّق بكلّ هذا هو ما أسميه بالأصالية﴾ (30).

و مهمّ جداً هنا أن نذكر بمفهوم الأصالة و الأصالية حتى يتبيّن لنا و بوضوح مفهوم الإنيّة الذي قد يكون في بعض المقالات التي كتبها مولود قاسم متداخلاً مع مفهوم الأصالة. و يبدو لي أنّ الإنيّة هي شعور المجتمع بشخصيته و بطاقة هويته، و بالتالي محاولته الحفاظ عليها بكلّ ما يملك من شعور و قوّة متجسّدة. أمّا الأصالة فهي تتعدى حدود هذا الشعور أو هذه الإنيّة إلى العمل من أجل مواكبة العصر بالتمسك بالإنيّة التي تمثّل الماضي و التّراث و التمسك بالمستحدث من علم و تجارب الغير لخلق تفاعل بين الماضي

والحاضر بما يبني الإنيّة والذاتيّة. و كأنّ الأصالة متضمّنة للإنيّة، إذ الأصالة تتكوّن من تفاعل عاملين، أوّهما الماضي، و ثانيهما الحاضر، و الإنيّة إلى حدّ ما تمثّل التمسك بهذا الماضي و الاعتزاز به. و لماذا أفرد مولود قاسم الإنيّة بفكرة، و جعلها دائما تلي أو تسبق كلمة الأصالة؟ فلأنّ الإنيّة في عينه تمثّل شيئا هامًا جدًّا، إذ أنه قد يُبنى حاضر الأمة بتألق آني و أيّا كان لونه، و لكنّه تألّق مبتور عن أمانة الأجداد و الأسلاف، و لا يعتبر حلقة متواصلة لكفاحهم الطويل و المصبوغ بنفس الهوية منذ عصور، فهو تألّق فاقده للبطاقة الشخصية. و لهذا فإنّ الإنيّة هامة و خطيرة الموضوع في عين مولود قاسم. و لقد دقّ ناقوس الخطر عندما رأى ما يمّسّ و يحدّش هذه الإنيّة مذكرًا بدورها كفكرة متجسّدة في أسلافنا للحفاظ على شخصيتنا، فيقول: ﴿لقد كنّا في العهد الإستعماري معلّقين في الهواء بين عاملين، منزوعة عنّا جنسيتنا الجزائرية، و غير معترف بنا و لا مُعاملين كفرنسيين، و مع ذلك كنّا كأكثر ما نكون إعتزازًا بذاتيتنا، و تعلقًا بمقومات شخصيتنا، من دين، و لغة، و تقاليد، و بعدًا عن كلّ ما يمّسّ منها، أو ينال من قدسيّتها. و لقد كنّا نقاوم جميع الأمراض الإجتماعية و الآفات المستوردة إلينا، الغربية عنّا، و كان ذلك بدافع من الدّود عن هذه الإنيّة... و كانت تلك الحصانة هي سلاحنا الأوّل في الدّود عن أنفسنا، و بذلك ضمّنا لأنفسنا الدّيمومة و الحياة عبر العصور و الأعاصير ...

... و لكن يجب علينا اليوم أن نعرّف أنّه، بعد زوال الخصم و اختفائه من سطح أرضنا، قد بدأت تلك الحصانة تضعف، و أخذ ذلك الشعور بالإنيّة و الأصالة يتضاءل، و أصبح الكثير يتساهل فيما لا ينبغي أن يتساهل فيه إطلاقًا و بأيّة صورة من الصّور، إذا لم نرد الإحياء و الدّويان ﴿(31).

إنّ الإنيّة هي مرحلة أولى من الإيمان و العمل، تتحدّ مع مرحلة أخرى تأتي لتكوّن بعد ذلك ما يسمى بالأصالة و الأصالية. و يتكلم مولود قاسم عن أستاذه عثمان أمين بحيث ينسب إليه فكرة كانت معروفة عنه، و قريبة من فكرة الإنيّة، و هي "الجوّانيّة"، و هي من أصل كلمة مصرية مستعملة في اللغة

اليومية تدلّ على ما في داخل الإنسان، فيقول شارحها وللإنيّة، و موضعًا نحوها بعد ذلك إلى فكرة جديدة هي الأصالة والأصالية: ﴿و قد تعدّدت مؤلفات الفقيه، كتعبير عن إهتماماته المتنوّعة، الدائرة كلها حول محور واحد: هذه الجوانبيّة التي يمكن أن تلخّص في الإنيّة، أو المطابقة التامة لجذور الأنا، و المحافظة على جميع عناصر الذاتيّة، و المتمسّكة بسائر مكوّنات الشخصية، مع الإستفادة، بعد ذلك، و بعد ذلك فقط، بما يتلاءم مع تلك الإنيّة لدى الغير، و مع التّعبير عن ذلك كلّ من عميق النفس و من حيّ الذات الواعيّة﴾ (32)، و ما يوضّح أكثر علاقة الإنيّة بالأصالة، ما سيأتي من كلام مولود قاسم من جعل هذه الأصالة حاصلة تفاعل بين الذات و العالميّة، الذات بكل ما تحمله من تراث و تاريخ و دين، و العالميّة بكل ما تحمله من أفكار و آليات و علوم و أحداث، فيقول متوجّها إلى المشاركين في ملتقى الفكر الإسلامي من علماء و مفكرين: ﴿و إنتهيتهم إلى ضرورة الجمع بين مزايا الطّرفين النقيضين، اللذين لا يتّمان إلاّ متكاملين، لضمان الوضع الطبيعيّ في الدّار، و قلتم بفتح الأبواب و النوافذ، مع الإحتفاظ بالسقوف و الرفوف، و أكّدتهم أنه لا بد من الأصالة و من التّفنّح، و أنه يتحتّم التوفيق بين الإنيّة و العالميّة﴾ (33).

من جهة، الإنيّة هي جزء هام من الأصالة والأصالية، و من جهة أخرى بواسطة الأصالية التي هي التفاعل السليم بين الإنيّة و العالميّة، فإن الإنيّة تحفظ لنفسها الدوام و تضمن البقاء، فهي في نفس الوقت منطلق، و هي نتيجة و هدف لما بعد تطبيق مبدأ الأصالية. فالفكرتان متكاملتان، لا تقوم واحدة منهما بدون الأخرى، و لا يتيسّر وجود واحدة بعيدًا عن الأخرى، فبالإنيّة و العالميّة تتحقّق الأصالة، و بالأصالة تُحفظ و تُضمن الإنيّة. و لذلك لمجد مولود قاسم ناصحًا الشباب يقول: ﴿كُنْ قطعة بارزة في اللوحة، تُكُنْ لك ذاتيتك، و تميّزُ تحفظ لك إنيتك، و لا تُكُنْ شاحبًا باهتًا و إلاّ إنطفأت و شطبت، و لا ليّنًا و إلاّ عُصرت و أُذبت، و لا لُقمة سائغة و إلاّ استُمرّت و عُرفت، و لا ضعيفًا واهنًا و إلاّ أهنت و صُرفت﴾ (34).

وكلها كلمات توضح العلاقة الوثيقة و المصيرية بين كل من الأصالة و الإنيية، فالتميز في اللوحة العالمية هو ما يحقق معنى الأصالة، و بها تكون الذاتية أو الإنيية، و عدم الشحوب أي تحقيق التواجد الحضاري المناس للغير و هو المعبر عنه بالأصالة، هو الذي يضمن عدم الإنطفاء و الشطب و بالتالي يضمن مواصلة تواجد و تحقق الإنيية، و تناقلها بين الأجيال برغم العصور و الأعاصير.

و إذا ما ألقينا الضوء على كلمة "الإنيية" و على اشتقاقها، نجد أنها مشتقة من كلمة "إنّي" و التي تدل على الحال التي يكون عليها المتكلم، أو من ضمير "أنا" الدال على المتحدث. و بذلك تكون كلمة "إنّي" بديلاً عن كلمة "هوية" التي بدورها تأتي من لفظ "هو"، و كأن مولود قاسم لا يريد أن يطلق هذه الكلمة أو هذه الفكرة المنسوبة إلى ضمير الغائب، بل ينسبها إلى ضمير المتحدث حتى يكون لها وقع أكبر على النفس و تنبيه أقوى لإيقاظ الإحساس و الوعي بالذات و الشخصية فيقول موضحاً معناها الذي قد يُطلق عليه غيره لفظة "الهوية": ﴿الإنيية ليست لها علاقة بالأنانية، بل هي شعور سام لدى الإنسان بوجوده كإنسان و بتميزه عن الغير، و ليست لها أية علاقة بالأنانية التي هي من أبغض الإنفعالات و الدوافع الإنسانية﴾ (35)، فهو يبين اشتقاقها، و يشرحها بإحساس الإنسان بوجوده و تميزه عن الغير بذاتية يجب أن يحافظ عليها لينقلها لمن بعده من الأحفاد بعدما ورثها هو عن الأجداد، فهذه الإنيية أو الهوية يكون شيئاً، و بدونها لن يكون بل ينمحي و لا يضمن الإستمرارية الحضارية. و يرى مولود قاسم أنه ما كافح الشعب الجزائري الذي هو شعبه، و مولود قاسم أحد صانعي كفاحه و ثورته، ما كافح إلا من أجل هذه الإنيية و بدافع من هذه الإنيية، فيقول: ﴿لقد كافح شعبنا أكثر ما كافح لا من أجل مستوى من المعيشة يضاهي مستوى السويد أو كندا، و لا من أجل ترف أو بذخ، و لا مظاهر، أو شكليات و سطحيات، و إنما كانت أقوى الدوافع له في كفاحه هي بطاقة تعريفه، هي هويته، هي إسترجاع شخصيته و ذاتيته، هي إنيتته و أصالته، اللتان هو بهما من هو، و ليس شيئاً بدونهما إطلاقاً﴾ (36).

يشرح مولود قاسم مضمون و محتوى و معنى هذه الفكرة بشكل ميتافيزيقي، فيقول: ﴿أقصد بالإنية ذلك الوعي الحادّ بالذاتية و الشخصية، و هي تلك الإنية التي يتكلم عنها ابن سينا و التي تتلخص في أنه كان قد تصور نفسه معلقاً بين السماء و الأرض، و أن جسمه قد إنزع منه و في حكم العدم، و لم يبق له في تلك اللحظة، و هو بين عالمين، إلا ذلك الوعي الحادّ بوجوده، و شعوره بذاته المتميزة، القائمة بذاتها، المستقلة عن غيرها. و هذا التصور لابن سينا هو الذي كان الأصل، في ذلك الكوجيتو الديكارتي المعروف، الذي يقول: "أفكر، فأنا إذن موجود!" ﴿(37).

فالإنية هي وعي بالذات و محتويات الباطن و شعور بالشخصية و مكونات هذه الشخصية، و إحساس بالنفس و ضرورة البحث لها عن عزّة و كرامة و استمرارية برغم العصور و الأعاصير، و ما أكثر الهجمات التي عانت منها هذه الإنية - خاصة في رقعة بلاد مولود قاسم، أرض أجداده و أحفاده الجزائري- و لاسيما في العصر الحديث، إذ يقول مثلاً عن ذلك -مبيّناً ما عانته هذه الإنية من محاولات طمس-: ﴿ذهب الجنرال "دوبورمون" رأساً إلى جامع كتشاوة، و نزع من فوق صومعته النجمة و الهلال و وضع مكانهما الصليب، ثم ذهب من هناك إلى قصر الداي القصر الإداري، القصر الجمهوري... فانتزع من فوقه العلم الجزائري و وضع مكانه العلم الفرنسي.

منذ ذلك اليوم، أي منذ 5 يوليو 1830، و الإعتداء على مقومات الشخصية الجزائرية من دين و لغة و تاريخ و تعليم إلخ، مستمر و متتابع الحلقات و مكثف و متصاور و متغيّر حسب الوسائل الجهنمية الأكثر تطوراً بمرور الزمن ﴿(38).

إن هذه الإنية الملفوفة و المحفوفة بالمخاطر التي تحديق بها من كل جانب، هي التي دفعت به إلى الصراخ و التذكير بعراقة شعبه و أمته الجزائرية، حفظاً لها من الموت أو فقدان الشعور بالذات و رصيدها عبر العصور، منبهاً إلى خطأ كبير قد ينساق وراءه كلّ فاقده لهذه الإنية، و كلّ من لا يضع لها حساباً أو قيمة،

بدافع أو بآخر، فيقول: ﴿وَمِثْلَ آخَرَ عَنِ الْمَفَاهِيمِ وَالصَّيغِ الْخَاطِئَةِ عِنْدَنَا عَنِ تَارِيخِنَا، الَّتِي نَرَاهَا دَائِمًا فِي الْجَرَائِدِ وَالْمَجَلَّاتِ الْوَطْنِيَّةِ وَالتَّصْرِيحَاتِ نَسْمَعُ بِاسْتِمْرَارٍ وَيُخَالِحُ عَجِيبَ كَلِمَةِ نَحْنُ أُمَّةٌ فَتِيَّةٌ-« Nous sommes une nation jeune »، وَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ-أَيُّ نَحْنُ لَا نَعْرِفُ- مَعْنَى "أُمَّةٌ فَتِيَّةٌ"، "شَعْبٌ فَتِيٌّ"، « Nation jeune »،

« Peuple jeune »، يَظُنُّونَ أَنَّهَا مَفْخَرَةٌ، بَيْنَمَا « Vieille nation » فِي نَظَرِهِمْ هِيَ عَجُوزٌ هَرْمَةٌ، شَاخَتْ أَوْ تَفَكَّكَتْ أَوْ صَالَهَا! لَا، أَبَدًا! فَصِيغَةُ "أُمَّةٌ فَتِيَّةٌ" صِيغَةٌ قَادِحَةٌ، إِحْتِقَارِيَّةٌ، فِي نَظَرَةِ الْأُورُوبِيِّينَ إِلَيْنَا، فَهِيَ نَظَرَةٌ إِسْتِعْلَائِيَّةٌ، مِنْ فَوْقَ إِلَى هَذِهِ "الْأُمَّمِ الْفَتِيَّةِ" بِمَعْنَى أَنَّهَا وُلِدَتْ الْيَوْمَ، أَوْ بِالْأَمْسِ الْقَرِيبِ، وَلَيْسَتْ لَهَا مَسَاهِمَةٌ فِي الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَ لَا مِشَارَكَةٌ فِي الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ، بَرَزَتْ مِنَ الْعَدَمِ وَاللَّأُوجُودِ، وَ خَرَجَتْ تَبْتَدِئُ مَسِيرَتَهَا لِتُحِبُّو كَالطُّفْلِ الصَّغِيرِ! ﴿39﴾.

وَلِجَدِّهِ يَرُدُّ عَلَى مَنْ يَشْكُكَ فِي إِثْمِهِ وَشَخْصِيَّتِهِ وَعَمَقِهَا وَعِرَاقَتِهَا التَّارِيخِيَّةِ، وَ يَنْبَهُ أَبْنَاءَ أُمَّتِهِ إِلَى ضَرُورَةِ الْإِحْتِرَازِ حَتَّى مِنْ إِطْلَاقِ بَعْضِ الْمِصْطَلِحَاتِ وَ الْكَلِمَاتِ الَّتِي وَرَاءَهَا مَفَاهِيمٌ تَخْدُشُ فِي هَذِهِ الْإِنِّيَّةِ، وَ تَنْفِي بِطَرِيقَةٍ أَوْ بِأُخْرَى الْوُجُودِ التَّارِيخِيِّ لِلْأُمَّةِ الْجَزَائِرِيَّةِ الضَّارِبِ فِي أَعْمَاقِ الزَّمَنِ، فَيَقُولُ: ﴿أَوْ كَمَا يَتَّهَمُهَا الْبَعْضُ كَانَتْ عَشَائِرٌ وَ قَبَائِلٌ مُخْتَلِفَةٌ، وَ لَمْ تَكُنْ لَهَا أَبَدًا دَوْلَةٌ مِثْلًا: الْجَزَائِرُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ مَنَحَهَا دَوْغُولَ الْإِسْتِقْلَالِ! هَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْإِسْتِقْلَالِ وَ قِيلَ الْإِسْتِقْلَالُ وَ الْحُصُولُ عَلَى الْإِسْتِقْلَالِ، أَقُولُ لَا! إِنَّ الدَّوْلَةَ الْجَزَائِرِيَّةَ لَمْ تَنْشَأْ فِي سَنَةِ 1962، وَ قَدْ كُنَّا فِي فَتْرَةٍ مِنَ التَّارِيخِ أَعْظَمَ دَوْلَةٍ فِي الْعَالَمِ خِلَالَ الْقَرْنَيْنِ 17 وَ 18 وَ بَدَايَةِ الْقَرْنِ 19، فَكَيْفَ يُقَالُ الْيَوْمَ أَنَّ الْجَزَائِرَ إِسْتَقْلَلَتْ سَنَةَ 1962؟ لَا! بَلْ إِسْتَرْجَعْنَا إِسْتِقْلَالَنا وَ إِسْتَعْدَنَاهُ وَ لَيْسَ حَتَّى إِتْرَعْنَا مِثْلَ نَلْنَا مِثْلَ حَصْلِنَا، أَقُولُ: إِسْتَرْجَعْنَا إِسْتِقْلَالَنا! ﴿40﴾.

و يكتب مولود قاسم معبراً عن أيّ بحث يقدّم في إحياء التاريخ المرتبط بأتمته مُشيداً به و مُنهباً إلى أهميّة هذا الفعل الإنوي في حياة الأمة و ضمان بقائها، فيقول: ﴿إبن باديس عندما أَلّف مبارك الميلي "تاريخ الجزائر القديم و الحديث"، بعث له بكلمة يقول في جملة: "إذا كان من أحيا فرداً يستحقّ كذا و كذا ... فكيف بمن أحيا أمّة؟"﴾ (41). و هكذا -طبعا- كان يرى مولود قاسم عمله من أجل إعادة الشعور و الإحساس بهذه الإنيّة، و تقوية الرّباط بين الأجيال حتى لا تُفقد الهوية و الشخصية و الذاتية في ثنايا الوافدات الدّخيلات من الأفكار و العادات، أو حتى من الأديان و اللغات.

و مرة أخرى نرى مولود قاسم -رحمه الله- يحسم وجوده الحضاري بمدى إحساسه و شعوره بالإنيّة التي تربطه بأصله بكل ما يحتويه من مكونات، بحيث إذا فقد أحدّ هذه المقومات و المكونات أصبح وجوده لا معنى له إذ لا يضمن الإستمرارية الحضارية، بل هو تواجد ظرفي يزول بزواله من على وجه الأرض ما دام أنّه بز تلك السلسلة العابرة للتاريخ و لم يصف حلقة إليها، فيقول: ﴿إني بلغتي التي كانت تناغيني بها أمي، و تقصّ لي بها القصص جدتي، و يتفاهم بها جميع سكان قريتي، أو حيّي في بلدتي أو مدينتي، و أتناغم بها مع أبناء وطني، و أتناجى بها مع آبائي و أسلافي، و أقرأ بها تاريخ و أمجاد أمّتي، و منقوشة بها جدران و صخور بلادتي، ألقنها أولاد أولادي، و أبلّغ بها رسالتي إلى أُنّاداي، و أفاخر بها أصداداي! إني بديني الذي تربطني روحانياته و عقلاياته بالمولى، و بأهلي، و وطني، و بأمتي، و بالإنسانية كإنسان! و إني لبزّاث أمّتي هذه، و مرتبط بتقاليدها، ليس فقط كإنسان، أي حيوان مفكّر، و لكن أيضا كعضو حيّ مثل أيّ عصفور مرتبط بسريره، متعلق بنوعه: وحدة مستقلّة و في الوقت نفسه جزء لا يتجزأ من كلّ!﴾ (42)، فالإنسان ليس فرداً معلقاً في الهواء يقول أنا أنتمي إلى الإنسانية فقط، بل هو كائن مرتبط بجماعة بشرية يحمل تراثها و آمالها و آلامها، و يكون وحدة معها تعمل على نقل كلّ ذلك جيلاً عن جيل، و بذلك فقط يثبت وجوده كإنسان مفكّر يعبر عن ذاته لا كإنسان، و إنّما ككيان حضاري يحمل

وراءه تراثاً و تاريخاً و أفكاراً، و بهذا الإثبات ينطلق نحو المنافسة الحضارية التي تضمن البقاء لجنسه على وجه الأرض. يقول مولود قاسم: ﴿و إذا ما أدى كل واحد منا واجبه في هذا المجال في أوساطه أولاً، لدى أبنائه أولاً، من المحافظة على عناصر هذه الشخصية، و مكونات هذه الذاتية، هذه الإنيّة (و هذه كلمة لابن سينا)، و عملنا في نفس الوقت على اللحاق بالعصر، لأنه لا يمكن أن نحرم أنفسنا من الضوء و الأوكسجين، نكون قد جمعنا بين الفضلين، إذ لا نوافق لا دعاة الإنسلاخ، و فتح السقوف، و لا الذين يدعوننا إلى الإختناق و الظلمة بإغلاق الأبواب و حتى النوافذ! فلا نوافق هذا العنصر المتطرّف و لا ذاك، فكلاهما متطرّف، و نحن للحلّ الوسط، فنحن نبقي محافظين على تقاليدنا، و على أصولنا، و على أصالتنا، و عناصر شخصيتنا، و في نفس الوقت نتفتح على تجارب العالم، و على ما يجري في العالم، لناخذ من أيّ كان، و من أي بلد كان، نستفيد من جميع البشر في العالم. الرّسول كان يقول: "أطلبوا العلم و لو بالصين". من أي بلد كان، من المسيحيين، و من الشيوعيين، و من الصهيونيين، و من البوذيين، و من جميع التجارب في العالم، الناجحة نستقي منها، و الفاشلة نتقيها، و نلحق بالرّكب العالمي، مع المحافظة على أنفسنا. هكذا أرى الدور الكبير للتربية في كلّ سياسة تنموية. و هذا ما ألحّ عليه كلّ الإلحاح، على الأقلّ من وجهة نظري، فيما يخصّ الجزائر﴾ (43).

و للتفريق بين فكرة الأصالة أو الأصلية و فكرة الإنيّة، نقول أن الأصالة مشروع حضاري يتجسد بمواكبة العصر إنطلاقاً من الذاتية و الشخصية التي يسمّيها مولود قاسم بالإنيّة، و الإنيّة هي شعور و حفاظاً على هذه الشخصية و لو حتى عند إنعدام مشروع حضاري متألق، كما يحدث ذلك و حدث لما كانت الأمة تحت الإستعمار، فكانت تعيش بانيتها و لم يتيسر لديها آنذاك بعث مشروع حضاري حتى تتحول إلى تجسيد فكرة الأصالية. فالأصالية تحوي الإنيّة، و الإنيّة أبداً لا يجب أن تغيب عن حياة

الأمّة وإلّا كان الحنّف و الموت. و مولود قاسم دعا أولاً إلى غرس الشعور بالإنّيّة، لتقدّم مشروع حضاري متألّق و وفي لخطّ الأسلاف و إنّيّتهم التي أورثوها الجليل الحاضر.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة

الصّحوة موجّهاً موجباً

من معاني الصّحوة لغةً النهضة و اليقظة و الإستفاقة و الإنبعاث، و لم يستعمل مولود قاسم إحدى هذه المرادفات غير كلمة الصّحوة، و تكلم عنها مبيناً كيف يراها و يتصورها.

و قد شاهد تردّي محيطه من حوله في بلده الجزائر و في كلّ ربوع بلاد أمته الإسلامية، و آله حال المسلمين في هذا الزّمان و ما آل إليه من مذلة و رقود و همود و خمود أو من مسخ و إنفصال و تبعيّة للغير. و قد أيقن أشدّ اليقين أنّ هذا ليس طريقاً للفلاح و اللّحاق بالركب الحضاري العالمي، فصاح قائلاً: ﴿ماذا تريدون بالضبط يا... مسلمون؟ التقدّم أم التهدّم؟ التربية أم التغبية؟ التعريب أم التغريب؟ الإسلام أم الإستسلام؟ الأصالية أم الانفصالية؟ هذا في العالم الإسلامي عموماً، الذي تجرّع كلّه سحوماً، و قد صارت كلّها في جوفه هموماً، و ذلك في أغلبه المغلوب لا الغالب، إذ لنفسه الماسخ السّالب، و إلى دياره كلّ الشّرور الجالب، و في أكثره المسحوق لا السّاحق، إذ لمقوماته المخطّم الماحق، و لركب الأمم غير المدرك اللّاحق! و لسنا في ذلك أقلّ من أحد و كأن و حدّ فيه بيننا الأوحاد، إذ كل واحد منّا النعمة جحد، و قبره بنفسه وحدة لحد!﴾ (44).

و لعلّه من هذه الصّيحة المخلصة يريد أن يوجّه الأذهان و ينهها إلى ضرورة إعادة النّظر في التّحرك الحاصل في الأمة الإسلامية و البعيد من آمال الأجداد و الأسلاف و لا حتى عن العملية التي تقتضيها آية رغبة في اللّحاق بالركب الحضاري المادّي في العالم، فلا هي أنجزت هدف التنمية، و لا حفظت لشخصيتها عدا التسمية. فالأمة الإسلامية غارقة في المسخ و الفسخ و النّسخ و الانفصالية و لم تتخلّص من الجمود و من المركوبية، و لم تنطلق في تأسيس مشروع حضاري عنوانه و مضمونه إنتماؤها الإنبوي،

فهو لا يريد أن يتكلّم عن الصّحة كشيء واقع و حاصل، و إنّما يتكلّم عنها كأمر مأمول و مرغوب و مرتقب لم يحصل بعد برغم كلّ الإرهاصات، فهو يقول: ﴿المستوى العام للعالم الإسلامي؛ ينبغي أن نُقرّ أنّنا، بعدما تقربّ من قرون من تلك الحملة المشهورة، حملة نابوليون على القاهرة، التي إعتبرت لدى الكثير "منطلق النهضة الحديثة في العالم العربي"، فلا نزال، في الواقع، في الأرض و نقول نهضة! فنحن لم نهض بعد! لم نقف! لم نستيقظ بعد، فضلاً عن القيام فضلاً عن النهوض!، و عن "مزيد من الإزدهار" ﴿45﴾.

فيرفض أن يعترف بوجود صحوة للعالم الإسلامي، لأنه يرى هذه الصحوة بمنظار آخر، هو منظار الداعية و الفيلسوف الذي ينظر إلى أيّ فعل كان، ضمن الكلّ الحضاري، و الحضارة هي مشروع دولة يسير كلّ المجالات طبقاً لمنهج معيّن يراعي مقتضى حال الماضي و الحاضر و المستقبل.

إنّ مولود قاسم يعترف بأن الدعوة إلى صحوة و نهضة في العالم الإسلامي لها أكثر من قرن من التواجد الزمّني الممتدّ، و لكنها لم تحدث على أرض الواقع برغم كلّ الجهود، تحقّق منها طموحات الشّعوب المسلمة أن تعيش الحرّية و تنعتق من تحت الإستعمار المسيحي و غير المسيحي، لكنها و بعد ذلك أهملت هذه الشّعوب البناء الحضاري الذي ربّما دعا إليه علماءهم و مفكّروهم، و خرجوا عن النهج الذي ينبغي أن يتّبع لإعادة عزة الأمة و سيادتها و إبلاغ صوت الرسالة المحمّدية. يقول مولود قاسم: ﴿على أنّ الصّحة في الواقع كان قد نادى بها في مجال الإصلاح الدّيني البحت الإمام محمد بن عبد الوهاب في الدّيار المقدّسة منذ الرّبع الأوّل من القرن الثّامن عشر. و الصّحة الحقيقية الشّاملة الكاملة المتكاملة نادى بها بعده المفكّر العظيم فيلسوف الإسلام و عالم الأعلام و كوكب الإصلاح، و آية الحقّ الباهرة جمال الدّين الأفغاني في المنتصف الثّاني من القرن التّاسع عشر. و كان نداء جمال الدّين بدءاً لصّحة حقيقية فعّالة في مجموع العالم الإسلامي تحرّرت بفعلها تباعاً أغلب أجزائه و منها بلدان المغرب الإسلامي، بذلك التأثير الثّنائي الذي كان لجمال الدّين على زعماء بلدان المغرب في كلّ من المجال السياسي

الثوري الاستقلالي و الميدان الإصلاحى الدينى التربوى الثقافى، و يكفيننا أن نذكر فى تونس عبد العزيز الثعالى و الحبيب بورقيبة و الشيخ محمد النخلى (أستاذ عبد الحميد بن باديس فى الزيتونة) و فى الجزائر مصالى الحاج و تلاميذه الذين فجروا الفاتح نوفمبر، و عبد الحميد بن باديس، و فى المغرب علّال الفاسى (فى المجال السياسى الاستقلالى) و محمد العربى العلوى و شعيب الدكالى فى المجال الإصلاحى الدينى التربوى الثقافى. فهؤلاء كلّهم تأثروا بشكيب أرسلان الذى كان تلميذ محمد عبده الذى كان بدوره تلميذ الأفغانى. تلك كانت الصحوة التى أدت بالعالم الإسلامى فى أغلب أجزائه إلى استرجاع إستقلاله و حرّيته و هذا فى المجال السياسى الاستقلالى الإصلاحى الدينى ﴿(46)﴾. فهذا النوع من الصحوة يعترف مولود قاسم أنه وقع، و كان له الفضل الكبير على الأمة فى بلوغ العزّة و لوجزئياً. و لكن الصحوة التى يتمناها مولود قاسم و عمل لأجل بعثها، تعدّى كلّ هذا إلى ما هو أهم، و هى صحوة لم تتحقّق بعد، إذ يقول: ﴿و لكن فى المجالات الأخرى و خاصة منها الإقتصادى، و الإجتماعى، و الثقافى، و العسكرى، و الصناعى التكنولوجى، و العلمى، فى جميع هذه المجالات لم تحدث هناك صحوة و لا نهضة. فإنّ كلّاً من الصحوة و النهضة لا يمكن أن تتمثّل فى مجرد الإقبال على المساجد و على شراء الكتب الدينية، فالإسلام دين و عمل، "و العمل عبادة" كما ينصّ عليه الحديث الشريف.

و لهذا فلا يمكن إطلاقاً أن يكون مجرد إمتلاء المساجد دالاً على صحوة إسلامية، و لا نوع من السلوكات الظاهرية المظهرية الشكلية السطحية، و لا الجدال العنيف و النقاش الحادّ، و التفكير المتبادل فى مسائل غاية فى الجزئية و الشكلية، مثل السّدل و القبض فى الصّلاة و مثل الذّكر بعد الصّلاة... إلخ ﴿(47)﴾. و قد استقى مولود قاسم هذا المفهوم للصحوة الخاطى من محيطه، خاصّةً فى بداية الثمانينات من هذا القرن، هذا المفهوم الذى راح يتجدّر فى أذهان بعض الشّباب

و يبتعد بهم عن مفهوم الصّحة الحقيقية التي نادى بها جمال الدين الأفغاني و لم يتحقّق بعد، صحوة مشروع حضاري يأخذ بالأمة إلى العزة ثمّ السيادة و التألّق، صحوة في الميدان العمراني أولاً و ليس فقط، بل إضافة إلى صحوة في الميدان التّعدي و الميدان الأخلاقي، عملاً من أجل تقديم نموذج لائق بالرسالة المحمّدية في القرن العشرين و ما بعده، وفي لَهْمَة الإستخلاف في الأرض من أجل تعميرها بعدم الإفساد فيها، سواءً إفساد المبادئ و القيم أو إفساد الإنسان أو إفساد الطّبيعة و البيئة أو إفساد المصير الأخروي للمسلم. و هذا المفهوم المرغوب من طرف مولود قاسم لظاهرة الصّحة التي يتمناها، أورده يقول: ﴿يكفيننا أن نورد هنا ذلك التعليق الذي أورده شكيب أرسلان في "حاضر العالم الإسلامي" رواية عن محمد عبده أن اليقظة (أي الصّحة) التي نادى بها جمال الدين الأفغاني كان يرمي بها إلى أن يرى على الأقلّ "إحدى الدّول الإسلامية في صفّ كبريات الدّول الأوروبية" علماً و صناعةً و تقدّمًا اجتماعيًا، و صناعيًا، و ثقافيًا، و أيضًا دينيًا، و خلقيًا و معنويًا، أي يازدهار إقتصادي، و تقدّم صناعي، و تفوق علمي، و حصانة معنوية و مادية، تضمنها الرّوح الوطنيّة و التمسك بالمبادئ الأخلاقية، و أهداف الدين المفهوم فهما صحيحًا. و من هنا نرى أيضًا أن الصّحة لا تتمثّل في مجرد الإقبال على العبادة وحدها كما هو واضح﴾ (48)، و من هنا يضيف مستنتجًا و موضحًا نوع هذه الصّحة المرغوبة، فيقول: ﴿و من هنا فإنّ هذه الصّحة في نظر أعلام العالم الإسلامي هي التي تنطبق عليها الآية "الحديد" في القرآن و الآية الأخرى "و أعدّوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل ترهبون به عدوّ الله و عدوكم"﴾ (49). ثمّ يضيف مشيرًا إلى أن هذه الصّحة التي أشعل جمال الدين الأفغاني فتيلها قد أهدت بمرور الزمن و نقص الهمة و غلبة معاول الهدم و الفساد، فيقول: ﴿الأخطار التي تهدّد هذه الصّحة أو بداية الصّحة -لأننا معشر المسلمين لم نصحّ بعد، أو أننا كنّا قد صحونا بصيحة جمال الدين الأفغاني ثمّ غفونا- أقول أمامها أخطار

متعددة بعضها يأتي منا وبعضها يأتي من غيرنا ﴿(50)﴾، وعلى ذلك يعطي مثالا واحداً فقط، لعله يوضح إنعدام هذه الصّحة التي ينبغي أن تكون حضارية وليس مجرد صحوة شعورية لا تتجسد في مشاريع اقتصادية و سياسية و إجتماعية و ثقافية، فيقول: ﴿و أخيراً و ليس آخرًا و هذه كلّها على سبيل الأمثلة لا الحصر، يكفينا أن نقول أنّ المسلمين يذهبون حتّى إلى قبر الرّسول بجواز سفر و تأشيرة خاصة، فضلًا عن تبادل الأسفار و الزيارات بين البلدان الإسلامية المختلفة. بينما بلدان أوروبا جميعها ألغيت بينها جوازات السفر، و أصبحت تعتبر نفسها وحدة سياسية و اقتصادية في سوق أوروبية مشتركة لأوروبا الغربية و سوق أوروبية مشتركة لبلدان أوروبا الشرقية، و في توحيد برامج ثقافية هنا و هناك في القطاعين و أين العالم الإسلامي من كلّ هذا؟. و من هنا قلنا أن ليست هناك مع الأسف صحوة، بل نوم صحوة في أميمات و دويلات إسلامية رخوة! ﴿(51)﴾. بل و ينفي مولود قاسم وجودها نفيًا تامًا ما دام حالّ المسلمين متأزمًا و ما دام يومهم أسوأ من أمسهم، و يذكّر على ذلك، فيقول: ﴿و كيف نتكلّم عن صحوة و لا نعرف بلدًا إسلاميًا واحدًا من مجموع المليار من المسلمين في القارات الخمس، يصنع قاطراته و طائراته بنفسه كما تفعل بلدان صديقة حتّى في العالم الثالث مثل كوريا الديمقراطية، بل و حتّى عدوّنا صهيون في فلسطين المحتلة. و كيف نتكلّم عن صحوة و مجموع العالم العربي خاصّة، يدرس - باستثناء سوريا - العلوم بلغات الدّول التي إستدمرت بالأمس بل و حتّى المواد الإجتماعية تدرس في بعض البلدان بلغات مستدمر الأمس﴾ ﴿(52)﴾.

إنّ مولود قاسم يصنع هذه الصّحة مبنية على أساس إنبعاث الإسلام في ثوب جديد، ليعود إلى قيادة أمته نحو العزة و الرّيادة و السيّادة و التّألق، هذا إذا ما رعت الأمة إنبتها و حولتها إلى مشروع حضاري يحقّق لها الأصالية التي تمكّنها من التميّز و بلوغ الخيرية بأمرها بالمعروف و نهيها عن المنكر و إيمانها بالله،

إذ يقول: ﴿الإسلام صالح لكل زمان و مكان، بفضل الإجهاد الذي يراعي مصلحة الأمة. هو صالح اليوم و غدًا لأن يستوحى منه البشر نواميسه، و يسيروا على هديه في سلوكهم اليومي و القومي.﴾

أما الإتجاهات المتعددة المتعاكسة فهي من طبع البشر، و الإختلافات موجودة في جميع الأديان، و على المسلمين أن يجددوا أنفسهم بأنفسهم، على ضوء تعاليمهم، و أصالتهم، و تجاربهم الخاصة بهم، و أن يستفيدوا كما ذكرنا آنفًا من تجارب الغير، على أن لا يسمحوا لغيرهم بأن يملئ عليهم خطة سيرهم، مهما كانت النوايا و التعليلات ﴿(53)﴾.

و أول بوادر الصّحة التي يجب أن تتحقّق - و لم تتحقّق بعد- في آفاقها المستقبلية، هي التخلّص من التبعية للغير، و التخلّص من المركّبية أو القابلية للإستعمار بما تفرق فيه الأمة من خلافات و نزاعات مشتتة و مفشلة لجهود المخلصين، و البحث عن بعض السبل لتوحيد جهود المسلمين و لو أنها جزئية لم تقوّل في مشروع حضاري شامل كامل و متكامل، إيقافًا للنزيف الحاصل حاليًا، فهو يقول: ﴿آفاق الصّحة الإسلامية لا تزال بعيدة حاليًا - في نظري- ما دامت أجزاء كثيرة من البلدان الإسلامية لا تزال تحت الإستعمار الأجنبي و حتى الشّقيق، و ما دامت هناك حروب بين الشعوب الإسلامية تفرّسها بشريًا و تفلّسها مادّيًا (إيران - العراق - المغرب - الصّحراء الغربية - و غيرها) مقويّة بذلك أعداء الأمة الإسلامية و مُضعفة بالنّالي هذه الأمة التي قال عنها القرآن الكريم: «كنتم خير أمة أخرجت للناس»، و كانت فعلاً، كذلك، و نرجو أن تعود كذلك، ليست هناك صحوة، ما دامت كنوز هذه الأمة خاصة المتمثلة في النّفط و الغاز و الفوسفات و البوكسيت و الأورانيوم و الذهب... و غيرها تستغلّها غالبًا بلدان غير إسلامية فيتقوى بذلك الأعداء، بدون أن تعود تلك الموارد بفوائد تذكر على أصحابها من هذه الشعوب الإسلامية التي تبقى غارقة في الفقر و التّخلف. لا يمكن أن نتكلّم عن

صحوة مادمنًا نُقَوِي بوسائلنا و طاقاتنا و ثرواتنا عدوًّا ضدَّنا، و إلا فكيف نفسّر تكديس أموال المسلمين في بنوك الصهيونية و الأمبريالية عمومًا في أمريكا و أوروبا؟. و لا يمكن أن تكون هناك صحوة ما دامت البلدان الإسلامية تبيع حصتها من طاقاتها بثمن بخس و تباهى بخفض أشعارها و تشترى جزرًا و فنادق في بلدان أوروبا و أمريكا للتّنزّه و البذخ، و الإستهتار، لا يمكن أن نتكلّم عن صحوة ما دامت البلدان الإسلامية لا تستغلّ ثرواتها الزراعيّة، بل تهمل أراضيها و لا يحقّق و لا يبلّد واحدٌ منها إستقلاله الغذائي، بل هي عالة على أسّتراليا و كندا و الأرجنتين في غذائها من الحبوب و اللّحوم و الأصواف و الجلود، و غيرها، مع العلم أنّ الحبوب تُعتبر اليوم بالإجماع هي المادة الإستراتيجية الأولى في العالم» (54).

و في محاضرة ألقاها في الملتقى الثالث و العشرين للفكر الإسلامي المنعقد ببسة في 29 من شهر أوت سنة 1989 حول السيّد جمال الدين الأفغاني الذي يتبنى مولود قاسم فكره و فلسفته في الصّحوة و النهضة، فإنّه نقل إنشغالات هذا المفكّر الكبير كأنها إنشغالاته هو شخصيًّا، في عصر غير عصر جمال الدين، لكنّ الأحوال تشابهه أو أنّ الزّمن و كأنه توقّف ليبقى نفس العلاج المقترح من طرف الأفغاني هو الحلّ الجزئي الذي يراه مولود قاسم إستعماليًّا لمداواة أدواء الأئمة الكثيرة نحو بعث هذه الصّحوة الحقيقيّة المأمولة، و لكنّه قبل ذلك يجب التخلّص من مرضين إثنين، يقول في ذلك مولود قاسم: ﴿هذا كلّهُ يتوقّف على التخلّص من مرضين إثنين، هما سبب كلّ ما حدث من غزو أجنبي، و احتلال، و سيطرة، و استغلال، و إذلال، و هما البدع التي ألصقت بالدين، و الدين عند الله الإسلام، و التفرّق، و التشتّت، و انفصام العرى بين المسلمين. و نحن نلخص غاية التلخيص، و التّركيز على نقطتين إثنين كشرطين أساسيين:

1- إستبعاد الشوائب التي ألحقت ظلماً و بُهتاناً بالدين الحق، «و أن يسعوا
جهدهم في تخلص العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق
البدع»، و أن تعمم التربية الدينية على الجميع.

2- إستعادة «وحدة الأمة الإسلامية» و ليس بالضرورة بأن يكون على قمّتها
رئيس دولة واحد، و لكن أن يتحدوا على كتاب الله و سنة رسوله، في
حكومات متألّفة، متحالفة، متعاونة، متضامنة، متآخية، متكاملة، موحّدة
الكلمة و الفعل، لضمان المصير الواحد للأمة الواحدة» (55).

ثمّ يضيف مولود قاسم -مبتينياً لفكر جمال الدين الأفغاني و راسماً هيكل يراه إستعجالياً في الحياة
السياسية و مخططات التنمية في البلدان الإسلامية و على ماذا يجب أن تنبني:
«و ربّما تتحقّق هذه الوحدة الإسلامية، فلا بدّ من أن يبنى مجتمع إسلامي على أساس حكومات تقوم
على:

أ- الشورى: بأن تكون هناك "حكومات شورية"، من الشورى القرآنية، و هو يقول أنه حتى الرسول
المعصوم، صلّى الله عليه و سلّم، أمر بصريح القرآن بمشاورة المسلمين، فقال تعالى: (و شاورهم في
الأمر)، فكيف بالواحد منا مهما أوتي من علم، و تجربة، و مران؟. على أن هذه الشورى لا ينبغي
أن تكون شكلية، أي أن تأخذ طابعاً ظاهرياً، صورياً، يتحكّم فيها (في هذه الحكومة الشورية،
النيابية، الدستورية) الحكّام و الدّول الأجنبية، بل يجب أن تكون بانتخاب الشعب، في إنتخابات
حرّة، و إشراك الأمة في حكم البلاد اشتراكاً حقيقياً.

ب- العدل: و هو يلخّ كلّ الإلحاح على هذا العدل: (فالعدل أساس الكون، و به قوامه، و لا نجاح
لقوم يزدرون العدل بينهم)، و يذكر هذا العدل بصيغ مختلفة: "العدل"، "العدالة الشرعية"، "العدالة
الإجتماعية"، "العدل المطلق"...

ت- نشر العلوم و المعارف و الصناعات: خاصة منها "الصناعة الحربية"، و لكن أيضاً الزراعية، و سائر الأنواع الأخرى» (56).

و للتأكيد على مجاعة فكر جمال الدين الأفغاني و تبيينه له، فإنه يذكر في آخر المحاضرة مدى إستعجال تطبيق هذا الدواء الخارج من عيادة هذا المفكر كمرحلة أولى في طريق بلوغ الصّحة الشاملة الكاملة التي تُقدّم نموذجاً حضارياً للعالم، فيقول: ﴿هذا هو مشروع المجتمع الإسلامي الجديد الذي خرج من عيادة السيّد جمال الدين الأفغاني، كتشخيص لأعراض كثيرة، و كوصفة للدواء و العلاج لهذه الشّعائيب و الدّويلات و الأميمات الإسلامية إذ ذاك و الآن!.

أمّا ما قاله عن الوحدة الإسلامية في ذلك الوقت، فلو عاش عصرنا هذا، عصر التجمّعات الكبرى في العالم، في سائر العوالم، على الأقلّ في العالم الأوروبي، و الوحدة الأوروبية، و الإرهاصات - بل التصريجات - بانضمام صهيون إليها، فماذا كان سيقول عن وجوب تجمّع المسلمين في وحدة شاملة، منسجمة، متآلفة، متضامنة، متماسكة، موحّدة، واحة؟ ﴿ (57).

و في انتظار أن تتحقّق هذه الصّحة التي تنتقل العالم الإسلامي إلى ابتداء مرحلة البناء الحضاري المتألق على النهج الأصالوي، فإن مولود قاسم يضع بعض الوسائل التي يرى إتباعها و إستعمالها لبلوغ هذه الصّحة، و ذلك من خلال كلمة ألقيت في إفتتاح مؤتمر المراكز و الهيئات الإسلامية المنعقد في لندن فيما بين 17 و 19 ماي 1973م، فيقول في مجمل ما يقول فيها - وقد أوردنا ذلك مختصراً:-

﴿و إذا ما أردنا الآن أن نبيّن بعض الوسائل لتحقيق هدف الدّعوة الشاملة للمسلمين و غير المسلمين، فرّبما إستطعنا أن نذكر الطّرق الآتية على سبيل المثال لا الحصر:

1- تكوين الدّعاة: فللقيام بدعوة ما لا بدّ من دعاة، و دعاة الإسلام في عالم اليوم

ينبغي أن يتسلّحوا بوسائل اليوم، فحتى داخل العالم الإسلامي ينبغي لأئمة المنابر

مثلاً أن يُقلعوا عن طرقهم القديمة، التي لا تُقنع إلاّ الكبار المسنّين المقتنعين.

فطريقة الوعظ و الإرشاد ينبغي أن تتغير جذريا، فالدعوة الخصبه المثمرة هي التي تنصبُّ على غير المقتنعين لتقنعهم، و على المزعزين المذبذبين لتعيدهم إلى الجادة الصَّحيحة و تحصنهم، و خاصة منهم ما يسمى بالشباب المثقف، الذي هو ليس في الغالب إلا متعلِّمًا لا مُثَقَّفًا. و لذا فعلينا أن نحرصَ على إعطاء ثقافة واسعة، متنوِّعة، شاملة، لدعاتنا لكي يخاطبوا شباب اليوم بلُغته...

2- التَّركيز على الشباب و الذَّهاب إليهم في أنديتهم، و مقاهيهم، و معسكراتهم، و مراكزهم، حيثما كانت.

3- تطوير دور المسجد ليقوم بالتعليم أيضًا للكبار و الشباب الذين فاتتهم سنُّ التَّعليم، و تحفيظ القرآن للصَّبية، و إلقاء المحاضرات، و إدارة المناقشات.

4- تأسيس جامعات إسلامية على غرار الجامعة الأزهرية الحالية، و جامعة لوفان بلجيكا، و الجامعة الكاثوليكية بفرنسا، حيث تدرس جميع العلوم الحديثة مع العلوم الدينية و الأخلاقية، بحيث يتخرَّج منها الطبيب مثلاً مجهَّزًا بأحداث المعلومات و التجارب، و في نفس الوقت مُحصَّنًا بالأخلاقيات و القيم الإنسانية المُثلى، التي يتمثلها مع المواد الدينية، و الأخلاقية، و التَّربوية.

5- زيادة الإهتمام بالنَّشر في المجلات، و الجرائد، و الكتب، في العالم الإسلامي و خارجه.

6- تجنيد أجهزة الإعلام و التَّأثير على الجماهير من صحافة، و إذاعة، و تلفزة، و مسارح.

7- حضور جميع المحافل العلمية، خاصة خارج العالم الإسلامي، لتمثيل وجه الإسلام

الحقيقي.

8- تنظيم ملتقيات دورية للشباب في العالم الإسلامي و خارجه.

9- إقامة جامعات، و معاهد، و مدارس ثانوية و إبتدائية في العالم الإسلامي الأوسع

و خارجه بقدر الإمكان مع ضمان إزدواجية اللغة، لتزويد شباب الإسلام بتكوين

تام.

10- إقامة مستشفيات في بلدان إسلامية مستقبلاً أين تنتشر المستشفيات التبشيرية.

11- القدوة و المثل الحسن من طرف الأفراد، و الأمة للأفراد و الأمم.

أظن أن في وُسعنا أن نقوم بالشيء الكثير من هذا إن لم يكن بالكل، إذا ما توقّرت الإرادة،

و هذه هي مشكلتنا، إرادة التّضحية! و هي مشكلة المشاكل، و ليست الوسائل المادية

و لا الإطارات الإنسانية هي التي تعوزنا!

علينا أن نتساءل على غرار هاملت « To be or not to be »: إنّ المشكلة هي مشكلة الوجود

أو الإنصراف، الرّوحي أولاً، ثمّ المادي فيما بعد قليل، و إذا إنصرفنا روحياً من سطح

الأرض، فذلك أخطر أنواع الإستسلام و الفناء! ﴿58﴾.

لكن مولود قاسم، و بما يشاهده من تقاعس في أمته، يرى هذه الصّحوة بعيدة، و بالرّغم من ذلك لا يفقد

الأمل في كونها ستحدث يوماً و لو بعد وفاته. فلقد ختم كتابه «أصالية أم إنفصالية؟» بكلمة

للكواكبي وضعها منفردة في صفحة قبل الفهرس، يقول فيها:

﴿صيحة في واد، و نفخة في رماد، إن ذهب اليوم مع الرّيح، فستأتي غداً بالأوتاد!﴾ ﴿59﴾.

الهامش:

- (1) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 329.
- (2) د/ عبد الرزاق قسوم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم، رمز كفاح أمة»، ص 281.
- (3) مولود قاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 17.
- (4) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 14-15.
- (5) «لاروس»، «المعجم العربي الأساسي»، تحت إشراف المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم التابعة لجامعة الدول العربية، مادة: أ ص ل، ص 94.
- (6) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، المقدمة، ص 14.
- (7) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، الجزء الأوّل، ص 91.
- (8) مولود قاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 544-545.
- (9) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأوّل، ص 92.
- (10) مولود قاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 9-10.
- (11) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 152.
- (12) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، المقدمة، ص 13.
- (13) مولود قاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 13.
- (14) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 12.
- (15) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، المقدمة، ص 14.
- (16) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 66.
- (17) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 66-67.
- (18) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأوّل، ص 92 على الهامش.
- (19) مولود قاسم، المصدر السابق، المقدمة، ص 12-13.

- (20) مولود قاسم، المصدر السابق، المقدمة، ص 13.
- (21) مولود قاسم نابت بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 214.
- (22) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 203.
- (23) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 202.
- (24) مولود قاسم، نفس المصدر، المقدمة، ص 9.
- (25) د/ عبد الرزاق قسوم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نابت بلقاسم، رمز كفاح أمة»، ص 281.
- (26) مولود قاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 575.
- (27) مولود قاسم نابت بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 326-327.
- (28) مولود قاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 54.
- (29) مولود قاسم نابت بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 367.
- (30) مولود قاسم نابت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص 163-164.
- (31) مولود قاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 104 بتصرف.
- (32) مولود قاسم نابت بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 326.
- (33) مولود قاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 578-579.
- (34) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 579.
- (35) مولود قاسم نابت بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، الجزء الأول، ص 91.
- (36) مولود قاسم نابت بلقاسم، افتتاحية العدد الأول من مجلة «الأصالة»، عن محمد الهادي الحسيني، عن د/ أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص 316.
- (37) مولود قاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 103-104.
- (38) مولود قاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص 197.
- (39) مولود قاسم، مجلة «الثقافة»، العدد 96 لسنة 1986، ص 22.
- (40) مولود قاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص 174.
- (41) مولود قاسم، مجلة «الثقافة»، العدد 96 لسنة 1986، ص 20.

- (42) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، المقدمة، ص 68-69.
- (43) مولود قاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 614.
- (44) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، المقدمة، ص 17.
- (45) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 317-318.
- (46) مولود قاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص 119.
- (47) مولود قاسم، المصدر السابق، ص 120.
- (48) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 120.
- (49) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 120.
- (50) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 121.
- (51) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 123.
- (52) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 123.
- (53) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأول، ص 89.
- (54) مولود قاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص 122.
- (55) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص 115.
- (56) مولود قاسم نایت بلقاسم، نفس المصدر، ص 115-116.
- (57) مولود قاسم، نفس المصدر، ص 117.
- (58) مولود قاسم، «إنيّة و أصالة»، بتصرف، أنظر من الصفحة 404 إلى صفحة 413.
- (59) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 425.

الفصل الثالث:

الهوية قلباً و منطلقاً للدعوة

عند مولود قاسم

المبحث الأول: توظيف التاريخ.

المبحث الثاني: توظيف الدين.

المبحث الثالث: توظيف اللغة.

المبحث الرابع: توظيف القومية.

تطرقت الدراسة في فصلها السابق إلى محدّدات الفكر الدعوي عند مولود قاسم نابت بلقاسم، كتوضيح للقاعدة الفلسفية التي تشكّل الخلفية النظرية لتحركات مولود قاسم في مجال الدعوة إلى إقامة مشروع حضاري إسلامي حديث وفيّ لمطالبات العصر و لمسار سكة الأسلاف و الأجداد، يحقّق الإنيّة و الأصالية و يقضي على كلّ مظاهر الموت و الحثف الحضاريين من إنفصالية و مسخ و فسخ و نسخ و من مركبسية و جمود.

يأتي الفصل الذي نحن بصدد التمهيد له ليُقولَ هذه الخلفية الفلسفية للعمل الدعوي من أجل الحضارة عند مولود قاسم، ليعطي لها إطاراً يُعرّفها و يهيكلها بحكم التواجد الجغرافي المحدود الذي مارس فيه مولود قاسم عمله الدعوي و الحضاري.

إنّ مولود قاسم -رحمه الله- بحكم إنشغالاته السياسية المختلفة قد قلبَ أفكاره مفاهيم فلسفته و مدرسته في الدعوة للبعث الحضاري ضمن إطار الجزيرة تاريخاً و لغةً و ديناً و قومياً، لتكتمل عناصر النهضة و لو في حدود جغرافية محدودة، فوظف أربعة محاور رآها أساسية و ضرورية في خلق آية بعثة أو آية صحوة في حياة شعب من الشعوب في طريق الإلتفات إلى إقامة مشروع حضاري.

هذه المحاور التي وظفها مولود قاسم في البناء الدعوي نحو التجسيد الحضاري، هي وسائل لطرح أفكاره و تجسيدها، و هي في ذاتها -في بعض الأحيان- أهداف متوخاة و مقصودة تُشكّل الكيان و الهياكل الذي اراد مولود قاسم أن يرسمه لأمتة الجزائرية، و هي تجسيد أفكار الإنيّة و الأصالة، و تعتبر مضموناً لهاته الأطروحات الفلسفية و موضوعاً لها. و قد ركّز مولود قاسم في دعوته الحضارية على المحاور التالية:

• التاريخ بكلّ حقبة الزمنية و مراحلها،

• الدين إنتماءً و إعتناقاً،

• اللّغة إنيّةً و أصالةً،

• القومية الجزائرية بما تحمله من مميزات عن غيرها.

و كلّ هذه العناصر تعتبر بطاقة تعريف للفرد الجزائري أينما تواجد، و بدونها لن يكون جزائرياً و لو ادّعى الإنتماء إليها. و قد سبق و أن سردنا بعض نصوص مولود قاسم التي تكلم فيها عن هذه الإثية أو هذه الهوية و وضع هذه المحاور الأربعة موضوعاً و مضموناً لها، فقال مثلاً تلخيصاً لهذه الفكرة: ﴿إني بلغتني التي كانت تناغيني بها أمي، و تقصّ لي بها القصص جدّتي، و يتفاهم بها جميع سكّان قريتي، أو حيّ في بلدتي أو مدينتي، و أتناغم بها مع أبناء وطني، و أتناجى بها مع آبائي و أسلافي، و أقرأ بها تاريخ و أمجاد أمّتي، و منقوشة بها جدران و صخور بلادتي، ألقنها أولاد أولادي، و أبلغ بها رسالتي إلى أندادي، و أفاخر بها أضدادي!. إني بديني الذي تربطني روحانياته و عقلاياته بالمولى، و بأهلي، و وطني، و بأمّتي، و بالإنسانية كإنسان!. و إني لبرّاث أمّتي هذه، و مرتبط بتقاليدها، ليس فقط كإنسان، أي حيوان مفكّر، و لكن أيضاً كعضو حيّ مثل أيّ عصفور مرتبط بسربه، متعلّق بنوعه: وحدة مستقلّة و في الوقت نفسه جزء لا يتجزأ من كلّ!﴾ (1).

و لذلك فقد أفردت في هذه الدراسة فصلاً كاملاً لهذه العناصر الأربعة لكونها قابلاً لدعوة مولود قاسم، و كونها موضوعاً و مضموناً لها في أغلب طروحاتها. و سيأتي التفصيل فيها و مدى إهتمام مولود قاسم نابت بلقاسم بها و توظيفه لها و إرتكازه عليها في الدّعوة للبناء الحضاري الأصلي داخل الجزائر.

توظيف عنصر التاريخ

سوف نركّز في هذا المبحث على أربعة أمور هيكلية هذا الموضوع، نراها ستفي كاملة بلمّ الموضوع و توضيحه. لذلك نقسّم المبحث إلى ما يلي:

1. إهتمام مولود قاسم بالتاريخ،
2. إهتمام مولود قاسم بتحقيق وحدة التاريخ،
3. إهتمام مولود قاسم برّد الاعتبار للدولة الجزائرية،
4. تركيز مولود قاسم على عظمة الدولة الجزائرية في الفترة العثمانية.

إهتمام مولود قاسم بالتاريخ

لقد كتب مولود قاسم في مقدمة كتابه «شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل سنة 1830» يقول: «كنت نويت أن أعنون مقدمة هذه الدراسة هكذا: «فصل المقال و حدّ النصال فيما بيننا و تاريخنا من الإتصال أو الانفصال»، إنّ القصد من هذه الدراسة هو إحكام الصلة بين حلقات سلسلة تاريخ أمتنا الجزائرية العريقة، و إبراز ما كان لها من شخصية دولية متميزة، و وجود دولي بارز، و هيبة عالمية أطبقت الآفاق» (2). و لقد خصص كتاباً كاملاً لصدى فاتح نوفمبر المجيد من سنة 1954 للميلاد، سماه: «ردود الفعل الأولية داخلاً و خارجاً على غرة نوفمبر أو بعض مآثر فاتح نوفمبر»، إضافة إلى الكتاب المذكور آنفاً و المختصر على جزئين.

و كلّ من يروي عن مولود قاسم نأيت بلقاسم تفاصيل حياته، يؤكد بوجه أو بآخر مدى إهتمامه الفائق بالتاريخ، إذ يقول عنه مثلاً الدكتور المؤرخ أبو القاسم سعد الله: «لقد كان سي مولود يحبّ التاريخ لأنّه وسيلته إلى إكتشاف الجزائر. و كان حريصاً في أحاديثه و مجالسه على الإستشهاد بمعارفه التاريخية، و أقول "معارفه" لأن سي مولود لم يدرس التاريخ بمنهاجته و ضوابطه، فكان التاريخ بالنسبة إليه هو الأحداث و الوثائق و الحكاية أو الرواية، دون الكيفيات و البراهين» (3). طبعاً هذا رأي رجل يهتم هو أيضاً بالتاريخ في إهتمام مولود قاسم بنفس الموضوع، إلّا أنّنا عندما نستطلع أعمال مولود قاسم التاريخية أو المحلّلة للتاريخ، سوف نجد فيها المنهج التاريخي العلمي الذي يتناسب و طموحاته الشخصية و القومية و يرعى عزّة أمته و كرامتها و عرافتها، و هذا ما أخذ عليه مولود قاسم في هذا المجال، إذ أنّه ينظر إلى علم التاريخ بمنظار آخر غير الذي ينظر به قرناؤه، فيقول عن ذلك: «في مجال تزوير التاريخ هناك عدد لا يحصى من الذين يحاولون أن يشككوا في تاريخنا، ليذبذبونا في

حاضرنا و مستقبلنا. و لذا علينا أن نحذر، و نختار، و نحتاط. علينا أن نقرأ كل شيء، بشرط الحذر، و الإحتياط، و اليقظة. و ذلك لأن التاريخ هو أساس الأيديولوجيات كلها، و ليس بهذه الموضوعية، و العلمية، و النزاهة، و الحياد و التجرد، و غير مما يدعون! ﴿4﴾، فهو دوماً كان يشكك في كون التاريخ قد تطرق إليه الغير بالموضوعية و النزاهة و الحياد كما يدعون، بل و يؤكد غياب كل هذه الأفكار عن ما هو موجود مكتوب عن تاريخنا أو عن تاريخ غيرنا، فيقول: ﴿التاريخ ليس تشريح ضفدعة في مخبر... فلكل عالم منهجيته، و منهجيته فقط، و التاريخ له إلى جانب هذه المنهجية العلمية، النزاهة و الموضوعية و التجرد، له زيادة على هذا كله، روحه، إنه روح الأمم و عقلها و سجلها و مرجعها أو دليلها﴾ (5). فمولود قاسم كان يشير دائماً إلى الإنطلاق الداخلي في كتابة تاريخ الأمة من الأحاسيس و العواطف المرتبطة بالوطن ثمجيداً و تعظيماً، و هو ما يسميه بالروح. و مجده يضيف في نفس السياق عن نفس الفكرة فيقول: ﴿هذا تفسير ما ألححت عليه أثناء الحلقة الدراسية من ضرورة جمع الوثائق و المستندات من أجل كتابة تاريخنا من جديد بعقلنا، بطريقة منهجية، و منظمة، حقاً بتلك "النزاهة العلمية" التي نسمع عنها كثيراً، و يمدحونها لنا في كل مكان... و لكن فيما يخص تاريخنا بالذات، ذلك التاريخ الذي طالما كان موضوع تزوير، بل و إنكار و نزاع أيضاً، من قبل البعض، لأبداً أن نزيد بعداً آخر، إلى العقل، و المنهجية، و النزاهة العلمية، ألا و هو الروح؟! فعلياً أن نكتب تاريخنا بفكر علمي، حقاً، ولكن أيضاً بروحنا، تماماً كما تفعل جميع الأمم!﴾ (6). فكان مولود قاسم دوماً يؤكد على ضرورة التطرق إلى كتابة التاريخ بنوع من الروح الوطنية و القومية و الذاتية التي يجب أن تعكس تزوير الآخرين لحقائق تاريخنا، فيقول: ﴿ولكن، رغم كل هذا المنهج العلمي، فالتاريخ لا يمكن أن يُدرس بتجرد مثلما يُدرس علم الحياة -البيولوجيا- فالتاريخ هو الأيديولوجية، مرتبط بالأخلاق، بالدين، بالمعتقدات، بكل هذه

الكوامن النفسية، و بحياة الأمة فهو الأيديولوجية الأولى، و يؤثر فيها إلى أبعد الحدود ﴿7﴾، بل إن مولود قاسم يُنكر تمامًا وجود تاريخ موضوعي نزيه متجرد و حيادي، فيقرّر ذلك قائلاً: ﴿و نحن يقوم لدينا أيّ عصفور (بالمالطية: "الزغزو: ففي مالطا يسمّون وزير الشباب وزير الزغزو") فيرفع عقيرته هذا الزغزو عندنا و يقولون: "إننا نكتب تاريخًا علميًا"! يا سلام على آينشتاين! و على ابن رشد! و ابن سينا قبله! و على العلم! لا، يا أخي، التاريخ ليس هكذا! ليس علم التّبات! و لا علم الحياة! ليس بيولوجيا! ليس تشريح ضفدعة! التّاريخ أيديولوجية! التاريخ مفاهيم و صيغ، متّصل عميق الإتّصال بذكريات الشعب، بروح الأمة، بدينها، و حياة مجتمعتها، آية أمة كانت، و أيّ شعب كان، و أيّ مجتمع في الأرض! و كذلك هو الإسمنت الرّوحي، لا يقلّ في ذلك عن الدّين، لأنّه يضمّ الدّين، فالتّاريخ يضمّ الدّين، و كلّ شيء، و الأخلاق، يضمّ حياة الأمة، في مجموع عناصرها و مكوناتها، بعقلها و عواطفها، و آلامها و آمالها ﴿8﴾. و على سؤال لصحيفة «الجمهورية» مضمونه هو: «كأنّ ليس هناك فرق بين المؤرّخ و السياسي، أجاب مولود قاسم قائلاً: ﴿لا! ليس هذا أبدًا، المؤرّخ يذكر الأشياء، ولكن التّاريخ ليس التّشريح الضّفدعي المخبري - كما قلت - و هنا أستند إلى فيلسوفين إثنيين ألمانيين و أكتفي بهما: الأوّل هو شوبنهاور و يقول: «إنّ التّاريخ للأمة - و قد ذكرنا ذلك سالفًا - هو العقل بالنسبة للفرد»، فلا بدّ إذن أن يحذر الإنسان و يسهر على هذا العقل حتى لا يصيبه التلوّث حتى لا يُصاب بببلبة، حتى لا يُصاب بتذبذب، و حتى لا تدخل فيه عناصر الشكّ فيتساءل عن نفسه، و عن وجوده، و عن أصله، و يبقى مشدوهاً، متذبذبًا، شاكًا، متشائمًا، فلا بدّ من الإنفراس في أديم البلاد و الدّوبان في كيان الأمة بكلّ ثقة و اطمئنان ﴿9﴾.

لقد كان مولود قاسم أشدّ ما يكون في المراتب العليا من الإحساس بالإنيّة التي تحملها أمته و يحملها هو معها، حينما كان يتطرق إلى أمجادها و أيامها في التّاريخ، و قد كان يحسُّ بالعزّة و العظمة كلّما طرق بابًا من أبواب تاريخ هذه الأمة الجزائرية بحيث يجعله مُنبهًا و دافعًا لإمتلاك المستمعين و القراء الشّعور نحو الأنا و العمل بالأصالية. و لعلّه في بعض الأحيان نحسّ معه أنّه كان يجعل التّاريخ محور كلّ فلسفته و المنبع و المنهل الذي يستلهم منه كلّ أفكاره، و لقد كتب يقول عن موقع التّاريخ في فلسفته المتعلّقة بالبناء الحضاري الأصالي: ﴿فالتّاريخ، بحفظه لكل حلقة من حلقات سلسلة الأجداد و الأحفاد، يؤكّد عناصر الشخصية الأصيلة، المتفتّحة في الوقت نفسه على ضرورات العصر بما لا يضرب أصالتها، و يُعطي الأمة وجهًا بارز السّمات، واضح القسّمات، و يضمن لها وجودًا متميزًا يكون عنوانًا لها، و بطاقة إنّيّتها -أو تعريفها- بين الأمم، ككلّ قائم بذاته، و كجزء من كلّ أكبر منه و يشملها: مغربي - عربي - إسلامي - بل إنساني عالمي.

فهو الأهمّ في كلّ ثقافة، و البداية و النّهاية، و بيت القصيد، و الزبدة من الكلّ، ليس فقط لإستخلاص الدروس، و لا فحسب للتعريف بأجدادنا، و لكن أيضًا لغرس الإعتداد بالنّفس في الشباب، و تعميق الوعي بالذات، و تقوية الإعتزاز بالوطن، و التشرّف بالإنيّة الوطنية، أو بطاقة التعريف، لأمة كاملة مجيدة، هي عنوان المجد، ألا و هي الأمة الجزائرية العتيدة! ﴿(10).

بل إن مولود قاسم يذهب بعيدا في تعظيمه لدور التّاريخ في النفوس أفرادًا و جماعات، فيذكر قولاً لفيلسوف ألماني هو فيخته، ثمّ يبناه، و هذا ما سنلاحظه في كلامه حين يقول: ﴿فيلسوف آخر هو فيخته، الذي يقول: «إنّ التّاريخ الألماني ينبغي أن يُدرس كالإنجيل للألمان و يُحبّ بنفس التقديس و التّقدير و الإجلال»، و نحن نقول إنّ التّاريخ الجزائري، ينبغي أن يدرس كالقرآن للجزائريين و يُحبّ بنفس التقديس و التّقدير و الإجلال، و الله يعلم قصدنا بهذا

القول و لسنا نقارن القرآن بالتاريخ» (11). ثم أنه يشير مشكلة كان يراها خطيرة على حياة أمته، وهي مسألة كون مثقفها و متعلميها لا يكثرئون بكتابة الأحداث و كتابة التاريخ عمومًا منذ عصور مضت، و لا تزال الظاهرة منتشرة إلى حدّ أيامنا، فيلمح إلى ذلك و يقول متحسّرًا: ﴿أجدادنا كانوا فصحاء بلغاء من حيث جلال الأعمال، و لكنهم كانوا بكمًا أميين من حيث تسجيلها، و الإبانة عنها، و إبرازها، و تخليدها بالكتابة، بالحرف، للأجيال، و التاريخ، إغراقًا منهم في التواضع، أو جهلاً بقيمة التاريخ، و استخفافًا بأهمية تسجيل الأحداث لإستخلاص العبر!﴾ (12).

و بعد ذلك يكشف مولود قاسم الأضواء على أوضاعنا الحالية من تواصل نماء هذه الظاهرة بيننا و بين أترابه في عصر تتسارع فيه الأحداث بشكل مذهل و يشهد التقلبات الإقليمية و العالمية الكبرى، و يُستعمل في هذه التقلبات التاريخُ استعمالاً مزيّفًا، فيقول: ﴿و نحن أيضًا، على ما نحن عليه حتى الآن من إهمال السجلات، و من عداء للوثائق، و من عدم إكتراث بالألواح، التي هي لدى الغير محفوظة، علينا أن نهتمّ بعد اليوم، أكثر من ذي قبل، بسجلات وجودنا بين الأمم، و ألا نهمل أوتادنا التاريخية، و هي الأعمدة التي نستند إليها، و الرّكائز التي نتشبّث بها، و شهادة ميلادنا، و السّوابق العدلية لنا، و بطاقة إيتنا أو تعريفنا، و وثيقة وجودنا في سجلّ الوجود﴾ (13).

و ظلّ مولود قاسم يدعو أترابه و مثقفي زمانه إلى الإهتمام بكتابة التاريخ و كتابة أحداث الواقع كما يرونها و يفهمونها بتحليلات تماشى و عزّة الأمة و كرامتها، ذلك لتبقى مقالاتهم و كتبهم و وثائقها و شهادات للمستقبل تعتمد عليها الأجيال القادمة لكتابة تاريخ أسلافهم و متركزات بطاقة تعريفهم، فيقول لهم: ﴿أكتبوا بالعربية كما هو واجب، أو حتى بالفرنسية فهو على كلّ حال تاريخ دام

يزيده إحمراً كتابته بلغة أجنبية إظهاراً للمأساة، في أسود صورها كما كتب أهل الأندلس بالقشتالية...

أكتبوا و أطلعوا الناس على ما أنتم عليه، و أطلعوا أنفسكم على وجودكم فتأكدون من أنفسكم و تحسّون بكيانكم بكتابتكم و شعوركم بأنكم تكتبون...

أكتبوا و ثقوا أنكم لا تقلّون عن كتاب الشرق الذين كثيراً ما لا يزيدون عن ترجمة مشوّهة للغرب و إقتباس ممسوخ مفضوح...

إقرأوا الشرق و الغرب، و لكن إجعلوا الشرق و الغرب يقرآنكم، و ثقوا أنكم تكتبون كأحسن ما يكتب الناس، و تزيدون عنهم بالمادة الموضوعية للكتابة» (14).

و قد وضع مولود قاسم كتبه في مجال التاريخ تحقيقاً لهذا الهدف الذي يراه مصرياً، و هو إحياء تاريخ الأمة الجزائرية عساه يستنهض الهمم و العقول للإهتمام بهذا المجال شديد الخطورة و بذل الجهد فيه. و علّق على خروج كتابه «شخصية الجزائر الدولية و هبتها العالمية قبل سنة 1830» بكلام يحثّ على مواصلة طريقه و ما بدأه في كتاب يقع في جزئين قد يكون بادرةً لكتب كثيرة تأتي من بعده، فقال: «إذا أثار هذا الكتاب إهتماماً لدى عدد من الشباب بتاريخنا فأصبح هذا يضع رسالة دكتوراه دولة عن علاقات الجزائر بإسبانيا في العهد العثماني، و ذلك عن علاقات الجزائر بألمانيا في العهد العثماني، و ذلك يضع دكتوراه دولة عن علاقاتنا مع فرنسا في نفس الفترة، و آخر يضعها عن وحدة حلقات تاريخنا و يقدمها في صورة النسيج الموحد المتناغم المنسجم منذ ما قبل الميلاد بأكثر من ثلاثة قرون، بل أكثر بكثير حتى اليوم، إذا حدث شيء من هذا فأنا سأكون قد أدّيتُ دوراً كبيراً جداً و أكون قد أرضيت ضميري و يكون الكتاب قد أدرك الهدف منه» (15).

و كان مولود قاسم شديد الإعزاز بتاريخ بلاده إلى درجة أن سُمي ابنه باسم يوغرطه، ذلك الملك الشائر الجسور، و كان يدعو أتراه من المؤرخين و المثقفين أن يُبرزوا عظمة هذا التاريخ و يوضّحوه للناس و ينزهوه عمّا علق به من تزييف و تحريف و تزوير، و يكتبوا بحماس و روح و قوة و عزة و حبّ للوطن، و قد أجري له حوار مع جريدة «الجمهورية» تكلم فيه عن هذا الموضوع و ضرورة التصدي له، فقال: ﴿ليس هناك أحد من المعاصرين الأحياء ممن كتب بنفس الحماس و القوة... طبعًا لا أتكلّم عن نفسي لأنني كتبت بقوة و حماس و حبّ.

سؤال «الجمهورية»: ألا تعتقدون أنّ هذه الظاهرة ناتجة عن طبيعة تاريخنا و خصوصيته المعقّدة؟

جواب مولود قاسم: لا، أبدًا، تاريخنا واضحٌ جليّ، تاريخنا من أمجد تواريخ العالم، و مليء بالأمجاد، طبعًا هناك أخطاء، و هذا شيء طبيعي ... و أريد أن أقول أيضًا أنّ أغلب الذين كتبوا عن تاريخ الجزائر، أقصد الذين كتبوا بعد الإستقلال كانوا كارثة على تاريخ الجزائر ﴿16﴾. و يشهد في مقال آخر أنّه حدث فعلاً تزييف و تحريف فضيع لتاريخ الجزائر، من قبل المستدمر الفرنسي و أتباعه من الأقلام المسمومة، فيقول: ﴿ركّز المستدمرون الفرنسيون دومًا، منذ "حلولهم" غير المرحب به في ربوعنا، على تزوير التاريخ و تزييف مجريات الأمور، و لم يتورّعوا في هذا إطلاقًا عن التناقض الفاحش مع أنفسهم، و التعارض الصّارخ مع منطق التاريخ، بل و مع نصّه و حرفه. و لسنا نذهب بعيدًا عن التاريخ، و لا نخرج أبدًا عن الموضوع، إذا ما ذكرنا بإيجاز بخطوط هجومهم - و لا نقول دفاعهم - في الجزائر، و إذا ما أشرنا بإقتضاب إلى بعض الحجج التاريخية التي كانوا يتذرّعون بها حتى فاتح نوفمبر... بل و نجدهم يردّدون بعضها حتى الآن، في آخر 1981! ﴿17﴾.

إن مولود قاسم، من شدة حبه لوطنه و تعلقه به و إهتمامه بتاريخ أمته، كان لا يرضى أن يُمسَ هذا التاريخ بما يحدسه أو يحرّفه أو ينكره في أدنى التفاصيل من زمن من أزمته أو حدث من أحداثه، إذ يحكي عنه الأستاذ محمد الصالح الصديق، فيقول: ﴿ في المساء رافقي الأستاذ محمد نسيب الذي يرتاح إليه الأخ مولود كثيرا و يحبّ أن يكون معه كلّما زار مسقط رأسه، و ما كدنا نستوي على مقاعدنا حتى إندفع في ثورة عارمة يتحدّث عن عملية (العصفور الأزرق) و عن كتابي عنها، و قال: «يجب أن تردّ على هذا الذي نفى وقوع هذه العملية في ثورة الجزائر. و إذا سكتنا عن مثل هذا فسوف يكون في الجزائر بعد سنين من ينكر وجود الثورة التحريرية بكاملها!!!» فقلت له: لن أردّ عليه، بل الردّ عليه أبعد من المستحيل... فكان رحمه الله جالسا فإنتفض واقفا فقال و هو يجلب ريقه، و يمدجني باستغراب: «لم لا تردّ عليه، فقد إعتدى عليك و على الثورة، فإذا تنازلت عن حقك فكيف تتنازل عن حقّ الثورة؟» ﴿ (18).

و كان مولود قاسم - رحمه الله - يلقي المسؤولية كاملة على الأساتذة المؤرّخين في كون الخلف لا يعزفون بأجداد السلف، و خاصّة عندما خرج بعض الشّباب يرفعون أصواتهم قائلين: «التاريخ في المذيلة»، فردّ على ذلك بالقاء التّهمة على من يصوغون و يكتبون لهم تاريخ أمّتهم دون أن يُشعروهم بالروح التي فيه و عزّة أمّتهم التي يحملها، فقال: ﴿المسؤولية ليست على الشماريخ، بل المسؤولية علينا جميعا، و على الأساتذة، و خاصّة منهم الجامعيين بالدرجة الأولى. إذن نلوم أنفسنا قبل كلّ شيء - و لا نلوم إلاّ إياها! - على ما في هذه الصّيغ الخاطئة من تحريف تاريخنا و تزيف ماضينا﴾ ﴿ (19).

و قد وصل به الإهتمام بتاريخ الجزائر و ما يتصل به من وثائق و مستندات و كتب، أن حكى عن حادثة خاصة، باركها و صفّق لها بالرغم مما فيها من الخدش في الدّين و مسألة الحلال و الحرام - و هو وزير* للشؤون الدينية-، فروى عن تفانيه في بدل أيّ جهد يخدم الجزائر و تاريخها، و قال عن كتاب ثمين متواجد بالسويد فيه وثائق مهمّة في هذا المجال: ﴿إذ ذاك طلبت من سفيرنا في السويد، الأخ عبد

الكريم شيتور - في ذلك الوقت - أن يدبره لي (و كلمة دبر عربية فصيحة) بأية طريقة كانت، و مهما كان الثمن. فهتف بي بعد ذلك، بأن... الكتاب غالي الثمن جداً. فإن كان الهدف شراؤه باسم مؤسسة، فهذا معقول - و كنت أشغل بالرئاسة- أما إذا كان لك شخصياً فإنه سيكلفك ثمناً باهضاً جداً حيث أنه صدر في بداية القرن الثامن عشر و يستحيل شراؤه، إذ لا يُباع، و في حالة حصولنا على نسخة منه فسيكلفنا ذلك غالياً جداً، آلاف الدينارات بالعملة...

و وعدني بأنه سيحاول إستنساخ نسخة منه بطريقة ما، و ذكر لي أنه أهدى تمر طولقة (هدايا جزائرية) إلى أحد المساعدين في المكتبة، و هكذا وضع هذا المساعد نسخة مصغرة (ميكروفيلم) للكتاب. و ألححت على ردّ المقابل فأقسم أن... الثمن الوحيد هو تمر طولقة و... همر معسكر... و ما دام شارب ذلك الخمر ليس بمسلم، فلعلّ الحديث الشريف: «و شاربه و جلسه...» أو كما قال -صلى الله عليه و سلم- لا ينطبق على السيّد السفير، خاصّة أنه أدّى بذلك خدمة كبيرة لتاريخنا، إذ أن الكتاب، في ثلاث مجلّدات ضخمة، كنزٌ من المعلومات!.

ذهبت بالنسخة إلى المكتبة الوطنية لقراءتها بالجهاز الخاصّ المكبر، ولكن كان من الصّعب قراءتها، لأنّ الكتاب قديمٌ، طبع سنة 1739 على ورق شفاف صغير، مكتوب بالصّمغ الذي كنّا نكتب به على الألواح فيما مضى -فاستحالت عليّ قراءته. و لكن أحد الإخوة هناك، نصحني بالتوجّه إلى سوناطراك أو وزارة الدفاع الوطني، اللّتين لديهما أجهزة لإستنساخ الميكروفيلم بتحويله إلى كتاب من جديد، أي لإرجاعه إلى أصله الأوّل بل أحسن. فإستغربتُ لهذه الطريقة العملية التي ما كنت أعرفها من قبلُ (و العلم كما ترون

زحّاف، يجري، فمتى سئلحق بالركب؟ متى؟ (20). و تكفي لنا قصة هذه الحادثة و رواية مولود قاسم لها بفخر و إعتزاز، و دون تستر أو تحرج، لتعلم و ندرك مدى إهتمامه بالتاريخ كجزء هام بل كاهم جزء و عنصر من عناصر الإنية التي يُبنى عليها البناء و التأسيس الحضاري الأصالي.

امعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

تحقيق وحدة التاريخ

عاش مولود قاسم نايث بلقاسم مرحلة ما بعد إسترجاع الإستقلال الوطني بكلّ مخاضاتها لمختلف الأفكار، ومنها ما يتعلّق بتاريخ الجزائر و أمّتها و مختلف الفلسفات التي يُطرح بواسطتها تاريخ هذا الشعب. و قد شعر بخطورة عدم إتفاق مؤرّخي و مثقفي هذه البلاد على تاريخنا، و ظلّ يعاني حتى مات لتتكرّر بعض أترابه من الأساتذة لبعض حلقات هذا التاريخ بدافع أو بآخر تغطّيًا وراء فلسفات أو إنتماءات أو حتى وراء العنصر أو الدّين.

و بقي يُردّد، كلّ مرّة، كلّما سنحت الفرصة لذلك، ضرورة تحقيق الوحدة التاريخية بالإعتزاز و الإعراف بكلّ حقبة و مراحل تاريخ الجزائر، من بداية تواجد الإنسان على هذه الأرض إلى غاية آيامنا هذه، لأنّ ذلك يحقّق الإنّية التي كان يتغنّى بها في كلّ مجمع و محفل، و كان تلمّأ يُردّده - و لعلّ الفقرات و الخطابات تكون متقاربة في اللفظ و متّحدة في المعنى و المقصد - هذه الفقرة التي نسردها، إذ يقول:

﴿فكما حقّقنا الوحدة الترابية علينا كذلك أن نحقّق الوحدة التاريخية، التي تعزّز الوحدة الوطنية و تمثّل الروح الجماعية للأمة كلّها لأننا كثيرًا ما نرى شبابنا كلًّا حسب هواه، و حسب التّأثيرات التي تلقّاها من الخارج، الأوروبي و الأمريكي أو العربي أو الإسلامي أو غيره، فهذا...بعثي...يقول...إنّ العهد الإسلامي لا يهتمّني و أنّ العهد العثماني إستدما... و هذا بعثي من نوع آخر، معاكس يقول...إنّ الفتح الإسلامي إحتلال... و آخر يقول...إنّ العهد النّوميدي أي القديم قبل الإسلام، جاهلية و كفر في إحداد لا يعني... و الذي يعتقد بالفكرة الأولى ينفي الثّانية و العكس صحيح، بينما نجد أنّ جميع

الأمم تحرص على وحدتها التاريخية المتواصلة بحقبها المتتابعة المتكاملة كوحدة شخصية الفرد تماماً، التي يصيبها الإختلال أي عدم التوازن إذا ما أعوزها تذكّر فترة مهما كانت قصيرة من حياة ذلك الفرد، فكيف بقرون في حياة أمة؟ ﴿(21)﴾.

إن مولود قاسم نابت بلقاسم كان يؤسس لمدرسة فكرية و سطية تعرف بكلّ مميزات الشعب الجزائري و بكلّ حقبات تاريخه، مدرسة حكيمة تجمع و لا تُشتت، تُوفّق و لا تُفترّق، مُضيّاً على بعض خطى المدرسة الباديسية التي سعت إلى جعل كلّ فئات الشعب الجزائري تتآلف و تتواصل حتى تتعاون و تتحد. و لن يتحدّد هذا الإتحاد بالتقاصي، بل يتحقّق فقط، و فقط بالإعتراف المتبادل، و بالتالي لن يُسلب أيّ جزائريّ جزائريته، و سيعمل بذلك على بدل كلّ ما في وسعه لأجل خدمة وطنه الذي يحسّ فيه بوجوده التاريخي و العنصري و الدينيّ و العرقي. و بعد أن توفّي مولود قاسم -رحمة الله عليه- كتب الأستاذ سعيد آيت مسعودان -الوزير السابق- عنه يقول: ﴿ فعلى سبيل المثال فيما يخصّ قضية الهوية الوطنية كان للمرحوم -و كنتُ أشاطره- مفهوم باديسي لهذه الهوية، و كان بدون أية عقدة، وقيّاً للأصالة الأمازيغية للشعب الجزائري بكامله، كما كان وقيّاً لكلّ ما يربطنا لغة و ديناً و إنتماءً بالحضارة العربية الإسلامية، و لقد كان رحمه الله يعتزّ -و هو على حقّ- بالدور العظيم و الباع الطويل الذي أسهم به هذا الشعب في تشييد تلك الحضارة بباطاله و علمائه من أمثال: طارق بن زياد، و عبد المؤمن بن عليّ، و أبي معطي الزواوي، و ابن باديس و الشيخ أرزقي الشرفاوي... كما كان المرحوم في نفس الوقت يعتزّ بالتاريخ المجيد لهذا الشعب منذ القدم، و من الأبطال الذين كان يفتخر بهم عبر التاريخ الوطني هم يوغرطة، و طاكفاريناس و الأمير عبد القادر، و لآلة فاطمة نسومر... ﴿(22)﴾.

و كان مولود قاسم شديد الحرص على التذكير بالتاريخ القديم للجزائر و التذكير بأمجاده، و على إستعداد دائم للردّ على كلّ من يُنكر هذا الجزء المصري في إنبيّ الأمة الجزائرية. و لقد كتب له التاريخ أنّه تكلمفي هذا و غضب فيه، كما كتب في بعض فترات التاريخ الإسلامي و إعتزّ به على نفس

قدم المساواة مع التاريخ القديم، و كان يرى أن هذا التاريخ واحدًا لأمة جزائرية واحدة مجيدة، و أنه لا يجوز الإستخفاف و لو بجزء صغير من هذا التاريخ، فكتب -مذكرًا بالخطأ الذي وقع فيه بعض الساسة و الكتاب من إهمالهم لبعض حقبات تاريخ بلادهم ردًا عليهم- يقول: ﴿يايماجز أريد أن أقول أننا أهملنا تاريخ الجزائر خصوصًا بعد الإستقلال، و هذا نظرًا لبعض العُقد الموجودة عند البعض من الكتاب و الساسة المخربشين، كلّ فئة و طائفة تريد أن تحذف حقبة من تاريخنا، هناك بإسم الإسلام أو العروبة يحذفون مثلاً العهد التوميدي، و يقولون أن هذا العهد ما دام أنه كان قبل الإسلام فهو لا يهمني، و هناك البعض بإسم الأمازيغية و الأصالة يحذفون عهد الفتح الإسلامي... إلخ، في حين أن الدولة الجزائرية يرجع تاريخها إلى ما قبل الإسلام منذ عهد يوغورطة و ماسينيسا ثم الدولة الإسلامية الأولى، و هي الدولة الرّستمية ثمّ الدولة الزّيرية الحمّادية ثمّ الدولة الزّيرية، ثمّ جاء العهد العثماني، و كانت هذه الدولة تفرض المعاملات مع الدول الأوروبية باللّغة العربية و حتى البسملة... فإذا ن كما ترى هناك من يُلغى تاريخنا بإسم الإسلام و العروبة، و هناك من يلغيه بإسم الأمازيغية.﴾ (23).

و لقد كتب مولود قاسم مقالاً طويلاً تعرّض فيه إلى بعض التّحريفات و التّزييفات التي لصقت في كتابة تاريخ الجزائر، و تطرّق فيه إلى أكبر تحريف و تزييف، و هو هذه الظاهرة التجزئية لهذا التاريخ وراء دوافع مختلفة، مهما كانت هذه الدّوافع تبدو نبيلة، إلاّ أن النتائج دائماً وخيمة، فقال بما قال فيه: ﴿لا! هذا التّحريف، و الصّمت عنه، ينبغي ألاّ يستمرّ! لا! ينبغي ألاّ يكون الإستخفاف بالأمر إلى هذا الحدّ يا جماعة!، إذا بدأنا هكذا نجزّي تاريخنا، فبعضنا يقول، بإسم الإسلام أن الفترة التّوميديّة هذه جاهلية، إذن لا نعرّف بها، و غير تاريخية، و بعدها الفترة الإسلامية بمختلف عهودها، بما فيها العهد العثماني، فتأتي جماعة و تقول «هذه الفترة كذلك لا نعرّف بها لأنّها غزو، أو "سيطرة" و "إحتلال"﴾ (24).

و يحكي الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله شدة تعلق مولود قاسم بالتاريخ القديم للجزائر و إفتخاره، فيقول عن إفتنانه في تعظيم القائد التوميدي «يوغورطة»، ما يلي:

﴿ كانت أحلام الشباب و جموح الفتوة يذهبان بنا كلّ مذهب دون حدود أو قيود، كنا نبحث في التاريخ اللامتناهي في الزمن السّحيق، لعلنا نجد لنا رمسيسًا أو حمورابيًّا أو بركليسيًّا، يحقّق لنا العزّ الحضاري بين الشعوب، و قد وجد سي مولود ذلك، كما يبدو، في يوغورطة و ماسينيسا و حتى القديس أوغسطين، أمّا أنا فلم أر في هؤلاء من يشبه حمورابيًّا أو رمسيسًا أو بركليسيًّا، و لا نحن معهم نشبهه الفراعنة و الآشوريين و الإغريق، فإكتفيت أنا بأعجام الذين برزوا منذ الفتح الإسلامي و بقي سي مولود متشبّهًا بالأشباح، و هذا من الفروق في وجهات النظر بيني و بينه﴾ (25). و تعتبر أفكار الدكتور أبو القاسم سعد الله من بين الأفكار التي حاربها و قاومها مولود قاسم، و تفانى في بذل الجهود لأجل إقصائها و إحياء روح الإعتراز بتاريخ الجزائر القديم، فكتب يقول: ﴿و لكن هذا الجزء من تاريخنا - و أيّ جزء من تاريخ أمة - لا يُنسى أبدًا، و كما ندرس تاريخ الشعر الجاهلي، و ندرس حضارة حمير و سد مأرب - و الشيخ عبد الله المجاهد الشماحي من اليمن هنا، و نفتخر به لأنّه من أصلنا القديم - نفتخر بهذا الجزء أيضًا كذلك و بالذات - تمامًا كما يفعل إخواننا في مصر، كما يفعل إخواننا في سوريا، و العراق، و كما يفعل إخواننا في اليمن، و في جنوب اليمن بالذات﴾ (26). و كان شديد الإعتراز بهذا التاريخ إلى درجة أن سمّى ابنه الذّكر الوحيد بإسم يوغورطة، و كان يرى أنّ تغافل أبناء شعبه عن هذا التاريخ ليس إلاّ من قبيل المركوبية و القابلية للإستعمار، و ليس إلاّ تأثرًا بما كان يدّعيه الإستعمار الفرنسي من كون الجزائر فرنسية تاريخيًّا، و لكن ذلك أخطر، لكون التغافل عن هذا التاريخ منطلقًا من إنتساب إلى الدّين الذي يشكّل هو أيضًا بُعدًا من أبعاد الشخصية الجزائرية الأصيلة، فكتب يقول عن مخطط الإستعمار الفرنسي: ﴿نجد خطوط

هجومهم هذا تمتد حتى إلى التاريخ القديم... إلى ما قبل المسيح بن مريم -عليه السلام-
... وهي تتلخص في النقاط التالية:

(1) أنّ الجزائر كانت تتمتع ب «السلم الروماني -Pax Romans»، و أنّها كانت مقاطعة رومانية، و أنّ فرنسا هي وريثة روما، إذ هي البنت الكبرى لروما، ثمّ للكنيسة؛ La fille aînée de Rome, puis de l'église، منذ أن قالها لويس الرابع عشر، إلى أن كرّرها منذ أربع سنين الرئيس الفرنسي السابق، فاليري جيسكار ديستان، إذن فهي في وضع سوي طبيعي كالوريث الشرعي!.

(2) «أنّ الجزائر لم يكن لها تاريخ، و لم تكن أمة و لا دولة أبداً، و أنّها بعد "حلول" فرنسا بها عادت إلى وضعها الطبيعي، إلى الأصل، و هو تبعيتها لروما في شخص حفيدتها، أو إبنتها الكبرى، فرنسا، كما قال المارشال دوبرومون لدى وضع الصليب فوق صومعة جامع كتشاوة، و إعلان تحويله إلى كنيسة، و رفع العلم الفرنسي على قمة مبنى "الديوان"، مقررّ رئاسة الدولة الجزائرية، يوم 5 يوليو 1830 بالذات، في لحظة إغتصابهم عاصمتنا مباشرة، و كما كرّره الكاردينال لافيغري بعده في نفس المكان!» (27).

ووقف مولود قاسم يرذ بالردّ العلمي على هذه المدرسة التي تهتمّ الإنيّة الجزائرية، يتوجّه بالكلام إلى الفرنسيين و لكنه ما يقصد إلا هؤلاء المتغافلين عن هذا التاريخ المجيد من أبناء جلدته، و بذلك يحقق عصفورين بحجر واحد، فكتب كما كتب يقول:

«و قد أجبنا قبل اليوم، و نكرّر اليوم ذلك، ما داموا لا يزالون يُلوكون هذا التزوير التاريخي، و قلنا و نقول إنّ التاريخ، فيما يخصّ هذه الأقدمية، و الأثالة، و العراقة، و التاريخية، يسجّل أنّ الجزائر أقدم و أعرق و آثل و أكثر تاريخية من فرنسا؛ بل و حاربت

أمها روما، و كم أذقتها! و جرعتها! ﴿28﴾. و الأمة الجزائرية حسب مولود قاسم -و أنا أشاطره في ذلك- أمة عريقة في التاريخ، من أقدم أمم الأرض، و لها مميزاتنا التاريخية و خصوصياتنا و بصماتها في سجل البشرية الخالد للأعمال المصرية و العظيمة، و من ذلك ما كتبه يقول فيه عن بعض هذه الأجداد:

﴿و يكفي أن نشير إلى شرشال مثلاً. فالملك يوبا الثاني، ملك شرشال في ذلك الوقت، هو الذي وضع أول خريطة للجزيرة العربية، و هو أول من وضع دائرة معارف حسب المراجع الأوروبية، دائرة معارف شاملة للعلوم الإنسانية. لأنه حتى أرسطو في مدرسته، أو أفلاطون في أكاديميته، و غيرهما، حتى هؤلاء لم يضعوا دائرة معارف بمعنى الكلمة، لجميع معارف الإنسان، بجميع العلوم و الفنون البشرية في ذلك الوقت، حتى جاء يوبا الثاني، ملك الجزائر، فوضع دائرة معارف كاملة شاملة. و كذلك مثلاً في مداوروش، في شرق البلاد، كان هناك أيضاً أبوليوس المعروف الذي كان سلطه، مرجعا في قرطاجنة في القانون و الآداب، و الفلسفة، و الطب﴾ ﴿29﴾. هذا ليبيّن أنّ الجّد لا يصنع فقط بالتسلّط على البشر و تأسيس الإمبراطوريات القاهرة للشعوب و ظهور السّفاحين مصاصي الدماء و مزهقي الأرواح المروعين خلق الله، بل الجّد يصنع ببدل الخير و نشر العلوم و الإرتقاء بالفكر إلى أعلى مراتب الحضارة، و في هذا أعطى شعبه أجداداً و أفضالاً لازل التاريخ يذكرهم، و سيظلّ يذكرهم.

و من بعض المقالات التي كتبها مولود قاسم عن عراقه شعبه و تميّز إنّيته منذ فجر التاريخ و رسوخها في سجلّ الأمم الكبرى على وجه الأرض، ما يقول فيها: ﴿إنّ تاريخ الجزائر يعود إلى أكثر من خمسة و عشرين (25) قرناً، و ليس إلى ستة عشر قرناً فقط، الذي هو حال فرنسا!، و ذلك أنّه إذا كان أقدم زعماء فرنسا، فرسانجيتوريكس، كما رأينا، جاء بأكثر من نصف قرن بعد واحد فقط في وسط سلسلة ملوكنا القدماء، و هو يوغورطة، إذ كان فرسانجيتوريكس هذا

معاصرًا ليوبا الأول و ماتا في نفس السنة، و هي سنة 46 قبل الميلاد، (و مات الإنسان في حرب كلّ منهما ضدّ يوليوس قيصر)، فمن هو يوبا الأول هذا، المعاصر لأوّل زعيم أو ملك فرنسي، كما يعتبره الفرنسيون بالأمس، و اليوم أكثر من الأمس؟، إنّه لم يكن إلاّ حفيد غاودا Gauda، أخي يوغورطة. فالعراق و التاريخة إذن لصالح الجزائر طبعًا، و الجزائر أعرق و أكثر تاريخية من فرنسا بقرون! ﴿(30)﴾.

و قد آله في حين غفلة قومه و شعبه بمثقفيه و ساسته عن هذا الشيء، مبادرة رئيس فرنسا الأسبق فاليري جيسكار ديستان إلى تسمية كلبه بيوغورطة، فكتب في ذلك يقول: ﴿فإذا ما إكتفينا، فيما يخصّ هذه العراقة أو التاريخية، بمثل واحد فقط، و هو جيسكار ديستان، الذي سمى كلبه «يوغورطة»، ربما نكاية بمقاومة الجزائر القديمة تحت قيادة يوغورطة طيلة سبع سنين ضدّ روما، وجدنا أنّه بذلك يناقض نفسه، إذ يعترف بطريقة غير مباشرة، ولكنّها بليغة، بأنّ عراقة الجزائر و تاريخيتها أقدم بكثير من عراقة و تاريخية فرنسا، حيث أنّ يوغورطة هذا، مع بطولته و عظمته، إلى حدّ أنّ مؤرخًا رومانيًا خصّص له كتابًا بعين سّماه «الحرب اليوغورطية»، أو حرب يوغورطة، لم يكن إلاّ حلقة من سلسلة طويلة من آبائه و أجداده من ملوك الجزائر القديمة، مثل أبيه مستانابعل Mastanabal، و عمّه مكييسا Mikipsa، و جدّه ماسينيسا، و جدّ أبيه غايا Gaia، و جدّ جدّه زلالزان Zalalzan، بينما أقدم زعماء و ملوك فرنسا، فرسانجيتوريكس Vercingétorix، قائد مقاومة الغالين Les Gaulois، أي (الفرنسيين القدماء)، ضدّ روما تحت قيادة يوليوس قيصر، جاء بعد يوغورطة، و مات بعده في نفس السّجن في روما، مامرتينوم Mamertinum، و في كهفه بالضبط، توليانوم Tullianum (و يوجد قرب الكوليزي Colisée و لا يزال يُزار حتى اليوم) ﴿(31)﴾.

أما فيما يخص المدرسة الأخرى التي ويا سم الإنتماء للبعثية و العنصرية و القومية تحاول أن تجعل التاريخ الإسلامي، و خاصة تاريخ الجزائر العثماني تاريخاً غير إنني بحكم أن الأتراك غزاة محتلون، فإن مولود قاسم كتب ردّاً على ذلك في سبيل تحقيق الوحدة التاريخية و الإعتراف بكلّ حقبات التاريخ الجزائري و إحتضانها ضمن سلسلة الأجداد الجيدة، فقال مثلاً: ﴿و نحن لا نقول العهد التركي، اللهم إلا إذا كان كخلافة عثمانية تضمّ العالم الإسلامي كلّهُ، و لكننا كدولة، كنا دولة مستقلة، تابعة روحياً فقط للخلافة، و لكننا كنا دولة مستقلة﴾ (32).

و كان يشير دائماً إلى كون الجزائر جزءاً لا يتجزأ من الخلافة الإسلامية، مهما تغيّرت تسمياتها من أموية إلى عباسية إلى عثمانية، مع كونها تتمتع بالسيادة، و خاصة في العهد العثماني حين بلغت هيئة عالمية شاخصة للأبصار، إذ يقول: ﴿يقولون حكم الأتراك، أما أنا فأستبهم العثمانيين و لا أقول الأتراك لأنّ هناك فرقاً كبيراً، فالعثمانيون يتمثلون في مجموع الخلافة العثمانية، مجموع الدول الإسلامية، مجموع الأمة الإسلامية في صراعها ضدّ مجموع النصرانية، التي كانت في ذلك الوقت متّحدة متكتلة تحت سلطة واحدة، و المسلمون كانوا هم أيضاً في أغلبهم متّحدين متكتلين تحت سلطة واحدة هي الخلافة العثمانية، في مواجهة تصلّب و مدّ النصرانية بل، شرستها، إضطرّ المسلمون إلى أن يتوحّدوا تحت سلطة الخلافة العثمانية التي اعتبرها أنا السيف الذي دافعت به الأمة الإسلامية عن نفسها، فلولا الخلافة العثمانية لكان مجموع الأمة الإسلامية اليوم في وضع غرناطة، و في أحسن الأحوال في وضع القبلة الأولى: القدس الشريف﴾ (33).

و على هذا فإنّ التايخ عند مولود قاسم يمثل كلّ مراحل زمن هذه الأمة، إذا حذفنا منه حقبة من الحقب قضينا بذلك على جزء من العقل الجماعي للشعب و حدث الإختلال و إنفصام الشخصية و حدثت بذلك الإعاقة التي تمنع الإنطلاقة الحضارية أو على الأقلّ التي تجعلها إنطلاقة عرجاء.

رد الاعتبار للدولة الجزائرية

كان من أشد ما يوجع مولود قاسم نابت بلقاسم و يؤرقه إنغراق كتاب و ساسة بني جلدته في نوم و سبات عميقين يُنبئان عن وجود قابلية للإستعمار أو كما سماها هو المركوبية، إذ كانوا يعلنون الشعارات و المقالات عن كون الدولة الجزائرية دولة فتية، ظناً أن ذلك علامة على الشباب و القوة، و لا يدرون أنه عيب ما وراءه عيب إذا ما نظرنا إلى إرتكاز الأمم إلى تاريخها لبلوغ مستقبلها، و كانوا لا يلقون ضوءاً على تواجدهم القديم، و حتى إذا ألقوا ضوءاً فإنهم يصرحون أن الدولة الجزائرية من إنشاء قريب لا يتعدى فترة الأمير عبد القادر. و ظلّ مولود قاسم طوال حياته بذكر بهذا التاريخ الطويل العميق و المتميز للأمة الجزائرية منذ فجر التاريخ كشعب و دولة بالرغم مما إعتراها من فترات إستعمار متلاحقة، و لكنها كتبت نفسها في سجلّ التاريخ بين الأمم و الأعرق من بينها توضيحاً لإنيتها التي ظلت عبر التاريخ محفوظة بالرغم من الزلازل و العواصف الكثيرة. و بقي مولود قاسم يذكر بكل ما يملك بعراقة شعبه و دولته للردّ على الإستعمار المزورّ و المزيف لحقائق التاريخ، و الردّ على أترابه المنسلخين أو من المركوبين، و لعله لم يبذل جهداً أبداً كما بذله في خدمة التاريخ و الكلام عنه بالرغم من إنشغالاته الكثيرة، و ذلك كونه أنه فيلسوف الإنية، و الإنية الجزائرية يشكّلها تاريخ هذه الأمة في أغلب واجهاتها، فهو الحاوي لكلّ عناصر الشخصية الجماعية، و كان لما قاله: ﴿فالتاريخ، بحفظه لكلّ حلقة من حلقات سلسلة الأجداد و الأحفاد، يؤكد عناصر الشخصية الأصيلة... و يُعطي الأمة وجهها بارز السمات، واضح القسمات، و يضمن لها وجوداً متميّزاً يكون عنواناً لها، و بطاقة إنيتها -أو تعريفها- بين الأمم... فهو الأهمّ في كل ثقافة، و البداية و النهاية، و بيت القصيد، و الزبدة من الكلّ، ليس فقط لإستخلاص الدروس، و لا فحسب للتعريف

بأجدادنا، ولكن أيضاً لغرس الإعتداد بالنفس في الشباب، و تعميق الوعي بالذات، و تقوية الإعتزاز بالوطن، و التشرف بالإنيّة الوطنية، أو بطاقة التعريف، لأمة كاملة مجيدة، هي عنوان المجد، ألا و هي الأمة الجزائرية العتيدة! ﴿34﴾.

كان مولود قاسم ينظر إلى الأمم كيف تهتم بتاريخها و تحاول الإعتزاز به و صنع المخطّات الكبرى لمجدها و إبرازها، و ينظر بالمقابل إلى أمته فيجدها غارقة في السّبات و المركوبية و لا تفعل شيئاً لإبراز إنّيّتها و تاريخها و الإعتزاز بهما، حتى ذهبت نحوه المحبة للوطن في نفوس شبابها، لكونهم لم يقفوا حقاً على محطات عزّة و مجد أمّتهم، فخرجوا إلى الشوارع في مسيرات يعلنون شعارهم « التاريخ في المزبلة » «رافضين إدراج مادة التاريخ في امتحان الباكالوريا، و قال مولود قاسم بعد ذلك إنّ هؤلاء الشباب لا يُلامون ماداموا أنّهم لم يتعرفوا على أمجاد تاريخهم و أنّهم كانوا مخدوعين من طرف أساتذتهم الذين يتحملون كلّ المسؤولية في ذلك، فكتب يقول: ﴿لكن المسؤولية ليست على الشماريخ، بل المسؤولية علينا جميعاً، و على الأساتذة، و خاصة منهم الجامعيّين بالدرجة الأولى، إذن نلوم أنفسنا قبل كلّ شيء - و لا نلوم إلاّ إيّاها - على ما في هذه الصيغ الخاطئة من تعريف تاريخنا و تزييف ماضينا﴾ (35).

و رأى أنّه إذا استمرّ الوضع على حاله فإنّ أحدث الأحداث التاريخية للأمة الجزائرية سوف يأتي من الأجيال من ينكرها و ينطلق من نقطة الصفر، كما إنطلق بعض الكُتاب و الساسة من الصفر أو من تاريخ قريب لإعلان بطاقة تعريف الأمة الجزائرية، فكتب يقول: ﴿إذن، فالأمم كلّها: هذه روسيا، و الصين، و فرنسا، و مصر، و غيرها، لها تاريخها، و جذورها، و أصولها، و عروقتها، و أسسها، تُعنى بها، و ترعاها، و تسهر عليها، و تفنى فيها، و تتركس نفسها لها، و تتغذى منها، إلاّ الجزائر فتزني التاريخ في المزبلة... و تبدأ من سنة الصفر... حسب هؤلاء الشّماريخ! و ما هي، في نظرهم، سنة الصفر هذه يا ترى ؟، ربّما هي سنة 1962، في أحسن

الأحوال... وربما، بل بالتأكيد، هي السنة التي تتولى فيها هذه الزعانف البيغاوات حكمها
التهدمي! التاريخ يا شاربخ! ﴿36﴾.

كان إتجاه الكتّاب الجزائريين الرّسميين يلحّ على كون الدولة الجزائرية من إنشاء الأمير عبد القادر
الجزائري، ردّاً منهم على الإستعمار الفرنسي أنّ الدولة الجزائرية موجودة قبل سنة 1962، و لكن ذلك
لم يغبّ عن حسن مولود قاسم الرهيف و المدرك للمغزى البعيد من طرح هذه الفكرة، فلقد أعلن عن
خطورة هذا الإتجاه و كتب يقول: ﴿الأمير عبد القادر لم يُنشئ الدولة الجزائرية الحديثة، خلافاً
لهذر الهذارين و خربشة المخربشين، الذين يؤكّدون ذلك من حين إلى آخر، جاهلين أنّ
العصر الحديث، يبتدئ من نهاية العصور الوسطى و كأننا ظللنا طيلة قرون عديدة بدون
دولة، كما يزعم من تعلمون... عن هذه الفترة و ما قبلها حتى آدم! و كأننا كنا منذ فجر
التاريخ قطعاً بلا راع، بدون مشاركة في المسيرة الإنسانية!

فالأمير عبد القادر قد أنشأ حقاً دولة جديدة سنة 1832، و لكن بعد إنهيار الدولة القائمة،
ثمّ إنّ الدولة التي أنشأها لا يمكن أن تُسمّى «الدولة الجزائرية الحديثة» لأنّها، بالنسبة إلى
العصر الحديث، كانت موجود منذ ما قبل 1516م، ثمّ ابتداءً من هذه السنة، على أنقاض
الدولة الزيانية و الإحتلال الإسباني، و في إطار الخلافة العثمانية حقاً، و لكنّها كانت
متميّزة عنها، و بإسم الجزائر كانت تعلن الحرب، و تعقد السّلم، و تمضي الإتفاقيات
و الموائيق و المعاهدات، كما سنراه قريباً عندما ترجع إلينا نصوصها في أصولها، كما
تقتضي ذلك المعاملات بين الدّول في أصولها و فصولها! ﴿37﴾.

و أكثر من ذلك، فإنّ مولود قاسم -رحمه الله- كان شديد الرّدّ على من يجعل من الجزائر دولة فتية،
و يجعل من أمّتها أمة يتيمة التاريخ. و لقد عنون إحدى مقالات كتابه «أصالية أم انفصالية؟» بالعنوان
التالي: «لسنا يتامى التاريخ!»، و كتب تحته يقول: ﴿الأمّة الجزائرية أنشأت وحدثها الحالية قبل

قرون من الوحدة الألمانية و الفرنسية، بالنسبة لبعض مقاطعات هذه الأخيرة» (38). و كان مولود قاسم يُدرك أشدّ الإدراك أن مثل هذه المدارس ليست إلاّ نتاجاً لمركوبية صارخة تفتّت في مجتمعه، و متأثرة بما ينشره الإستعمار عن الجزائر و تاريخها من تزييف و تحريف تحت غطاء العلمية و النزاهة و الموضوعية، فكتب يقول: ﴿أمّا فيما يعني الجزائر بالذات، فنجد أغلب مؤرّخيهم، و سائر رجال دولتهم - بالنسبة لهؤلاء الأخيرين حتى ما قبل تصريح الرئيس ميتران في مطار الجزائر العاصمة بمناسبة زيارته الرسمية-، و كثيراً من صحافيتهم حتى اليوم، يُنكرون علينا الوجود كامّة، و الماضي كدولة، بل و حتى كشعب، حتى كمجرّد شعب، على مرّ التاريخ!﴾ (39). و كان مولود قاسم من المكافحين من أجل استرجاع الوثائق التاريخية التي أخذتها السلطات الفرنسية من الجزائر يوم كانت مستعمرة لها و التي تعبّر و تحوي على إنّيّة الأمة الجزائرية في التاريخ، و استرجعت الجزائر الكثير منها بفضل جهوده، و كتب في ذلك يقول: ﴿و إذا كان النائب الفرنسي سنماركو Sanmarco، الذي يناصرنا جزئياً في قضية استرجاع الوثائق الجزائرية من فرنسا، يقول: إنه ليس «من أنصار فكرة إرجاع الكلّ الى الجزائر، لأنّ هذه الوثائق، ولكن كانت أساسية للجزائر في كتابة تاريخها، إلاّ أنّها هامّة أيضاً بنفس الدرجة بالنسبة لفرنسا ذات التاريخ الذي يعود إلى ستة عشر (16) قرناً " Mais, pour nous qui disposons de siècles d'histoire"، و إنّ أضاف سان ماركو في نفس النصّ، "أنّ الجزائر لم تُولد يوم فاتح يوليو 1962م" (أي يوم استرجاع إستقلالها و سيادتها)، كأحد القلّة النادرين الذين يعترفون بهذا من بينهم﴾ (40).

كان مولود قاسم شديد اللدّع في الردّ على المستدمر الفرنسي في مقالته المكتوبة أو في محاضراته المُلقاة، إذ كان دائماً يستشهد فيها بالوثائق التاريخية التي لا يأتيها الباطل من بين أيديها و لا من خلفها، إذ روى عنه الأستاذ محمد الصالح الصديق هذه الظاهرة فقال: ﴿حدثني الأخ الهادي الحسني في معرض

حديثنا عن ذكره السنوية الأولى و ما ينبغي أن تحيي به، فقال: ألقى محاضرة بالمركز الثقافي الجزائري بباريس عن الشخصية الجزائرية و عظمتها التاريخية و دورها عبر عهود مختلفة في مساندة فرنسا و مناصرتها و إنقاذها من المخاطر و المهالك عدة مرات، و كان من الحاضرين نخبة من الفرنسيين الأحرار الذين يحبون الجزائر و يقدرونها، فما كان منهم إلا أن خرجوا لعدم قدرتهم على احتمال لهجته القوية و إطاقتهم لسماع حقائق صارخة محرجة إن لم تكن خطيرة لا تؤمن عواقيها!! (41). و أما كما كتبه مولود قاسم و لم يحاضر به، فنذكر الفقرة التالية التي يتوجه بها إلى زعماء المستدمر الفرنسي الذي يريد أن يחדش في عمق تاريخ الأمة الجزائرية و دولتها، إذ يقول: «هل بدأ تاريخنا سنة 1962، كما يزعم ديغول، و ديستان و جوبير؟، ألم يسبق يوغورطة تاريخياً فرسانجيتوريكس بأكثر من نصف قرن فضلاً عن كون هذا هو بدايتهم، و كون ذاك حلقة من سلسلة بدأت قبله بكثير، إذ سبقه عمه مكيبسا، و جدّه ماسينيسا، و جدّ أبيه غايا، و آخرون؟» (42).

و كتب أكثر من مرة ليؤكد على عراقة الدولة الجزائرية في التاريخ و قدمها، و ذلك بفضل إقراره بكلّ حقب هذا التاريخ الذي لا يرضى أن يُجزأ أو أن تُلغى حلقة منه، و لم يُفرد كتاباً له في التاريخ عن الدولة الجزائرية تحت الخلافة العثمانية، سوى من أجل هذا الهدف العام الذي هو تحقيق الوحدة التاريخية و كذلك إبراز قدم الدولة الجزائرية و ردّ الاعتبار لها. و ظلّ يكتب في سبيل هذه الأهداف و يحاضر، حتى يحقق إكمال الإنية التي وضعها محوراً لفلسفته في الإنعاش الحضاري، و كما كتبه من أجل ذلك هذه الفقرة التي نسردها إذ يقول:

«فالدولة الجزائرية الحديثة كانت موجودة قبل الدولة الجزائرية العثمانية، فضلاً عن دولة الأمير عبد القادر، أي منذ الدولة الزيانية، و منذ بداية العصر الحديث سنة 1453م، و إنما الدولة الزيانية إنتهت بصفة رسمية سنة 1516م، بالنسبة إلى عموم القطر، و فيما بعد بقليل

بالتسبة إلى تلمسان و ضواحيها. و على كل حال قبل 1554م، و لكنها منذ 1453 و هي
حديثة فالدولة الجزائرية الحديثة بدأت إذن سنة 1453م مع السنة الأولى من بداية العصر
الحديث و الأمير عبد القادر بعثها، و لم يُنشئها، سنة 1832م، بعد أن وضع لها الغزو
الفرنسي حدًا سنة 1830م، ثم بعثتها من جديد جبهة التحرير الوطني، بعد الأمير عبد
القادر (43). و هنا يثبت مولود قاسم أن الدولة الجزائرية كانت موجودة منذ الدولة الزيانية حتى قبل
التحول تحت الخلافة العثمانية كحماية و كتكتل ضد الكتلة الصليبية الحاكمة الموحدة، هذا إن إحتكنا
إلى ما سماه المؤرخون بالعصر الحديث المصادف لبداية سقوط الدولة الإسلامية في الأندلس. و لكنه في
مقالات أخرى يذهب إلى أبعد من ذلك زمنيًا و بكثير، ليثبت تواجد الدولة الجزائرية و إن اختلفت
التسميات في عصور غابرة من التاريخ تصل إلى ما يزيد عن خمسة و عشرين قرنًا، ثم تبلورت هذه الدولة
و تكيّفت مع كل مستحدث جديد، و خاصة منه الفتح الإسلامي المجيد أين عاشت هذه الدولة بعيدة عن
المستدمرات إلى مجيء المستدمر الفرنسي سنة 1830م، فكتب في ذلك مقالًا يقول فيه في إحدى فقراته:

﴿إذا كانت الدولة الجزائرية تبدأ من ماسينيسا و يوغورطا دون إنقطاع، حتى طيلة العصور
الكبرى للأمميين، و العباسيين و الموحدين، حيث كانت هناك كيانات تشكل مجموعات،
و حيث كان مفهوم الدولة بالمعنى الحديث لا وجود له بعد، و حيث كانت الوصاية مجرد
وصاية روحية حتى مع الدولة العثمانية، فإن الدولة الجزائرية في العصر الحديث كان لها
إسمها الرسمي و هو «دولة الجزائريين». أما سلطة الخلافة العثمانية فإنها كانت ذات سمة
روحية لا غير، على غرار ما كان يمارسه الفاتيكان من سلطة على أوروبا المسيحية في ذلك
العصر، بل أقل مباشرة منها﴾ (44).

و كان مولود قاسم -رحمه الله- يردّ بأشدّ الردّ على من يتغافل في إطلاق بعض المصطلحات التي تحدش
بتاريخ الدولة الجزائرية العريق، مثل مصطلح «الإستقلال»، و كان يشير إلى أن ذلك من وضع المستدمر

حتى يجعل أجيالنا الآتية يتيمة التاريخ، فكتب يردّ على بعض ما كتبه بُول بالطا Paul Balta في جريدة "لوموند" سنة (1981):

﴿و يعود إلى الموضوع بعد أسبوعين فيقول: «منذ حصول الجزائر على إستقلالها».

«Depuis l'accésion de l'Algérie à l'indépendance»، بينما كان ينبغي أن يقول مع

التاريخ: «الدولة الجزائرية التي أقيمت من جديد، أو بُعثت (Restauré)، كما هي الصيغة

التي ذكّرتُ بها، وفقاً للحقيقة، الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية في إبانها،، و ليس

"أسست" (Instauré)، و لا "أنشئت" (Institué)، (Créé)، (Etabli)، كما كتب ديغول؛

و أنّ الجزائر إستعادت إستقلالها، و إسترجعتـ (Recouvré son Indépendance)، و ليس

توصّلت إليه (accédé à l'indépendance)، و لا حصلت عليه (Obtenu)، فيقال: إسترجاع

الإستقلال (le recouvrement de l'indépendance)، و ليس التوصل إليه، و لا الحصول عليه،

« l'avènement à l'indépendance »، « l'accésion à l'indépendance » كما يكتبه و يقوله

ديغول و غيره... حتى ساسة مسوسون و موسوسون جزائريون و مسوسات جزائريات،

و يخربشه مخربشون جزائريون و مخربشات جزائريات أيضاً، و لا نتكلم عن إخوان

و أخوات من بلدان شقيقة، فإذا كان ربّ الدار بالطّبل... حتى اليوم! و أعرّف هنا،

و ليضحك من يشاء من هذه "السّطحيات"، و "السّفاسف"، و "السّخافات"،

و "الجزئيات" أنّ ليس هناك شيء "يثيرني"، و يُفقدني أعصابي، و يكرهني في الحياة، أكثر

من سماع ذلك السّفه من أفواه جزائريين، و قراءته في خربشات جزائريين

و جزائريات) (45).

و توجه مولود قاسم إلى الجزائريين الذين يقعون في الأفخاخ التي يصنعها و يضعها المستدمر ناصحاً

و مرشداً، و مذكراً بقدّم و عراقية الدولة الجزائرية و أمّتها، و كان ثما كتبه يقول:

﴿هذا هو الفرق بين هذه الصيغ، إذن: حصل على الإستقلال، و إسترجع الإستقلال، و بين بعث الدولة الجزائرية و إنشاء الدولة الجزائرية، فالدولة الجزائرية كانت موجودة منذ ماسينيسا، بل منذ أجداده، منذ العصر القديم، قبل الميلاد و كانت متوالية في العصور الإسلامية المتعاقبة، من الدولة النوميديّة التي أسّسها أجداد ماسينيسا إلى توقّفها بعد قتل يوغورطا سنة 104 قبل الميلاد ثم جاءت الدولة الإسلامية حيث كُنّا جزءاً من الدولة الإسلامية في عهد الخليفة الراشد الرابع، ثم في العهدين الأموي و العباسي، حيث تأسست الدولة الرّستمية ثم الزّيرية، ثم جاءت الدولة الحمّادية، ثم الدولة الزيانية، ثم الدولة الجزائرية العثمانية ثم دولة الأمير عبد القادر، و هي كلها دول جزائرية متعاقبة، فإذا قلنا أنّ الأمير عبد القادر هو الذي أنشأ الدولة الجزائرية فهذا يعني أنّنا قبل ذلك لم تكن لنا دولة في العصر الحديث منذ سنة 1453م، و هذا نفس ما إدّعاه ديغول، و جيسكار ديستان، و إدغارفور، و ميشال جوبير و آخرون﴾ (46).

و كان لما يردده للفتّ إنتباه الأساتذة و كلّ منشغل بتوجيه الرأي العام و صنّعه، فيما يخص هذه المصطلحات ما يقوله و يكرّره: ﴿فمن الواجب إذن — حين نتحدّث عن الجزائر و نشير إلى حدث 1962— أن نقول «إسترجاع الإستقلال»، «إستعادة الإستقلال»، أو «التحرُّر»، لا: إستقلال الجزائر﴾ (47). فالدولة الجزائرية قديمة قِدَم التاريخ، عريقة في الوجود من العهد النوميدي و ظهور فكرة الدولة و الملك و ربّما قبل عدة شعوب و أمم بقرون من الزّمن لم تهتد إلى فكرة الدولة إلّا في عصور لاحقة، و منها الأمة الفرنسية. و الدولة الجزائرية تطوّرت بتطوّر الأحداث و الأزمنة، لكنّها لم تفقد إنّيها بالرغم ممّا أضافته إلى نفسها من لغة و دين. و بهذا يؤطرّ مولود قاسم أفكاره و فلسفته المتبنية على الإنيّة إذ يحدّد لها موضوعها و إطارها، و يجعلها المرجع الذي يرتكز البناء الحضاري الأصالي عليه.

التركيز على عظمة الدولة الجزائرية

في الفترة العثمانية

سبق و أن سردنا مطلبًا كاملاً تكلمنا فيه عن إهتمام مولود قاسم بالتاريخ و خاصة لتحقيق هدف سام يحقق موضوع الإنية و هو ردّ الاعتبار للدولة الجزائرية عبر التاريخ و إيضاح عراققتها و قديمها. و لكن مولود قاسم كان يرمي من وراء إهتمامه بالتاريخ الجزائري شحن الشباب بحبّ الوطن بعد الوقوف عند محطات المجد و العزة و السيادة في تاريخ أمتهم، و لم يجد مولود قاسم أحسن محطة من محطة فترة الجمهورية الجزائرية في عهد الخلافة العثمانية، حيث كانت هذه الدولة تشكل إحدى أعظم دول العالم تطورًا عسكريًا و إقتصاديًا. فخصّص مولود قاسم كتابًا كاملاً من جزئين لهذه الفترة، و كتبه بحماس كبير و بعزة تنبعث لكل من يقرؤه. و قد أسمى الكتاب: «شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل سنة 1830»، و حاول فيه أن يظهر هذه الهبة العالمية، إلى جانب أن يثبت إستقلالية جمهورية الجزائر عن قرارات إسطنبول عاصمة الخلافة، و لو أنها تابعة لها إسميًا ما دامت تحت سقف الخلافة الإسلامية في مواجهة المدّ الصليبي الأوروبي الذي هو بدوره تحت زعامة الكنيسة و البابوية الموجودة في روما، فليست سوى إنتماء روحي يتخذ الصفة الشكلية، إذ يقول مولود قاسم عن صفة هذه الفترة من عمر الدولة الجزائرية ما يلي:

«و لكن منذ سنة 1510 جاء خير الدين، و عروج، و إلياس، و إسحاق، إلى بجاية و جيجل، و دعوا بعد ذلك إلى مدينة الجزائر، بعد أن إستشهد أحدهم و هو إلياس بمدينة بجاية. فأسّس الإخوة الثلاثة في الجزائر العاصمة الدولة الجزائرية العثمانية، و كانت مستقلة تمامًا و كان رمز إرتباطها بالدولة العثمانية روحيًا فقط. أمّا المعاهدات و إعلان الحرب و عقد

السلم... بل إن كل شيء يتم باسمها لا غير، باسم الجزائر المحروسة كما كانت تُسمّى في ذلك الوقت، و كانت تُسمّى جزائر بني مزغنة منذ عهد بولوغين ثم أصبحت تسمّى الجزائر المحروسة (48).

و كان مولود قاسم يؤكد دائماً على إنتماء الجزائر و أمتها منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً إلى ما يسمى بالوطن الإسلامي المتمدّن، و إلى الحضارة الإسلامية كقطب في مواجهة الوثنية و مواجهة الصليبية الحاكمة المتكثّلة هي أيضاً، و أنّ العثمانيين هم جزء من هذه الحضارة الإسلامية العظيمة التي شكّلت قطباً بل و سيادةً على العالم، و لو كانت الجزائر مستقلة في قراراتها السياسية و الحربية و الاقتصادية عن إسطنبول و كانت تابعةً روحياً للخلافة العثمانية و متحالفة معها ضدّ ما هو أجنبيّ على الإسلام و وطنه و حضارته و أمته الممتدة من غرب إفريقيا إلى شرق آسيا إلى حدود الصين تحت راية واحدة هي الخلافة الإسلامية. و كلّ الشعوب الإسلامية كانت على نفس الحال، و لا يعني ذلك أنّها كانت مُستعمرة من طرف تركيا، بل يعني أنّها كانت متحالفة متكثّلة كما تريد الآن أوروبا أن تجتمع و تتكثّل سياسياً و اقتصادياً لتشكّل قوة لنفسها، بحيث لا تفهم هذه الشعوب الأوروبية أنّ تكثّلها يعتبر إحتلالاً أو إستعماراً لبعضها دون البعض الآخر، أو لبعضها من طرف البعض الآخر، و ذلك ما أراد مولود قاسم -رحمه الله- أن يبيّنه من خلال ما كتبه عن هذه الفترة، و مثال ذلك ما قاله:

﴿هذه مجرد إشارة إلى دور هؤلاء العثمانيين، أو هؤلاء الأتراك، و إن لم يكونوا كلّهم أتراكاً، و لكنهم على كلّ مسلمون، و الإسلام هو الذي يجمعنا هنا! و إنني أقول لكم منذ الآن أنّي قصدت بهذا أن نخلق الجرثومة، أن نجتثها في مهدها قبل أن تكبر، حتى لا يجيد بنا النقاش إلى القحطانيين، و المالمزين، و الأمازيغ أو البربر، و الزنوج، و الفرس، و العجم عموماً، من جنسيات عديدة هي شرف الإسلام، هي عزّة الإسلام، إمتاز بها الإسلام عن غيره كدين، و كحضارة، و كثقافة، إذ جمع هذا البشر من القارات الخمس بعناصرها المختلفة. هذه هي قوة الإسلام. إن لم نرد أن نسير في ركاب لورانس، في ركاب

المستدمرين، و في ركاب "المبشرين"، و في ركاب الملاحدة، و في ركاب المراونة، و في ركاب العابثين، و في ركاب المصيّبين ﴿(49)﴾. ذلك أن مولود قاسم عايش صنفًا من كتاب التاريخ يلوك بعض الأفكار التي تخدش من هذا التاريخ و تنسبه إلى غير الأمة الجزائرية بحكم الإنتماء العرقي و العنصري هؤلاء، لكون هذه الفترة حُكمت بحكم الأتراك تحت سلطة إسطنبول عاصمة الإمبراطورية العثمانية، فأله الأمر لكونه وقف على الوثائق و الحقائق التاريخية الثابتة التي تثبت أن الدولة الجزائرية ما كانت سوى تابعة روحياً لإسطنبول و أنها كانت مستقلة في كل ما يختصّ بها، بل و تُعارض السلطة المركزية للخلافة في بعض القرارات و خاصة منها التحركات الحربية و العسكرية، و ذلك ما حاول مولود قاسم أن يوضّحه من خلال ما كتبه، و قال على ذلك:

﴿إذا كان جميع هؤلاء المؤرخين الذين إستشهدنا بهم كاذبين، و إذا كانت الوثائق الفرنسية الرسمية التي تشهد بصحة ما نقول أيضاً كاذبة في نظر بعض مؤرخيها، فنحن نريد أن نقتنع! نحن نريد من حضرات الأساتذة عندنا، المؤرخين، المحققين، أن يدققوا لنا هذا، و أن يؤكدوا لنا هذا، أي أن يفندوه، و يثبتوا بطلانه، أو أن يقولوا لنا: نعم، إن ما قاله الفرنسيون -و غيرهم- الذين ذكروناهم، صحيح، و أن الجزائر كانت دولة عظمى، و كانت جمهورية، و كانت لها سيادتها المطلقة، و أنها أقرضت فرنسا، بعد أن اعترفت بها، و أننا كنا نحن الذين نعترف بالناس، و بالتالي فإنّ ما نلوكه، و نخربشه نحن باستمرار من صيغ خاطئة ينبغي أن يزول و يُصحح، و أن أمثال كلمة الإيالة Régence، و غيرها من السخافات، لا وجود لها في نصّ! و أن النصوص تذكر أمة الجزائر، و دولة الجزائر، و مملكة الجزائر، و جمهورية الجزائر، بل و إمبراطورية الجزائر! ﴿(50)﴾.

بل إن مولود قاسم يعلن في مكان آخر أن الإنتماء الروحي للدولة الجزائرية تجاه الخلافة الإسلامية العثمانية كان من تلقاء النفس بالرغم من أن الدفاع و الدّود عن الجزائر كان من قبل غير الأتراك، و ذلك ما قاله من خلال الفقرة التالية:

﴿أعود إلى الإستراتيجية العسكرية التي أفادتنا بها الدكتورورة ليلي الصبّاغ. لكلّ إنسان محاسن و مساوئ. المحاسن أنّ تركيا ساعدتنا، بالعتاد، و ليست هي التي أرسلت خير الدّين و بابا عرّوج و أخويهما إسحاق وإلياس إلى الجزائر، بل أتوا بأنفسهم، و لم يكونوا معروفين إطلاقاً لدى الدولة العثمانية، أتوا بأنفسهم إلى تونس، ثم إلى جربة، ثم إلى حلق الوادي، ثم إلى بجاية حيث إستشهد إلياس، ثم إلى جيجل، ثم إلى العاصمة، ثم إلى تلمسان حيث إستشهد إسحاق فيها و عرّوج في ضواحيها﴾(51).

و كان مولود قاسم يركّز دائماً على خصوصية دولة الجزائريين من كونها تتمتع بالإستقلالية التامة عن السلطة المركزية للخلافة، على خلاف باقي الولايات الكبرى لهذه الخلافة، ثما يثبت أن الدولة الجزائرية كانت سيّدة ميّزت تاريخها بتسجيل إسمها بين أمم الأرض في تلك الفترة، و خاصة فيما يخص المعاهدات و الإتفاقيات الدولية في السّلم و الحرب بعيداً عن الخلافة و الإمبراطورية العثمانية. و في ذلك يقول مولود قاسم:

﴿و هكذا، فبينما كانت بعض الدول الشقيقة إذ ذاك (كالعراق، و مصر، و ليبيا، و غيرها) لا تستطيع عقد آية معاهدة إلاّ برخصة كتابية من الباب العالي، و تمضي المعاهدة بإسم الخليفة العثماني، كانت الجزائر تعلن الحرب، و تعقد السّلم، و تُجري المفاوضات، و تمضي المعاهدات، بإسمها و لا غير، بدون أية رخصة من أحد، و لا سلطات مطلقة من أحد، و لا حتى استشارة أحد، بل بإسمها فقط بعنوان جمهورية الجزائر حيناً، و مملكة الجزائر حيناً آخر﴾(52). ثم يسرد مولود قاسم كلاماً يوضّح فيه العلاقة التي كانت تربط دولة الجزائر بالخلافة العثمانية و ما يوجد فيها من سيادة و إستقلالية و تميّز سياسي و عسكري و تباين في الآراء و المواقف في الحروب و السّلم، فيقول:

﴿و الطابع الثاني الذي كانت تتميز به العلاقات الجزائرية العثمانية هو إستقلالية الجزائر إستقلالاً تاماً، وسيادتها سيادةً كاملةً.﴾

و من هنا نرى الجمهورية (و هذا كان إسمها الرّسمي في غالب نصوص المعاهدات و في المراسلات بينها و الدول الأخرى، و منها مثلاً مع لويس الرابع عشر، ملك فرنسا) تلقي ببحريتها في المعمة كلما تعرّضت الخلافة العثمانية لحرب ضدّ التكتلات الأوروبية النصرانية، أي أن الجزائر كانت تتصرف كجزء من الخلافة العثمانية، أي كجزء لا يتجزأ من كلّ شامل، في ظروف الشدّة. و لكنّها في الظروف العادية تتعامل حتى مع الخلافة العثمانية -فضلاً عن الدول الأخرى- بكل إستقلالية و سيادة، و تحرص بكل صرامة على فرض احترام هذا الإستقلال التام و هذه السيادة الكاملة بكل حزم و عزم، و بكل شدة و حدة﴿(53).﴾

أما عن هذه السيادة و الإستقلالية، و ما يبرزها على الصعيد الدولي آنذاك، فإنّ مولود قاسم يرّكز في تبيانها و إيضاحها على الكمّ الهائل من المعاهدات و الإتفاقيات الدولية التي أبرمتها الجزائر مع باقي دول العالم و التزمت بها بعيداً عن رضا أو سخط السلطة المركزية للخلافة في إسطنبول، و هي علامة صريحة دالة على سمة الإستقلالية و السيادة التي تتمتع بها الدولة الجزائرية في ذلك الوقت، إذ يقول: ﴿يقول المؤرخ الفرنسي دي غرامون: «لقد كان الديوان (أي حكومة الجزائر) يتّخذ القرارات بكلّ سيادة؛ فيعلن الحرب، و يعقد السّلم، و يمضي معاهدات، و يقيم أحلافاً، بدون أن يتساءل عمّا إذا كانت تلك القرارات المتّخذة موافقة أو غير موافقة لسياسة الباب العالي»﴾ (54)، و هذا الكلام موضح جدّاً لهذه الإستقلالية، و يقول في موضع آخر عن بعض هذه المعاهدات و الإتفاقيات الدولية التي كانت تبرمها الجزائر دون إذن من إسطنبول: ﴿شم عادت أمريكا فعقدت معاهدتين أخريين مع الجزائر... سنة 1815 و 1816م...، كما عقدت هولندا إحدى عشرة

معاهدة...، و إنكلترا - مع الجزائر - ثماني عشرة معاهدة... نعم: ثماني عشرة معاهدة؛
و نعود إلى فرنسا فنكرّر و نقول: سبعين معاهدة! نكرّر ذلك مثل الأسطوانة «الجزئية التي
لا تتجزأ»، و عدم وجود سابق لنا كدولة، و لا كأمة، بل و لا حتى كشعب، ولا يزالون
يكرّرون! ثم إن لنا عليها - على فرنسا - ديوناً لم تسدّها حتى اليوم... و ليس القمح
فحسب... بل دين عيني أيضاً، بالمال، نقداً، و بالذهب! ﴿55﴾.

ثم نجد يعاتب على مؤرخي زمانه في اعتمادهم على مصادر كاذبة يرونها يقينية، إذ يأخذون عن كتاب
فرنسين، و لا يريدون اللّجوء إلى الوثائق التاريخية التي تتكلّم بنفسها عن نفسها و تحتفظ عدد من
دول العالم على نسخ منها، و التي وصل هو بنفسه إلى كثير منها و وقف على ما فيها من مجد يذكره
التاريخ للجزائر كدولة و أمة، بل و كقوة عظمى سيّدة كانت تحمي الدول الضعيفة، و كانت تهابها
قوى المسيحية و لا تجرّو على محاربتها أو إغتصابها أو حتى التعرّض لإحدى حليفاتها، فيتكلم الأستاذ
مولود قاسم عن هذه المعاهدات و الإتفاقيات و يركّز أكثر على تلك التي عقدتها مع فرنسا التي أخفت
الحقائق و الوثائق عن العالم حتى تنشر أكاذيبها و أباطيلها عن الجزائر و عن تاريخها، فيقول:

﴿إنحسوا عند جوليان، أو غوتشي، أو دوغول، في كتاباتهم العديدة عن المغرب عموماً، أو
الجزائر خصوصاً، هل تجدون ذكراً لمعاهدة واحدة من تلك السبعين (لا السبع، و لا السبع
عشر! بل السبعين!) معاهدة التي عقدت بين الجزائر و فرنسا قبل 05 يوليو 1962!﴾ ﴿56﴾.

بل و يذكر مولود قاسم كلاماً يثبت فيه خروج دولة الجزائريين عن طاعة السلطة المركزية في إسطنبول،
خاصة كلما ارادت العاصمة العثمانية ان تتوسّط لدولة من دول أوروبا لدى الجزائر القاهرة السيّدة،
فيقول مولود قاسم على ذلك مشيراً إلى الدولة الجزائرية دون أن يسميها: ﴿و خاصة في بداية العصر
الحديث، حيث كانت كبريات الأمم، طوال قرون ثلاثة متوالية، منحنية تسترضيها، بل
و جاثمة تخطب و ذها، و متوسّلة تتقرّب إليها، و مستجدية تخضع لقراراتها، و خانعة تدفع
لها الضرائب و مستلزماتها، و إن ظلّت تلك الدول الكبرى، مع ذلك، تحيك التكتلات

و الأحلاف ضدّها، و تحبك المؤامرات و المناورات عليها، و في الوقت نفسه توسّط بعضها الأخرى عندها، و عندما لا ينفعها شيء من كلّ ذلك، تسعى إلى الخليفة العثماني ليتوسّط لديها... و لم يكن ذلك أيضًا بمُجديها، بل و قد قبلت مدفعية عاصمة تلك الأمة أكثر من مرة سفينة مبعوث الخليفة العثماني، سخطًا على محاولته الوساطة، و تحذيرًا له و إنذارًا حتى لا يعود! ﴿57﴾.

و قد كانت الأمم آنذاك تهابها و ترهبها، و قد لا تُجازف بأمنها و سلامتها إذا ما تعلق الأمر بمعادة الجزائر أو إحدى حليفاتها، فكانت الجزائر عزيزة تعطي و لا تعطى، تساعد و لا تساعد، تقرض و لا تقرض، تعلن الحرب و تعلن السلم متى أرادت، و جميع الدول تحت رحمتها تبحث عن المخرج علّها تجده في الأحلاف و التكتلات العسكرية لمواجهة دولة واحدة أرهتهم باقتصادها و بحريتها، و بتفانيها في خدمة الحقّ، إذ يقول مولود قاسم: ﴿و قد رفضت كاترين الثانية أن تنضمّ إلى هذا الحلف البحري سنة 1787م، و لكن سنة 1814م نجح جيمس ماديسون، الرئيس الأمريكي الجديد، في إقناع أوروبا، و منها روسيا، بتحقيق هذا الحلف من سبع دول ضدّ الجزائر. و منّ هذا الحلف؟ و العبرة هنا ليست بتعداد السكان، و لا المساحة الجغرافية، و لكن بالتقدم العلمي و التفوق البحري، و كل أعضاء هذا الحلف يتوقّفون على هذه الصفات؛ نجد في هذا الحلف الدانمارك، و هولندا، و ألمانيا (بروسيا)، و إيطاليا، و أمريكا، و روسيا. سبع دول؛ حرب بحرية! هل تجتمع الدّبية، و النّمرة، و الأسود، و الفيلة، و الدّئاب، و الثعالب، و القنافذ، و الأرانب، ضدّ بقّة تمحق، أو غملة تُسحق؟، كيف يمكن هذا لو لم تكن الجزائر دولة قمقمة يُرهب جانبها، و تُعدّ العدة لمجابهتها؟، يقول وليام سبنسر: لأنّه كان هناك تماسك إجتماعي، أو كما نقول اليوم: وحدة الأمة في مجموعها، و إلّا فكيف كانت الجزائر

تقاوم كلّ هذا العالم ؟، و كان هناك إزدهار إقتصادي، و خاصة الفلاحة، لأنّها كانت

تغذّي، من جملة ما تُغذّي: فرنسا، و هولندا، و إسبانيا و بريطانيا، خمس دول ﴿58﴾.

إلى جانب هذه الهيبة العسكرية، فإنّ مولود قاسم ركّز على إبراز التقدّم الإقتصادي و التقدّم السياسي الذي سبق الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر و الحامل للتعبير عن الحياة السياسية بالحركة الجماهيرية و نبد الملك العنوض، و لكن الدولة الجزائرية جسّدت هذه الأفكار بارتباطها دائماً مع إنّيها و أصالتها و خاصّة في ذلك ما يتعلّق بالدين و تشريعاته و روحه و تنظيم الخطوط العريضة للمجتمع، و إلى ذلك يشير مولود قاسم بقوله:

﴿أبدًا! كُنّا، يا جماعة، جمهورية!، إبحثوا في رسائل لويس 14 إلى الدّايات في الجزائر مثلاً!، و الدّايات كانوا منتخبين، و لم يكونوا يرثون عروشهم هكذا، أبّا عن جدّ، و إنّا عن أب، و إنّما كان ذلك بالإنّخاب، بحضور عدد محدود، صحيح، كما كان الأمر في عهد الجمهورية الرابعة في فرنسا، كما هو الأمر الآن في ألمانيا الغربية مثلاً، ليس بإستفتاء شعبي. فريس الجمهورية إنّما ينتخبه النواب فقط، نواب الأّمة. و هكذا كان الأمر في ذلك الوقت في الجزائر، و لكن قبل فرنسا، و ألمانيا، و غيرهما، و هذا منذ سنة 1679م! نعم: الدّايات كانوا يُنتخبون إنتخاباً، بالإنّخابات، و يحضر هذا الإنّخاب و يصادق عليه المفتيان الحنفي و المالكي... كان المفتيان الحنفي و المالكي يحضران في المجلس لإنّخاب الدّاي، و هما اللذان كان يعطيان الصّوت النّهائي، الصّيغة النّهائية، الصّوت الفاصل، الحاسم، نعم، هكذا كان الأمر في ذلك الوقت. فلم يكن إذن بهذه النظرة الضيقة المذهبية العمياء التي نراها اليوم﴾ ﴿59﴾.

و ركّز مولود قاسم على إيضاح أسباب سقوط هذه الدولة العظيمة، ليبين أنّ كلّ حضارة و كلّ دولة تعرف دورتها في الحياة من شباب و كهولة و شيخوخة، بالرغم ممّا كانت تنشره هذه الدّولة من هيبة و رهبة في قلوب الأعداء و إحترام في قلوب الأصدقاء، لكنّها عاشت قرابة ثلاثة قرون سيّدة للبحر

الأبيض المتوسط و بالتالي العالم، ثم أغفلت عوامل قوتها فناها الضعف، فيقول: ﴿فإلى جانب الإيمان القوي بالقضية، و الشجاعة الفائقة في التعبير عنها، و روح التضحية، و الفداء، و الإستشهاد في الدفاع عنها، و إزدهار الإقتصاد، خاصة الزراعة و التجارة، كانت هناك نقطة نقص في النظام الجزائري - و في غيره في العالم الإسلامي عامة - تتمثل في التخلف الصناعي منذ بداية العصر الحديث، و منه في مجال صناعة الأسلحة و العتاد البحري﴾ (60).

و قد حيكّت ضدّ هذه الدولة المؤامرات و نُصبت الأفخاخ بإثارة بعض الحروب الجانية التي كانت الجزائر يُستنجد بها فيها، و ذلك عملاً على إضعافها و إتهاك قواتها البحرية خاصة، و في ذلك يقول مولود قاسم: ﴿منذ كان الأسطول الجزائري بعيداً عن قواعده، أمام الأسطول الروسي و الفرنسي و البريطاني، ثم هناك عنصر آخر، هنا نقطة الضعف في الدولة الجزائرية العثمانية في عهد الدّايّات، إنهم لم يسايروا العصر، تطوّرت الصناعة، و هم كانوا يظنون أنّ الأمور ستبقى هكذا كما كانت: بالشجاعة، و البحرية المتفوّقة، و الإزدهار الإقتصادي، خاصة منه الفلاحي و التجاري، و الوحدة الوطنية. لكن الأمور تغيّرت، و لم يسايروا التطور التقني، و الصناعي، أو الفارق التكنولوجي، كما نقول اليوم، و كان ما كان؛، و لكن قبل 1830، كانت الدولة الجزائرية في القمّة؛ كانت قمقامة﴾ (61). و لم يكن إستعمار الفرنسيين للجزائر إلّا تحقيقاً لهدف قديم كان يشكّل الحلم منذ قرابة أكثر من خمسة قرون، إذ يقول مولود قاسم: ﴿بيّنا أنّ حكاية المروحة لم تكن إلّا أسطورة، لا بمعنى أنّها لم تقع، و لكن من حيث كونها سبباً للعدوان الفرنسي: لأنّ ما اعتبره الفرنسيون «إهانات» لهم حدث قبل ذلك مراراً، و لم يقيم الفرنسيون باحتلال الجزائر، و إنّ قاموا بغارات عدوانية عديدة، بينها و حملة 1830م فرق و أيّ فرق!. و الفرق هو أنّهم، هذه المرّة، تأكّدوا من احتمال تحقيق هدفهم القديم، الذي يرجع على الأقلّ إلى 1270م، كما شرحنا ذلك بتوسّع﴾ (62).

ثم يقرّر في موضع آخر موضّحًا أنّ إستعمار الجزائر قد خطّطت له كلّ أوروبا، فيقول: ﴿إذن، فالإحتلال و المدّ الصّليبي كان فيهما جانبان: الجانب الإقتصادي، أو القرصنة، أو اللّصوصية في البحر، ثمّ الجانب الدّيني الذي يمثّله الكاردينال خيمينث، و أمثال الملك شارل العاشر الفرنسي، الذي إنطلق المهجوم في عهده على الجزائر، والذي أجاب، عندما عارضت بريطانيا غزوه للجزائر، لا حُبًّا في الجزائر طبعًا، و لا حُبًّا في المغرب -عندما عارضت كذلك في إحتلال المغرب- و لكن لمنع إزدياد قوة فرنسا و نفوذها في المنطقة، -أجاب شارل العاشر الفرنسي بريطانيا برسالة رسمية قال فيها: «ينبغي أن تفهمي يا أوروبا أنّ هذه الرسالة التي تؤدّيها فرنسا في الجزائر هي لصالح المسيحيّة كلّها!﴾ (63).

الهوامش:

- (1) مولود قاسم نايت بلقاسم، «أصلية أم إنفصالية؟»، المقدمة، ص 68-69.
- (2) مولود قاسم نايت بلقاسم، «شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل سنة 1830»، المقدمة، ص 9.
- (3) د/ أبو القاسم سعد الله، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نايت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 267.
- (4) مولود قاسم، مجلة «الثقافة»، العدد 96، سنة 1986، ص 18.
- (5) مولود قاسم نايت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نايت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 151.
- (6) مولود قاسم نايت بلقاسم، «أصلية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 274.
- (7) مولود قاسم نايت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نايت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 150.
- (8) مولود قاسم، مجلة «الثقافة»، العدد 96، سنة 1986، ص 21.
- (9) مولود قاسم نايت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص 161.
- (10) مولود قاسم نايت بلقاسم، «شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل سنة 1830»، الجزء الأول، ص 27-28.
- (11) مولود قاسم نايت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص 161.
- (12) مولود قاسم نايت بلقاسم، «شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل سنة 1830»، الجزء الأول، ص 46.
- (13) مولود قاسم نايت بلقاسم، «ردود الفعل الأولية داخلاً و خارجاً على غرة نوفمبر أو بعض مآثر فاتح نوفمبر»، ص 13.
- (14) مولود قاسم نايت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص 39.
- (15) مولود قاسم نايت بلقاسم، المصدر السابق، ص 146-147.
- (16) مولود قاسم نايت بلقاسم، نفس المصدر، ص 225.

- (17) مولود قاسم نايث بلقاسم، «ردود الفعل الأولية داخلاً و خارجاً على غرّة نوفمبر أو بعض مآثر فاتح نوفمبر»، ص 148-149.
- (18) محمد الصالح الصديق، «خواطر و ذكريات عن الأستاذ المرحوم مولود قاسم نايث بلقاسم»، ص 31.
- (19) مولود قاسم، مجلة «الثقافة»، العدد 96، سنة 1986، ص 17.
- (20) مولود قاسم نايث بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، "مولود قاسم نايث بلقاسم رمز كفاح أمة"، ص 143-144.
- (21) مولود قاسم نايث بلقاسم، المصدر السابق، ص 146.
- (22) سعيد آيت مسعودان، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نايث بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 278-279.
- (23) مولود قاسم نايث بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، المصدر السابق، ص 224.
- (24) مولود قاسم، مجلة «الثقافة»، العدد 96، سنة 1986، ص 17.
- (25) د/ أبو القاسم سعد الله، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نايث بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 266.
- (26) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأول، ص 409.
- (27) مولود قاسم نايث بلقاسم، «ردود الفعل الأولية داخلاً و خارجاً على غرّة نوفمبر أو بعض مآثر فاتح نوفمبر»، ص 150-151.
- (28) مولود قاسم نايث بلقاسم، المصدر السابق، ص 157-158.
- (29) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأول، ص 244-245.
- (30) مولود قاسم نايث بلقاسم، «ردود الفعل الأولية داخلاً و خارجاً على غرّة نوفمبر أو بعض مآثر فاتح نوفمبر»، ص 159-160.
- (31) مولود قاسم نايث بلقاسم، المصدر السابق، ص 158.
- (32) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 234.
- (33) مولود قاسم نايث بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نايث بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 156.

- (34) د/ أبو القاسم سعد الله، «شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل سنة 1830»، الجزء الأول، ص 27-28 بتصرف.
- (35) مولود قاسم، مجلة «الثقافة»، العدد 96، سنة 1986، ص 17.
- (36) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، المقدمة، ص 32.
- (37) مولود قاسم نایت بلقاسم، «ردود الفعل الأولى داخلاً و خارجاً على غرة نوفمبر أو بعض مآثر فاتح نوفمبر»، ص 164-165.
- (38) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 261.
- (39) مولود قاسم نایت بلقاسم، «شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل سنة 1830»، المقدمة، ص 12.
- (40) مولود قاسم نایت بلقاسم، «ردود الفعل الأولى داخلاً و خارجاً على غرة نوفمبر أو بعض مآثر فاتح نوفمبر»، ص 159.
- (41) محمد الصالح الصديق، «خواطر و ذكريات عن الأستاذ المرحوم مولود قاسم نایت بلقاسم»، ص 51.
- (42) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، المقدمة، ص 30.
- (43) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 154.
- (44) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 272-273.
- (45) مولود قاسم نایت بلقاسم، «ردود الفعل الأولى داخلاً و خارجاً على غرة نوفمبر أو بعض مآثر فاتح نوفمبر»، ص 163.
- (46) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، مصدر سابق، ص 155.
- (47) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 273.
- (48) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 193.
- (49) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأول، ص 124-125.
- (50) مولود قاسم، مجلة «الثقافة»، العدد 96، سنة 1986، ص 43-44.
- (51) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأول، ص 161.

(52) مولود قاسم نايت بلقاسم، «شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل سنة 1830»، الجزء الأول،

ص 82.

(53) المصدر السابق، ص 81-82.

(54) نفس المصدر، ص 82-83.

(55) مولود قاسم نايت بلقاسم، «شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل سنة 1830»، المقدمة، ص 14.

(56) مولود قاسم نايت بلقاسم، المصدر السابق، ص 12-13.

(57) مولود قاسم نايت بلقاسم، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 41-42.

(58) مولود قاسم نايت بلقاسم، مجلة «الثقافة»، العدد 96، سنة 1986، ص 36-37.

(59) مولود قاسم نايت بلقاسم، المصدر السابق، ص 29 بتصرف.

(60) مولود قاسم نايت بلقاسم، «شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل سنة 1830»، الجزء الأول،

ص 181-182.

(61) مولود قاسم نايت بلقاسم، مجلة «الثقافة»، العدد 96، سنة 1986، ص 39.

(62) مولود قاسم نايت بلقاسم، «شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل سنة 1830»، المقدمة،

ص 20-21.

(63) مولود قاسم نايت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأول، ص 188-189.

توظيف عنصر الدين

تمهيد:

يشكل عنصر الدين عند مولود قاسم - رحمه الله - إحدى الركائز الأساسية لفكرة الإنسية، فهو أحد مكوناتها إلى جانب التاريخ واللغة والعادات الموروثة، ويصرح مولود قاسم بذلك فيقول: ﴿إنني بديني الذي تربطني روحانياته وعقلانياته بالمولى، وبأهلي، ووطني، وبأمتي، وبالإنسانية كإنسان﴾ (1)، ولقد أورد هذا الكلام في سياق طويل يوضح فيه عناصر هذه الإنسية التي ينهج فلسفته عليها. فإذاً يشكل الدين العمود الأساسي ضمن بنائه الفكري لعناصر الحضارة التي ينشدها في مجتمعه الصغير، المجتمع الجزائري، فهو يُقوِّب عملية الأصالية أو بالأحرى التأسيس في طابع ديني وتاريخي ولغوي وقومي، وتشكل هذه العناصر بدورها موضوعاً لعملية الأصالة إذ تمثلُ فيها عناصر الإنسية التي تعكس الذاتية والشخصية المميزة للأمة الجزائرية عن باقي الأمم.

لقد إرتأيت أن أتناول هذا الموضوع من خلال ثلاثة جوانب تتضح من خلال إهتمام مولود قاسم نيت بلقاسم بعنصر الدين كقالب وكموضوع للإنسية وعملية الأصالة، و نسرد هذه الجوانب المهيكلة للموضوع، كالتالي:

1- إعتقاد الدين بطاقة تعريف وعنصر توحيد وتلحيم،

2- إعتقاد الدين ثقافة وأيديولوجية ومرجعية فكرية،

3- إعتقاد الدين نظاماً للحياة.

يشكل الجانب الأول تجسيداً للإنسية وإنشاء لها، أو بالأحرى حفاظاً عليها. ويشكل الجانب الثاني والجانب الثالث تجسيداً لعملية الأصالية وهي محاولة بناء الحاضر والمستقبل على عناصر الإنسية

و قولتهما ضمن إطار هذه المكونات الذاتية لإنية الأمة لخلق عملية الصّحة المرجوة التي بها تدوم الحياة للأمة.

امعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

إعتماد الدين بطاقة تعريف

وعنصر توحيد و تلحيم

عندما يتطرق مولود قاسم إلى الدين، فإنه ينظر إليه من جانبيين، الجانب التشريعي المحظ، الذي يحتوي أحكام الإسلام في تنظيم المجتمع، و الجانب الفكري و الإنوي الذي يعكس هوية المنتسبين إليه و لو إبتعدوا عن تطبيق أحكامه و تشريعاته. و كان يركّز على هذا الجانب الثاني أيما تركيز، لأنه منطلق النهضة نحو التجسيد الفعلي لأحكام الدين و تشريعاته. فلما يتطرق مثلاً إلى فزة الصمود ضدّ المستدمر الفرنسي الصليبي فإنه يشير بوضوح إلى دور الدين في تشكيل بطاقة التعريف الجزائرية و كونه منطلقاً للإستبسال في الحفاظ على باقي مكونات الإنية التي تشكّل الشخصية الجزائرية على أرضها، فيقول:

«أثناء مقاومة الإستدمار الفرنسي، و خاصة خلال المرحلة الأخيرة من تلك المقاومة، و هي حرب التحرير الوطني، كان الإسلام بمثابة الحافز للطّاقات و العقليات بهدف تحريك أبناء هذه الأمة الذين يرجع الحفاظ على شخصيتهم إلى مبدأ من مبادئ الإسلام، ألا و هو الجهاد. لهذا السّبب كانت الحرب التي خاضها شعبنا طيلة 132 عاماً تُدعى الجهاد، و كان المقاتلون فيها يسمّون المجاهدين، و اللسان الناطق باسمها يدعى المجاهد، و لا تزال جريدتان لنا تحمل هذا الإسم»(2).

هذا الجانب من الإنتساب إلى الدين و تشكيل الوحدة و اللحمة به، هو الذي كان يركّز عليه مولود قاسم في كلّ أعماله و يراه أنّه المخرج للأمة من هوانها الحالي و غثائتها و تشرذمها، و كان يعمل على تجسيده من خلال بعض ملتقيات الفكر الإسلامي الدّورية التي كانت تُعقد في الجزائر، و قد أكّد هذا أيّما مرة في مختلف المناسبات مركّزاً على وحدة الأمة في دينها و لو حتى إسمياً بالرغم من إختلاف المذاهب الإسلامية داخل الدار الواحدة، فقال مثلاً:

﴿و مع ذلك فنستطيع أن نقول - و قد لاحظتم معنَا ذلك في الملتقى السابع بتيزي وزو- بأنّ هناك إتّجاهاً قوياً في أوساك المختصّين من بين المسلمين للإستجابة لرغبات الجمهور، و إدراكاً واعياً لضرورة السّاعة، و حتميّة تحقيق الوحدة. و حسبنا أن نذكّر بالروح الصادقة التي برزت في الملتقى السّابع، من خلال الجوّ العام الذي ساد، و التّوصيات التي أسفر عنها، و هو الذي إجتمعت فيه المذاهب الإسلامية الثمانية المعروفة، لأوّل مرة منذ نشوء المذاهب في الإسلام! و كلّ هذا يبعث على التفاؤل أيضاً، بشرط إستمرارية العمل، و عدم التّواكّل، و التّآكل، و هو ما قرّرناه معاً، و ما نحن مصمّمون على المضيّ فيه، على الأقلّ فيما يخصّنا﴾(3).

و كان مولود قاسم يفتخر إفتخار الخدّث بالنّعمة، بأفكاره في المجال و مساعيه لتقريب وُجهات النّظر بين المذاهب الإسلامية الأكثر شيوعاً أو حتى فقط دعوتها للإجتماع و التّحاور الذي هو منطلق التّفكير في الوحدة و تحقيقها، فقال: ﴿نعم، إنعقدت إجتماعات و مجالس بين علماء مسلمين في مناسبات عدّة و في عواصم مختلفة من عالمنا الإسلامي الأوسع، و لكن لأوّل مرة ربّما في العصر الحديث يجتمع رجال من سائر المذاهب الإسلامية في صعيد واحد، لتبادل وُجهات النّظر حول المصير الواحد، للأمة الواحدة﴾(4).

و يحكي عنه في هذا المجال التّوحيدي و التّلحيمي و تفانيه في تقريب القلوب و وُجهات النّظر بين المذاهب الإسلامية، الأستاذ و الوزير السابق سعيد آيت مسعودان، فيقول:

﴿إن أروع إنجاز ظلّ يفتخر بتحقيقه في هذا الإطار التّوحيدي لأجزاء الأمة، هو قيامه كوزير للشؤون الدّينية، بتأدية صلاة الجمعة بالقرارة بجانب الإمام إبراهيم بيوض رحمهما الله، و كلّ الإخوة الفضلاء من أعيان منطقة وادي ميزاب الأصيلة و الحصينة﴾ (5).

كان مولود قاسم يشعر بضرورة تحقيق الوحدة الإسلامية بين أجزاء الأمة على كافة الأصعدة تحت مظلة الدّين الواحد، خاصة و أنّ العالم يتّجه إلى التكتلات بكلّ أنواعها و لا يفكّر إلاّ بتقريب وجهات النّظر بين الشعوب والأعراق ذوات الثّقافة الواحدة أو المتقاربة، فكان يشعر بخطورة إنقسام المسلمين على أنفسهم، و أنّ يكون الدّين بمذاهبه و اختلافاته الرّحيمة بالأمة سبباً في هذا الإنقسام، فذلك أدهى و أمرٌ، فكان ممّا كافح به في هذا المجال ما قاله يوماً بصريح ما يأتي: ﴿في الوقت الذي يتوحّد فيه هؤلاء في المجال الإقتصادي و الصّناعي، و يلغون جوازات السّفر و الحدود... إلخ، و يُنشئون عملة واحدة و يمخون في المجال الدّيني الفروق المذهبيّة، يمخون الخن و الأحقاد و الضّعائن المذهبيّة، و يقول البابا أنّ هذه المذاهب كلّها اليوم ثروة للمسيحية الموحّدة و هي دارات في دار المسيح الكبيرة (فيلات في القصر الواحد). في هذا الوقت تأتي نحن لننشّت و نفّت و نقل الاختلافات السياسيّة العابرة إلى المجال الدّيني الرّوحي الثّقافي الدّهني المعنوي الحلقّي لنفرق ما تبقى بيننا من عناصر الأخوة، و نشّت و نفّت شملنا، و نزرع و نطلق في الهواء سباباً و شتائم و أحقاداً و ضعائن و لغطاً جديداً لتزيد الطنبور نعمة و الطّين بلّة كما يقول أدباؤنا القدماء﴾ (6).

و أشار مولود قاسم أكثر من مرة إلى أنّ وحدة الأمة الإسلاميّة مهدّدة من الدّاخل بهذه التّناحرات و التّعصبات للاختلافات المذهبيّة، و مهدّدة من الخارج بواسطة تخطّيات الأعداء الدّائمين لها و الذين يخدمهم إنقسام المسلمين و يسرّهم بالعكس من ذلك أو على الأقلّ يغيظهم توخّدهم. و من أهمّ ما نبّه مولود قاسم العقول إليه، محنّطات تسيح الأراضي الإسلاميّة من طرف عمال البابا و مبشره تمهيداً لإبعاد عنصر الدّين الإسلاميّ كموخّد للشعوب الإسلاميّة التي ستصبح شعوباً مختلطة، و لن يمكن التّفريق

بين شرائحها المختلفة في الثقافة و الدين، كما يستحيل مثلاً الآن توحيد الشعب الهندي بأديانه المختلفة الكثيرة. فيشير مولود قاسم إلى هذا و خطورته المهددة بالأمة و وحدتها، فيقول:

«هل تعلمون ما كتبه جريدة "لوموند" أخيراً - و قد أشار إلى ذلك الدكتور عبد العزيز كامل في محاضراته- كتبت الجريدة المذكورة في الصفحة الأولى بأحرف كبيرة تحت العنوان التالي: «تسيح العالم المعاصر»، ثم العنوان الثانوي أسفله «المسيحية تنزلق نحو الجنوب...»، لا تنزل و إنما تنزلق بسرعة!، و جاء في مقدمة المقال بأن من بين جميع المواضيع العديدة المتنوعة التي عُرضت على البابا كجدول أعمال للمجلس البابوي لسنة 1974، الذي سينعقد في روما، إختيار هذا الموضوع المذكور بالذات: «آفاق سنة 2000 لتمسيح العالم المعاصر». و هناك خريطة و إحصائيات لآفاق سنة 2000 المسيحية، و أن نسبة المسيحيين في الجنوب، أي في إفريقيا و جنوب شرقي آسيا بصفة أخص، ستكون أكثر مما هي في أوروبا! هذه الإحصائيات و هذه الآفاق و التقديرات التي يعطونها بكل صراحة و تُنشر، و لم تكذب إلى الآن من طرف روما، و لم يعلق عليها بأي شيء، تعني أن هذا صحيح» (7).

إن مولود قاسم كان يحلل ظاهرة الإنسلاخ عن الدين في بعدها الجمعي بما تؤثر فيه من شرخ و انقسام و تشتت و عدم إهتمام بالمهام الحضارية للأمة المسلمة، و كان يرى أن أي إرتداد عن الدين هو ضمن مخطط رهيب يستهدف إضعاف الأمة و عدم فسح المجال لدينها حتى يتمكن من توحيدها و تلحيم مذاهبها، فكتب عن أهم أولويات الدّعوة الإسلامية يقول:

«أتصوّر الدّعوة الإسلامية الحديثة مركّزة بالدرجة الأولى على أبنائنا و بناتنا حتى لا ينسلخوا عن الإسلام، قبل أن نهتمّ بكسب مسلمين جدد من ألمانيا، أو بريطانيا، أو اليابان، أو غيرها. و كم من واحد يفرح عندما يسمع أو يتعرّف بفرنسي أو ابرازيلي دخل في الإسلام، و في نفس الوقت لا يهتمّ بمصر عشرات بل مئات الآلاف من المسلمين الذين

يدوبون في الهجرة في أمريكا اللاتينية، أو فرنسا، أو بريطانيا، و لا مآل الشباب الإسلامي داخل العالم الإسلامي نفسه، و هو يتعرّض لمختلف عمليات التفتيت، و السّلخ، و المسخ، باسم أيديولوجيات مختلفة، و مذاهب و أديان عديدة، بل و لا يهتمهم مصير عشرات الملايين من المسلمين هنا و هناك في العالم أوسع ﴿8﴾.

لقد سعى مولود قاسم مساع حثيثة لتقريب وجهات النظر بين المذاهب الإسلامية المعروفة، و قد تبين هذا من خلال عمله الذّوّوب من أجل اعتماد الحساب الفلكي في تحديد أوائل الشهور القمرية نحو بلوغ هدف توحيد الأمة على هذا الصّعيد، تمهيداً لتحقيق توحيّات أهمّ و أخطر تتجسّد في مجالات سياسية و إقتصادية و عسكرية. فقد قال في إستجواب متلفز أجري له حول هذا المسعى يوضّح من خلاله أهميّة الموضوع و خطورته و منفعة الأمّة في التسرّع إلى حلّه، ما نصّه: ﴿لقد قلنا في مؤتمر الكويت أننا إذا وحدنا الحساب، نكون نكون قد ثبتنا الشهر الهجري الذي يختلف بين دولة و أخرى. فإعتماد الحساب الفلكي نعلم اليوم متى يكون رمضان في العام القادم. إنّنا الآن نقول، مثلاً، سنلتقي في الرباط، أو القاهرة، أو واشنطن، أو بكين في يوم 13 يناير القادم. فلماذا لا نقول في يوم 13 شعبان القادم؟، لماذا لا نعمل بالتاريخ الهجري؟، ذلك لأنّ الشهر الهجري ليس ثابتاً عندنا، و كلّ دولة تعمل بتاريخ هجري مختلف! و حتى في هذا المؤتمر، فلم نلحظ اعتماداً على موافقة التاريخ الهجري للتاريخ الميلادي، و هو يوم 23 فبراير، لما إتفقنا على موعد مضبوط. فلو إعتمدنا الحساب الهجري وحده لحضر بعضنا في يوم، و البعض الآخر في اليوم الذي بعده. كلّ هذا لأنّ التاريخ الهجري غير موحد في البلدان الإسلامية. إنّها الفضيحة أن يجتمع وزراء الشؤون الدّينية على أساس التّاريخ الميلادي! ﴿9﴾. و لما عرض فكرته على هذا المجمع الهائل و الإستثنائي غير العادي الذي جمع وزراء الشؤون الدّينية للبلدان المسلمة و بعض علماء الشريعة و وجد معارضةً عجفاء غير علمية و غير واعية

بخطورة الوضع و الموضوع و متطلبات و إقتضاءات الصراع الحضاري، كتب يقول: ﴿وإنه لمن
الأعجب - و لكن ليس التناقض الوحيد في حياتنا!- أقول إنه لمن الأعجب أن يستعمل
هؤلاء الناس اليوم النظارات ليحققوا مخطوطات الفقه و الحديث، و مكبرات الصوت
الكهربائية للأذان أو سماعه، و آلات التصوير لأخذ نسخ من أمهات كتب الشريعة،
و يركنوا إلى الأذان من الإذاعة. و يسجلوا القرآن أو يستمعوا إليه مسجلاً في
أسطوانات، أو مرسلأ من إذاعات، و يركبوا السيارات إلى صلاة الجمعة، و الطائرات إلى
بيت الله الحرام، بل و يعتمدوا على المراصد و الساعات في تحديد الإمساك و الإفطار من
بداية اليوم الأول حتى نهاية اليوم الأخير، أي مدة ثمانية و عشرين أو تسعة و عشرين
يوماً، إلا في تحديد ميلاد اليوم الأول و انتهاء اليوم الأخير من رمضان فلا يصدقون المراصد
و الساعات، هذه الأجهزة الشيطانية الملعونة!﴾ (10).

و بعد هذا الملتقى الطارئ في الكويت، سعى من جهته و من خلال ملتقيات الفكر الإسلامي إلى توحيد
وجهات نظر بعض أعلام شخصيات المذاهب الإسلامية المنتشرة، حتى وُفق إلى ذلك، و انتزع موافقة
هؤلاء الأعلام على فتوى رؤية الهلال بالتقدير و الحساب الفلكيين، فكتب على الموضوع يقول:

﴿و أفيدكم هنا بأن الإمام موسى الصدر يؤيد هذه البادرة بكل تأكيد، من وجهة نظر
الإمامية الجعفرية أيضاً. و المجلس الإسلامي الأعلى الذي أصدر هذه الفتوى كان فيه من
الإباضيين، و الشافعيين، و الحنابلة، و المالكية، و الحنفية، من المذاهب الإسلامية الكبرى،
و كان الشيخ مبروك عوادي، الظاهري الوحيد الذي نعرفه في الجزائر، يؤيد هذا كذلك.
ولا ينقصنا من المذاهب الإسلامية كلها سوى المذهب الزيدي، و الشيخ عبد الله الشماحي
منه، و هو يؤيد رأينا تأييداً واضحاً، كما سمعتم منذ لحظة. و من ثمّ فالمذاهب الإسلامية

الثمانية تؤيد هذه البادرة، التي هي في نفس الوقت مظهر من أهم مظاهر الوحدة الإسلامية ﴿(11)﴾.

و كان كما يشغل بال مولود قاسم -رحمه الله- تلك الهوة الكبيرة التي لا معنى لها في عالمنا الحاضر بين ما يسمون بأهل السنة والجماعة، وما يسمون بالشيعة، و وصلت الفرقة و الخلاف بينهما إلى حدّ التّطاول على بعضهم البعض بالتكفير و الإخراج من الملة، بالرغم من أنّ الفريقين سياسياً و إقتصادياً و عسكرياً في الهمّ سواء، أو قُل في الحضيض سواء، حتى تطاول بعضهم و صرّح بأنّ الشيعة هم أقرب إلى اليهود منهم إلى الإسلام و المسلمين. فكتب مولود قاسم يُذكر بأواصر الأخوة مع هؤلاء الناس ثمّ يسمون شيعة، خاصّة مع الجزائر دولة و شعباً، و أواصر أخوة أئمة المدرستين بالرغم من كلّ الأحداث التاريخية الدّامية بينهما قبل و بعد ذلك، فكان كما كتبه ما نسرده عن إشارته إلى الإمام الحُميني، إذ يقول:

﴿إذن فعندما يختار إمام الشيعة الأكبر بلدًا سنيًا مثل الجزائر و قد تجاوز الثمانين، فلا أظنّ أنّه كان يكره الجزائر و كان يمهد للمؤامرات و المناورات ضدّها في الوقت الذي كان شريدًا طريدًا يبحث عن الملجأ، و لم يذهب إلى فرنسا إلّا بعد أن رفضناه بعذر مقبول.

كيف يقول هؤلاء الأميّن إن لم يكونوا أميين مدبّقين -هناك أمية الحرف و أمية الفكر- أنّ الشيعة أقرب إلى اليهود، و لم يكن يعلم -لأنه لا يعلم- أنّ مؤسس المذهب الشيعي الجعفري هو الإمام جعفر الصادق و ما أدراك من هو الإمام جعفر الصادق، هو أحد الأئمة المجتهدين الكبار و هو أستاذ أي معلّم الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان مؤسس المذهب الحنفي في السنة، فيرتب على قول هؤلاء السّخفاء أنّ الإمام أبا حنيفة، الإمام الأعظم و هو إمام المجتهدين بعد أستاذه جعفر الصادق قد تلقى علومه في الدين على يهودي! ﴿(12)﴾.

فإذن، مولود قاسم، و من هذا الجانب الخطير و الهام، كان ينظر إلى الدّين على أنّه أوّلاً هو بطاقة التعريف لكل مسلم ينطق بالشهادتين، و عامل توحيد و تلحيم للأمة المسلمة على أصعدة كثيرة قبل أن يتجسّد هذا الدّين عملاً و تشريعاً، و ينبغي أن يكون كالعرق الذي يوحد أجزاء و أفراد شعب بالرغم من إختلافاتهم الكثيرة في نظرتهم للحياة، فأواصر العرق و الدّم تربطهم، كذلك بالنسبة للمسلمين، فهما إختلفت المذاهب و التّطبيقات للدّين والفلسفات و المدارس الفقهية، فإنّ الدّار واحدة و عنوان الحضارة واحد يجب أن يتوحدوا روحياً و عملياً تحته.

إعتمادُ الدين ثقافةً وأيديولوجيةً

ومرجعيةً فكريةً

إنَّ المرحوم مولود قاسم نابت بلقاسم في نظرته الثانية للدين، يريد أن يوجّه الألباب و الأنظار إلى الجعل من الإسلام مصدرًا للثقافة الحاضرة التي تشكّل الفكر الجمعي للمجتمع المسلم فيما يخصّ تحرك الناس فنيًا و ثقافيًا، و لو لم يحكّموا الإسلام في القضايا العظمى في حياتهم و يجعلوه مصدرًا للتقنين المدني و القضائي و الدستوري. فهو يريد أن يبقى الدين و يظلّ ثقافةً شعبيةً لا تنفكّ عن أوساط العوامّ قبل الخواص، في إنتظار أن يتحوّل إلى التّحكيم السياسي و ما يتبع ذلك، فيكون الإسلام الدّستور الشّفهي غير المكتوب الذي يحكم سلوك الأفراد منفردين و مجتمعين، و يضبط تفكيرهم الفلسفي في نظرتهم للحياة و أمورها.

و حتى و لو غاب الإسلام عن منصّة الحكم، كما حدث له ذلك في عدّة عصور مختلفة و في مناطق متفرّقة من التاريخ و الوطن الإسلاميّين، و قد حدثت له غربات مختلفة عبر التاريخ، إلاّ أنّه يجب الحفاظ على هذا الرّصيد الهامّ من إعتناق الناس لدينهم قلبًا و قالبًا دون إنتظارهم لسلاطات القرار السياسية في مراكز تسيير الحكم أن تجسّد الدين تقنيًا و تحكيمًا. و ليس هناك إلاّ الثقافة الشعبيّة و العامية والنّخبويّة التي تضمن بقاء إتصال الناس بدينهم و التّمهيد لتحكيمه في مراكز القرار مستقبلًا كلّما أتاحت لذلك الفرصة و هيّئت الأسباب.

و كان مولود قاسم يوجّه كلامه للسّواد الأعظم من الناس عليهم يظنّون على تمسّكهم بدينهم كثقافة يومية و مرجعية فكرية لسلوكهم الإجماعي، و كان من ذلك ما كتبه مخاطبًا به المتقاعسين منهم الذين يريدون أن يكونوا الخلف الذي يخلف و يضيّع الصّلاة و يتبع الشّهوات، إذ يقول لهم: ﴿و نوذّ هنا أن

تساءل - لفتح عيون المعتقدين من المسلمين الواصمين لكل ما يتصل بالدين بالرجعية... -: لم تمجد أوروبا، حتى الصحف والشخصيات اليسارية منها، إهتمام إسرائيل بالدين، و تلو من نحن على ذلك؟، لم تهلل أوروبا و تصفق لتمسك بولونيا بالدين، مدعمة مقالاتها وتصريحاتها بأعمدة من الأرقام والأسماء... بحماس، وتقدير، وإجلال، مشيدة بتدين «الشعب البولوني الذي يرى حصانته، وأصالته، وإستمرارية أمته و وحدته في تمسكه بدينه»، و يسرعون إلى وصم المسلمين «بالتعصب»، و الرجوع إلى القرون الوسطى و غيرها من الشعارات و الصيغ التي يعتقدون بها - مع الأسف - الكثير من أشباه المسلمين، و لا مسلمين، أو كما قال الحجاج: «أشباه الرجال، و لا رجال»؟ (13).

بل إنه يتهم مراكز و مؤسسات تثقيف الجماهير و صنع الآراء و الأذواق، بتقاعسها في أداء واجباتها التبليغية و عدم جعل برامجها تستشف مضامينها من روح الدين و تعاليمه و أخلاقه. و من بين هذه المؤسسات، المدرسة، والجامعة، و الإذاعة، و الصحافة، و التلفزة، و هي الأدوات التي إن صلحت صلح المجتمع كله، و إن فسدت فسدت المجتمع كله، فيوجه مولود قاسم لها الكلام و يقول: ﴿إن أجهزة الإعلام وسائل هامة، و جامعات شعبية خصبة أو هدامة، إذ تنفذ إلى صميم الديار و الأسر، فماذا نريد أن تكون برنامجها؟. هذا هو السؤال الذي ينبغي أن يلقيه المسلمون على أجهزة إعلامهم و مسؤوليهم، لأن المصيبة عامة طامة لأغلب أرض الإسلام التي نعرفها، أو قرأنا عليها اليوم، و ما أكثرناها تلك التي تستحق اللوم و العتاب، و الجزائر في الدرجة الأولى في هذا المجال، مع شقيقاتها، مع الأسف الشديد!.

إن المسؤولية لن يعود لها معنى إذا لم يكن أمام المسؤولين سائلون، و إذا مات حسن الخير و الشر في النفوس، و إنعدم روح الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، و إكتفى رجال الدين

بالتأوى الإدارية، و الدّعاء بالخير و طول العمر لأصحاب الساعة، و إقنتع رجال الفكر
والفنّ بالتّتميق، و التّزويق، و التّصفيق! ﴿(14)﴾.

فإذن، يجب أن تكون روح الإسلام سارية في نفوس الأفراد كثافة مرجعية لتصرفاتهم العرفية و لو إبتعد
الإسلام عن توجيههم من فوق بسلطة حاكمة أمره ناهية. و قد ألقى مولود قاسم المسؤولية في المحافظة
على سريان هذه الرّوح في جسد الأمة، على مجموع الأئمة المتصدين لعملية التّبلغ و الدّعوة و الإرشاد،
فأشعرهم بخطورة دورهم في ذلك، إذ يحكي عنه الأستاذ المأمون القاسمي فيقول: ﴿كان يدعو الأئمة
إلى التّركيز على الشباب، و الذّهاب إليهم في أنديةهم، و مراكزهم حيث كانت، و عدم
التّأفف من ذلك... و ينتقد من يفضلون منهم الحلول السّهلة، كما يقول، المتمثلة في
الإقتصار على الشيوخ المقتنعين مقدّمًا! و كان يرشد إلى إستعمال الطّرق التّربوية مع
الشباب، حتى لا يصطدموا بالموانع و المحرّمات فحسب، فيهب بالأئمة أن يجتهدوا في
كسب الشباب، و توجيههم بلغة العصر، و تبصيرهم بأخطار سلوكهم، و أخطارها عليهم
و على مستقبلهم﴾ (15).

ثمّ إنّه يريد أن يكون الدّين مُبلّغًا على أحسن وجه، بدكاء نفاذ يعرف إسقاط الدّين على الواقع إسقاطًا
على بصيرة و هدى و حكمة. فيحكي عنه الأستاذ محمد الصالح الصديق أنّه التقى بطلبة زاوية هامة في
الجزائر لتحفيظ القرآن الكريم و إعداد الأئمة فرعظهم بموعظة شديدة اللفظ، إذ يقول عنه: ﴿قال:
حافظ القرآن بلا فهم (كمثل الحمار يحمل أسفارًا). ثمّ ركّز على هذا المقطع من الآية
الكريمة وقال: هل هناك فرق ما، بين من حفظ القرآن بلا فهم، و بين الحمار الذي يحمل
أسفارًا من الكتب؟، كلاهما يحمل و يتعب و يشقى، و لكن بلا فائدة، فأنتم كالحمير ما
دتمتم تحفظون القرآن بلا فهم، إنّ هذا الكلام كلام ربّكم أنزله في هذا الكتاب الذي
تحفظونه!! ولم أبتكره أو أختلقه أنا!!

و كان لهذا الكلام - الذي لم يُردِّد به الأخ مولود إلا إستنهاض الهمم لفهم القرآن- وقعه السيِّ في النفوس، و ما هي إلا أيام قلائل، حتى ذاع و شاع في المنطقة، أن وزير التعليم الأصلي و الشؤون الدينية أهان طلبة القرآن!، و شبَّههم بالحمير.

و لما إلتقينا عاتبته على هذا الموقف، فقال لي في لهجة حاسمة حادّة: إن ما أغضب هؤلاء لم أقلُّه أنا و إنما قاله القرآن، فليغضبوا على القرآن إن شاءوا، و لو لم يكونوا حميرًا حقًا لفهموا ذلك، و لو فهموا ذلك ما غضبوا!!!﴿(16)﴾.

فهذا الفهم للقرآن الكريم يراه مولود قاسم هو الضمان الوحيد لبقاء سريان روح الدِّين في أوساط أفراد الأمة و ضمان استمرارية إسلام و التزام الأمة الإسلامية لله تبارك و تعال. فهو تمسُّك بالدِّين على بصيرة، لا نسكٌ بعيد عن البحث عن مغزى الأحكام و طريقة الإرتباط بها، و يؤكِّد هذا الإرتباط بالدِّين بقوله في إحدى مناقشات ملتقيات الفكر الإسلامي: ﴿ليسمح لي جميع الأساتذة الأفاضل أن أخصّ منهم هنا بالذِّكر الدكتور هيرمن لاي، الأستاذ بجامعة هومبولدت، في برلين الشرقية، على نُصحه الملح من منصّة المتقّي في عناية لشبابنا بأن يتمسك كلّ التمسُّك بقيمه الدِّينية، و الخلقية، و الحضارية! و تلك منه نراه العالم الحقّ!، و نحن نضيف إلى ما قاله، شاكرين: التمسُّك، لا التمسُّك!﴿(17)﴾.

و إلى هذا النوع من الإرتباط بالدِّين كان مولود قاسم يرشد أئمة المساجد أن يتبنّوه في أنفسهم وينشروه في أوساطهم و أحيائهم، و يعملوا على تكريسه في نفوس الشباب و النشء الجديد خاصّة، الذين هم مستقبل التواجد الإسلامي في دينا المجتمع، فائمة المساجد هم الطليعة التي تحمل الثقافة الإسلامية أيديولوجية و مرجعية فكرية لسلوكات الإنسان داخل المجتمع، و ينبغي عليهم أن يُثبِّتوها في نفوس غيرهم و يتابروا في ذلك بتفان دون ملل و لا كلل، إذ يقول مولود قاسم مخاطبًا إياهم: ﴿هذا ما نطلبه منكم.

هكذا ينبغي أن تكونوا، جسدًا حيًّا في الأمة. ولهذا قلنا لكم كونوا الرّعاة الوعاة، لا

الغافلين، النائمين، الراقدين، مع الزّردة، و الوعدة، و القعدة، و الرّقدة! تحرّكوا قليلاً،
كونوا الرعاة الوعاة، و الدعاة السّعاة ﴿18﴾.

و ليس فقط الأئمة هم المسؤولون على نشر هذه الثقافة الإسلامية في أوساط أفراد المجتمع بمختلف شرائحه، و خاصة منهم الشباب، بل إنّ المفكرين و المثقفين ممن يحملون مضامين هذه الثقافة الدّينية مسؤولون كذلك على بثّ مفاهيم الإرتباط بالدين تمسّكاً على بصيرة و هدى، لا تنسكاً جامداً غير حيّ، و أن يشعروا بخطورة دورهم هم كذلك، و قد روى عن مولود قاسم هذا الفهم و الحرص على جعل الثقافة الإسلامية مرجعية فكرية و أيديولوجية لدى أيّ متقف يؤثّر في مسار المجتمع، الدكتور أبو القاسم سعد الله بما حدث له شخصياً مع مولود قاسم، إذ يقول: ﴿أرسلت له الموضوع و هو (الفكر التّقديمي عند بعض الجزائريين في القرن الماضي)، فما راعني إلاّ سكوته عن الإجابة. فلما إلتقينا سألته عمّا إتصل بعنوان موضوعي فقال نعم، و لكنّي لم أفهم ماذا تعني "بالتّقديمي"، فأفهمته المقصود عندي، فقال لقد ظننتُ أنّك تعني ما يعنيه هؤلاء المخربشون، لقد إنصرف ذهنه إلى المعنى السّائد عند الشّيوعيين أو البعثيين، أي المعنى العلمي للتّقديم المجرد عن الدّين ﴿19﴾.

هكذا كان حرص مولود قاسم نايث بلقاسم أن يتحوّل، بل و أن يبقى و يظلّ الدّين مرجعية فكرية و أيديولوجية للأوساط الكبيرة للمجتمع المسلم نخبة و دهماء. و ظلّ يكافح من أجل تجسيد هذه الفكرة في زمن يستحيل فيه وصول الإسلام إلى قيادة أمته لغلبة الظروف القاهرة داخلياً و خارجياً على إمكانية تحقّق ذلك، فبقي يكافح إلى آخر رمق و إلى أواخر أيام كُتبت له أن يعيشها، من أجل تجسيد هذه الثقافة و المرجعية الفكرية واقعا. و نأخذ على ذلك مثالاّ واحداً هو دفاعه على قيم الأسرة المسلمة ضدّ أيّ دخيل غير مستمدّ من شريعتنا الغراء، و نستقي هذا من لقاء صحفي أجرته معه جريدة «الشّعب» بتاريخ 2 فيفري 1992م، إذ جاء في هذا الحديث على لسان مولود قاسم عن مشروع الجامعات الإسلامية و المغزى المرغوب من وراء تأسيسها و السّهر على إرسائها و رعايتها كما كانت في بداية المشروع على

أنها جامعات على شكل كليات تُدرّسُ فيها جميع العلوم، الشرعية منها والإنسانية والعلمية على حدّ

سواء، فقال فيه:

﴿هذه الجوانب الأربعة للجامعة الإسلامية بقسنطينة لتكوين الأئمة الممتازين التي كان ينبغي

أن تنتشر عبر الوطن تتلخّص إذن في:

1- تعريب الجامعات الأخرى بتجهيزها بأساتذة معرّبين.

2- مراعاة البعد الأخلاقي في الطبيب و المهندس و المزارع و غيرهم بتزويدهم

بأخلاقيات الإسلام.

3- إطلاعهم على إسهام الحضارة الإسلامية في مجالات التخصص العلمية بإنشاء

كرسي الحضارة الإسلامية في الكليات.

4- تكوين الأئمة و الخطباء الممتازين للمساجد الكبرى و المتوسطة بمستوى

الليسانس والدكتوراه لرفع التحديات و مقارعة سائر محاولات المسخ، و ردّ

الهزّات و الزّوابع الواردة إلينا بل والمسربة تسرياً علمياً، أيديولوجياً

للتشويش علينا و مسخ شبابنا﴾ (20).

و من آخر كفاحاته الجريئة في نفس هذا المجال من جعل الدّين ثقافية و أيديولوجية و مرجعية فكرية لصنع

أعراف المجتمع و لو حتى بعيداً عن تغيّر السلطان، ما جاء في نفس هذا اللقاء الصحفي عن اعتماد قانون

التبني في الجزائر بمرسوم وزاري من رئيس الحكومة آنذاك -السيد أحمد غزالي-، إذ ورد في الصحيفة

مايلي:

س. الشعب: في نفس السياق الرامي إلى المسّ بالقيم و المبادئ الإسلامية... صدر قبل هذا

الأسبوع مرسوم تنفيذي حكومي يُجيز لمن تكفل بطفل لا يحمل لقباً أن يعطيه اسمه فيلحق

به...! هل تؤيدون هذا المرسوم؟ و في الحالة العكسية ما هي أخطاره من الناحيتين

الأخلاقية و الشرعية؟

ج. الأستاذ مولود قاسم: هذه كارثة كبرى لم يحدث أن وقعت في بلد إسلامي عدا الجزائر الديمقراطية الشعبية، لأنها تشجيع على الفاحشة و الزنا و إختلاط الأنساب، فهي فتوى لقيطة أي ابنة زنا أبوها مجهول. لأنه لم يقم بهذا أبداً قبل اليوم في علمنا المحدود، و الله سبحانه و تعالى يقول: عن الأولاد مجهولي الأب: «أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين و مواليكم». ففي الإلحاق الإسمي لهؤلاء الأطفال مجهولي الآباء بمن يكفلهم خرقاً لهذه الآية الكريمة، و لقد سبق أن أصدرنا في السبعينات في وزارة التعليم الأصلي (رحمه الله) و الشؤون الدينية (رفق بها الله) فتوى بهذا المعنى «الكفالة» و هي تعزيزٌ لفتاوي سابقة في بلدان إسلامية أخرى كثيرة تضمن العطف على هؤلاء الأولاد لأنهم ليسوا مسؤولين على ما إقترفه آباؤهم من زنا ثم إهمال» (21).

و يلفظ مولود قاسم أنفاسه الأخيرة و هو يخوض هذا الصراع من أجل جعل من الإسلام ثقافة شعبية، و مرجعية فكرية للنخبة المفكرة، و أيديولوجية لكل متحرك نحو بلوغ سلطات القرار للتأثير في حياة الناس، و قد شهد له بذلك الجميع، من ينقمون عليه و من آلمهم سماع خبر وفاته -رحمه الله-.

إِعْتِمَادُ الدِّينِ نِظَامًا لِلْحَيَاةِ

من المسائل التي شغلت بال مولود قاسم -رحمة الله عليه- و وفّر صوته و قلمه لأجلها طوال ثلاثين عامًا من وجوده في جزائر ما بعد إستعادة الحرية، مسألة إبلاغ بعض الأفكار التي تُعيد إلى الأذهان صلاحية الإسلام أن يكون نظامًا للحياة، و قد حاول من خلال دواليب الحكم أن يحقّق بعض ذلك بما سمحت به الظروف و الأحوال و الملابسات. و كان ثَمَّا يرَدّده مولود قاسم على أَسْمَاعِ المثقّفين و السياسيين، و على أَسْمَاعِ الشباب، من خلال منابر ملتقيات الفكر الإسلامي، تلك الخطابات التي تُذكّر و توعّي بضرورة التّعامل مع الدّين على أنه نظام حياة، ينبغي أن يتدخّل في كلّ جوانب تسيير المجتمع من فوق، و يجعل منه مصدرًا لإستلهاَم القوانين و المشاريع و التنظيمات المستقبلية حفاظًا على تحقيق الأصالية للأمة في مسيرتها التاريخية، و كان يقول ذلك و هو يتطلّع إلى المستقبل، تهيئةً للظروف حتى يحصل ذلك على أيدي الشباب الذين سيشكّلون رجال الغد، و من خلال الفقرة التالية من بعض كتاباته يتبيّن ذلك جليًا، إذ يقول:

﴿من الضروري أن نقوم بهذا الجانب من التربية لأبنائنا، لأنهم عندما يسمعون بنظام إجتماعي في هذه البلاد أو تلك في العالم يظنون أنّ الإسلام خال من ذلك، و ينظرون إلى الجانب السلبي فقط الموجود حاليًا، و الإسلام دينٌ و حضارةٌ، و الحضارات قد يبقى فيها الجانب الديني و الجانب الروحي كما كانا، و لكن الجانب الحضاري، و الجانب الإنساني الذي هو إسهام الإنسان في تطبيقه لهذه التعاليم الدينية، يعزّيه التّعقّر، يعزّيه جمود و ركود، و يعزّيه الإنهيار، عندما يختلّ ذلك الإسهام، و يضعف تطبيق التعاليم. نعرف من تاريخ الحضارات أنّها كلّها تنهار إذا لم يسهر عليها باستمرار، هذا من طبيعتها، فحضارات الإنسان، ككائن حيّ، تموت، و تحيا، و تزدهر، و لكن القيم الروحية لا تموت. القيم

الروحية التي أنشأت هذه الحضارات، التي أنشأت قطرة الحليب لصالح الدين الأيوبي بقرون قبل مانديس فرانس، و عمر بن الخطاب أنشأ الضمان الإجتماعي، و بعده عمر بن عبد العزيز، بقرون قبل أوروبا. هذه القيم لا تزال موجودة اليوم، لأنها مستقاة من روح الإسلام، و الإسلام دينٌ خالدٌ، دينٌ و دولةٌ و نظام إجتماعي كامل، و ليس كما يظنّ الكثير ينظر فقط إلى الصلاة على الموتى أو الأعراس (22).

و كأن مولود قاسم من خلال هذا الخطاب يستهدف فريقين من الناس، أولئك المنسلخين المنسوخين المنسوخين المنسوخين الإنصاليين، الذين يصمون الدين بالرجعية و عدم الصلاحية لهذا الزمن، فيذهبون يميناً و شمالاً بحثاً عن أنظمة يرونها توائم العصر و حركة تطور حياتهم. و الفريق الآخر هو فريق أولئك الجامدين الخامدين الهامدين المتوقّفين عن حياة النشاط و استعمال العقل و الذكاء لمواءمة العصر و إسقاط نصوص شرع الله على الواقع بما يوافق فطرة الله في الإنسان و عقل الإنسان الذي يكتشف و يصل إلى الحقائق التي بثها الله في الكون. و هم فريق يعطون و يوقرون المبررات و يخلقون الصورة المشوهة للدين والتي بها يستطيع الفريق الأول المنسلخ أن يبرّر إنسلاخه و إنصاليته عن الإسلام، فهم أسوأ مثال عن إعتناق الدين بالطريقة التي تجعله لا يوافق الزمن و لا يبني حضارة تخدم سيادة الأمة، و هم من قبيل الكنيسة التي عارضت الإكتشافات و التقدّمات العلمية، و سقطوا فيما سقط فيه الرهبان بنصوص لم يحسنوا فهمها و تبصّرها، و وقفوا من الإجتهد و الفهم العصري للدين موقف الذي يصمّ أذنيه و يُعرض و يعارض. و لذلك فإن مولود قاسم يخاطبهم و يقول لهم:

﴿هل أنّ عالم الأمس بأقوال الفقهاء، و الأصوليين، و المحدثين، و المفسّرين، القابع في صحراء نجد، أو جبال اليمن، أو أيّ صحراء أو جبال من أيّ بلد إسلامي كان، أو حتى في جنان غرناطة، أقدر من مماثله "عالم" اليوم، الذي كثيراً ما تتعدّد ثقافته و يسمع ما يجري في العالم في لحظته تقريباً، بكلّ ما لدى هذا العالم من وسائل عجيبة هي في تحسّن مستمر و تطوّر مطّرد مذهل، أقول: هل عالم الأمس—و العالم في الإسلام هو العالم بأسرار الكون!—

أقدر من عالم اليوم، المماثل له في التخصص، والذي يزداد عنه في ميادين كثيرة، على القياس، والإستنباط، والنظر، والإجتهد، ومعرفة مصلحة الأمة والفرد؟، لن يقول هذا إلا مكابر عنيد! ﴿(23)﴾.

وبالتالي، فإن مولود قاسم يريد أن يؤكد حيوية التعامل مع الدين بأن يكون الإنسان بصيراً بزمانه، يساير عجلة الحضارة حتى يقدم لها البديل المتألق إنطلاقاً من الشرع وفهمه له فهماً يأتي بالأحسن ولا يقضي عليه. وهي حيوية تميز بها السلف الصالح في كون عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قد أخذ من الأمة الفارسية نظام الدواوين مثلاً. بل وحتى أن كلام مولود قاسم عن الأخلاق، ينبم عن فهم إجتماعي لها، فيه كثير من الحيوية التي تنطلق من الخلق كأحد ميكانزمات وآليات الدفع إلى العمل والإجتهد والإتقان في الحياة، وقد تطرق إلى ذاك المعنى من التعامل مع الأخلاق -وهي جزء هام من الدين- فقال: ﴿على أن الأخلاق هنا لا تعني الإمساك عن العمل، والتسك، والتزهد، وحرمان النفس من متاع الحياة الدنيا، والظهور بالمظهر السلبي الرخو، والإعتماد على الغير، بل تلك الأخلاق الإيجابية، البناءة، على أساس يجمع بين الدين والدنيا، وقد عُرف عن عمر أنه ضرب مرة بدرته شاباً كان يظهر التسك، والزهد والتماوت في مشيته، وقال له: «ما لك تماوت في مشيتك، أتمم علينا ديننا أمتكم الله» ﴿(24)﴾.

بل ويضيف إلى تلك الحيوية والذكاء في التعامل مع النصوص أمراً مهماً يراه فاصلاً في الإنتصار لفكرة واعتقاد كون الدين نظاماً للحياة، وهو العمل بالمقاصد والحكمة التشريعية للنصوص، وبناء الحياة العامة على أساس يضمن تناغماً بين مقاصد الشريعة الإسلامية بحسب الأرضية وبين الواقع الذي تسقط فيه، فيقول: ﴿تضح جلياً أن الإسلام دينٌ ودولةٌ ونظامٌ إجتماعيٌ كامل، وأنه نصوصٌ ومقاصد، يدركها ذوو البصيرة كما تنفذ إلى الأجرام المراصد﴾ ﴿(25)﴾.

من بين الأمثلة على استخدام الإحتكام إلى المقاصد من وراء النصوص الشرعية، ما حاول أن يجتهد فيه جماعياً في مسألة تعويض الهدى ذبحاً بالإنفاق مالياً، إذ هو أصلح وأنفع وأسنع لتحقيق المقصد الإجتماعي من الهدى في الحج، فيقول:

﴿موضوع الهدى، المقصود به أصلاً إفادة المساكين و الفقراء عموماً، يوم أن كان عدد المتصدقين أقل من عدد المحتاجين حول منى و الكعبة المشرفة. أما و قد إنعكس الوضع اليوم، إذ قارب عدد الحجاج، هذه السنة مثلاً، المليون و النصف، بينما عدد الفقراء و المساكين في هذه الأماكن لا يكاد يُذكر بالقياس إلى عدد الحجاج، و تُترك الآلاف بل مئات الآلاف من الحيوانات المذبوحة للشمس و الرمل و التعفن، و تذهب أموال الأمة الإسلامية هدرًا، فنحن نرى أنّ هذا لم يُعدّ يوافق مقصد الشريعة. بل العكس، أصبح هذا ينافي مقصد الشريعة من الهدى «الذبح» و يضرّ بالإسلام و المسلمين﴾ (26).

و قد ذهب بالفكرة بعيداً، إلى أن عرضها على لجنة الفتوى في وزارة الشؤون الدينية المتكوّنة من فقهاء البلد، و وصل من خلالها إلى إستصدار فتوى جديدة تحقيقاً لمقصد شرعيّ، حيث يقول على ذلك: ﴿عرضنا الرأي على اللجنة، و طلبنا منها فتوى شرعية، و الأستاذ محمد شريقي من الذين كانوا هناك، صوتَ أيضًا ضدّ رأينا جهراً و علانيةً برفع اليد، مثل الشيخين حماني و شنتير -نائبه- برفع اليد، بأنهما لا يوافقان رأينا، و صوتَ الآخرون، و كانت الأغلبية، أو الجمهور -كما قلنا- و قلناها بجدّ و بمزاح، قلنا: نحن الجمهور -على المستوى الجزائري فالجمهور قال بتعويض الهدى نقدًا، إذا لم يتوفّر هذا، و لم يمكن ذلك، إلخ- قال بتعويض الذبح نقدًا لصالح الفقراء المسلمين في مكة و المدينة، و إذا لم يوجدوا، ففي سبيل الله عموماً﴾ (27).

و كان مولود قاسم من خلال ملتقيات الفكر الإسلامي دائم الإشارة إلى هذا الجانب من فهم الإسلام على أنه نظام حياة، يدرّج نقطة من نقاط أشغال الملتقى تشير إلى هذا الجانب المهم، مثل ما حدث في الملتقى العاشر للفكر الإسلامي الذي انعقد في مدينة عنابة، إذ يقول عنه: ﴿يتميّز هذا الملتقى العاشر بأنه كان محلاً لإثارة مشكل هام جداً، لأول مرة، من قبل عمّال القرن العالي أثناء زيارة مركّب الحجّار. فلقد درسنا مسألة الصيام في هذه الظروف الخاصة، و أصدرت اللّجنة المؤلّفة لهذا الغرض فتوى ستكون ذات أهميّة تاريخية في نهضة الإسلام. وهكذا «فإنّ الإسلام، بما طرح علينا من مشكل في الحجّار و بما أوجدناه له من حلّ، قد دخل عهد التصنيع بخطى ثابتة و من بابه الواسع» (28).

و كان مولود قاسم يشير دائماً من خلال تدخّلاته، إلى عدم حصر الدّين في طقوس و تعبّدات محصورة قياساً بأديان أخرى منتشرة في العالم فزّمت إلى تنسّكات يومية أو أسبوعية خاصة بالفرد مع ربّه تدخل في مجال الحريات الأساسية للفرد، إلى جانب حياة فردية و جماعية بعيدة كلّ البعد عن تعاليم الدّين بل و يُمنع أن يتدخّل فيها الدّين، فكان ثمّار ذلك به على بعض المتضجرين في إحدى ملتقيات الفكر الإسلامي بوجود أساتذة في مختلف علوم الحياة و تخصّصات العلوم الإنسانية و العلمية، لكون الملتقى إسلامياً، ما يأتي من كلام يبرز هذه الصّفة من الفهم للدّين التي كان يؤدّ مولود قاسم أن يفرسها في شباب أمته حتى تصبح ثقافة مستقبلية تكوّن الإنيّة لمن سيأتي من بعد، و تضمن تواصل عملية الأصالية بكلّ معانيها من التمسك بالموثوث و التناغم و التّعامل معه على أساس يشمل كلّ ميادين الحياة، فكان ثمّار ذلك: ﴿أمّا أن نقول لأحدنا هنا: «ليس لك محلّ هنا من الإعراب، فهذا الملتقى إسلاميّ»، فأقول لك: أنت أيضاً ليس لك محلّ، و أنا أيضاً ليس لي محلّ؛ فأنا متخصّص في الفلسفة، و أنت متخصّص في التاريخ، و ليس محلّ لأيّ أحد منّا هنا، إذ أنّ مفهومنا للإسلام على أنه فرائض الوضوء، و سننه، و مستحيّاته، خطأ؛ فليس هذا هو الإسلام كلّه؛ الإسلام دين و دولة، الإسلام

نظام إجتماعي متكامل، الإسلام يشمل جميع وجوه الحياة، الإسلام حضارة و فكر، الإسلام دنيا و آخرة، و القرآن ذكر الدنيا قبل الآخرة في كل مرة ذكر الإثنين معاً ﴿(29)﴾.

و كان لما قاله عن ضرورة غرس هذا الفهم المهمّ للدين في نفوس الشباب الذي كان يضع فيهم الآمال الكبيرة ويعقد ملتقيات الفكر الإسلامي لأجلهم، و يستدعي العلماء و المختصين للحفاظ على إنيّة وأصالة هؤلاء و ضمان تواصلهما داخل المجتمع، ما كتبه يقول: ﴿شبابنا اليوم يحتاج إلى أن يعرف أنّ الإسلام دين حضارة، و دين فكر، وليس دين عبادات، و دين معاملات، دين حضارة ودين فكر. وشبابنا المعروض اليوم للغزو الفكري، و للتيارات الخارجية، و الزّوابع، و لمختلف الهزّات، يحتاج إلى هذه الشّحنة العقلية، إلى جانب الشّحنة العاطفية﴾ ﴿(30)﴾. فيجب أن تصاحب الشّحنة الرّوحية أفكار بناءة منطلقاً من وحي الشّرع و آخذة بأساليب ووسائل العصر لضمان بقاء أمر الدين بين الناس، فكتب في ذلك عن العدالة الإجتماعية في الإسلام و كيف حاولت الجزائر أن توجّها في الإشتراكية رداً على من أنكروا عليها ذلك، يقول: ﴿أودُّ أن أختتم بالتعبير عن تخوّفي، بدوري، و أقول أنّ المسلمين، إذا استمرّ إنعدام هذه العدالة الإجتماعية بينهم، و فصلوا المسجد عن المزرع، و المصلّى عن المتجر و المصنع، و كانوا بذلك يُراؤون و يمنعون الماعون، فويلٌ لهم ثمّ ويلٌ في هذه الدنيا قبل الآخرة، حتى إذا لم يكونوا من الذين هم عن صلاتهم ساهون!﴾. إذ لن تنفعهم في ذلك صلاة و لا صيام﴾ ﴿(31)﴾.

كان مولود قاسم شديد الحرص على التذكير بضرورة الإستنارة من تعاليم الدين لبناء حياتنا الفكرية و الثقافيّة و الإقتصادية و الإجتماعية، بالحضارية ككلّ، بكلّ أبعادها العمرانية و المعرفية و الخلقية، إذ يقول: ﴿إنّها حاجة الإنسان - و المجتمع! - إلى الإستقرار الروحي، إلى الطمأنينة، إلى السكينة النفسية، إلى الدين! و إذا كان يصدق على جميع الأديان، السماوية منها و حتى الوضعية، فإنّه للصدق نفسه، و الحقيقة ذاتها الخاصة بالأديان السماوية، و الدين عند الله

الإسلام!. و الإسلام كما نعلم، دين الدّنيا والآخرة، و نظام إجتماعي كامل، و دين الفكر و الحضارة، و دين الروح، و العقل، و الجسم! ﴿(32)﴾.

و كان مولود قاسم يرّد على الفريق الثاني الذي يعرقل ترجمة الأصالية إلى الدّين إلى نظام حياة يصنع الحاضر و يشكّل معالم المستقبل الإنوي للأمة حتى تشكّل من خلاله الأجيال القادمة أصاليتها بما سيتوارثونه من إتيّة تركها لهم أجدادهم و آباؤهم الذين هم الآن في خصمّ صنع الواقع و الحاضر وتشكيلهما، و هم فريق المنسلخين و الانفصاليين، فيردّ عليهم بكون الإسلام ليس إلاّ تعاليمًا تحتاج إلى ترجمة واقعية معتمدة على إجتهد المسلمين أنفسهم بعد أن يكونوا بصيرين بزمانهم، عارفين بأحوالهم، مدرّكين لأهدافهم الحضارية، و آخذين بالمسؤولية الملقاة عليهم في عالم الشهادة من طرف ربّ الغيب والشهادة، حيث سأله فقالوا: ﴿هناك أناس متعاملون يقولون أنّ الإسلام كان ثورةً روحيةً و إجتماعيةً في زمانه، أمّا الآن فإنّه غير قادر على الإستجابة التامة للقضايا الإجتماعية و الإقتصادية و العلمية المطروحة على الإنسان المعاصر اليوم، فما موقفكم من هذا القول؟﴾، فأجاب يقول: ﴿هؤلاء المتعاملون - كما قلت بحق- في الواقع موهون للحقيقة، ليس بالضرورة عن جهل منهم، و لكنهم متجاهلون لحقائق و بديهيات لا تحتاج إلى كثير من العلم لإدراكها، و لكن تحتاج إلى كثير من الإخلاص للإعتراف بها. فالإسلام الذي ابتدع أحسن النظم الإقتصادية و الإجتماعية، و جعل طلب العلم فريضة كسائر الفرائض السماوية، و جعل حبر العلماء مساويًا لدم الشهداء، و جعل دية الذي يموت جوعًا في عنق الأمة كلّها، و كان التبراس المنقذ للبشرية من ظلماتها، و المنطلق لما هو عليه العالم المتقدّم اليوم في أحسن جوانبه، يستطيع أن يجدد اليوم كلّ ذلك، إذا ما تجدد المسلمون، و يستطيع أن يرجع إليهم عزّتهم و تماسكهم، إذا ما اعتزّوا و إستمسكوا به، و ما كان بالأمس ممكنًا، فهو اليوم أسهل﴾ ﴿(33)﴾.

و تكفي كلمات مولود قاسم هذه، للتعبير عن مدى إهتمامه بتذكير الأمة بضرورة الأخذ بالدين على أنه نظام حياة، في وقت لا يشجع على ذلك، بل يعاقب عليه، إلا أنه وجد لأفكاره منافذ ذكية و لم يخف في ذلك لومة لائم. و هذا هو توظيف مولود قاسم لعنصر الدين في عملية الأصالية و الحفاظ على الإنية ضمن البناء الحضاري الأصالي، على أنه بطاقة التعريف و وسيلة التوحيد و التلحيم، و على أنه المرجعية الفكرية و الأيديولوجية للسلوك الفردي و الجماعي و تكوين الأعراف، و على أنه نظام حياة كامل و متكامل تُستمدُّ من تعاليمه ترجمات و إبتكارات و تنظيمات حضارية إنسانية تصنعُ التائق العمراني في كلِّ مجالاته إضافة إلى التائق المعرفي و التائق الأخلاقي.

الهوامش:

- (1) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، المقدمة، ص 69.
- (2) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 105.
- (3) مولود قاسم نايث بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 584.
- (4) مولود قاسم نايث بلقاسم، المصدر السابق، ص 500.
- (5) سعيد آيت مسعودان، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نايث بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 279.
- (6) مولود قاسم نايث بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، المصدر السابق، ص 236.
- (7) مولود قاسم نايث بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 453.
- (8) مولود قاسم نايث بلقاسم، المصدر السابق، ص 402.
- (9) مولود قاسم نايث بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نايث بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 392.
- (10) مولود قاسم نايث بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 381-382.
- (11) مولود قاسم نايث بلقاسم، المصدر السابق، ص 478.
- (12) مولود قاسم نايث بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نايث بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 235.
- (13) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، المقدمة، ص 29.
- (14) مولود قاسم نايث بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 425.
- (15) المأمون القاسمي، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نايث بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 295.
- (16) محمد الصالح الصديق، «خواطر و ذكريات عن الأستاذ المرحوم مولود قاسم نايث بلقاسم»، ص 58.
- (17) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 137.
- (18) مولود قاسم نايث بلقاسم، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص 193.
- (19) د/ أبو القاسم سعد الله، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نايث بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 269.
- (20) مولود قاسم نايث بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نايث بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 232.

- (21) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص 236.
- (22) مولود قاسم نایت بلقاسم، «إتيّة و أصالة»، ص 605-606.
- (23) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، المقدمة، ص 35.
- (24) مولود قاسم نایت بلقاسم، «إتيّة و أصالة»، ص 223-224.
- (25) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأوّل، ص 228.
- (26) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق ص 79.
- (27) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأوّل، ص 223-224.
- (28) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 106.
- (29) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأوّل، ص 129.
- (30) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص 218-219.
- (31) مولود قاسم نایت بلقاسم، نفس المصدر، ص 337.
- (32) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 136.
- (33) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأوّل، ص 88-89.

المبحث الثالث :

توظيف عنصر اللغة

تمهيد :

من بين الأمور التي يقولها مولود قاسم بها فكره وفلسفته ويني عليها مدرسته الدعوية والحضارية في الحياة والمبنية على الإنسية و الأصالة، مسألة اللغة. ويقصد بها اللغة العربية الفصحى، التي مرة يضعها قالباً، ومرة يجعلها مضموناً و موضوعاً لسعيه وجهاده الإنوي و الأصالي. وقد أجل ذلك من خلال ما حاول إبلاغه من فلسفته في بعث المجتمع الجزائري على أساس شخصيته المتوارثة أباً عن جدٍ منذ حقب تاريخية بعيدة. هذه الشخصية التي صنعت له إنسيته ليفعل المجتمع كل مرة فعل الأصالية بحيث يضبط معالم مستقبله بما يوافق موروث الأجداد، ويوافق طموحاتهم في الأحفاد، فكتب عن الإنسية في بعض قوالها ومضامينها ومواضيعها يقول: ﴿إنني بلغني التي كانت تناغيني بها أمي، وتقص لي بها القصص جدتي، ويتفاقم بها جميع سكان قريتي، أو حيي في بلدتي أو مدينتي، و أتناغم بها مع أبناء وطني، وأتناجى بها مع آبائي و أسلافي، وأقرأ بها تاريخ و أمجاد أممي، ومنقوشة بها جدران و صخور بلادي، ألقنها أولاد أولادي، وأبلغ بها رسالتي إلى أندادي، وأفاخر بها أندادي﴾(1).

وهو، هنا، يشير إلى مسألة اللغة دون أن يحدد ماهيتها، وسيأتي في ذلك إيضاح لسعة مفهوم اللغة لأفكار قومية كذلك، فهو يهيمها ليفهمها كل واحد حسب ميوله العرقية وحسب إنتمائه اللغوي، فيعمل الجميع بجهل لإحياء لغات موروثها في الإنسية الوطنية على ألا تتصادم و تتقاصى وتترك المجال للغة الغير أن تستحوذ على النشاط الثقافي والعلمي وحتى الاجتماعي، ولكنه في الآن نفسه يركز في أكثر من مناسبة أن اللغة التي يجب أن تعطى اهتمام الجميع هي لغة القرآن والدين، اللغة العربية الفصحى، لأنها حاملة الثقافة الرابطة بين كل أجزاء شعوب الأمة

المسلمة باختلاف لغاتها و عاداتها و تقاليدها، إلا أن جوهر ثقافتها مجملاً واحداً مستقى من تعاليم الإسلام عقيدةً و شريعةً و أخلاقاً، و الإسلام هو أساس التربية على ثقافة جامعة بين شعوب الأمة الإسلامية، و لا تنفك لغة الإسلام عن مضمونه إذ هي الحاملة له و الوعاء و المعبرة عن أكبر معجزة فيه، معجزة القرآن الخالدة كلام الله تعالى. يقول مولد قاسم: ﴿الثقافة تشترط التربية، و تتوقف عليها. و نجد أن أداة هذه التربية، و حاملتها، و قناتها، و حافظتها التي تلونها بلونها، و تكيفها بطبيعتها، هي اللغة، كما يقول فخته. و من هنا نراه يصف اللغة بأنها: " القوة الطبيعية في الأمة ". و من هنا أيضاً نرى الفيلسوف الكبير يجعل أركان آية أمة من الأمم ثلاثة: اللغة، الدين، و التاريخ، لغرس حبّ الوطن ﴿(2).

ولكن بالرغم من ذلك الانتصار للغة العربية الفصحى، فإن مولد قاسم رحمه الله يشترط في إحيائها أن ترتبط بمضامينها بتعاليم الدين الإسلامي - وهو ما حاول أن يبثه - بكل ما ملك من قوة و من منصب في سعي الدولة الجزائرية لإحياء دور هذه اللغة داخل مجتمعتها.

لذلك فإنه يذكر تدمر بعض الزعماء البعثيين التقدميين فيما يسمّى بالعالم العربي، من النهج السياسي و الثقافي الذي تبنته الجزائر في إعادة الاعتبار لهذه اللغة بعدم إفراغها من مضمونها الإسلامي الذي تحمله معها منذ خمسة عشر قرناً من الزمن، فكتب عن ذلك يستنكر عليهم و يقول: ﴿ولكن أولئك التقدميين، منهم، "الثوريين"، "العالميين"، "الدوليين"، في العالم العربي خاصة، من جهتهم أيضاً لا يذكرون الجزائر، لماذا، لأن الجزائر حريصة كل الحرص على إرجاع اللغة العربية إلى مكانتها الأصلية اللاحقة بها، الضرورية، الشرعية، إن كان هذا ربما قد يتفوقون معنا فيه - ولكن خاصة عندما نتكلم عن القيم الإسلامية، أو عن الدين الإسلامي، تراهم يخربشون: « إذن هذه ليست ثورة تقدمية، ما دامت فيها كلمة الإسلام من قريب أو بعيد، فليست تقدمية! » ﴿(3).

ثم يهاجم أولئك الذين يرفضون، مبادرة إحياء اللغة العربية الفصحى تحت دعوى أنها لغة ميتة غير مواكبة للتسارع المتطرد في تطوّر العلوم و الحياة المادية و المدنية الحديثة. و هم جهة أخرى ينبغي إقناعهم أو منافستهم حتى لا يصلوا إلى مراكز القرار داخل السلطة فيكونوا وبالاً على الأمة و مستقبلها الثقافي . و ينبغي غرس الأفكار التي

تزرع الحزم والعزم والجزم لبلوغ بناء حضاري منطلق من الذات، تأصيلاً إلى الإتيّة، ومن ذلك تأصيل الثقافة لغويّاً، وفي هذا الشأن يقول مولود قاسم: ﴿نريد من البعض الإقلاع عن الزعم بأنّ العربية عاجزة عن التعبير عن العلوم الحديثة، فالعجز ليس عجز اللغة، وإنما عجز الأدمغة عن التفكير المستقلّ، وعن الإنتاج والبناء على أساس تراث الأجداد، تراث الحضارة الإسلامية العربية﴾ (4). ثمّ إنه يؤكد أنّ البناء الحضاري يتطلّب تضحيات ووقتاً، وخاصّةً أنّ الإستثمارات الحديثة قد دمرت كثيراً من مضامين وقوالب إتيّتها، وبما في ذلك اللّغة المعبرّة عن حضارتنا لأربعة عشر قرناً مضت.

فالانطلاقة عسيرة وصعبة وكبيرة كما تكبر الصلّاة إلّا على الخاشعين والصّابرين الذين يتواصلون بالحقّ ويتواصلون بالصّبر. بل إنّ أكبر ما دمّرتّه فينا هذه الإستثمارات هو روح المبادرة لإقامة الإحياء الحضاري بعد أن شلّتنا لما يقرب من قرن ونصف من الزّمن وزرعت فينا الكسل والاعتماد على الغير في كلّ ما يتعلق بحياتنا، وأفقّدتنا الثّقة في أنفسنا وفيما نملك من قُدّراتٍ ورسيدٍ، فأصبحنا تابعين مغلوبين مولعين بما عند الغالب دون تمييز ولا تمحيص.

وفي ذلك يقول مولود قاسم - رحمه الله - : "قد يقول معترض: هذه حكايات قديمة، ونحن الآن نريد لغةً تكون أداة تعبير عن الوضع الحاضر، عن العلوم المتطوّرة، فالعربية توقفت ولم تتطوّر، وبعبارة أخرى، العربية متأخّرة". والجواب أنّه ليست اللّغة هي المتأخّرة، وإنّما المتكلّمون بها، فاللّغة مرآة المتكلّم بها، والذّنب ليس ذنب اللّغة. ثمّ إنّ الألفاظ العلمية ما هي إلّا اصطلاحات، فإذا كانت أوروبا قد قضت قروناً في العمل على اللاتينية وتكوين لغاتٍ حديثة متفرّعة منها، فنحن لسنا في حاجةٍ إلى هذا الجهد، فعربية ابن رشد، والمولحي، والإدريسي، وابن الهيثم، والخوارزمي، والرّازي، والبيروني، وأبي حمزة، و الأخصري الجزائريين، وغيرهم، لاتزال صالحةً للتعبير عن نفس العلوم، مع إضافة الاصطلاحات المتجدّدة تبعاً لحدوثها وتطور العلوم والآلات، فالعربية ليست اللاتينية، فبفضل غناها، وقدراتها على الإشتقاق، وسلاستها، وتقاليدها العلمية، ومرونتها، تُعتبر من أقدم

اللغات وأحدثها، وأكثرها قابلية للتطور في نفس الوقت. ثم أن هناك لغات لم تكن لها آية تقاليد علمية، بل لم تكن تُعتبر من بعضهم حتى كلغات، ومع ذلك نجدها اليوم تعبر عن المستوى العلمي والصناعي الرفيع اللذين وصلت إليهما الأمة المتكلمة بها ﴿5﴾.

ولقد ارتأيت أن أتناول موضوع توظيف مولود قاسم لمسألة اللغة في جهاده وكفاحه الإنوي والأصالي، من خلال ثلاثة محاور، أراها مستوفية لهذا الجانب الهام من نضاله الحضاري، ومن أعمدة مدرسته الفلسفية، فقسّمتُ هذا البحث إلى ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التهيئة النفسية لإحياء الأصالية في اللغة.

المطلب الثاني: السعي الحثيث لتأسيس الأصالية في اللغة.

المطلب الثالث: المصابرة والمكابدة في مواصلة الأصالية في اللغة.

وقسّمتُ هذا الموضوع إلى هذه المطالب بنظرة كرونولوجية زمنية لمراحل نضال مولود قاسم في هذا الميدان الخطير من البناء الحضاري داخل الجزائر، والذي يدخل في قولبة الفعل الحضاري وإعطائه مضامينه المنبئة عن الشخصية الوطنية.

التَّهَيُّةُ النَّفْسِيَّةُ لِلْحَيَاءِ لِأَصَالِيَةِ فِي اللِّغَةِ

كان يعلم مولود قاسم رحمه الله أن أمر أيّ انطلاق حضاري متميّز صعبٌ وشاقٌ على الأنفس، خاصّةً تلك المنهزمة ثقافياً ولو أنّها خرجت من ثورة تحريرية وقهرت الحلف الأطلسي بأكمله، لا تملك الشجاعة للاستقلال الفكري و الثقافي والحضاري بعدما خرجت من تحت الإستعمار صفر اليدين على أرضٍ محروقة مادياً ومعنوياً وثقافياً.

لذلك، فإن مولود قاسم راح - ولمدّة طويلة من الزمن- يستحثّ المهتم ويدفعها إلى امتلاك العزيمة وروح المبادرة لبعث بناء حضاري منطلق من الذات، فكانت التَّهَيُّةُ النَّفْسِيَّةُ في هذا الميدان مهمّة، أكثر أهميّة من إعداد الوسائل لإنجاح العملية، فاستعمل كلّ الطّرق الممكنة لتقريب فكرة ضرورة ردّ الاعتبار للغة القرآن في أرضها إلى الأذهان. فاتى النفوس من باب الدين، لعلها تتعظ إن كانت لا تزال تملك وازعاً دينياً، فكان مما كتبه في هذا المجال وقاله، أن ربط بين الإسلام واللغة العربية ربطاً حتمياً بحيث لا ينفك أحدهما عن الآخر. ويتضح ذلك من خلال الفقرة التالّية التي قال فيها: ﴿فالإسلام دين ديناميكي (حيوي) والعربية هي المعبر الأساسي عن هذا الدين أو على أقلّ تقدير إحدى مظاهره. أظنه أنه لو اتخذ كلّ منهما طريقه، الإسلام والعربية، فكليهما سوف يضيع والدليل على ذلك أنّ العرب قد ضيّعوا العربية عندما أضاعوا الإسلام. وأضاعوا الثقافة وأضاعوا الإسلام وهو حضارة، وثقافة، وفكر، وروح في نفس الوقت، وأضاعوا كذلك في نفس الوقت اللّغة وهي التي تحمل أبعاده التي تتشابهك وترتبط ارتباطاً وثيقاً فيما بينها ويكتمل كلّ منهما

الآخر، وهي لا تقبل أيّ تفریق فيما بينها. بل إن التفریق بينها، والفصل فيما بينها، هو الذي أصابها جميعاً بكلّ أنواع المصائب والمتاعب التي نعرفها ﴿(6)﴾.

وقد أجرى له حوارٌ صحفي من طرف جريدة "الجيري اکتیالیتي" (الجزائر أحداث)، وضح فيه هذا الارتباط الوثيق بين الإسلام واللغة العربية، ومسؤولية المسلمين تجاه هذه اللغة لأنها خرجت منذ خمسة عشر قرناً من قوميتها وحدودها الضيقة إلى العالمية، فكان ممّا صرح به خلال هذا الحوار أنّ اللغة العربية خصوصية بحيث لا تؤخذ على أساس قومية، بل لكونها لغة ثقافة جامعة بين شعوب العالم الإسلامي أجمع مع الإبقاء على اللغات والثقافات المحلية للشعوب دون إحداث صدامٍ بينها وبين لغة القرآن، ففتبوا اللغة العربية مكانة عالمية بتكاتف جهود كلّ المسلمين في كلّ الأقطار أملاً في بعث حضاري يوحدهم تحت راية الإسلام مرةً أخرى بما لهم من إتيّة جماعية أهمّ معالمها الدين واللغة العربية، فكان ممّا قاله ما يلي: ﴿اللغة العربية والإسلام كلٌّ لا يتفرّق. فالإسلام لا يشجع لغةً على حساب الأخرى. وكثيراً ما يقال "اللغات الإسلامية" فليس هناك العربية وحدها. فكلّ اللغات التي يتحدثها المسلمون لغات إسلامية. ولكنّ العربية لها مكانتها الخاصة لكونها لغة القرآن ولغة النبي، اللغة الجامعة لكلّ المسلمين في شتى أنحاء العالم، لغة العلم ولغة الثقافة.

الجيري اکتیالیتي: "كذلك هي الفرنسية؟".

مولود قاسم: لا، لأنها مستعملة من قبل غير المسلمين، أمّا المسلمون فيتحدثون الفارسية والأمازيغية والمالية والكردية والأردية والتركية. العربية يتحدثها أيضاً المسيحيون في لبنان وفلسطين ومصر وسوريا والعراق وفي الأردن...

لأن الإسلام أيضاً ثقافة وحضارة مشتركة وجامعة مع هؤلاء المسيحيين العرب ﴿(7)﴾.

ثمّ توجه مولود قاسم بالخطاب إلى أولئك الذين يشدهم الحنين إلى لغة المستعمر الفرنسي إلى أبد الأبدین، مذكراً إياهم بأنّ الوضع يجب تغييره ولا يجوز البقاء عليه دوماً، فإلى متى نظلّ تبعاً لحضاراتٍ أخرى تسلبنا على مرّ الأيام- من حيث لانشرع- جزءاً من شخصيتنا وإتينا وثقافتنا، مشنعاً عليهم تبنّيهم لفكرة أنّ اللغة ليست إلا أداة فحسب، وأنّ المهمّ هو المضمون الذي تحمله في طياتها وبين كلماتها، فكتب يردّ عليهم قائلاً: ﴿وهؤلاء نقول

أن اللغة ليست شكلاً أو أداة فحسب، بل هي محتوى أيضاً، إذ هي قالب تصاغ فيه أفكارنا وأحاسيسنا، تُعبّر بها عن كنهنا وحقيقتنا، تصطبغ بها هذه الأفكار والأحاسيس، بالضبط كما تتأثر هي، أي اللغة، بهذه الأفكار والأحاسيس التي تعبّر عنها، والتي تحملها شحنة معنوية قوية تعطيها طابعها المميّز لها والخاصّ بها ﴿(8)﴾.

ويذكّرهم مولود قاسم أن الحالة لا يجوز أن تدوم على هذا الوضع، بل يجب أن تحظى اللغة العربية ببعث حضاريّ وفيّ لطموحات السلف فينا، مع عدم غلق النوافذ أمام اللغات التي تأخذ بأيدينا نحو بلوغ التحصيل العلمي والتطور، على أن يكون ذلك أمراً مرحلياً فقط، فيقول: ﴿نعم إن الفرنسية جميلة وجميلة جداً، وقد تكون ضرورية لنا لمدة، ولكنها تأتي بعد لغتنا التي، فضلاً عن أنها جميلة، وغنية جداً، وذات تقاليد علمية، ويعتبرها الفرنسيون أنفسهم من كبريات اللغات فهي لغتنا. ثم أن هناك لغات أخرى لا تقلّ جمالاً عن الفرنسية، ونحن، في هذه النقطة، من أنصار تعدّد الزوجات مثني، وثلاث، ورباع، وأكثر! ﴿(9)﴾. وفي تهيئته لمجتمعهم نفسياً لأجل زرع روح المبادرة إلى إقامة مشروع من الذات والإثنية، فإن مولود قاسم يشخص له الواقع التاريخي الذي ساد منذ ما يقرب من قرن ونصف، ثم يشخص له الواقع الزمني الذي يعيش فيه حالياً، حتى يكون هذا المجتمع على يئنة وبصيرة بما حدث ويحدث من حوله. وتشخيص المرض جزءاً من العلاج أو هو نصفه. ففي تشخيص الواقع التاريخي يقول مولود قاسم: ﴿قال السيناتور كومب في مجلس الشيوخ الفرنسي ما يلي:

"إن الجزائر كان فيها عند احتلالنا لها أكثر من ألفي معهد ثانوي وعال"

ويضيف فالسن استرهازى و أوربان في عدد يوليو- سبتمبر 1954 من "مجلة التاريخ الحديث والمعاصر" تحت عنوان: "الحياة الثقافية والأخلاقية في الجزائر سنة 1830". "إن نسبة الأمية سنة 1830

كانت في الجزائر أقلّ عنها في فرنسا بالنسبة لعدد السكّان، أي أنها كانت أعلى في فرنسا!".

ويضيف الذي ذكرناه آنفاً: " إن احتلال فرنسا للجزائر أحدث فوضى عامّة في ذلك العالم من العلماء والمفكرين، كثيرٌ منهم تركوا البلاد". وكانت تلك الثقافة طبعاً بالعربية. وطيلة العهد الاستعماري خنقت العربية، ومُنِعَ تعليمها، وكانت المدارس العربية تغلق، وأمواها تُصادر، ومعلّموها يُلقى بهم إلى السجون و المنافي ﴿(10)﴾.

الشيء الذي يفسر الضعف الذي وصل إليه المجتمع الجزائري، ويفسر إحساسه بعدم القدرة على القيام من هذا الضعف، فيلجأ إلى أيسر السبل لإيجاد مكانٍ تحت الشمس ولو من خلال لغة المستدمر، سواءً تحت غطاء الاستفادة من الغنيمة، لذلك فإن مولود قاسم كان يضع يده على هذا الجانب المرّضي في مجتمعه ويحاول أن يعالجه قبل أن يستفحل، فقال: ﴿وليس غريباً أن تُصبح العربية على ما أصبحت عليه بعد قرنٍ وربعٍ من احتلال من أبشع الإحتلالات خلال التاريخ، خاصّةً إذا ما تذكّرنا ما قال فيخته عن الألمان، وخوفه من فقدهم لغتهم، وهم لم يروا من احتلال نابوليون إلاّ بضعة سنوات معدودة، ولكنّ الغريب ألاّ نتصدى نحن الآن بكلّ حزمٍ لكلّ من يريد أن يماطل، ويؤجّل، ويؤخر يوم إعادة هذه المياه إلى مجاريها الطبيعية، بدعاوٍ ومزاعمٍ في غاية السخف والتناقض مع التاريخ، والتعارض مع تجارب الأمم.

إنّ دعوى هذه الغربان التي أكل عليها الاستقلال وشرب، أو ينبغي أن يفعل، هي أنّ اللّغة ليست إلاّ أداة، والعربية كأداة لمسيرة الرّكب الحضاري والتّقدّم التقني غير متهيئة وغير صالحة، على الأقلّ في مرحلتها الحالية، ولذا ينبغي في نظرهم التّمهّل، وعدم التّسرّع، وانتظار الغد البعيد! ﴿(11)﴾.

والغريب أنّ هؤلاء الجماعة من الغربان- على حدّ تعبير مولود قاسم- لا يحدّدون حتّى متى يكون هذا الغد البعيد، ليتسنى للمجتمع أن يكون على علمٍ وعلى بصيرةٍ من الخطوات التي تعيد إليه إنّيته. وأما تشخيص الواقع الذي يعيش عليه المجتمع في زمانه، والذي يدقّ من خلاله مولود قاسم ناقوس الخطر إذا دامت الأمور على حالها دون تغيير، فإنّه يقول فيه مشيراً إلى الإنهزام الذي حصل من أبناء الجزائر في هذا المجال بعد استعادة الحرّية، دون أن يكونوا مقهورين ولا مغلوبين على أمرهم: ﴿كانت الإحصائيات الرسمية الفرنسية التي نشرها الملعون

سومستال تقول في نشرة 1956 أن نسبة الأمية في الجزائر بين الرجال 94 و بين النساء 96 بالنسبة لـ10 ملايين من الجزائريين الموجودين آنذاك. والآن عندما نقول 6 ملايين و نصف فهؤلاء من الذين يدرسون حالياً فضلاً عن الذين تخرّجوا و أكملوا دراساتهم. إذن فهذا العدد يعطي صورة فصيحة بليغة جزلة واضحة عن الفرق الهائل بين العهد الإستدماري الفرنسي من حيث تعليم الفرنسية والوضع القائم الآن، فإذا نحن الذين نشرنا اللغة الفرنسية، الجزائر المستقلة التي استعادت استقلالها هي التي نشرت اللغة الفرنسية وهذا لا عيب فيه في الواقع لأننا لسنا ضد اللغات الأجنبية فهي ضرورية إنما نقول فقط لأبداً أن نضم إليها (إلى الفرنسية) لغات أجنبية أخرى حتى لا تبقى هي الوحيدة خاصة وأنها (أي الفرنسية دائماً تأتي بالنسبة للجانب العلمي في الرتبة ثانوية جداً، تأتي وراء الأنجلو أمريكية والألمانية والروسية والصينية واليابانية إلخ.

واللغة الفرنسية في التعليم ليست حجرة عشرة فهي ضرورة وإنما أقول فقط نضم إليها لغات أخرى، وتكون حجرة عشرة عندما نعلم بها في التعليم العالي، فهي لا تكون عندئذ حجرة عشرة فقط بل حجراً قاتلاً، عائقاً، سداً منيعاً، خانقاً للغة الوطنية، وكذلك ثلثة في جدار الشخصية الوطنية وفي التربية وفي السلوك العادي) (12).

ثم يطرح مولود قاسم طرحه الوسطي في مجال توظيف اللغة العربية في البناء الحضاري الأصلي، ذلك الطرح الذي هو بعيد عن التعصب والتحيز والإقصاء، فيقول: ﴿أريد أن أقول أنني ليس لديّ تصارع بين الألمانية والفرنسية ولا غيرهما من اللغات، ولا الثقافات، بل هناك تكاملٌ بينها على توافر بعضها في إن شاء الله وإنما الشيء الذي ألححت عليه دائماً هو أننا نودّ أن نكسب من هذه اللغات أكبر عددٍ ممكن، والفرنسية التي تعلمناها بالقهر يمكن اعتبارها مكسباً ولكن باعتبارها لغةً أجنبية، أي بعد لغتنا وهذا لا يتعارض مع الألمانية، ولا مع الإنجليزية، أو الإسبانية، أو اليابانية، ولا الوقواقية، أو السنسكريتية، ولا حتى العبرية، ليتنا نعرفها كلها وغيرها﴾ (13).

وحيث يلتصق مولود قاسم إنهما حضارياً وثقافياً في أوساط نخب مجتمعه، ويلتمس عندهم عزيمة منكسرة وروحاً
نضالية ضعيفة وباهتة، فإنه كان يذكّرهم بمعجزة النصف الأخير من هذا القرن عند أحد الشعوب التي تتأصل إلى
إبنتها، وهو الشعب الإسرائيلي الذي أحيّا لغةً مَيّنة ماتت منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف عام، وبوأها مكانتها في بنائه
الحضاري الحديث، وهي اللغة العبرية، لما اتفقت الطمّوحات مع العزائم ووجدت العزائم طريقها إلى التجسيد،
ليقول: ﴿وحتى الصّهاينة في فلسطين المختلة، وهم مزيجٌ من أكثر من مائة دولة، أحيوا لغةً ماتت منذ
أكثر من ألفي سنة، وأصبحوا يدرسون بها جميع المواد، وأكثر من هذا أنهم عندما تعوزهم كلمة ما
في لغتهم يعمدون إلى العربية، أقرب لغةٍ إلى لغتهم، ليأخذوا منها ويشروا بها لغتهم. فالصهاينة إذن
لا يشاركون العرب في الرأي أن العربية عاجزة أمام العلوم الحديثة ! غريب واللّه غريب، وشرُّ
البلية ما يضحك، كما يقول المثل العربي القديم﴾ (14).

ويقول عن ذلك في موضعٍ آخر، مستحطاً الهمم لتتبع نفس النهج: ﴿فالصهاينة الذين توافدوا إلى فلسطين
المختلة من القارات الخمس، بعثوا اللغة العبرية من القبر. وهي التي ماتت منذ ما يقرب على الأقل
من ألفي سنة، منذ أن خرّب الإمبراطور الروماني " تيتوس " جدران المعبد في القدس الشريف، ولم
تعرف هذه اللغة تطوّر العلوم طوال القرون الوسطى، ولا في عصر النهضة، ولا في عصر الحديث،
قرّروا أن يحيوها وأحيوها فعلاً، فأصبحوا لا يشتغلون بها في الإدارة فحسب، بل يدرسون بها حتى
أحدث العلوم في معهد وايزمان للذرة، في فلسطين المختلة، وعندما تعوزهم الاصطلاحات التقنية
الدقيقة، يلجأون إلى اللغة العربية ليستقوا منها ألفاظاً عصرية، ولينحسروا منها اصطلاحات تقنية
حديثة، ليلقحوا لغتهم المتجمدة، وذلك لشرة اللغة العربية ومرونتها، وسهولة الاشتقاق منها،
وقربها من لغتهم، نظراً للأصل السامي المشترك﴾ (15).

وأخيراً، حين يستبعد الأمراض التي وقع فيها المجتمع، ويعطي اقتراحاتٍ فاعلة للقضاء عليها، ويذكر العقول
بضرورة تحقيق الاستقلال في الإنيّة والأصالة، فإن مولود قاسم يبرز لأقرانه تجربة سوريا المشجعة والفتاحة للطريق

مادام المجتمع وخاصة النخبة الثقافية منه لا تؤمن بالانطلاقة من الصفر - على حدّ تعبيرهم -، فيجدوا ثمار هذه التجربة الرائدة منهلاً معنوياً ومادياً في مسيرة إعادة الاعتبار للغة القرآن في بلادها، وهذا يدخل كذلك في مرحلة التهيئة النفسانية التي اعتمدها مولد قاسم في هذا المجال، فيقول: ﴿ إنّ بعض الإخوان في البلدان العربية يحاولون أن يعلّموا تخلفهم عن سوريا في مجال تعريب العلوم، وأقصد البلدان العربية في المشرق التي لها مسؤولية كبرى، وعليها لومٌ كبير، وليس البلدان في المغرب، لأنّ هذه لا كلام عليها في هذا الميدان، فهي غارقة في المصيبة وفرحانة بهذه المصيبة ومسرورة بها. يقول هؤلاء الإخوان أنّ الطّبيب مثلاً، الذي درس في مصر أو العراق بالإنجليزية، وفي لبنان بالفرنسية، متقدّم على زميله في سوريا الذي درس بالعربية. ولكنّي لا أصدق بهذا أبداً، لأنني عندما أنظر إلى الجوانب التكنولوجية الأخرى فأرى سائر البلدان العربية متخلّفة، لماذا؟. فإذا كانت سوريا متخلّفة لأنها تدرّس بالعربية، ولكن أنت يا مصر ويا الجزائر وتونس، والمغرب، والعراق وليبيا والكويت وباكستان، والهند، ويا...، ويا... من تدرسون بالإنجليزية أو الفرنسية الأجنبية، وصلتكم؟، أين تقدّمكم هذا؟. هل هناك بلدٌ من هذه البلدان ينتج طائراته أو دباباته أو...؟ فكلّنا في العالم الثالث، رغم الإنجليزية في المشرق، والفرنسية في المغرب، فكلّنا إذن في الهمّ سواء أو كلّنا في التخلّف. إذن فكلٌّ من الفرنسية أو الإنجليزية لم تجعلنا نتقدّم على سوريا التي درست بالعربية، وبالتالي فالعبرة ليست في اللّغة بل بالإنسان، وإنّما اللّغة تضيف شيئاً إيجابياً عندما تكون اللّغة لغتك، تعطيك بعداً أكبر، واعتزازاً أكثر، وقوة لشخصيتك، وثقة في النفس أكثر، فهذا مكسبٌ وبعدٌ إضافي ﴿ (16).

المطلب الثاني:

السعي الحثيث لتأسيس الأصالة في اللغة

بعد أسلوب التهيئة النفسية الذي اعتمده مولود قاسم نابت بلقاسم لحمل العقول على تقبل الحوض في عملية إعادة الاعتبار والمكانة للغة القرآن، راح من جانب آخر يشرع مع كل من يحمل هم قضيته في تجسيدها واقعا، تحت تخطيط تدريجي أخذ ثلاثة عقود من الزمن، إلى أن قرب المشروع إلى التأسيس الذي لا يزول بزوال الرجال. وعن هذا التخطيط التدريجي يقول مولود قاسم: ﴿نحن قلنا نبتدى بالأشياء السهلة البسيطة نعرّبها منذ الآن، وتبقى المسائل الأخرى التي تحتاج إلى قدر من الوقت تنتظر تعريبها التدريجي المنهجي، وقلنا: الإستثمار عمل بكلّ جد، وحزم واستمرارية ومثابرة ومواصلة، على تجريدنا من هذا العنصر الأساسي من عناصر الشخصية الوطنية، واستعمل طرقاً جهنمية لخصتها في هذا الثالوث المشؤوم المسخ والنسخ والفسخ، وقلنا: إذا أردنا أن نمحو هذه المياسيم السلبية الثلاثة فلا بد لنا من ثلاثي آخر سمّيته ثلاثي الحزم والعزم والجزم- طبعاً مع المنهجية، ومع التوقيت، ومع التخطيط، ومع التدريجية-، ولكن لا بد من هذا الثلاثي الإيجابي نحو آثار ذلك الثلاثي السلبي﴾ (17).

راح مولود قاسم يستثمر جهود المدرسة الجزائرية منذ استعادة الاستقلال وكيف مهّدت الطريق للتأسيس الفعلي للأصالة اللغوية، وأنها جزء من هذا التخطيط بعيد المدى، والذي يرمي تدريجياً إلى تحجيف منابع اللغة الأجنبية على كافة الأصعدة خاصة منها التعليمية والإدارية، وتوسيع منابع التعريب ميداناً فميداناً إلى بلوغ السواد الأعظم الذي يسمح بتأسيس الانطلاقة العلمية والثقافية بلغة الأمة. فنجده يذكر مواصلة هذا العمل المشابر فيه منذ الاستقلال حتى سنة 1984- سنة نشر هذه الإحصائيات- فيقول: ﴿حسب الإحصائيات الرسمية لسنة 1984،

نجد أن أكثر من ثلثي الجزائريين قد ولدوا بعد 1962، وبالتالي فإنهم قد مروا على المدرسة الجزائرية، وهم قدرٌ معينٌ من معرفة لغتهم الوطنية. أما بالنسبة للشرائح العمرية التي مازالت قادرة على العمل، فما عليهم إلا أن يستمرروا في العمل باللّغة الأجنبية مع الاستعانة بمساعدتهم الأكثر شبابًا، والذين كانوا أوفر حظًا منهم، لكي ينقلوا إلى اللّغة العربية ما وجبت كتابته، وهؤلاء يشكلون أغلبيةً في كلّ مصالحنا سواءً حزب أو إدارة أو محيط» (18).

وفي موضعٍ آخر، يلّم الحوصلة التي وصل إليها المشروع وما تحقّق من العمل الأصلي في تبويء اللّغة العربية مكانتها، بإضافة ما قد تحقّق قبل استعادة الاستقلال، ليستعملها كورقة ضغطٍ نحو المشي إلى خطوةٍ أخرى من خطوات هذا المخطّط التدريجي وبعيد المدى وإتمام هذا المشروع لبنّة بعد لبنّة، ويستعملها كوسيلةٍ من وسائل تعريب قطاعٍ وراء قطاعٍ ليكتمل التأسيس للأصالية اللّغوية، فيقول: ﴿هناك الأرقام التي قدّمها أخيراً الأخ كمال بوشامة، عضو اللّجنة المركزية، وزير الشّبيبة والرياضة، حيث أن 76% من المواطنين هم من المولودين من بعد 1962. أي أن أكثر من ثلاثة أرباع الجزائريين الذين ولدوا بعد 1962 تعلّموا لغتهم الوطنية في المدرسة الجزائرية. وإذا ما أضفنا إليهم مَنْ هُم من مواليد سنة 1956، والذين دخلوا المدرسة الجزائرية سنة 1962، أي درسوا اللّغة الوطنية فيها، وأضفنا إليهم أيضاً الذين درسوا اللّغة الوطنية قبل سنة 1956، فتكون الأرقام الصّحيحة، البليغة تؤكّد كلّ التأكيد وتدلّ بكلّ وضوح على أن أغلبية الجزائريات والجزائريين الذين هم في الوظيف العمومي، يعرفون لغتهم الوطنية ويستطيعون العمل بها» (19).

ويظلّ مولود قاسم يدعو كلّ من في استطاعته المساهمة في هذا المشروع بعيد المدى، إلى أن يشارك بما يملك، ومن موقعه، في إنجاح العملية، وخاصةً المؤسّسة الإعلامية التي تصنع الرّأي العام ويماكنها بلورته حسبما ما تريد، فيوجّه إليها الخطاب قائلاً: ﴿فينبغي أن يساهم الجميع بالتنبيه بواسطة المقالات أو الهاتف أو الرّسائل إلى الهيئات المسؤولة المختلفة وأن القطاعات التي تنبّه، كثيراً ما تسمع التّنبهات. ويجب في هذا

الثّان أن تساعدونا أنتم كإعلام، في تطبيق البرنامج الوطني الذي وضعه كل قطاع حسب قدرته ولم نطلب منهم المستحيل ولا نطلبه وإنما نحقق العمل بالتدريج. ولكن التراجع لا نقبله أبداً لأنه خيانة، واكتبوها باسمي: إن التراجع خيانة ﴿(20)﴾.

ويظلّ، كذلك، مولود قاسم يُطمئن أولئك المتخوفين من هذا المشروع الذي يأكل مساحات لغة الفرنسية يوماً بعد يوم، أو أولئك الذين لم يفهموا أبعاد المشروع وأهدافه، فيقول: ﴿لأبد أن هناك سوء تفاهم، تعلّم وتعميم استعمال اللغة العربية لا يعني الاستغناء عن اللغات الأجنبية. العكس هو الصحيح. لكن اللغة الوطنية لأبد أن تكون لها الأولوية، ففي هذا العصر لأبد ولا مفرّ من تنويع تعليم اللغات﴾ (21). وأجرت معه صحيفة "الجزائر أحداث" حواراً صحفياً بتاريخ (3-9 جانفي 1985)، سألته فيه عن إمكانية إلغاء تكوين الصحفيين باللغة الأجنبية، وبالخصوص باللغة الفرنسية، فأدلى مولود قاسم بفكرته ونظرته في المسألة بوساطة ثاقبة بعيدة عن التعصّب، بل مُتَفَتِّحة وقريبة من متطلبات عصر العولمة القادم، دون تناسي من نكون ومن نمثل من الأمم على وجه الأرض. وكان نصّ الحوار في هذه المسألة كالتالي:

" الجزائر أحداث: "فأنتم إذن تؤيدون إلغاء هذا الفرع من الجامعة أين يكون الصحفيون بالفرنسية وأجل محدد؟".

مولود قاسم: ﴿في أجل محدد، كلّ شيء نسبي، ولكن مستقبلاً عندما يصل مستوانا إلى المستوى الدولي، أو المعيار الدولي، ونصبح كباقي البشر، لماذا يكون لدينا صحف بالفرنسية وحدها؟، عندها يكون علينا أن ننوع وننشر صحفاً باليابانية على سبيل المثال أو الصينية أو الروسية، إلخ﴾ (22). ثمّ أردف على ذلك منبهاً إلى دور الصحافة الفرنسية الهام والذي يجب أن تلعبه وتقوم به على أحسن وجه، بقوله: ﴿ولكن لا ينبغي أن نخدع أنفسنا، لأنه مازال هناك مغزبوننا وجيل آخر من الجزائريين هنا عندنا لا يعرفون قراءة اللغة الوطنية، وهم من الكبر بحيث يصعب عليهم استعمالها بطريقة صحيحة، وزيادة على ذلك فهناك المحيط الإفريقي، الذي مازال "فرنكوفونيا" حيث ينبغي علينا أن

نكون حاضرين. والصحافة حضور، وما أدراك ما هو حضور الصحافة، بالإضافة طبعاً إلى الدور الذي تلعبه هذه الصحافة في التعريف بمواقفنا في الخارج. إلا أن هذا كله يبقى مؤقتاً» (22).

في هذه المرحلة من السعي الحثيث لتأسيس الأصالية في اللغة، والتي بدأها سرّياً - إن صحّ التعبير - بمشروع التعليم الأصلي منذ سنة 1970، ثم انتقل إلى المرحلة الجماهيرية من سنة 1984 كعضو في اللجنة المركزية وأمانتها الدائمة في جبهة التحرير الوطني مكلفاً بالجلس الأعلى للغة الوطنية، فإن مولود قاسم قد بذل كل ما في وسعه لأجل أن يؤسس هذه الأصالية بمؤسسات انتهت بمجمع للغة العربية ومرّت بمراحل تعريب التعليم ومحاولة تعريب الجامعة وتعميم العربية على الإدارة في مختلف اختصاصاتها. فكان من بين ما سطره في هذا الميدان، قضية المتابعة الميدانية لعملية تعريب الإدارة، إذ يقول عليها: ﴿في السنوات الأولى، في 1984، و 1985، و 1986، حيث كُنّا نعقد ندوات مكثفة، ففي سنة 1984 عقدناها في سائر الولايات القديمة، وفي 1985 عقدناها في الولايات الجديدة، وفي سنة 1986 عقدناها في الأجهزة المركزية كالوزارات، والمجلس الشعبي الوطني والأمانة الدائمة... الخ.

وضعنا لها - أي الندوات - برامج، وشرحنا شروحاً موسعة وبتجارب ومقارنات مع فيتنام، وكوريا، وإسرائيل، وإيران، وسوريا، و...، و... ومقارنات مع ألمانيا وروسيا والصين وفرنسا ونحوها، وأتينا بأمثلة من هنا وهناك من التاريخ. والآن بعد أن دخلنا مرحلة البرنامج المزدوج كما أشرنا إليه من قبل، قرّرنا أن نكتفي بالمتابعة الميدانية، فنضع البرنامج السنوي في بداية العام مع القطاعات المعنية، ولاسيما الأجهزة المركزية، ولكن أيضاً حتى مع بعض الولايات، حيث اتخذنا بادرة الندوة من نفسها، وذهبنا إليها، واجتمعنا معها» (24).

ويذكر في موضع آخر جانباً من هذا التنظيم والتخطيط الذي يهتم بتعريب الإدارة التي تعتبر ثاني القطاعات المتصلة بالمواطن اتصالاً وثيقاً بعد قطاع المدرسة والتعليم، فيقول: ﴿منذ أنشئ المجلس الأعلى للغة العربية منذ سنوات والبرامج توضع، ولكن كانت متروكة للقطاعات القاعدية أي الولايات وللقطاعات

المركزية أي الوزارات، وخاصة الأجهزة التنفيذية في الحزب وفي الإدارة، تُرك لها ذلك لتضع البرامج حسب طاقتها، ولكن ابتداءً من سنة 1987، أصبح يوضع برنامج سنوي مضبوط بوثاقه، فضلاً عن تحديد المراحل للبرنامج العام الدقيق جداً ﴿(25)﴾.

كان مولود قاسم، كثاني مسؤولٍ عن مشروع التعريب بعد رئيس الجمهورية، يردّد أقسام البرنامج هذا وأعمدته، وهو يشير إلى تعريب المؤسسات واحدة تلو الأخرى، مركزاً على ثلاثة أمورٍ يراها مهمةً لتقوم لهذا المشروع قائمة، فيقول: ﴿قلنا للإخوة في جميع المؤسسات وفي الندوة الوطنية، أنّ وسائل تعميم استعمال اللغة الوطنية هي ثلاث لا غير: الأولى هي الإرادة السياسية، الثانية معرفة اللغة الوطنية، والثالثة هي العناد المادي الضّروري﴾ (26).

وعن هذا العناد المادي الضّروري سئل مولود قاسم مرةً من طرف جريدة "الجزائر أحداث" بتاريخ (3-9-1985)، وكان السؤال هو الآتي: "هل تعلمون أيضاً أنّ الكتب التقنية وكتب الثقافة العامة تكاد تكون مفقودة تماماً في السوق؟، والكتب الوحيدة الموجودة هي الكتب الدينية؟". فكان جوابه هو الآتي: ﴿الكتب التقنية موجودة، فمنذ مدة قصيرة في شهر جويلية الماضي تم تنظيم معرض الكتاب العربي التقني، والعلمي، بالتعاون مع وزارة التعليم العالي وبعض الدول العربية، وهذه الكتب تُطبع حتى في الولايات المتحدة وبالعربية. وهي تعالج آخر التقنيات العلمية، ومتوفرة في السوق الدولية. فهي إذن موجودة، وإذا لم نجدّها فالغلطة غلطتنا، غلطة الجزائريين. وكذلك الكتب الخاصة بالثقافة العامة موجودة وبكثرة﴾ (27).

أمّا عن تعريب الجامعة الجزائرية بكل فروعها، والذي كان من بين انشغالات مولود قاسم الكبرى، فإنّه قد أجرت له مجلة "الجمهورية" لـ: 2 جويلية 1989، حواراً سأله فيه بالسؤال التالي: "هل يمكن أن نوفر الإطار البشري كالأساتذة، خاصةً في الجانب العلمي، لأنّه المشكل الذي يتهيبه البعض؟"، فكان جواب مولود قاسم هو الآتي: ﴿إنّ إخواننا الأساتذة في الجامعات عندنا يقولون أنّ الإمكانيات موجودة لدينا لتعريب السنة

الأولى وفي أسوأ الأحوال نستورد عددًا من الأساتذة من المشرق. وأشير إلى وزير التعليم العالي السوري، كان أخيراً هنا في زيارة للجزائر وواعد بتزويدنا بالأساتذة في المجالات العلمية وقد استقبلته، وأكد فعلاً، مع العلم أن سوريا عرّبت كل شيء في جامعاتها منذ سنوات طويلة.

وفي أسوأ الأحوال نكتفي بأساتذتنا وكفاءتنا حتى ولو لم نعرّب السنّة الأولى الجامعية كلّها في الوطن، ولكن على الأقلّ تعريبها في بعض الجامعات، والأخرى تسير كما سرنا بذلك التعريب الذي سمي "التعريب الأفقي" في المدرسة الأساسية الذي بدأ جزئياً وتدرجياً حتى وصل مستواه اليوم. أما أن نبقي فقط نتعلّل بأننا لا نستطيع لأنه ليس لدينا إمكانيات، فإننا لن نستطيع أبداً، لأن هذا فاتح نوفمبر تماماً، لأن أبطالنا لو انتظروا حتى يمتلكوا الدبّابات والطائرات والرشاشات... لما كان نوفمبر، ولما استرجعنا الاستقلال، إذن فلا بُدَّ من البدء ولو جزئياً (28). وهو قد مزج بين مسألة العتاد المادي الضّروري وبين الإرادة السياسية التي يجب أن تصحب أيّ تقدّم في أيّة عملية بعث، وقد تبنّى مقولة وتولّاهما في هذا الميدان أن مسيرة الألف ميل تبدأ بأول خطوة. ثمّ يؤكّد مولود قاسم ويذكر بضرورة انتهاج الصبر لمواصلة المضيّ على خطوات أيّ برنامج من البرامج، ويضرب لذلك مثلاً على التعليم العالي وما يحدث فيه من خطوات جادة للوصول إلى جامعةٍ معرّبة تعريباً كاملاً، الجامعة الإنسانية والجامعة العلمية على السواء، فيقول:

﴿ في التعليم كانت لدينا "الليسانس" في العلوم بجامعة باب الزّوار كاملة التعريب، أي جميع الفروع معرّبة من طبيعة وكيمياء وفيزياء، الخ. وقد وظّفت شخصياً شاباً في السبعينات عندما كنتُ أولى وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيّة بليسانس العلوم المعرّبة، لقد كانت الليسانس في العلوم معرّبة ويُضاف إلى الدراسة باللّغة العربية مستوى معيّن في اللغتين الفرنسية والإنجليزية، وإذا بهذا يُلغى ويُنقل بطريقة ما، بحيلة وبالتواء وبمراوغة وبخداع ومكرٍ إلى مدرسة تكوين الأساتذة في القُبة.

لماذا لا يَبقى في الكُلية لتخريج الأساتذة؟، فإذا كنّا جادّين فلا بُدَّ أن يكون التعليم العلمي في الجامعات مُعرباً لتخريج أساتذة بالليسانس والدكتوراه ودكتوراه الدولة مع التوسّع في تعليم اللّغات

الأجنبية، بحيث نضم إلى الفرنسية الإنجليزية واليابانية والروسية والألمانية والأسبانية والإيطالية أو البرتيقيزية كما كان يقال، والصينية التي هي لغة الغد القريب، فإذن لا بُدَّ من وضع اللّغة الفرنسية على نفس المستوى بالنسبة للّغات الأجنبية الأخرى وترك مجال الاختيار واسعاً أمام الشباب، فلا تكون هناك محظوظة للّغة الفرنسية» (29).

أما الوصول إلى مرحلة دبلجة أو ترجمة المنتج السّميّ البصري المستورد، والذي يُبثّ في التلفزيون وبالتالي فإنّه يصنع الثقافة الجماهيرية ويوجهها ويشارك في حياة النَّاس بقسطٍ هائلٍ من قوتهم وتفكيرهم، فإنّ مولود قاسم يقول: ﴿كلّ ما نطلبه هو الدبلجة الكتابية، فالأمر في نظري لا يتعلّق إطلاقاً بمنافسة عمالقة» هولي وود" في هذا الميدان ويجب أن نبدأ في الإنتاج بلغتنا والدبلجة الكتابية لكّل ما نراه جيّداً مما ينتج في الخارج. كما يجب علينا أن نُكوّن ممثّلين قديرين من أجل الدبلجة، والعيب ليس في اللّغة وإنّما فيمن يتحدّثونها» (30).

وكان مولود قاسم في كلّ هذه الخطوات المعتمدة على الأعمدة الثلاث: الإرادة السياسية ومعرفة اللّغة الوطنية وإيجاد العنّاد المادّي الضّروري، كان شديد الثّقة في أنّ هذا البرنامج سيلقى النّجاح والتّويج بالتّأسيس الأصلي في مسألة اللّغة التي هي بعدّها همّ من أبعاد الشّخصيّة والإنّيّة، وقالباً ضرورياً لها، فكان أن قد كتب عن هذه الثّقة باندفاع ينكسر بعد مرور الزّمن وكثرة العقبات والمخن، إذ يقول: ﴿إنّ اندفاع سياسة التعريب بشكلٍ مذهل وإقبال الجميع على إتقان العربية لما يجعلنا في غاية التّفاؤل بشأن نجاح جهودها المستمرة. لقد اندحرت كل الحجج التي زعمت أنّ العربية غير قادرة على ملاحقة العصر وإنجازاته العلمية. لقد كانت هذه اللّغة في القرون الوسطى حتّى بداية «النهضة» هي لغة العلم في جميع أنحاء العالم، أو على الأقلّ في حوض البحر الأبيض حتّى حدود الشّمال الأوروبي. وتستطيع اليوم بمخصائنها الذّاتيّة أن تكون إحدى اللّغات العلمية على مستوى العالم بأسره» (31). ولكن سرعان ما تهاوت وخبا نور هذه الثّقة

بمرور الزمن وكثرة الإحن، على هذا المشروع الأصالي، وسياتي المطلب القادم من البحث ليظهر مصابرة ومكابدة

مولود قاسم لإكمال هذا المشروع الصّخيم إلى آخر أنفاسه في الحياة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثالث:

المصابرة والمكابدة في مواصلة الأصالية في اللغة

سارت مساعي مولود قاسم نابت بلقاسم على أحسن ما يُرام في مسألة التأسيس للأصالية في اللغة لتحقيق الإنيَّة الثقافية، من بداية الثمانينات إلى غاية سنة 1989، سنة بداية التحوّلات السياسية الكبرى في الجزائر، حيثُ أسنِدت مسؤولية المجلس الأعلى للغة العربية إلى مؤسسة رئاسة الجمهورية بحكم التعددية السياسية وسلب جبهة التحرير الوطني حقها في الإشراف على مثل هذه المؤسسات التي تُكوّن الدولة.

وبدا التراجع عن مشاريع التعريب في كثير من مجالات الحياة العامة، أُسْتُهْل بالتراجع عن تعريب السنة الأولى الجامعية في العلوم الدقيقة على مستوى الوطن، ثمّ بتأجيل تعريب الإدارة نهائياً إلى أجل غير محدود، ثمّ بإتلاف مشروع المجمع الجزائري للغة العربية الذي قد تمّ اعتماده مشروعاً من طرف المجلس الشعبي الوطني في إحدى دوراته لسنة 1986. وقد كان مولود قاسم يرمى هذه المشاريع من موقعه الهامّ في حزب جبهة تحرير الوطني كعضو في اللجنة المركزية ولجنتها الدائمة، ولكنه حُجِبَ عن كلّ ما يتعلّق بالتعريب بعد أن أسنِدت المهام إلى مؤسسة رئاسة الجمهورية و عن موضوع المجمع الجزائري للغة العربية الذي كان مولود قاسم قد بنى عليه آمالاً كبيرة وخطيرة ليحتلّ مكانته المرجعية في قضية تعريب العلوم خاصّةً وتكوين الإجماع النخبوي حول مصطلحات التعريب، والذي اغتيل في مهده بالرغم من بوادر الحياة التي عرفها كفكرة ثمّ كمشروع ثمّ كشبه تجسيد لم يذق طعم الحياة، فإنّ مولود قاسم يحكي قصّة هذا المجمع من أوّلها ويقول: ﴿ المجمع الجزائري للغة العربية هو أوّل نوفمبر ثانٍ كما سمّيته في المجلس الشعبي الوطني بعد التصويت بالإجماع على القانون الذي أنشأ هذا المجمع ... نعود به من الحو والدوبان والمسح والنسخ والفسخ إلى الذاتيّة، إلى أن نكون أنفسنا.

هذا المجمع تكلم عنه السيد الرئيس بصفة جازمة في إشرافه على الاجتماع الأول للمجلس الأعلى للغة العربية يوم 15 ديسمبر 1984، ثم صادقت عليه اللجنة المركزية وبدأنا بالتدابير (32).

ثم يذكر هذه التدابير التي بدأ في اتخاذها شخصياً، ويقول: ﴿إتصلنا بالجامع العربية الشقيقة الأربعة، واتصلنا بمجامع أوروبية عديدة في الغرب والشرق وتحصلتاً على نصوصها الأساسية وتنظيماتها... الخ، فمن الدول العربية جاءتنا هذه النصوص من الجامع العربية الأربعة: مجمع اللغة العربية في سوريا، مجمع اللغة العربية في القاهرة، المجمع العلمي العراقي، مجمع اللغة العربية الأردني، ثم الأكاديمية الفرنسية والمجمع البريطاني فالمجمع السويدي والألماني... واستفدنا من تجاربها وأخذنا منها ما يليق بحالنا... حسب إمكاناتنا وطاقاتنا والتطور الذي مررنا به (33).

وكان مولود قاسم ثاقب النظر في مسألة استفادته من تجارب الأمم الأخرى في هذا المجال الخطير من البناء الحضاري ولو كانت ألماً غير عربية وليس لها صلة بالموضوع مباشرة، فهو يتطرق إلى هذا الموضوع ويقول: ﴿وكما استفاد العالم من تجارب أسلافنا، والجزائر قد سبق لها أن ضربت بسهم وافر في الحضارة العربية الإسلامية، وبالتالي في إثراء البشرية عموماً فعلينا نحن أن نستفيد من تجارب الغير اليوم في مسيرتنا الجديدة. وقبل قيام هذا المجمع العلمي الجزائري للغة العربية بدوره، وبالتنسيق والتعاون مع الجامع العلمية العربية المماثلة، فالمجلس الأعلى للغة الوطنية، سيبدأ قريباً بتكوين لجان متخصصة لوضع الاصطلاحات التقنية والإدارية، في حالة عدم وجودها حاضراً في العالم العربي، ونستفيد في ذلك من تجارب الجميع، لمختلف القطاعات التنموية من إدارة وتكنولوجية وفنون... الخ (34).

وعلق مولود قاسم على هذا المجمع وإنشائه آمالاً كبرى، وحاول بكل ما أوتي من قوة نفوذ داخل هرم السلطة أن يصنع له قدرًا سعيداً ينتهي بالتجسيد الفعلي والفعال في الحياة العامة ليكون النواة لكل الأعمال التي تصب في مشروع إيجاد الأصالية في اللغة في مشروع المجمع الجزائري المرجو، فصرح يقول: ﴿والمجمع هو تحت الوصاية والعناية السياسية المباشرة للسيد رئيس الجمهورية نفسه. ثم أرسل وفد مشترك بين المجلس الأعلى

وزارة التعمير والبناء إلى مجعبي اللغة العربية في الأردن ومصر. وقد أعجبوا هناك بتصميم مجمعنا فأروه أكمل وأوسع وأشمل بما يتوفر على مرافق وأجهزة ومن الشكل الهندسي المعماري والوظيفي، وحتى الموقع الذي اختاره السيد رئيس الجمهورية بنفسه وألح عليه لروعته فعلاً لأنه بوسط البلاد ويقع بالحامة وسط مجمع من المعالم الحضارية التي ستبنى بجواره. وستنطلق أشغال بنائه قريباً جداً بعد أن تمت كل الترتيبات اللازمة كما أنه عما قريب جداً أيضاً سيعين له مقر مؤقت لتنطلق نشاطاته، وأنه بمجرد تنصيب نواته الأولى الأعضاء الخمسة الأولين سينضم إلى اتحاد المجامع اللغوية العربية ﴿35﴾.

ولكنه، وبعد التحويلات السياسية الكبرى التي حدثت بعد أحداث أكتوبر سنة 1988، وما أفضته من تعددية حزبية وسياسية، ثم إبعاد التيار الوطني الإسلامي- الذي كان ينتمي إليه مولود قاسم- من مراكز النفوذ داخل السلطة، بدأ تراجع خطى هذا المشروع المتمثل في المجمع الجزائري للغة العربية، فصرح مولود قاسم يقول: ﴿إن كل ما أنجز في مجال تعميم استعمال اللغة العربية ذهب أدراج الريح، وكل النصوص والوثائق الخاصة بهذه العملية وضعت في الأدراج ومحيت... وكذلك قانون إنشاء المجمع الجزائري للغة العربية صدر وفصل في جميع التفاصيل من هياكل وميزانية التي هي موجودة في إطار ميزانية تسيير رئاسة الجمهورية، الوصية والمشرقة على هذا المجمع.

مع ذلك لم يظهر هذا المجمع إلى الوجود لسبب أن الإيمان بهذه القضية مفقود وغير موجود على المستويات العليا من الدولة، حزب (جبهة التحرير الوطني) والحكومة، والرئاسة، أما بقية الأحزاب التي نشأت فيما بعد باستثناء البعض القليل منها، فحدث ولا حرج فهي ضد استعمال اللغة العربية على طول وتنادي جهراً علنية للغة الفرنسية ﴿36﴾.

بل وذهب مولود قاسم إلى أبعد من ذلك، إلى أن ربط هذا الفشل والتحطيم للمنجزات بأسماء أشخاص حملهم المسؤولية التاريخية العظيمة تبرئة لدمته أمام الله ثم أمام التاريخ وأمام الأجيال القادمة من الشعب الجزائري،

فصرّح قائلاً: ﴿إِنَّ المشروع القائم بهياكله ووثائقه وميزانيته دفن إلى الأبد وأوراقه موجودة حاليًا في الأدرج، وآخر من دفنه السيد عبد الحميد مهري ومولود حمروش!﴾ (37).

أما عن الفشل في مشروع تعريب الجامعة العلميّة والتقنيّة الذي بدأ منذ زمن بعيد في التخطيط لتعريبها منذ منتصف السبعينات، فإنّ مولود قاسم وقف مندهشًا أمام التراجع الهائل والمخيف في هذا المجال الذي كان كذلك يعلّق عليه أمالاً كبيرة، فصرّح مجلّة "الجمهورية" بتاريخ 1985/07/13، قائلاً: ﴿ولكن الجانب السّلي هي التجربة التي بدأناها ونجحت في تعريب العلوم الدّقيقة بجامعة باب الزّوار، ثمّ تراجعنا عنها فيما بعد ولست أدري لماذا. هذه النّقطة أثرتنا كمّ من مرّة والأخ وزير التعليم العالي ومساعدوه متفهّمون جدًّا لهذا الموضوع و نرجوا أن يخطّوا خطوات إيجابية في هذا المجال، لنعود إلى استئناف مسيرتنا في تعريب العلوم باب الزّوار، وإلّا سنبقى دائمًا عالّة على البلدان الشّقيقة أو سنبقى ندرسها باللّغة الفرنسيّة وهذا وضع غير طبيعي﴾ (38).

ثمّ يقول متألّمًا بما وصل إليه الوضع في هذا المجال من تردّد وتراجع، في موضعٍ آخر: ﴿في التعليم كانت لدينا «الليسانس» في العلوم بجامعة باب الزّوار كاملة التّعريب، أي جميع الفروع معرّبة من طبيعة وكيمياء وفيزياء، الخ. وقد وظّفت شخصيًا شابًا في السّبعينات عندما كنتُ أوّلَى وزارة التّعليم الأصلي والشؤون الدّينيّة بليسانس العلوم المعرّبة، لقد كانت الليسانس في العلوم معرّبة ويضاف إلى الدّراسة باللّغة العربيّة مستوى معيّن في اللغتين الفرنسيّة والإنجليزيّة، وإذا بهذا يُلغى ويُنقل بطريقةٍ ما، بجيلة وبالتواء ومراوغة وبخداع ومكسرٍ إلى مدرسة تكوين الأساتذة في القبة. لماذا لا يبقَى في الكليّة لتخريج الأساتذة؟، فإذا كنّا جادّين فلا بُدَّ أن يكون التّعليم العلمي في الجامعات معرّبًا لتخريج أساتذة بالليسانس والدكتوراه ودكتوراه الدولة مع التّوسّع في تعليم اللّغات الأجنبيّة، بحيث نضمّ إلى الفرنسيّة الإنجليزيّة واليابانيّة والروسية والألمانيّة والأسبانيّة والإيطاليّة أو البرتيقيزية كما كان يقال، والصّينيّة التي هي لغة الغد القريب، فياذن لأبَدٍ من وضع اللّغة الفرنسيّة على نفس

المستوى بالنسبة للغات الأجنبية الأخرى وترك مجال الاختيار واسعاً أمام الشباب، فلا تكون هناك محظوظة للغّة الفرنسية» (39).

أما عن الراجع العام في تعريب الإدارة بمختلف فروعها، فإن مولود قاسم يحكي عن الفشل الفظيع في هذا الميدان، والذي أرجعه لعدة أسباب، فيقول: ﴿ لكن الشيء المثير أنه عندما كان هناك ضغط من رئاسة الجمهورية وكان يجب تقديم تقريرها السنوي حول عملية تعريب الإدارة بحضور كل المسؤولين وأعضاء الحكومة، وكان يشرف عليها رئيس الدولة نفسه... عندها كان المسؤولون والوزراء يتخوفون إلى حد ما، وكانوا يطبقون نوعاً ما بعض الأمور... حتى ذهب الكثير من هؤلاء المسؤولين ليقولوا لي ذات مرة عندما كانت تُجمع التقارير وتناقش "يا سي مولود، إنك نزعت عنا السرّوال وفضحتنا... فأنت صديقنا وأخونا..."، نعم وزراء كانوا يقولون هذا الكلام وبعضهم أعضاء في المكتب السياسي... لكن مع الأسف بعد ذلك حصل هذا التراجع الملحوظ حاليًا على جميع المستويات. والشيء الآخر الذي لأبداً أن نقوله بعد هذه الخلفيات، وفيما يخصّ قانون تعميم استعمال اللّغة العربية الذي من المفروض أن يبدأ تطبيقه في 5 جويلية 92، فإنّ كلّ المؤشرات والمهّدات تدلّ على أنه لن يُطبّق مادام الأساس الذي كان عليه قد هُدم... كلّ ما أنجزناه إلى حدّ الآن هُدم من أساسه... إذن كيف سنعمل؟ هل ننتقل من جديد... من الصّففر، ونخرّب بالليل ما بيناه في النهار؟» (40).

والسبب الأساسي الذي يراه مولود قاسم وراء هذا التراجع في مسألة التعريب الشامل هو عدم الإيمان بهذه القضية، إيماناً يصل إلى التضحّي من أجل التواجد الحضاري، فيقول: ﴿ فهذه إذن محاولة للتهرّب والرجوع إلى الوراء انطلاقاً من نفس التّخوف والعقدة، وتكليف المتخرّجين من المراكز الإدارية بالعمل باللّغة الأجنبية حتّى في أبسط الأشياء يعود إلى هذا السبب الرجوع إلى الوراء. لأننا حينما نقول لهم: نسير بخطى وثيدة شيئاً فشيئاً، وأن مسيرة الألف خطوة. كما يقول الصينيون. تبدأ بخطوة، يقولون

إذا كانت هذه الخطوة الأولى تصل إلى الألف خطوة، فلا نريد هذه الخطوة الأولى، فهذا هو السبب، وهذا هو رأيهم ﴿(41)﴾. أما السبب الحقيقي والذي لم يُرد مولود قاسم أن يُصرِّح به أمام الصحافة في خِصْمٍ ما كان يحدث بالجزائر في بداية السبعينات من هذا القرن، أملاً في أن يستحث بعض المهتم لتكاتف من حول المشروع و تبعته من جديد، فإنه ضمنه السؤال الذي وجهته له مجلة "الجمهورية" من قبل تفاعم الأحداث، ولم يُرد مولود قاسم أن يخلط الأوراق في إجابته عن ذلك السؤال طمعاً في عدم استفزاز بعض سلطات ومراكز النفوذ والقرار في البلاد حفاظاً على المنجزات التي تحققت إلى ذلك الوقت، فدار الحوار الآتي:

السؤال: الجمهورية: ألا توجد هناك بعض منظّمات سرّية أو تيار و خيوط تبثّ الأفكار الفرانكفونية و لغتها بطريقة غير مباشرة؟.

ج. مولود قاسم: لا، إنّ هذا الأمر سيكون خطيراً لأنه اتهامٌ للمسؤولين بالتشابك مع الخارج، لا أذهب إلى هذا ولكنني أقول فقط: تبعية ذهنية، عقلية، روحية نفسية لم يحطّموا جدار الصمت، لأنّ الإستعمار خرج من البلاد والأرض ولكنّه لم يخرج من الأذهان لأنّه عشش في الأبخاخ، واستحكم في النفوس وترك مركّبات للأسف تجعلنا نسير مثل "الروبوات" تتحكّم فينا وتوجّهنا، هذا هو السبب ﴿(42)﴾.

ولعلّ التاريخ الآن، يعيد طرح نفس السؤال الذي طرحته مجلة "الجمهورية"، وبحدّة أكبر، ولا ندري كيف سيكون جواب مولود قاسم عليه لو كُتِب له أن يعيش إلى أيامنا هذه.

الهوامش:

- (1) مولود قاسم نايث بلقاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، المقدمة، ص 68.
- (2) مولود قاسم نايث بلقاسم، المصدر السابق، ص 24.
- (3) مولود قاسم نايث بلقاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، الجزء الثاني، ص 79.
- (4) مولود قاسم نايث بلقاسم، "إنيّة وأصالة"، ص 51.
- (5) مولود قاسم نايث بلقاسم، "إنيّة وأصالة"، ص 50/49.
- (6) مولود قاسم نايث بلقاسم، عن د/أحمد بن نعمان، "مولود قاسم نايث بلقاسم رمز كفاح أمة"، ص 135.
- (7) مولود قاسم نايث بلقاسم، عن المصدر السابق، ص 135/134.
- (8) مولود قاسم نايث بلقاسم، "إنيّة وأصالة"، ص 184.
- (9) مولود قاسم نايث بلقاسم، "إنيّة وأصالة"، ص 31/30.
- (10) مولود قاسم نايث بلقاسم، المصدر السابق، ص 79/78.
- (11) مولود قاسم نايث بلقاسم، نفس المصدر، ص 81/80.
- (12) مولود قاسم نايث بلقاسم، عن د/أحمد بن نعمان، "مولود قاسم نايث بلقاسم رمز كفاح أمة"، ص 200.
- (13) مولود قاسم نايث بلقاسم، المصدر السابق، ص 169.
- (14) مولود قاسم نايث بلقاسم، "إنيّة وأصالة"، ص 186.
- (15) مولود قاسم نايث بلقاسم، عن د/أحمد بن نعمان، "مولود قاسم نايث بلقاسم رمز كفاح أمة"، ص 181.
- (16) مولود قاسم نايث بلقاسم، عن المصدر السابق، ص 220/219.
- (17) مولود قاسم نايث بلقاسم، عن نفس المصدر، ص 165.

- (18) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص126.
- (19) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/أحمد بن نعمان، "مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة"، ص179.
- (20) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص216.
- (21) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص132.
- (22) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/أحمد بن نعمان، "مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة"، ص131/132.
- (23) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص132.
- (24) مولود قاسم نایت بلقاسم، نفس المصدر، ص214.
- (25) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/أحمد بن نعمان، "مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة"، ص215.
- (26) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص178.
- (27) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/أحمد بن نعمان، "مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة"، ص133.
- (28) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص218.
- (29) مولود قاسم نایت بلقاسم، نفس المصدر، ص202.
- (30) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/أحمد بن نعمان، "مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة"، ص215.
- (31) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم إنفضالية؟"، الجزء الثاني، ص260.
- (32) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/أحمد بن نعمان، "مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة"، بتصرف.
- (33) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص204/203.
- (34) مولود قاسم نایت بلقاسم، نفس المصدر، ص184.
- (35) مولود قاسم نایت بلقاسم، نفس المصدر، ص217.
- (36) مولود قاسم نایت بلقاسم، نفس المصدر، ص241.
- (37) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن سليم شيخاوي، جريدة "المساء" بتاريخ 19 أبريل 1992، عن د/أحمد بن نعمان، "مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة"، ص238.

(38) مولود قاسم نايث بلقاسم، عن عبد الحميد عبيدي، مجلة "الجمهورية" ل:13/07/1985، عن د/أحمد بن نعمان،

"مولود قاسم نايث بلقاسم رمز كفاح أمة"، ص165.

(39) مولود قاسم نايث بلقاسم، عن د/أحمد بن نعمان، "مولود قاسم نايث بلقاسم رمز كفاح أمة"، ص202.

(40) مولود قاسم نايث بلقاسم، المصدر السابق، ص240.

(41) مولود قاسم نايث بلقاسم، نفس المصدر، ص213.

(42) مولود قاسم نايث بلقاسم، نفس المصدر، ص211.

الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الرابع:

تَوْظِيفُ الْقَوْمِيَّةِ

تمهيد:

قد تعني القومية من لفظها، الإحساس والتعبير عن هذا الإحساس بالانتساب إلى قوم من الأقوام دون آخرين. وقد يُعبر البعض عن القومية بالوطنية، ويعبر عنها البعض الآخر بالعصبية. وإذا ما أخذنا هذا المفهوم العام والشائع للقومية فإننا نجد أن مولود قاسم نابت بلقاسم - رحمه الله - وظف هذه الصيغة للتعبير عن التمسك بالوطن والأرض والتاريخ واللغة والقوم، وجعلها ترجمة فعلية للإنية والأصالية في أعلى صورها وتجسيداتها، إذ يقول في معرض تناول موضوعي الأصالية والانفصالية ما نصه: ﴿إِذَا لَمْ يَكُنْ لَدَيْكَ اسْتِعْدَادٌ، إِذَا مَا نَالَ مَنَالٌ مِنْ رَكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ شَخْصِيَّتِكَ، وَمَكُونٍ مِنْ مَكُونَاتِ ذَاتِيَّتِكَ، وَعَنْصَرٍ مِنْ عُنَاصِرِ إِيَّتِكَ وَأَصَالَتِكَ، أَوْ لِحَقِّ مَسَاسٍ بِاسْمِ بَلَدِكَ، مَوْلِدِ أَبِيكَ وَوَلَدِكَ، وَلَمْ تُثِرْ إِنْسَانِيَّتِكَ أَوْ آدَمُكَ، وَلَمْ يَسْتَنْكَرْ عَقْلُكَ وَيُفْرَ دَمُكَ، وَلَمْ يُجَنِّدِ الْعَقْلَ وَالرُّوحَ إِذْ يَغْلِي، وَلَمْ يَتَمَلَّكِهِ الْغَضَبُ الْمَشْرُوعَ لِيَمْلِي، فَأَنْتَ لَيْسَ لَكَ إِذْنٌ مِنْ آدَمِ حَظٍّ، وَأَنْتَ إِذْنٌ لِحَيَوَانَ فِظٍّ، غَلِيظِ الْقَلْبِ وَالسَّلْبِيِّ الْأَنْأَنِ، وَلَسْتَ مِنَ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ! وَكُنْ مُتَأَكِّدًا فِي هَذَا الْحَالِ أَنَّكَ انْفِصَالِي، وَلَا يَحِقُّ الْقَوْلَ أَنَّكَ أَصَالِي! فَأَنْتَ قَدْ اخْتَرْتَ الْأَنْفِصَالِيَّةَ، وَنَبَذْتَ مَا يَتَّصِلُ بِالْأَصَالِيَّةِ﴾ (1).

بل أكثر من ذلك، أنه وصم بالحيانة كل من كان باستطاعته الانتساب قولاً وعملاً إلى قومه وإيئته ولم يفعل، إذ يقول بعد ذلك وفي نفس السياق تقريباً: ﴿لَقَدْ قَالَ جَمَالُ الدِّينِ الْأَفْغَانِيِّ وَمُحَمَّدُ عَبْدُهُ أَنَّ الْخَائِنَ لَيْسَ فَقَطْ

الذي يبيع وطنه، وإنما هو ذلك الذي في استطاعته أن يفعل شيئاً لصالحه ولم يفعله! ﴿ (2). وقد عبر مولود قاسم عن أمثال أولئك الذين لا يشعرون بالقومية والوطنية والمسؤولية لحمل الإنيَّة وترجمتها واقعاً أملاً في بناء حضاري أصالي، أنهم يعيشون حياة جافَّة خالية من الرُّوح والإحساس، بل أنهم لا يعيشون الحياة أصلاً، إذ يقول: ﴿أما عن الحياة الروحية، فكم من عائشٍ غير حيٍّ يأكل ويشرب ويمشي في الأسواق، شهيراً أو نكرة بين قطارات الجواميس والأنواق، وهو أموتٌ من جيفة في قاع واد، وإن عدَّ خطأ طوداً من الأطواد، أو في أعماق خندق أو سرداب، لأنه لم يأخذ من القيم بالأهداب، وحتى لو حمل أسفاراً فكأيّ داب!.

وكم هم الرّاقدون فوق التّراب، يمجّهم المجتمع الحقّ كما تمجّ الطيور الغراب، بالأمس واليوم وغداً، لأنهم لا ينتظرُ منهم من ندى، ولا لحياتهم ومماتهم من صدى، ويعيشون لأنفسهم وكأن قد طواهم الرّدى! ﴿ (3).

ولكنّ توظيفنا لكلمة القومية هنا يختلف تماماً عن المعنى السائد لهذه الكلمة الذي أسلفنا ذكره، بل نعني به مباشرة مسألة اللّغة، ولكن بطرح غير طرح المبحث الذي سبق فيه توظيف مولود قاسم لقالب اللّغة العربية الفصحى في مسألة الإنيَّة وفي موضوع البناء الحضاري الأصالي.

إنّ تطرّق مولود قاسم لمسألة اللّغة ليس هو بعينه تطرّقه للقومية وكلامه عنها. فإذا ما تكلم عن اللّغة خصوصاً فهيناً من ذلك أنه يقصد اللّغة العربية الفصحى، لغة القرآن الكريم، ولغة الخطاب العلمي والحضاري مع باقي الأمم الإسلامية. أمّا إذا تطرّق إلى موضوع اللّغة عموماً فإنّه تختلف مقاصده من وراء ذلك، فقد يقصد اللّغة العربية، وقد يقصد غيرها. وإذا ما قلنا غيرَها فلا يخرج الأمر على أن تكون هي اللّغة الأمازيغية بمختلف لهجاتها واستعمالاتها الإقليمية. وهذا ما يفهم من سياق كلامه الذي سنسرده، ولا يفهم منه غيرُه، إذ يقول: ﴿إني بلغتي التي كانت تناغيني بها أمي، وتقصّ لي بها القصص جدّتي، ويتفاهم بها جميع سكّان قريتي، أوحينيّ في بلدتي أو مدينتي، وأتناغم بها مع أبناء وطني، وأتناجى بها مع آبائي وأسلافي، وأقرأ بها تاريخ

وأعجاب أمتي، ومنقوشة بها جدران وصخور بلادي، ألقنها أولاد أولادي، وأبلغ بها رسالتي إلى

أندادي، وأفاخر بها أضدادي ﴿4﴾.

وستتناول هذا الموضوع المتعلق بتطرق مولود قاسم لمسألة اللغة الأمازيغية، ولو عرضاً وضمناً، وقولتها ضمن إطار

الإثنية، وإعطائها مكانها في البناء الحضاري الأصلي داخل المجتمع الجزائري ولو على مستوى التنظير دون مستوى

التجسيد، سنتناوله من خلال المطالب التالية:

المطلب 1 : الانتساب القومي تاريخياً.

المطلب 2 : نبذ الانتماء العرُوبي المقصي لغيره.

المطلب 3 : التوسُّط والاعتدال في الانتماء القومي.

المطلب الأول:

الإِتِّسَابُ الْقَوْمِيُّ تَارِيحِيًّا

إنَّ إحساس مولود قاسم نابت بلقاسم بالعزّة والكرامة لا يفصل تمامًا عن إحساسه بالانتماء لِمَا يسمّيه - وهو في ذلك محقٌّ - بالأمة الجزائرية. وذلك كَلِّمَا كَثُرَ اللَّغَطُ في الكلام عن باقي الشعوب المسلمة التي تدّعي على نفسها أنها أمم، فهو، ومدعاة للتمييز عن هؤلاء، يتكلّم عن أُمّية الشخصية الجزائرية والشعب الذي يحملها. ولا شيء يميّز الجزائر كشعبٍ عن بعض الشعوب الإسلامية، وخاصةً منها تلك التي تدّعي العروبة أصلًا أو تاصلاً وتنصلاً من بعض الانتماءات القومية الأخرى، لا شيء يميّزها عنها سوى أمرٍ واحدٍ هو التاريخ.

ثمَّ إنَّ هذا التاريخ لا معنى له إذا لم ينظر فيه إلى محتواه، والتاريخ هُويّةٌ وأحداث، سواء كانت الأحداثُ مجيدة أو كانت مُخزِية، ولكنها دائماً وأبداً تنصبُّ في نطاق حركة الهُويّة التي تُسمّى بالحركة التاريخيّة.

إنَّ التاريخ الذي نحن بصدد الكلام عنه هو تاريخ السكّان الأوّلين الأصليين لهاته الأرض، حاملِي اللّسان والعرق الأمازيغي، التميّز القومي والتاريخي عن باقي شعوب العالم. ولذلك اهتّم مولود قاسم - بحكم عرقه وبحكم جزائريته قبل ذلك - بهذا البُعد الهامّ من أبعاد الشخصية الجزائرية، ألا وهو البُعد الأمازيغي تاريخيًا ولغةً وقوميّةً وعرقيةً، الضّامن الأكبر لاستقلالية وأُمّية الشخصية الجزائرية وشعبها، وخاصةً إذا ما تعلق الأمر بالتمييز عن باقي الشعوب العربيّة والشعوب الإسلاميّة. ويقول مولود قاسم - رحمه الله - في هذا الشّان مبينًا نظرتَه وفلسفَتَه: ﴿فما دامت البلدان الشّقيقة الأخرى تكتب عن نفسها وتقول أنها أمة، أمة مصرية، أمة تونسية، أمة مغربية، والسّيد السّفير هنا يستطيع أن يؤكد لكم هذا بالنّسبة لمن لم يشاهد: ففي مصر مثلاً، وفي عهد جمال عبد الناصر، في زيارة الرّئيس الراحل هواري بومدين (رحمهما الله) سنة 1965، حضرنا في مجلس

الأمة، ليس مجلس الأمة العربية الإسلامية، بل مجلس الأمة المصرية، مجلس الأمة التونسية، والملك الحسن الثاني يقول: الأمة المغربية، وفي السودان - حزب الأمة إلى آخره - أقول: فما دامت هناك كل هذه الأميمات العديدة وغيرها موجودة، فنحن أميمة من بين الأميمات، ريثما نعود أمة واحدة ذات يوم، إن شاء الله، كما كنا، أو لا نعود... ﴿5﴾.

فهو يثبت وجود هذه القومية والأمية، وخاصة إذا تباهى وتفاسخ الناس بأصولهم وعرقياتهم ولغاتهم مقابل أن تُزدرى الشخصية الجزائرية التي سجل لها التاريخ أمجاداً سواء في قديمه أو حديثه.

كان مولود قاسم يرى أن عدم الاعتراف بمضمون التاريخ القديم للجزائر بكل ما فيه من أحداث ثم من لغة عبرت العصور والأزمنة ولا زالت تعيش، أنه نمط من أنماط الماركوبية كما سبق وأن أشرنا إليه في معرض تناول هذه الفكرة أو هذا السلوك بالأحرى. فمجرد الإنكار إمضاء وتوقيع تلقائي لأكاذيب ومخططات المنافسين بل المعادين لنا حضارياً، وهو اعتراف باللطية التي لا يرضاها الشريف لنفسه. ويذكر مولود قاسم هذه المخططات بأكاذيب تحت غطاء العلمية والموضوعية، لئيبه إليها الغافلين أو المغفلين عن شرف الأمة الجزائرية، فيقول: ﴿يقول جوليان، - الذي يعتبر عند بعضنا " نبي التاريخ "، هيرودوت وابن خلدون مجتمعين في شخص واحد - في الفقرة الأولى، من الصفحة الأولى، من كتابه " تاريخ شمال إفريقيا ":

« L'Afrique française du nord, qui comprend le Maroc, L'Algérie et la Tunisie, ne possède pas d'état civil précis ».

"إن إفريقيا الشمالية الفرنسية - المغرب، الجزائر، وتونس - ليست لها حالة مدنية مضبوطة"، أي لا تاريخ لها، ولا يقصد هنا بالحالة المدنية الولادات والوفيات، طبعاً! تستطيعون التأكد من هذا وبسهولة، ولا ادعي عليهم، ولا أنسب إليهم ما لم يقولوه، ولا أقولهم أشياء... وإنماؤكد بالنسبة إلى جوليان: الطبعة الأولى، مع العلم أن الطبعة الثانية أسوأ!، "ليست لها حالة مدنية معروفة، دقيقة، مضبوطة"، أي أبناء كذا وكذا، أو SNP... في أحسن التعابير، ولا نقول كلاماً آخر، ومع ذلك يعتبر نبي التاريخ عند البعض... إقرأوا جوليان! ﴿6﴾.

وقد ضمّن مقدّمة كتابه: "شخصية الجزائر الدّولية وهيبتها العالمة قبل سنة 1830"، فقرّة كاملة عن خطر هذه اللّقطيّة التي أصبحت تُلقَق بالأمة الجزائرية ثمّ المغاربية على العموم، وكأنّها ما أخذت شخصيتها وما اكتسبت شرعيّتها إلاّ منذ خمسة عشر قرناً فقط، بالرّغم من قِدَم تاريخها على كثيرٍ من أمم الأرض التي تدّعي الآن العراقة والرّسوخ في أغوار الزّمن القديم، فيقول: ﴿بل وأكثر من هذا و أفضع: فنجد العمّ جوليان... نبيّ التّاريخ، أو إمام المؤرّخين، في نظر كثيرٍ منّا في هذا المغرب... يذهب إلى أبعَد من هذا... ويكاد يصف سكّان هذا المغرب بأنهم "لقطاء"، فيقول في الفقرة الأولى، من الصفحة الأولى، من الفصل الأوّل، من "الكتاب" في التّاريخ، في نظر من ذكرنا، تحت عنوان: "الحالة المدنيّة للبلاد وسكّانها"، عن نشأة بلدان المغرب، ودوله، ومجتمعاته، مايلي: "إنّ إفريقيا الشماليّة الفرنسيّة، التي تشمل المغرب، والجزائر، وتونس، ليست لها حالة مدنيّة دقيقة" (7).

ثمّ يتألّم مولود قاسم لمّا يرى البعض - وربّما يغلب أولئك سوادهم - من المفكرين والمؤرّخين والإعلاميين ورجال السّياسة، يتبحّون بكلّ غباء بمدح تلك النّصوص المخزيّة والقاذفة في شرف الأمة الجزائريّة، فيقول: ﴿ولكن لِمَ نلوم الغير، ونحن نُنكر أنفسنا من حينٍ إلى آخر، وبعضنا يكرّر ببلادة وماز وحية، ومحكديّة، وبخسّيّة، ومركوبيّة: "لسنا أمة"!﴾ (8).

ثمّ إنّهُ يستفزُّ بقيّة العرض القومي والحضاري في نفوس أولئك، يذكر لهم تصريحاً لعدوهم الأكبر والمباشر في القوّة التحريريّة الكبرى وهو الجنرال دوغول، لعل ذلك سيجعلهم يستحون في مضيتهم في مركوبيتهم ويرجعون إلى الحقّ الذي ما بعده إلاّ الضلال، وهو الاعتراف بالقومية الأمازيغيّة الضّاربة في أعماق التّاريخ والتي تحفظ للشعب الجزائري ماء الوجه بين الأمم العريقة تاريخياً، وذلك بالرّغم من أنّ أصل البشر واحد، إلى آدم أب البشريّة جمعاء وأنّ هذا الانتساب الأُمّي والتاريخي والعرقّي والقومي، ما هو إلاّ شيءٌ نسبيّ في كافّة أمم الأرض، لكن لأبْد منه مادام الآخرون يضربون في شخصيتنا ويرموننا باللّقطيّة وانعدام الأصالة، فيقول: ﴿يبقى أنّ الفرنسيّين استعملوا مدّة طويلة التّمييز العرقّي للتّفريق، وقال دوغول وغيره "إنّ شعب الجزائر فسيفساء من أجناس، لا يكونون أمة واحدة"، فذلك من سياستهم. أنا لا أدري إن كان أصلي من هذه البلاد

منذ الأوّل، منذ فجر الإنسانية، مثلاً منذ آدم بالنسبة للجميع طبعاً، فأقول المسألة كلّها نسيّة ﴿(9)﴾.

بل إنّ مولود قاسم يذهب إلى أبعد الحدود حينما يرى أنّ الازدراء والإسفاف في مسألة الشخصية الجزائرية آت من قِبَل الأصدقاء والإخوة حضارياً، إذ أنّهم يُيحبون لأنفسهم أمراً يجرّمونه علينا نحن، وهو الاعتزاز والافتخار بالتاريخ القديم ومحتواه، من عرقية ولغة وقومية، فيستعمل نفس الخطاب الذي يخاطبون به، همّ، شخصية الشعب الجزائري وحاملها، فيصل إلى عدم الاعتراف بتاريخهم ولا بقوميتهم، ويصرّح لهم بأنّه لا يجمع بين شعبه وشعوبهم سوى أمرٍ واحدٍ هو الدين الإسلامي ولا شيء غيره، وفي ذلك يقول: ﴿﴾ وهنا عندما نستعمل كلمة أمة فليفهم إخواننا من البلدان الشقيقة كلمة أمة عن الجزائر. تقول عمومًا "الأمة العربية"، ولكنّي شخصياً أوّمن بالأمة الإسلامية، لا أوّمن بأمة عربية، وإنّما بأمة إسلامية، لقد أصبح التركيز منذ لورانس على بعض الشعارات - أمة عربية - وعرب وعروبة، بمناسبة وبدون مناسبة، شنشنة نسمعها اليوم، وموجّهة ﴿(10)﴾.

وفي موضعٍ آخر، وعن نفس الموضوع ومؤاخذه الجزائريين على اعترافهم وتقديرهم لتاريخهم، يقول: ﴿﴾ العرب كانوا مستعمرين في الشرق، فالمناذرة والغساسنة، بعضهم كان تابعاً للفرس، والآخر للروم، كانوا مستعمرين، هذا هو الواقع، والبربر أيضاً، أو الأمازيغ، كما هو الإسم الصحيح، كانوا أيضاً مستعمرين، مع الفارق: أنّ الكفاح هنا أطول، بل لم يكن يوجد هناك إطلاقاً!. وما كنتُ أتوقّع أنّ تستفزوني بهذه الطريقة، لكنّي مضطرّ أن أقول الحقائق هنا للتاريخ!، عندما نشرنا العدد الأوّل من الأصالّة، ونشرنا فيه صورة يوغورطا، قال بعض المساكين، الذي يرثى لحالهم، "هذا رجوعٌ إلى الكفر، رجوعٌ إلى الإلحاد!". وهذا من بعض الإخوان المشاركة أيضاً، الذين يجرّمون على الغير ما يخلّونه لأنفسهم!. فعندما تبحث بغداد وتوجّه نداءً إلى هيئة الأمم والمنظمات الدوّلية لتشارك في إحياء بابل، فلا تتهم بغداد بالجاهلية، والعنصرية، وبابل كانت قبل الإسلام!. وعندما يسمّي

الرئيس عبد الناصر أول سيارة أنتجتها المصانع الحديثة في مصر، التي نعتزّ بها جميعاً، رمسيس، لم يقل أحد شيئاً!. ولكن عندما نذكر نحن يوغورطا نرى جهلةً حقى تغمز، وتهمز، وتلمنز!. وإذا كان لأبَد من الرجوع إلى الجاهلية الأولى، وأنتم البادئون فهل قاوم أسلافكم أكثر من أسلافنا؟ لا وربكم، لا والتاريخ! ﴿11﴾.

وحتى ولو اعترف مولود قاسم بأبعاد شخصية هؤلاء الذين يؤخذون الشعب الجزائري على انتمائه إلى القومية الأمازيغية، فإنه ليس اعترافاً على أساس قومي وعرقي، بل هو على أساس حضاري أبعد من أن يُوضَعَ في حدود عرقية ضيقة. إنه على أساس الانتماء الديني الذي التحمت به شعوبٌ عديدة تحت راية واحدة منذ قرون، منذ امتداد الفتوحات الإسلامية إلى العجم، ومولود قاسم من هؤلاء العجم، وشعبه كذلك. لذلك فهو يُصرّح أنه لا علاقة له بالعروبة إلا من قبيل أنه مسلم، بل إنه إذا انتسب إليها بدون هذا الغطاء سيكون قد خرج من النطاق المتحصّر إلى دركات الجاهلية والبدائية، فهو يقول: ﴿نرُدُّ على هؤلاء الذين يقولون اليوم أيضاً "أنا شعبٌ ولسنا أمة، لأن هناك أمة واحدة فقط، هي الأمة العربية"، فحتى هذا ليس بصحيح، لأنه إذا كان لأبَد من تسمية واحدة للجميع فهي الأمة الإسلامية، لا العربية، لأن العرب مائة مليون فقط، والمسلمون مليار، أي ألف مليون، كما كتب صالح جودت سنة 1973، أمة أميمة؟ والعروبة بدون إسلام جاهلية! ﴿12﴾.

ثم يعود مولود قاسم إلى القول الفصل في هذا الموضوع، وهو أنه لأبَد من الاعتراف بالتاريخ القديم بكل ما يحويه من لغة وقومية وعرقية كبطاقة تعريفٍ للشخصية الجزائرية، وأن عدم الاهتمام به فكراً وتجسيدا، هو إنكارٌ للذات ومركوبية ومسوخ. وأنه إذا كنّا نحن مسالين للأمم الأخرى ونعرف لها بقوميتها وتاريخها وشخصيتها عبر كل حقب العصور، فإنه أولى لنا أن نعرف بأنفسنا أولاً وتاريخنا وشخصيتنا وقوميتنا، حتى نكسب احترام الغير وتقديره بل وتبجيله لنا، فيجب الاعتناء بهذا الجزء الهام من التاريخ، طبعاً بإحياء أهم رموزه في ذلك الوقت، والتي لا تزال بيننا، وهي اللغة والعرقية والقومية، فيقول:

﴿ولكن هذا الجزء من تاريخنا - وأي جزء من تاريخ أمة - لا يُنسى أبداً، وكما ندرس تاريخ
الشعر الجاهلي، وندرس حضارة حمير وسد مأرب... نفتخر بهذا الجزء أيضاً كذلك وبالذات، تماماً
كما يفعل إخواننا في مصر، كما يفعل إخواننا في سوريا، والعراق، وكما يفعل إخواننا في اليمن،
وفي جنوب اليمن بالذات!﴾ (13).

إن القومية و اللغة الأمازيغيتين هما - عند مولود قاسم - الضامتان لتمييز الشعب الجزائري في إنته عن باقي
شعوب العالم شرقياً و غربياً.

عبد القادر القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثاني:

بُذُ الإِتِّمَاءِ العُرُوبِيِّ المُقْصِي لغيره

ظلّ مولود قاسم نابت بلقاسم لوقتٍ طويلٍ مكافحاً من أجل تجسيد البعد القومي الأمازيغي للشخصية الجزائرية، ولو حتّى تحت أنظمة حكمٍ وحقباتٍ زمنية لا تشجّع هذا المسعى والكفاح النبيل، بل وتراه من قبيل الكفر والمعاداة للغة العربية والعرق العربي، أنظمة تحارب البعد الأمازيغي نظرياً وواقعياً وترصد الفنّانين والمفكرين والكتّاب والإعلاميين لأجل ذلك.

وفي خضمّ هذا الجو المكهرب والمشحون والخطير، كانت لمولود قاسم بالرغم من كلّ شيءٍ، بعض الصّرخات في هذا الموضوع، وبالرغم من التوجّه القومي العُروبي للدولة الجزائرية في السّتينات والسّبعينات والثمانينات من هذا القرن، هذا التوجّه المُقْصِي لغيره والمزدري له، والتصديّ بيدٍ من حديدٍ لكُلِّ الأفكار التي كانت تدعو إلى الاعتراف بالبعد الأمازيغي للشخصية الجزائرية. فبالرغم من كلّ ذلك، وجد مولود قاسم بعض الفرص السّانحة لطرح القضية ولو بالتعريض والتلميح إليها فقط دون التصريح. وكان البعدُ الديني أهمّ وسائل الحقّ التي كان يستعملها مولود قاسم في كفاحه الفكري والإنوي هذا، فكان يجتمى - دون نفاق - بالحضارة الإسلامية وبالذين الذي يجمع أكثر من نصف شعوب العالم تحت رايةٍ واحدة، فيمجّد هذا الذين يعلّو فوق آية دعوةٍ قوميةٍ قويّة الأنصار كالقومية العربية، حتّى وصل إلى أن صرّح في هذا المجال بالحرف الواحد قائلاً:

﴿إذا كان يفتخر إخواننا في مصر بالفراعنة، فأنا لا ألومهم على هذا، عندما يبقى في حدوده، كجزءٍ من تاريخهم القديم، والعربُ كانوا يفتخرون بالجاهلية، ونحن ندرس امرؤ القيس، وفلاناً، وعلاتاً، لماذا ندرسهم؟ لماذا أعتزّ بحضارة حمير؟ فإذا كان الإسلام هو الفاصل بيننا، فحمير لم تكن مسلمة. فلماذا أعتزّ بها؟، ليست لي علاقة بها أبداً﴾ (14).

وكان مولود قاسم - رحمه الله - كثير التركيز على هذا الموضوع، في وقت كان فيه مجرد النطق بكلمة " الأمازيغ " نوعاً من الخروج السياسي، بل نوعاً من الخروج الحضاري في نظر بعض المفكرين والكتّاب والساسة، وصاحبه يُغتال أو على الأقل إذا لم يُسجن فإنه يُنفى من أرض الوطن.

وبالرغم من ذلك فقد كانت لمولود قاسم بعض فلتات اللسان المقصودة كمثل ما سنسرده، إذ يقول: ﴿ هذا هو الإسلام، كردي، وأمازيغي، و تركي، وعربي، خير الدين التركي، "اليوناني الأصل"، ومحمد بن عثمان الكردي، ويوسف بن تاشفين، أو عبد المومن، وطارق، الأمازيغي، ومحمود الغزناوي الأفغاني، وموسى بن نصير وعقبة بن نافع العربيان. هذا هو الإسلام، هذا هو ثراء الإسلام، هذا هو غنى الإسلام، هذه هي ميزة الإسلام﴾ (15).

وكان مولود قاسم من خلال هذا الكلام يضمن دعوة لإطلاق الحُرِّيَّات القوميَّة الأخرى غير العربية والمقهورة من طرف القومية العربية المستحوذة على موروث الحضارة الإسلامية الذي ساهمت فيه كل الشعوب الإسلامية بمختلف عرقياتها ولغاتها. وليس هذا الكلام معني إذا لم يكن دعوة من طرف مولود قاسم لنيل الانتماء العروبي والتعصّب القومي له على حساب هذه اللغات والعرقيات التي ذكرها. وكان كل مرة في ذلك يحتكم إلى الإسلام الجامع لكل الشّتات الناطق بالشهادتين، والأعلى قَدْرًا، والأقدر على التوحيد والتلحيم. ولذلك كتب في كتابه "إنية وأصالة" كلاماً كان من إحدى تعقيباته في أعقاب الملتقى السادس من ملتقيات الفكر الإسلامي ردًا على أحد الأساتذة الذي لم يُذع إلى الملتقى فغاضه الأمر وكتب على الملتقى باسم مستعارٍ في إحدى الجرائد، وتصدى له مولود قاسم بالرد، فكان مما كتبه ردًا عليه الكلام التالي:

﴿ تكلمت عن هؤلاء المفكرين الذين توافدوا من شتى بقاع الأرض الإسلامية، "عربية وأعجمية"، وأظن أن كلمتي "عربية وأعجمية" زائدتان ومن قاموس مختلف ألوان الاستعماريين وأعوانهم من عديد الفئات، خاصة في الظروف الأخيرة، وكان في إمكانك أن تقف عند "الإسلامية"، فالإسلام يشمل كل شيء وهو الجامع المانع، خاصة وأنت تكتب عن ملتقى إسلامي وفي جريدة تقول أنها

إسلامية، وتعلم أن كلَّ عنصرية في هذا السياق عبثٌ وليس بعثًا، ومشرقنا العزيز بذلك أدري! ﴿16﴾.

بل إن مولود قاسم - رحمه الله - يؤكد أيما تأكيد أن لاشيء يجمعه بالدول العربية الأخرى من قومية، بل ما يجمعه وشعبه ودولته بها هو الدين والانتماء الحضاري. لذلك عَقَبَ في أحد ملتقيات الفكر الإسلامي ردًا على بعض المتشذقين والمتخربين بالعروبة بقوله: ﴿نرجو منكم ألا نعود إلى هذه الشعوبية، والعنصرية والجاهلية... فبالنسبة لنا العروبة تنحصر في اللغة العربية، في إطار هذا الملتقى. وإذا كانت هناك شؤون أخرى عربية فتُدْرَس في إطار الجامعة العربية، وتُدْرَس بالنسبة لكلِّ بلدٍ في إطار بلاده، لكن عندما نجتمع في إطار الملتقى الإسلامي نتكلّم عن الإسلام، والحضارة الإسلامية، والفكر الإسلامي، واللغة العربية لنا هي لغة القرآن التي نعتزّ بها، بالإسلام، ولغة الثقافة المشتركة﴾ (17).

لقد خاض مولود قاسم في هذا المجال كفاً مريباً محفوفاً بالأشواك والمخاطر، وقد نبذته كلُّ الأطراف المتشددة والمتطرفة في أفكارها وأطروحاتها القومية، فمرةً ينحاز إلى هذا، ومرةً ينحاز إلى ذاك، ذلك لكونه يحمل ثقافة جامعةً لأمة غير مُقْصية لبعده من أبعاد الشخصية الجزائرية. وكان دومًا يستنجد بالانتماء الحضاري الواسع والجامع، علّهُ يجذب إليه كلُّ الأطراف برغم تقاصيها فيما بينها واختلافها في الرؤى القومية الذي يصلُّ إلى حدِّ اللاتعايش، طمعًا في أن الإسلام - كما سبق وأن فعل في التاريخ - سوف يفعل فعله التلحيمي لأطراف وأجزاء الأمة المسلمة المتعادية، هذه العداوة التي كان أساسها وسببها الأول البعث القومي العروبي، ثمَّ جاءت الإنبعاثات الأخرى دفاعًا عن شرفها وقيمتها وكرامة دهما أمام المهجمة القومية العروبية، فكتب يقول: ﴿إنَّ علينا التمسُّك بالإسلام الذي يجمعنا، وإنَّ العُروبةَ شيءٌ جزئي، فضلًا عن أن أغلب علماء العربية والإسلام من العجم﴾ (18). وكان يدعو المتشذقين بالعروبة إلى الانفاف إلى باقي المسلمين الذين يختلفون عنهم عرقياً ولغوياً، ويشكّلون السواد الأعظم لحاملي عنوان الحضارة الإسلامية، ولذلك تبنّى كلام الأستاذ صالح جودت الموجود في مقال نشره في المصوّر، إذ يقول: ﴿بعد رجوعه من ملتقى تيزي وزو، الذي أدرجنا في جدول أعماله

الوحدة الإسلامية... ضرورة الوحدة الإسلامية اليوم، كتب مقالاً تحت عنوان: "ألف مليون أحسن من مائة مليون عربي فقط!" - نعم، هذا هو الواقع ﴿(19)﴾.

وكانت لمولود قاسم صولات وجولات في هذا الموضوع بالرغم من تعقد القضية، وتعقد الوضع الثقافي والسياسي آنذاك، إذ يحكي عنه الأستاذ محمد الصالح الصديق بعض كفاحه في نبذ الانتماء العروبي العرقي، وكان من بعض ما رواه في ذلك عنه قوله: ﴿في الملتقى السابع المنعقد بتيزي وزو سنة 1973 لمح الدكتور صبحي الصالح من لبنان إلى أن الإمام موسى الصدر رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى بلبنان وإن كان فصيحاً إلا أن أصله الأعجمي يجعله لا يدرك بعض أسرار العربية، فعقب عليه الأخ مولود بكلام عفيف مفحم خلاصته (إن علينا التمسك بالإسلام الذي يجمعنا، وأن العروبة شيء جزئي، فضلاً عن أن أغلب كبار علماء العربية والإسلام الذي من العجم) أمثال الزمخشري والسكاكي والفروبي!!﴾ (20).

وكان مولود قاسم دائماً يذكر مستمعيه أثناء ملتقيات الفكر الإسلامي وقراءه من خلال مقالاته وكتبه، بأن الإسلام هو الجامع وهو المعتمد في الوحدة الحضارية، وأن كل دعوة قومية عروبية هي من قبيل التشييت والتفتيت لأجزاء الأمة الإسلامية، وأنه لكل الشعوب الإسلامية أن تفتخر بعرقها وتاريخها ولكن بشرط ألا تفرضها على الآخرين لتقصي تاريخهم وعرقهم ولغتهم، فكتب عن البعث الحضاري الزائف وعن البعث الحضاري الحقيقي تحت لواء الإسلام دون إفراط ولا تفريط ولاهضم للحقوق، يقول:

﴿المهم: ماذا يجمع بيننا؟ فإذا كان الفاصل هو الإسلام، لماذا نتكلم إذن عن العصر الجاهلي؟، إذن نقول للسوريين واللبنانيين لماذا تتكلمون عن فينقيا والفينقيين؟، لماذا تتكلمون يا إخواننا المصريين عن الفراعنة؟ ما الداعي لهذا؟ لماذا يسمي الرئيس عبد الناصر رمسيس السيارة الأولى التي أنتجتها مصر الحديثة؟، ونحن في دولة إسلامية، ورمسيس زعيم الفراعنة! لماذا يسميها رمسيس؟، لماذا يدعوا الآن العراق وسوريا للبعث، والبعثية، ويقصدون بالبعث طبعاً ليس بالبعث الإسلامي؟﴾ (21).

وذهب مولود قاسم إلى أبعد من كل ذلك حين صرّح— وهو وزيرٌ في الدّولة الجزائرية المعترفة بميثاق جامعة الدّول العربية والمنخرطة فيها— بأنّ إطار الوحدة العربية تحت راية جامعة الدّول العربية إطارٌ مؤقتٌ لا معنى له، ويجب أن يكون مؤقتًا، وذلك أثناء أحد متقيات الفكر الإسلامي، ثمّ ضمّنه كتابه "أصالية أم إنفصالية؟"، إذ قال: ﴿وهنا أفتح قوسًا صغيرًا فقط لأقول للأخ الطالب الذي بعث إليّ بقصيدة في العروبة والعرب وتمجيد العروبة والعرب، أقول له: رأيي في هذا واضحٌ معروف، أنه بالنسبة إليّ أنا هنا في مؤتمر إسلامي، العروبة والعرب لهم إطار في الجامعة العربية، إطار مضيّقٌ مؤقتًا، المفروض أن يكون مؤقتًا، نحن هنا في ملتقى إسلامي﴾ (22).

ويوضّح الدكتور أبو قاسم سعد الله هذا الإتجاه المقصود من طرف مولود قاسم، فيما كتبه عنه في تأبينته، ويبرز توجهه الممقت والنابذ للإتجاه العروبي البعني العرقي القومي على حساب لغة أمّه وأبيه وعرقيتهم، ثمّ يشير إلى تغيّر هذا التوجّه تغيّرًا بحكم الوظيفة، وليس احتكامًا إلى تبدّل الأفكار والاعتقادات والرؤى الفلسفية المصرية في صنع شكل المجتمع الجزائري المرتقب التي وضعها مولود قاسم أساسًا لشخصية البناء الحضاري كما يتمناه ويرتقبه، إذ يقول الدكتور عنه في ذلك: ﴿من يقرأ كتابه (إنية وأصالة) وغيره يدرك أنّ سي مولود أثناء المرحلة الأولى التي ذكرتها، كان كثير التعريض بالعرب— بالجدِّ أحيانًا وبالزواح أحيانًا أخرى— ولكنّه تغيّر مع الأيام، خصوصًا بعد أن أصبح عضوًا في بعض الجماع العربية، وبعد طغيان موجة الفرنكفونية التي صنّفته هو أيضًا من "البعثيين" مادامت ثقافته الأولى عربية إسلامية﴾ (23). بل إنّ الدكتور أبو القاسم سعد الله يصرّح بأن مولود قاسم كانت له ميولٌ بربرية— على حدّ تعبيره وأنا أقول تمسّك بالأمازيغية— وهي التي جلبت له المشاكل والعوائق والمعضلات، وأنّه لم يسلّم من أي فريقٍ من الفريقين المتطرفين في مسألة تحديد وتوضيح الهوية الجزائرية وأبعادها، دعاة الإقصاء والتجزئ وعدم الاعتراف بالكلّ ونبذ الالتحام والتجميع بين كلّ مقومات الشخصية الجزائرية، فكتب عنه وعن هذه (الميول البربرية) والموقف الواضح من العروبة، يقول: ﴿كان البعض من هؤلاء يأخذ على سي مولود ميوله البربرية في كتاباته، وغموض مواقفه من العروبة التي يُسمّيها شعوبية، ومن الانتماء الحضاري سيما بعد أن أصبح مسؤولاً على المجلس الأعلى للغة

العربية، حتى أن بعضهم كان يرى في وجوده على رأس الجهاز الرسمي نوعاً من الحاجز المقصود ضدهم» (24)، ولعلّ هؤلاء لم يهضموا نبذ مولود قاسم للعروبية الشعبية العرقية القومية والتي أريد أن تجعل وترسى بديلاً عن البعد الأمازيغي - لغة وقومية - للشخصية الجزائرية، والآن تُعطى اللغة العربية سوى مكانتها الحضارية من منطلق الانتماء الإسلامي الواحد لتحقيق الثقافة المشتركة بين شعوب الأمة الإسلامية، ولازلنا نتخبط في نفس المشاكل و الأطروحات ولا ندري متى سننطلق حضارياً الانطلاقة الصحيحة والسليمة والوقية بإتية الأمة الجزائرية بكل ما تحمله من عناصر وأبعاد.

المطلب الثالث:

التوسط والإعتدال في الإتياء

بالرغم من أن مولود قاسم نابت بلقاسم كان يطرح مسألة الاعتراف بالقومية الأمازيغية بقوة، ويُشير إليها تصريحًا وتلميحًا في مناسباتٍ عدّة وفي ظروف خانقة لا تشجع مثل طرحه، بل وتقمعه وتعاقب صاحبه، ويربط القومية مباشرةً باللسان والعرق الأمازيغيين ويعتزُّ بذلك أيما اعتزاز، إلا أنه كان شديد الدقة في طرحه للقضية وللمسألة على أن يحرص التوسط والاعتدال فيها ويلتزم عدم التطرف وعدم التحيز إلى جهةٍ دون جهةٍ، وإلى فكرةٍ دون فكرة.

من جانبٍ، كان مولود قاسم يطرح القضية بقوة واعتزاز ليس بعده اعتزاز، ومن الأمثلة على ذلك أنه كان يذكر بأجداد الأمة الجزائرية من خلال بعض أسلافها وأجدادها، وكان يعتزُّ أيما اعتزاز بأماثل ماسينيسا ويوغورطة وطاقفاريناس ويوبا الثاني والقدّيس أوغسطين، وقد تجاوز إعجابه بيوغورطة كلّ الحدود إلى حدّ أن سمى لنجله الوحيد باسمه، ثمّ سمى ابنته بعد ذلك - ويربط وثيق ومقصود - باسم "جزائر"، ليربط في عائلته الصغيرة بين الإنيّة والأصالية في أعلى سماتهما، ربطاً بين الواقع والتاريخ، وبين الهوية والقومية مضموناً. ثمّ وصل به الأمر إلى حدّ إقحام بعض المعلومات التاريخية البعيدة والغائرة في الزمن في خضمّ مناقشات ملتقيات الفكر الإسلامي أمام علماء أجلاء ومفكرين من مختلف بقاع الأرض وبلاد العالم، ليبين اعتزازه بقوميته وتاريخه، فأورد مثلاً كلاماً على يوبا الثاني أحد ملوك نوميديا إذ قال: ﴿يوبا الثاني JUBA II، الذي ألف أول دائرة معارف، لأنّ أرسطو إذا كان قد ألف عدّة كتب في المنطق، والفلسفة، والطبيعة... لم يؤلف دائرة معارف كاملة وشاملة لجميع الفنون والعلوم كما فعل يوبا الثاني، وإنّ كانت مع الأسف اندثرت. ويوبا الثاني هو الذي وضع أول خريطة للجزيرة العربية، وكذلك الفن القصصي، ويقول كثير من المؤرّخين، ومنهم

المؤرخ التونسي الشهير عثمان الكعاك، أن الطريقة القصصية القديمة على طريقة Les fables

لإيزوب Esope، التي قلدها فيما بعد فيدر phédre، وعبد الله بن المقفع، ثم لافونتين La fontaine،

أنهم أخذوها عن الجزائر، من إرث يوبا الثاني، وإن ضاع هذا التراث مع الأسف فيما بعد (25).

وقد كتب مولود قاسم في أكثر من موضع من كتاباته، للشهادة التاريخية وللتذكير، عن مسألة مهمة جداً في نظره

يجب أن تستفز الشرف الجزائري والأنف القومي، وهي مسألة تسمية الرئيس الأسبق لفرنسا فاليري

جيسكارديستان لِكَلْبِه باسم يوغورطة أحد أعظم رموز الجزائر التاريخية، وفي ذلك يقول مولود قاسم: ﴿لندكر،

للتاريخ، أن رئيس الجمهورية الفرنسية العالي، السيد فاليري جيسكارديستان، سمي

كلبه "يوغورطا"!﴾ (26).

ولعله لم يذكر هذا الأمر إلا لمقصد واحد هو حث واستفزاز بقية الشرف القومي الجزائري عند بعض الناس إن

كانت هناك بقية من شرف عندهم، وخاصة أنه كان يدرك تاريخياً ماذا يمثل يوغورطة بالنسبة للدولة الجزائرية

والقومية الأمازيغية والهوية الوطنية وارتباط ذلك بمقاومة هذا الشعب للرومان قبل سقوط زعيم الفوليين

الفرنسيين وأب دولتهم أمام نفس الاستعمار بأكثر من خمسين سنة. لذلك فقد حكى عنه الدكتور أبو قاسم سعد

الله هذا الاعتزاز بيوغورطة، وماله من مغزى عنده، وعن الاعتزاز بالقومية الأمازيغية ولغتها ورموزها ككل،

فقال: ﴿وإن من يقرأ تنويه سي مولود بمفدي زكريا على أنه "شاعر النضال السياسي الثوري والكفاح

التحريري المسلح" يعرف أن سي مولود كان يربط بين مفدي الحزبي والجهوي ويرد على من كان

يقدم عليه الشاعر محمد العيد على أنه شاعر الجزائر والإصلاح والوطنية والشمال

الإفريقي... ولعلني كنت من القلائل الذين كانوا يفهمون غرض سي مولود في هذا المجال، تماماً كما

كنت من الذين قد فهموه عندما وضع على أول غلاف مجلة (الأصالة) رسماً لـ (يوغورطة)، أو عندما

كان يحدث جمهوره طويلاً عن دور (اللغة) عند الأمم ثم يطلب منهم الاعتزاز بلغتهم دون أن

يحددها لهم﴾ (27).

وقد تصدّى مولود قاسم في ملتقيات الفكر الإسلامي التي كان يرفعها، لكثير من الأفكار الجارحة في تاريخ الأمة الجزائرية بصفة مباشرة أو غير مباشرة، ومنها الإشاعة التاريخية التي وصلت إلى حدّ العلميّة عند بعض المؤرّخين والمثقفين، في أنّ الأمازيغ أصلهم من عرب اليمن، إذ يقول على ذلك: ﴿تبقى كلمة الأمازيغ واليمن: أقول للأخ صفوان قدسي أن ليس فقط فقيدنا الكبير الأستاذ عثمان الكعّاك هو الذي قال بهذا، بل عبد الرحمن بن خلدون كتب هذا بكلّ وضوح، وقال أنّ الأمازيغ جاؤوا من جنوب اليمن، من حضرموت وغيرها، من تلك الجهات﴾ (28). ثمّ يذكر الأغاليط في ذلك، والصّحيح أنّ علاقة الشّمال الإفريقي باليمن هي علاقة عكسية يقلب فيها الأمور والموازن، وهو أنّ بعض القبائل الأمازيغية البربرية هي التي هاجرت إلى اليمن، وجاء من هذه الهجرة هذا التّشابه الحاصل في لغات بعض مناطق اليمن ولغات الشّمال الإفريقي، فقلب مولود قاسم القضية وأبطل الإشاعة، ولا أظنّه يذكر ذلك أمام ككبجة من العلماء والمؤرّخين والمحققين دون أن يستند إلى حقائق تاريخية ثابتة وموجودة، ولا إلى أحداث سجّلتها الذاكرة البشرية منذ قرون عدّة، ليقيم فكرته على قواعد وأسس سليمة لا يأتيها الباطل من بين أيديها ولا من خلفها، وفي ذلك وضّح القضية والمسألة وقتل الإشاعة، بل وقلّبها رأساً على عقب، فقال: ﴿ولا تزال إلى الآن أسماء جزائرية، ومغربية، وتونسية، أو كما يقول الدكتور الحبابي: مغربية، في القاهرة في مصر، وفي سوريا، أسماء مغربية محضة لا توجد في بلدان أخرى، غير بلدان المغرب، ومصر، وسوريا... وربما أضفنا لها اليمن...﴾ أقول هذا، من باب تبادل المصالح والمنافع، للشّيخ عبد الله المجاهد الشماحي، وصل هؤلاء الكتاميون، من الجزائر، إلى اليمن أيضاً، وكانوا هناك مدّة طويلة، وبعضهم انتقلوا، ويوجدون اليوم في الهند، بعد أن عاشوا قروناً في اليمن﴾ (29).

ثمّ أتى بكلام يتعلّق بابن خلدون المؤرّخ والعالم الإجتماعي، وماذا تصوّر فيه المؤرّخون والمحققون والمفكّرون والمخلّون، ليبين أنّ الأمازيغ واليمن شيان مختلفان لا علاقة بينهما في الأصل إلّا من قبيل هذه الهجرة لقبيلة كتامة

من شمال إفريقيا إلى هناك واستقرارها هناك لمدة قرون، فعنصر شمال إفريقيا مختلف عن عنصر أرض اليمن، وفي ذلك يقول: ﴿ويقول ابنُ خلدون عن نفسه: "الحضرمي" اليميني. وقد اتهمه البعض بأنه مجذ من يسمون بالبربر خطأ، "لأنه بربري"، والبربر كانوا يسمون أنفسهم الأمازيغ. ولكن على كل حال ليس هذا موضوع الكلام، مجدهم في الجزء السادس أظن، فيما أذكر من كتابه، وقال الكثير واتهمه الكثير بأنه من أصل أمازيغي، وأنه كذاب عندما قال أن أصله حضرمي يمني﴾ (30).

هذا من جانب طرح مولود قاسم لقضية الهوية والقومية بقوة واعتزاز. ولكن، من جانب آخر، كان مولود قاسم يطرح مسألة القومية بتوسط واعتدال ويربط بينها وبين باقي الأبعاد الشخصية الجزائرية من لغة عربية ودين إسلامي وتاريخ، فلا يطرح القومية بشكل إقصائي ومتطرف، بل يطرحها بشكل تجميحي وتوفيقي لا تغطي فيه بعض الأبعاد على بعضها الآخر داخل تشكيل الشخصية الجزائرية، فهي كالوادي الذي يمتد من مشارب متعددة تصب فيه كلها. وتأكيداً لهذا الاتجاه يقول مولود قاسم: ﴿أقول إذن للشعوبيين: نحن لا نعود إلى هذه النعرات، ولا نعود إلى هذه التسميات، والشعارات، والصيغ الجاهلية، والشعبوية. وعلى كل، إذا كان لكل بلاد أن تعتز بأصلها القديم، فلا بأس بهذا، مادام لا يمس بما أتى بعده، وبما أسميه أنا نسخاً لما قبله، وهو الإسلام الذي أتى بالحضارة التي تجمع، الذي أتى بالدين، وبالأخلاق، والذي أتى بالثقافة التي تجمع هذه الأمم كلها، ولكن هذا الجزء من تاريخنا- وأي جزء من تاريخ أية أمة - لا يُنسى أبداً﴾ (31).

وكان مولود قاسم يضع التشكيلة الجامعة لعناصر الشخصية الجزائرية متمحورة حول بُعد أساسي ومهم في هذه الشخصية وهو عنصر الدين الذي يشكل الإسمنت الذي يمزج ويجمع كل الأبعاد الأخرى تحته، وهو العنصر المشترك الذي يبدأ منه التوحد والالتحام بين مختلف باقي الأبعاد الشخصية الجزائرية، وفي ذلك يقول الدكتور أبو قاسم سعد الله عن مولود قاسم: ﴿فرغم أنه كان عميق التأثير بالفكر القومي الألماني القائم على اللغة في المقام الأول، فإن سي مولود كان يربط بين اللغة والدين في الجزائر. وكان فيما يبدو يرى كل متحمس للغة العربية لذاتها- كقاعدة للفكر القومي - على أنه "بعثي" أو "قومي" - "ناصرى" وما إلى ذلك، وبذلك وجد نفسه أحياناً، ولو دون إرادة منه، في معسكر دعاة البربرية وأيضاً دعاة

الفرنكوفونية الذين لا يمانعون من وجود الإسلام إلى جانب البربرية والفرنسية، كما وجد الإسلام إلى جانب الفارسية والتركية، على حدّ تعبيرهم، وكان تطوّر في موقفه من هذه القضايا، فبينما كان ذلك هو شأنه خلال الستينات والسبعينات، وجدناه قد أصبح من المدافعين عن اللّغة العربية لذاتها بحكم الوظيفة التي تولّاها وهي كونه ممثلاً لرئيس المجلس الأعلى للّغة العربية، ومن ثمّة دفاعه عن إنشاء مجمع اللّغة العربية الجزائري ﴿(32)﴾.

وقد لخص الأستاذ سعيد أيت مسعودان - الوزير الأسبق - هذا التّوسط والاعتدال في الانتماء القومي كما كان يراه مولود قاسم - رحمه الله - ويرى من خلاله الشخصية الجزائرية التي يجب أن تحكم البناء الحضاري الأصلي للشعب الجزائري، وهو تلخيص وافٍ لمغزى الموضوع، وشهادة في نفس الوقت لمدرسة سياسية وثقافية أسسها مولود قاسم ولازلت تعيش إلى آيامنا بالرّغم من أنها لم تجد التّجسيد بعد، إذ يقول الأستاذ سعيد أيت مسعودان أحد أصدقاء ورفقاء المرحوم: ﴿فعلى سبيل المثال فيما يخصّ الهوية الوطنية كان للمرحوم - وكنتُ أشاطره - مفهوم باديسي لهذه الهوية، وكان بدون عقدةٍ وفيّاً للأصالة الأمازيغية للشعب الجزائري بكامله، كما كان وفيّاً لكلّ ما يربطنا لغةً وديناً وانتماءً بالحضارة الإسلامية، ولقد كان رحمه الله، يعتزّ - وهو على حقّ - بالدور العظيم والباع الطويل الذي أسهم به هذا الشعب في تشييد تلك الحضارة بأبطاله وعلمائه من أمثال: طارق بن زياد، وعبد المومن بن علي، وأبي معطي الزواوي، وابن باديس، والشيخ أرزقي الشرفاوي... كما كان المرحوم في نفس الوقت يعتزّ بالتاريخ المجيد لهذا الشعب منذ القدم، ومن الأبطال الذين كان يفتخر بهم عبر التاريخ الوطني هم يوغرطة، وطاكفاريناس، والأمير عبد القادر، ولالة فاطمة نسومر... ﴿(33)﴾.

الهوامش:

- (1) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، المقدمة، ص 67/66.
- (2) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص 69.
- (3) مولود قاسم نایت بلقاسم، "ردود الفعل الأولية داخلاً وخارجاً على غرة نوفمبر، أو بعض مآثر فاتح نوفمبر"، ص 189/188.
- (4) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، المقدمة، ص 68.
- (5) مولود قاسم نایت بلقاسم، مجلة "الثقافة"، العدد 96، سنة 1986، ص 26.
- (6) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص 26.
- (7) مولود قاسم نایت بلقاسم، "شخصية الجزائر الدولية وهبتها العالمية قبل سنة 1830"، المقدمة، ص 11.
- (8) مولود قاسم نایت بلقاسم، مجلة "الثقافة"، العدد 96، سنة 1986، ص 27.
- (9) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، الجزء الأول، ص 399.
- (10) مولود قاسم نایت بلقاسم، "إنية وأصالة"، ص 304/303.
- (11) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص 233/232.
- (12) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، الجزء الأول، ص 413.
- (13) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، الجزء الأول، ص 409 بتصرف.
- (14) مولود قاسم نایت بلقاسم، نفس المصدر، الجزء الأول، ص 400.
- (15) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، الجزء الأول، ص 191.
- (16) مولود قاسم نایت بلقاسم، "إنية وأصالة"، ص 356.
- (17) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، الجزء الأول، ص 399.
- (18) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، المقدمة، الحاشية ص 23.
- (19) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، الجزء الأول، ص 147/146.

- (20) محمد الصالح الصّدّيق، "خواطر وذكريات عن الأستاذ المرحوم مولود قاسم نایت بلقاسم"، ص 116.
- (21) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، الجزء الأوّل، ص 401.
- (22) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، الجزء الثّاني، ص 77/76.
- (23) د/أبو القاسم سعد الله، عن د/أحمد بن نعمان، "مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة"، ص 268.
- (24) د/أبو القاسم سعد الله، عن د/أحمد بن نعمان، المصدر السّابق، ص 265 على الهامش.
- (25) مولود قاسم نایت بلقاسم، "إنية وأصالة"، ص 511.
- (26) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، الجزء الأوّل، حاشية الصّفحة 408.
- (27) د/أبو القاسم سعد الله، عن د/أحمد بن نعمان، "مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة"، ص 271.
- (28) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، الجزء الأوّل، ص 395.
- (29) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السّابق، الجزء الثّاني، ص 311.
- (30) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم إنفصالية؟"، الجزء الأوّل، ص 396/395.
- (31) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السّابق، ص 409.
- (32) د/أبو القاسم سعد الله، عن د/أحمد بن نعمان، "مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة"، ص 268/267.
- (33) سعيد آيت مسعودان، عن د/أحمد بن نعمان، المصدر السّابق، ص 279/278.

البرامج الثقافية

جامعة الأمير
القادر
العلوم الإسلامية

الباب الثاني:

الكفاحات الدّعوية

لمولود قاسم نایت بلقاسم

الفصل الأول: الكفاح الدّعوي في عمل مولود قاسم الفكري

الفصل الثاني: الكفاح الدّعوي في عمل مولود قاسم الثقافي

الفصل الثالث: الكفاح الدّعوي في رؤى مولود قاسم السياسية

و الإقتصادية

يأتي هذا الباب كتطبيق و تجسيد عمليين للمنظومة الفكرية التي أرساها مولود قاسم والتي بنى عليها عمله ونشاطه في أغلب مجالات الحياة التي باشرها. ففي الباب الأول تعرّضنا إلى المرتكز الفكري للمفكر مولود قاسم و بسطنا موجّهات فكره من جهة السلب و من جهة الإيجاب، و بسطنا كيفية إدماجه للهويّة الجزائرية ضمن هذا الإطار و المرتكز الفكري الذي يستند إليه. فإنّه بنى مدرسة فلسفية و دعوية و فكرية وضع لها معالمًا و أسسًا واضحةً محدّدة، ثمّ قولها بمقومات الشعب الجزائري إستنادًا إلى الموروث التاريخي، ثمّ باشر في تطبيق أسس و معالم هذه المدرسة الأصالية على أرض الواقع، و هذا ما سنتعرّض له خلال هذا الباب الذي أسميناه:

﴿الكفاحات الدّعوية لمولود قاسم نيت بلقاسم﴾

قسّمت هذا الباب، بحكم المادة الختام المتوفرة للبحث، إلى ثلاثة فصول، هي:

الفصل الأول: «الكفاح الدعوي في عمل مولود قاسم الفكري»

و فيه أتطرق إلى تنظيم مولود قاسم لوزارة الشؤون الدينية كهيكل وجّه به الفكر الجزائري و أرشده، ثمّ بالخصوص تطويره لمؤسسة ملتقى الفكر الإسلامي كمنبر إشعاع للفكر الملتزم و الوسطي، و كذلك محاولته لوضع منظومة فكرية لإقامة بناء حضاري أصالي يفني بطموحات الأجداد السابقين في الحركة الحضارية الأصالية.

الفصل الثاني: «الكفاح الدعوي في عمل مولود قاسم الثقافي»

و فيه أتطرق إلى جهوده المتواصلة في التأثير في المدرسة الجزائرية و في الجامعة الجزائرية و في المجال الثقافي عموماً و المجال الفني خصوصاً ثمّ في ترشيد الثقافة الإجتماعية للأمة الجزائرية.

الفصل الثالث: «الكفاح الدعوي في رؤى مولود قاسم السياسية و الإقتصادية»

و فيه أتطرق إلى كفاحات و مساهمات مولود قاسم في الحياة السياسية للبلاد الجزائرية، و عن تأثيره في التوجّهات الكبرى للدولة و إصلاحاتها و مشاريعها الحضارية. ثم أتطرق إلى طروحاته النظرية في قضية بناء الإقتصاد عموماً، سواءً في الجزائر أو خارج الجزائر، و طرحه لفكرة العدالة الإجتماعية المتحقّقة بالعدالة الإقتصادية.

و هذه الفصول كلّها تأتي كتجسيّدات عملية للنّظرية و الفكرة الدّعوية و الفلسفية التي أرساها مولود قاسم، و التي عرضنا لها خلال الباب الأوّل من هذه الدّراسة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الأول:

الكفاح الدعوي في عمل

مولود قاسم الفكري

. المبحث الأول: كفاح مولود قاسم في تنظيم وزارة الشؤون الدينية

. المبحث الثاني: كفاحه في إرساء مؤسسة ملتقى الفكر الإسلامي

. المبحث الثالث: كفاحه في تحديد منظومة فكرية إسلامية.

تمهيد:

إن مولود قاسم نابت بلقاسم قبل أن يكون رجلاً سياسياً شغل مناصب عدّة لقرابة ثلاثين عاماً، فإنه رجل فكر أولاً، بل ورجل إبداع فكريّ حاول أن يبني مدرسة فلسفيّة تكون أرضيةً لبناء حضاريّ أصالي، سمّاها بمدرسة الإنيّة والأصالة.

وقد كانت مساهماته الفكرية و مشاريعه في مجال إرساء فكر أصالي هي التي أثرت في الساحة الثقافيّة الجزائرية و أثرت بعض ثمارها بصحوة إسلامية و فكرية أعادت للأمة الجزائرية سمعتها الحضارية و وجهها الشعوري المشرق و المشتاق إلى إحياء الرّوح النضالية من أجل التآلق في الفكر قبل العمران.

إن كلّ هذه الثمار ما كانت لتتجسد لولا مجهودات مولود قاسم خاصّة في إعادته هيكلية وزارة الشؤون الدّينية و بعثه الرّوح فيها و توسيع نطاق نشاطاتها بإبتكار مشروع المراكز الثقافيّة الإسلامية عبر كلّ التراب الوطني و تفرغ وقت الإمام لشغله الرّسالي داخل المجتمع. و ما هذه الصّحوة الفكرية النّابعة من الأصالة إلاّ ثمرة مباشرة أو غير مباشرة للنتقيات الفكر الإسلامي التي سعى مولود قاسم إلى إرسائها على أقدام ثابتة في الأرض و فروعها في المجتمع الشّباني توتّي أكلها في كلّ حين ياذن ربّها.

ثمّ إنّ مولود قاسم و بشهادة الكثيرين، و منهم أستاذه عثمان العكّك - و قد تطرّقنا إلى هذا في الفصل الثاني من الباب الأوّل من هذه الدّراسة - يُعتبر فيلسوف الإنيّة و الأصالة إذ عرفها و أعطاها معالمها و مميّزاتها و نفى عنها ما يعدمها و يهدمها، و بذلك فإنه سعى إلى إرساء مدرسة لمنظومة فكرية إسلامية تبنّاها من تبنّاها من بعده، و تناساها من تناساها، و لكنّ الرّجل له الأجر إن شاء الله و أجر كلّ من عمل بأفكار مدرسته من دون أن يُنقص ذلك من أجورهم شيئاً.

لذلك، فقد إرتأيتُ أن أقسم هذا الفصل إلى المباحث التّالية:

• المبحث الأوّل: كفاح مولود قاسم في تنظيم وزارة الشؤون الدّينية

• المبحث الثاني: كفاحه في إرساء مؤسسة ملتقى الفكر الإسلامي

• المبحث الثالث: كفاحه في تحديد منظومة فكرية إسلامية.

و سنعرض لمجهود مولود قاسم و كفاحه المتواصل لترشيد العمل الفكري و لإرساء مدرسته الفلسفية التي تفرّد بها و أشغل كلّ الآليات المتاحة بين يديه لأجل توسيع أنصارها و بالتالي أنصار البناء الحضاري الأصلي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول:

كفاح مولود قاسم في تنظيم وزارة
الشؤون الدينية

• المطلب الأول: كفاحه في إستعادة رموز الوزارة التاريخية

• المطلب الثاني: كفاحه في إستعادة هيبة إمام المسجد

• المطلب الثالث: كفاحه في إرساء بعض المؤسسات في الوزارة

شغل مولود قاسم نائبا بلقاسم منصب وزير الشؤون الدينية لمدة عشر سنوات من أوائل سنة 1970 إلى غاية نهاية سنة 1979 خلال حياة الرئيس هواري بومدين، وذلك مع بقائه مستشاراً لدى رئيس الدولة في شؤون الإتجاهات الكبرى للبلاد. عشر سنوات كنّ فال خير على البلاد ثقافياً و دينياً و فكرياً، و على الوزارة التي عرفت على يديه إزدهاراً بل و تأسيساً حقيقياً. يقول الأستاذ المأمون القاسمي في محاضرة عن المرحوم مولود قاسم ألقاها في بني يزقن يوم 01 نوفمبر 1992: ﴿إسمحوا لي أن أقف معكم، في هذا التدخل المتواضع، عند بعض المحطات البارزة في سيرة الوزير مولود قاسم، مقتصرًا على أهم ما عرفت عن هذه المرحلة، و المنجزات التي حققتها خلالها، وزيرًا للتعليم الأصلي و الشؤون الدينية، ثم وزيرًا لدى رئاسة الجمهورية مكلفًا بالشؤون الدينية، و إستغرقت هذه المرحلة كما تعلمون فترة دامت نحو سبع سنوات (جوان 1970- فبراير 1979). يمكننا القول، دون مبالغة، أن كمال التأسيس الحقيقي لهذه الوزارة، إنما تم على يد مولود قاسم، رحمه الله، الذي أعطاها نفسًا قويًا، منذ تقلد زمام أمورها...

بدأ بتغيير إسمها، من وزارة الأوقاف إلى وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، ثم جعل عنوانها يعكس بحق حجم نشاطها و قيمة منجزاتها﴾(1).

و لقد سعى مولود قاسم خلال هذه الفترة أن يؤسس هذه الوزارة ببعض المؤسسات و طور بعض التي كانت موجودة و أعطاها بُعدًا ثقافيًا و وطنيًا من حيث الإعلام و الإستحواذ على إهتمام السلطات و الفئات الشعبية، وأوصل بعضها إلى العالمية كمثل ما فعل بملتقيات الفكر الإسلامي. و سعى كذلك إلى جعل الوزارة تمثل الجميع وتكون الإجماع الوطني من طرف كل فئات الشعب الجزائري، إذ يحكي عنه الأستاذ سعيد آيت مسعودان - الوزير السابق-، فيقول: ﴿إن أروع إنجاز ظلّ يفتخر بتحقيقه في هذا الإطار التوحيدي لأجزاء

الأمة، هو قيامه كوزير للشؤون الدينية، بتأدية صلاة الجمعة بالقرارة بجانب الإمام إبراهيم بيوض
رحمهما الله، و كلّ الإخوة الفضلاء، من أعيان منطقة وادي ميزاب الأصيلة و الحصينة» (2).

و نستطيع أن نجزم أن أكبر المنجزات التي أنجزتها الحركة الدينية الجزائرية من جامعات و مساجد كبرى و قوانين
شرعية وجدت التجسيد في بعض مجالات الحياة، و تأسيس للمجلس الإسلامي الأعلى و من تحويل عطلة
الأسبوع... و المنجزات كثيرة، ليست إلا جزءاً من حسنات و ثمرات جهد الرجل المفكر الذاعية و السياسي
مولود قاسم نايث بلقاسم. و كان حقيقة تجسيدا لشعار تلك السنوات: «الرجل المناسب في المكان المناسب»،
فدافع عن رموز الشخصية الوطنية الجزائرية. إذ يقول مثلاً الأستاذ المأمون القاسمي: «كان للأستاذ مولود قاسم
جولات و صولات، في مجال محاربة التمسيح، و تعطيل وسائله... حاربه بلسانه، في مناسبات
مختلفة، و حاربه بقلمه، فيما نشره في الصحف و المجلات، و في تحليلاته العميقة، في ملتقيات الفكر
الإسلامي، و من خلال المراسلات المتعددة مع المصالح المعنية في الدولة، و ما زلت أذكر حديثه
الحازم مع ممثلي الكنائس المختلفة الذين زاروه في مكتبه، و دعوته إليهم، بشدته المعهودة، أن يعتنوا
بأبناء طوائفهم، و يتركوا أبناء المسلمين...»

... و يسجل التاريخ للوزير مولود قاسم عمله لوقف نشاط الجمعيات المسيحية المتعددة المشارب
و المذاهب، و سحب الصفة القانونية منها. فقد كانت أكثر من عشرين جمعية، تنشط في إطار ما
يسمونه (بالعمل الإنساني)...

و بعد دراسة الأمر مع بعض الجهات المعنية، إقترحتُ على السيد الوزير أن نغتنم فرصة إلزام
الجمعيات القائمة بتجديد ملفاتها، و تقديم قوانينها الأساسية، وفقاً لأحكام القانون الجديد
للجمعيات الذي دخل حيز التطبيق عام 1972... نغتنم هذه الفرصة، لنجبر ممثلي الطوائف الدينية
الثلاث: الكاثوليكية و البروتستانتية و الإسرائيلية على الإكتفاء بجمعية واحدة منها، على أن
يلتزم الجميع بالنص صراحة في القانون الأساسي، على أن نشاط الجمعية يتجه، بصفة خاصة، إلى

أبناء طائفتها المقيمين، مع الإلتزام بالإمتناع عن أي شكل من أشكال النشاط الإنساني، الذي كان يغطي حقيقة نشاطهم التبشيري في أوساط المسلمين.

و سُرَّ السيد الوزير غاية السُّرور بالإقتراح المذكور، و أمر على الفور بالشروع بإتخاذ الإجراءات الكفيلة بتحقيقه، و لم يكن الأمر هيناً، كما قد يتصور البعض، فقد لقيَ معارضةً و عراقيل في طريق تنفيذه، لكنَّها لم تصمد أمام إرادة الوزير الحازم و تصميمه... ﴿(3)﴾. هذا على مستوى حماية بعض الأشياء حفاظاً على إنية المجتمع الجزائري، أما من جهة أخرى فإنه حاول أن يبني بعض المؤسسات لتحقيق الأصالية و إستعادة بعض رموز المجتمع الجزائري المادية و المعنوية حتى أثمرت جهوده بكثير من المنجزات، البعض منها أزهق، و البعض الآخر صمد بتجلد و تأثر لتيار التغريب و الانفصالية و المسخ و الفسخ و النسخ. يقول الأستاذ أحمد شقار الثعالبي: ﴿عَيَّنَ وزيراً للشؤون الدينية في أوائل سنة 1970، و فيها إزدهرت جهوده فأثمرت منجزات رائعة... لقد وجد هذه الوزارة شبه إدارة في وزارة فنفتح فيها من روحه و وصل بها إلى مستوى عاد على الإسلام و لغة القرآن بنتائج ما كانت لتصدَّق لولا أنها تجسّدت واقعا ملموساً﴾ (4).

و إرتأيتُ أن أطرق باب هذا الواقع الملموس الذي تكلم عنه الأستاذ أحمد شقار الثعالبي من خلال ثلاثة مطالب توضح منجزات مولود قاسم و كفاحاته الدعوية لصالح الأمة و دينها و رسالتها الحضارية الأصالية أيام تولّيه لوزارة الشؤون الدينية، و هي:

• المطلب الأول: كفاحه في إستعادة رموز الوزارة التاريخية

• المطلب الثاني: كفاحه في إستعادة هيئة إمام المسجد

• المطلب الثالث: كفاحه في إرساء بعض المؤسسات في الوزارة

كفاحه في إستعادة رموز الوزارة
التاريخية

أقصد بالرموز التاريخية للوزارة بعض التحويلات الثقافية و الإجتماعية التي عمد إليها مولود قاسم على المستوى السياسي و الإجتماعي، حتى تكون الوزارة بحق تمثل قاعدة شعبية متلاحمة مع ذاتها الحضارية، و يكون للوزارة دوراً رسالياً في رسم أعراف المجتمع الجزائري بما يلائم شخصيته الإسلامية و يعود به إلى سكّته الحضارية التي نهجها منذ عهد الفتوحات الإسلامية. فحاول مولود قاسم أن يستعيد رموزاً مادية و أخرى معنوية تجسّد محاربة عملية الفسخ و المسخ و النسخ و ظاهرة الانفصال عن الإنّيّة، و تبعث الظاهرة الحضارية للشعب الجزائري ببعض المعالم الواقعية التي هي وسائل و منبهات للحياة الأصالية للأمة، تلك التي ينبغي أن تستأنف و تتواصل و تبعث بعد توقّف لتعطي وجه الأمة تميّزه عن باقي وجوه أمم العالم.

لقد حاول مولود قاسم أن يُعيد الأمور إلى نصابها، بادئاً بالمساجد التي تحوّلت في العهد الإستدماري إلى كنائس و كاتدرائيات، و أولها مسجد كتشاوة بالجزائر العاصمة، الذي سبق و أن إستعاد صفته كمسجد بمجرد إستعادة إستقلال البلاد، و لكنّه تبعته مساجد أخرى أكثرها في السبعينات، أيام كان مولود قاسم وزيراً للشؤون الدينية و يقول هو بنفسه عن عودة مسجد كتشاوة إلى أصله: ﴿جامع كتشاوة كان مسجداً كبيراً أسّس في القرن السادس عشر. و بمجرد تغلّب الجيش الفرنسي المعتدي على المقاومة في العاصمة و النزول فيها يوم 5 يوليو 1830، و في الوقت الذي أخذ فيه الجنرال دوبرمون يرفع العلم الفرنسي على مقرّ رئاسة الدّولة، وضع بنفسه الصّليب على جامع كتشاوة و حوّل إلى كندرائيّة، و بقي كذلك إلى يوم

إستعادة إستقلالنا، فصليت فيه أوّل صلاة جمعة في عهد العودة إلى أصله. فهذا الجامع إذن هو رمز إسترجاع حريّتنا، و عزّة ديننا، و إستقلالنا، لأنّ إسترجاع الثروات الماديّة فقط لا يكفي، بل لا يفيد، و ربّما يضرّ، إذا لم يكتمل، إذا لم يُحصنّ بالجزء الرّوحي ﴿(5)﴾.

و لقد أراد مولود قاسم أن يجعل من وزارة الشؤون الدّينية و من الرّموز التاريخيّة المرتبطة بالدّين ضامن التّحصين الرّوحي للبناء الحضاري الحاصل بعد إسترجاع الإستقلال الوطني، لتلعب الوزارة دورها حقيقةً ضمن المنظومة السياسيّة و الفكريّة و الإجتماعيّة لجزائر ما بعد الإستعمار.

كان مولود قاسم ينظر إلى هذه الرّموز، المعنوية منها و الماديّة، على أنّها جوهر الحياة الحضارية المتجسّدة في وجه ثقافي و إجتماعي يشكّل الإنيّة و الشّخصيّة، و يقول الأستاذ مأمون القاسمي عنه في هذا الموضوع: ﴿و ردّ على من إعتبر هذه الأمور مجرد شكليات، بقوله: «إنّ غلواءكم في التّضحية بما تسمّونه الشكليات، كالتعريب و الجمعة، و العادات القوميّة، قد يُحوّلنا إلى مجموعة أشكال، بدون روح»﴾ (6).

إنّه سعى بكلّ ما يملك من جهد و قوّة و نفوذ في السلطة إلى أن يغيّر ملامح وجه الحياة الإجتماعيّة و الثقافيّة التي يعيشها المجتمع الجزائري، فسعى إلى تغيير العطلة الأسبوعيّة حفاظًا على العنوان الحضاري الإسلامي للدولة الجزائرية، و كان يقول: ﴿و كما عاد كتشاوة جامعًا بعد ما كان تحوّل إلى كتدرايّة، نتساءل عن يوم الجمعة كيوم عطلة أسبوعيّة رسميّة متى يعود بدوره، مع عودة الإستقلال، بعد أن إختفى و ترك مكانه للأحد، كما ترك جامع كتشاوة مكانه للكتدرايّة، يوم 5 يوليو 1830﴾ (7)، ثمّ بذل الجهد و الوقت اللّازمين حتى وصل إلى المتبغى و المنشود سالكًا الخطابات و الكتابات و الإتّصالات و الكواليس، إذ كتب يقول: ﴿كذلك كان الوضع عند المسلمين، و عندنا في الجزائر خاصّة حتى سنة 1830، كما أشارت إلى ذلك بعض الجرائد الفرنسيّة الكبرى منذ أشهر! أي بالجمعة مع ظهريّة الخميس!، و لكن منذ سنة 1830 و عطلة الأسبوع عندنا بيوم الأحد عوض الجمعة، أي أصبحت فرنسيّة كغيرها من مظاهر الحياة القوميّة و اليوميّة. و كان ينبغي أن يُصحّح الوضع في هذه النّقطة بالذات منذ

إسترجاع الإستقلال و السيادة سنة 1962، و هي لا تُكَلِّفنا كثيراً، و لا قليلاً، و لا تتطلّب إطارات و متعاونين، و لا رؤوس أموال! ﴿8﴾. و قد كتب هذا في شهر أكتوبر من سنة 1971 مركزاً على أهمية مظاهر الحياة اليومية في تشكيل ملامح الحياة القومية و الإنويّة و بلورة الشخصية الإجتماعية في قالب حضاريّ متميز. أما ما يدلُّ على أنه كان يسعى من وراء الكواليس لتغيير العطلة الأسبوعية، فهو ما كتبه يقول: ﴿كُنَّا نودُّ أن يكون يوم الجمعة هو يوم العطلة الأسبوعية. و قد طلبنا ذلك من المنتقنين الرابع و الخامس في قسنطينة و وهران، و كتبنا في ذلك في مجلّة الأصالة، و طالبنا مراراً و مراراً، و وعدنا بذلك، ولكن لم يُطبّق بعد﴾ ﴿9﴾.

و لقد ركّز على الزاوية الرّوحية و على الزوايا التاريخية و السياسية و الثقافية لإرجاع الأمور إلى نصابها، فكتب يقول:

﴿و مهما يكن من أمر، فإنّ يوم الأحد قد فُرض كيوم عطلة أسبوعية في الجزائر ابتداءً من 5 يوليو 1830، و لذا فقد كان من المفروض أن يُعاد الحقّ إلى نصابه في اليوم المشهود، أي في يوم 5 يوليو 1962، يوم أن إستعادت الجزائر إستقلالها، أي ليوم الجمعة الذي هو اليوم الحقّ لا من النّاحية الزّمنية فحسب، بل كذلك من النّاحية المنطقية أيضاً، سواءً نظرنا إلى المسألة من الزاوية الرّوحية، أو التاريخية، أو السياسية، أو الثقافية، أو باختصار: من الزاوية الوطنيّة﴾ ﴿10﴾.

و سعى من جانب آخر، ضمن إسترداد معالم الحياة الثقافية و رموز التميّز الحضاري، إلى إحياء الإنضباط في الحياة اليومية بالتاريخ الهجري، و ذلك ما يحكيه عنه الأستاذ المأمون القاسمي إذ يقول: ﴿كان همّه الكبير أن يوضع تقويم قمري موحد، يتفق عليه في مستوى العالم الإسلامي، و تلتزم به الأمة الإسلامية كلّها، في صومها، و أعيادها، فتتحد مواسمها الدّينية، و يزول الخلاف بينها، فعندما يُعرف الشهر الهجري مقدّمًا و يُعمل به، يرجع للتاريخ الهجري إعتباره، و تعود قيمته العملية في الحياة اليومية و القومية للمسلمين، أفرادًا، و مجتمعات، و أمة واحدة، و هو ما سعى إلى تحقيقه، في حدود إمكاناته، بادئًا

بوضع التقويم السنوي، ونشره في يوميات للمكتب و مفكرة للجيب، ابتداءً من عام 1393هـ/1979م (11)، وقد أراد مولود قاسم أن يعتم هذا العمل على كامل بقاع العالم الإسلامي حتى يضع مؤسسات معنوية لكلمة الأمة، ولتجسيد الوحدة الإسلامية حتى فيما يخص تميزها الحضاري بالتاريخ الهجري، إذ كتب يقول: ﴿بقي أن هذا الذي تم في الجزائر لا يكون له مغزاه كاملاً إلا إذا تم على مستوى العالم الإسلامي وتوحدت الأعياد والأيام الكبرى، وكان هناك تقويم ثابت عام، كما هو الشأن بالنسبة لليهود والمسيحيين في جميع أنحاء العالم أو أغلبها، وهذا ما يجب علينا أن نحققه هنا﴾ (12)، وكان هذا الكلام جزءاً من خطابه سنة 1973 في الكويت أمام وزراء الأوقاف والشؤون الدينية وبعض العلماء من مختلف بلدان العالم الإسلامي، ولكنه لقي معارضة شديدة من عديد من الجامدين القابعين على ضرورة التمسك فقط بالرؤية بالعين المجردة وعدم اعتماد الحساب في ميلاد الهلال، فكتب يقول: ﴿طبعاً وجدنا أمامنا بعض من ظل أياماً يردد ذلك الحديث: «إنا أمة أمية لا تقرأ ولا تحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا، أو هكذا وهكذا، وعقد إبهامه»، أي 30 أو 29 يوماً!، ولكننا ذكرنا لهم ما أفتى به الإمام محمد رشيد رضا من جواز، بل ضرورة استعمال الحساب الفلكي في العبادات، وبالتالي إتخاذ تقويم قمري ثابت على الحساب، إستناداً إلى روح الشريعة الإسلامية، ومقاصدها التي تدعو إلى اليقين الذي يفيد العلم بوسائله الحديثة، مما يمكننا من التثبت من إمكانية رؤية الهلال يوم مولده، علمياً، سواء رؤي أو لم يُر بالعين المجردة، حيث أن رؤيته ليست تعبدية و غاية في ذاتها، وإنما هي وسيلة و أداة، فمتى تحققت إمكانية رؤيته لنا شرعاً صح العمل بها، بل وحب، أي أن الرؤية الحكمية تُغني عن الرؤية الفعلية غير المضمونة﴾ (13).

فكان مولود قاسم ينظر إلى هذه الأمور على أنها ليست مجرد شكليات، بل هي روح ثقافة الأمة في حياتها اليومية و الإجتماعية التي تجسد واقعاً إنيتها و شخصيتها و تميزها الحضاري، لذلك فإنه سعى إلى إسترجاعها و نفع الحياة فيها و تجسيدها في معاش الأمة الجزائرية، إعادة للأشياء و الأمور و العادات و الأعراف إلى نصابها، و إلى مكانها.

كفاحه في إستعادة هيبته

إمام المسجد

إن مولود قاسم نابت بلقاسم كان لا يرى أيّ قيام حضاريّ متين دون أن يتبوأ إمام المسجد مكانة مرموقة ورساليّة، يوجّه منها الأمة و يرشدها في بنائها الأصلي و تشييدها لدولة جزائر ما بعد الإحتلال. لذلك فإنّه سعى إلى تحسين أحوال الإمام و ترقية وضعيته المهنيّة حتى يتفرّغ لعمله المصيري في حياة الأمة الذي يقول عنه بنفسه: ﴿فالإمام في كثير من النظم الإسلاميّة هو الخليفة، هو الأمير، هو السلطان، هو الملك، هو رئيس الجمهوريّة، هو رئيس الدولة، كما تشاؤون. إذن المطلوب منكم أن تقوموا على مستوى مسجدكم مع المصلّين، أن تتحمّلوا مسؤولياتكم كاملة في تتبّع شؤون البلاد، في تتبّع نهضة البلاد، في المساهمة في تنمية البلاد في جميع مجالات البناء، بل و في نهضة الأمة الإسلاميّة كلّها، و تتجاوزوا حدود الوطن بنشاطكم، و بتوعيتكم، و بسهركم، و بحرصكم، و تكونوا الرّعاة الوعاة، و الدعاة السّعاة!﴾ (14).

و انطلاقاً من هذا الدور الحضاري الرّيادي و الرّسالي لأئمة المساجد الذين لا تخلو آية قرية أو بلدة منهم، و شعوراً بضرورة حتّ رجال السّلك الدّيني للإسهام و المشاركة في البناء الحضاري الهامّ و الإبقاء على إنّيّة و أصالة الأمة و نفع الرّوح في الهيكل الشّكلي للتشييد العمراني الذي يحتاج إلى توجيه معرفي و أخلاقي و ضابط روحي، فإنّ مولود قاسم - بما أوتي من منصب - تفضّل إلى أهميّة إدماج الإمام ضمن الحياة العامّة بالبدء أولاً بإراحته من شقاء و متاعب الحياة ليتسنى له التفرّغ لعمله الرّسالي الحاسم في حاضر الأمة و الدّولة و الصّالح العام. يقول الأستاذ المأمون القاسمي: ﴿قبل كلّ شيء، أودّ أن أسجّل إهتمام مولود قاسم بتحسين الأوضاع الماديّة لرجال

السلك الديني، و إدماجهم في سلك الموظفين العموميين، ابتداءً من عام 1972، و ترتيبهم، حسب درجاتهم العلمية، على غرار العاملين في قطاع التربية و التعليم. و هذا إنجاز لا يُستهان به، إذا ما علمنا أنهم كانوا من قبل ممنوحين، يتقاضون منحة مؤقتة مزرية، تقلّ على الحد الأدنى للأجور! (15). و يقول حتى مولود قاسم، مهندس القضية و العملية، هو بنفسه عن هذه الخطوة الجبارة في استعادة مكانة الإمام و هيئته داخل مجتمعه حتى لا يتعرّض للهوان و مذلة السؤال و البحث عن العمل تحت سلطة أيّ أحد، كاتباً عن هذا الإنجاز في كتابه «إتية و أصالة»: ﴿و لنبدأ بالحقوق: فقد رُسموا، و هم موضوعون الآن على نفس قدم المساواة مع أيّ موظف كان، في وزارة الخارجية، أو الدفاع، أو الداخلية، أو المواصلات، أو التجارة، أو الصناعة. فلهذه مرتبة شهريّة ثابتة قارّة، يزداد طبعاً حسب السلم الوظيفي، و لهم التقاعد مثل سائر الموظفين، و لديهم الإجازة السنوية كسائر الموظفين، و لديهم المنح العائلية على الأولاد و الزوجة كسائر الموظفين، و لديهم الضمان الإجتماعي للعلاج و إسترداد حقوق الأدوية، كسائر الموظفين. فهم يتمتعون بجميع الحقوق التي يتمتع بها غيرهم من الموظفين﴾ (16).

لكن مولود قاسم، بعد هذا الإنجاز الذي لا يستهان به، كان يعلم أنّ هبة الإمام و مكانته في المجتمع يجب أن يثبتها في الواقع و يصنعها الإمام بجهد المتواصل و النصح للأمة و لبناتها الحضاري. لذلك فقد ألقى عليهم تبعات و واجبات بعد أن أشبعهم حقوقاً ما كانت في الحسين، ليرفع بهم مستوى الوزارة التي يقودها و يبرزوا دورها الريادي غير ذلك الذي كانت تصدّي له قبل مجيئه إليها. فكتب يقول موجّهاً خطابه لأئمة المساجد: ﴿هذا هو معنى الزاوية، هذا معنى الأوقاف، مع الأسف، في عصور الجمود، و الخمود، و الهمود من حياة الأمة الإسلامية. الأوقاف لم تعد تلك المؤسسات التي قامت بدورها الكبير في تاريخ الإسلام. و لكن في الوضع الحالي الذي إنزلت إليه في العصور الراكدة للإسلام، و للحضارة الإسلامية،

و للدولة الإسلامية، أصبحت كلمة أوقاف، كلمة الحبوس (أو الحبوس بالضم، كما يقول الجهلة)، أصبح معناها الزوايا والتكايا، والصدقة، والزردة، والوعدة، والقعدة ﴿(17)﴾.

ولكي يتصدى الإمام لمهامه و واجباته، فإنه يجب أن يتسلح بكثير من العلوم وبتكوين شامل يؤهله للقيام بعمله على أحسن وجه، لذلك فقد أسس مولود قاسم معاهدًا لتكوين الأئمة في كل من تيزي وزو و البليدة، و سطر بنفسه برامج التكوين التي حاول الإبداع فيها و التنوع في محتوياتها لتشمل حتى العلوم الاجتماعية و النفسية و الفلسفية و بعض الأفكار و الأيديولوجيات الحديثة. و لقد ردّ على من إستنكر وجود هذه المواد في تكوين أئمة المساجد من بعض طلبة هذه المعاهد، بقوله: ﴿لا! بل يهتمكم أنتم كغيركم، و ربّما يهتمكم أنتم أكثر من أيّ أحد آخر، لأنكم أنتم لديكموه، و إن كان مفروضًا فيهم جميعًا، كمسلمين، و الإسلام لا يعترف بهذا اللاهوت و الكهوت، ذلك السلك الديني الخاص بالطقوس الدينية فقط، المفصول عن الدنيا. لا، لأن الإسلام، كما قلنا، دينٌ و دولة، و نظام إجتماعي كامل﴾ (18).

أمّا عن المهام و الواجبات التي أناطها مولود قاسم بالإمام في مسجده قبل واجباته خارج المسجد، فإنه كتب عن ذلك يقول: ﴿أمّا الواجبات، فزيادة عن تلك التي نسميها "التقليدية"، و إن كانت هذه الكلمة تستعمل دائمًا بنوع من الإحتقار و السخرية، فإلى جانب المهام التقليدية، من القيام بالصلوات، فهناك أشياء قلنا لهم عليهم القيام بها، و أكدنا لهم دائمًا: «إذا كنتم مقتصرين في أداء عملكم على الصلوات، غافلين عن معنى الصلاة و تقويمها للنفوس، فإنّ صلاتكم و صلاة الذين تأمّنونهم باطلّة، لأنّ الصلاة لا تؤخذ عليها أجره، و إنّما الأجره على ملازمة المسجد، و هداية أميّه، والعمل داخل و خارجه لعمارته حسًا و معنى، فلا بدّ إذن أن تقوموا بعمل يُضاف إلى هذا، كما قام به أئمة الإسلام في العهود الزاهرة له»، فأضفنا إليهم الأشياء الآتية من جملة ما أضفنا:

أولاً: تحفيظ القرآن الكريم، هذا واجب، مهمّة إجبارية، تحفيظ القرآن الكريم للصغار.

ثانياً: الدروس التقليدية، الفقه، والحديث، والنحو والصرف... حسب مستويات الأئمة،
وحسب مستويات المصلين.

ثالثاً: مكافحة الأمية لدى الكبار، في المساجد، وقد بدأنا في السنة قبل الماضية، في أواخر 1970، في
جميع أنحاء البلاد، الدروس لمكافحة الأمية للكبار بالسبورة و بكتاب منهجي حسب النموذج الذي
وضعتَه اليونسكو (19). و قد ألقى على عواتقهم المسؤولية في عدم عودة الأمة إلى حياتها الروحية، وأنذرهم
بخطر دورهم في حياة المجتمع الإنوي، وأنهم مطالبون بتكثيف الجهود للمحافظة على شخصية الأفراد والجماعة،
إذ يقول لهم مثلاً عن مسألة التبشير التي تمشي و تنفسي في فراغ روحي و ثقافي و ديني:
﴿و لن كُنَّا اليوم ليس لدينا نصارى، و لكن بفضل نومكم، بفضل تكاسلكم، و تهاونكم،
وإرتخائكم، و هلهلة أوصالكم، و تفكك أجزائكم، ستتشر النصرانية في هذه البلاد في وقت من
الأوقات ليس بالبعيد كثيراً!﴾ (20).

أما عن دور الأئمة - أو من يسميهم هو رجال الدين لأن الحياة تطورت إلى عصر التخصص - وواجبهم خاصة،
في حياة المجتمع العامة، أن يواكبوا النمو الإجتماعي للمجتمع الجزائري و مستجدات العصر، و لاسيما أولئك
الأئمة الذين يشكلون لجنة الفتوى في وزارة الشؤون الدينية أو أعضاء المجلس الإسلامي الأعلى، فإن مولود قاسم
يقول لهم:

﴿نحن لا ننتظر منكم فتوى، و نحن ضد الفتاوى الإدارية، ضد الفتاوى الشكلية، المتسرع فيها، نحن
ضد هذا. و كنت أوصي بهذا دائماً لجنة الفتوى في الجزائر، المتكوّنة من أعضاء من الوزارة، و من
المجلس الإسلامي الأعلى - و المجلس الإسلامي الأعلى نفسه متكوّن من أساتذة من عدّة مؤسسات
في الجزائر، من الجامعة، و من الوزارات المختلفة، و من أناس يشتغلون في مهن حرّة - أقول لهم
دائماً: «لا نريد فتاوى إدارية؛ نريد منكم فتاوى شرعية أصلية، تتراحون في إصدارها إلى
ضمانركم، و أنتم غداً تُسألون عن ذلك أمام الله». أقول لهم دائماً ذلك، و في نفس الوقت أضيف

دائمًا: «راعوا المبدأ المعلوم في أن دفع الأضرار مسبقًا على جلب المصالح»، و «الضرورات تبيح المحظورات»... إلخ من مقاصد الشريعة الإسلامية، و ما ترمي إليه في الصميم، خذوه بالإعتبار» (21).

فكلّ هذه التنظيمات و الجهود و المساعي و البرامج بذها مولود قاسم ليستعيد للإمام مكانته المعزّز فيها و المكرّم بها داخل المجتمع، و ليحمله يتفرّغ لمهامه الحضارية و الدعوية الرّسالية حفاظًا على الإنيّة و الشّخصية الوطنية و على ضمان بناء عمران أصالي.

عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الثالث:

كفاحه في إرساء بعض المؤسسات في الوزارة

لما جاء مولود قاسم إلى وزارة الأوقاف التي حوّلها فيما بعد إلى وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، وجدها شبه إدارة في وزارة، فسعى إلى توسيع مهامها و مؤسساتها، و أثمرت جهوده على عدّة منجزات عادت على عمل الوزارة بالخير و على المجتمع الجزائري بأكمله بالوعي و الرّشاد.

أولى هذه المنجزات و المؤسسات التي أرساها مولود قاسم و وسّع مهامها ما سُمّي بالمجلس الإسلامي الأعلى، إذ يقول عنه و عن مهامه - في كتابه «إنية و أصالة»-: «مجلس إسلامي أعلى يهتمّ كلّ الإهتمام بقضايا جاليتنا في فرنسا، و أوروبا عامّة، و ريثما تنطلق المفتشية الدائمة هناك، و يدرس قضايا إسلامية، لإصدار فتاوى تتصل بشؤون هذه الجالية في مختلف المواضيع من إجتماعية، و إقتصادية، لا دينية محضة فقط، لأنّ الإسلام دينٌ و دولة، و يتصل بكلّ شيء، و بجميع المواضيع. و قد قال لكم في السنّة الماضية، بالنسبة للذين حضروا منكم ملتقى وهران، قال لكم الدكتور بوعلام بن حمودة، وزير العدل، أنّه وضع بين يدي المجلس الإسلامي الأعلى هذا مشروع قانون الأسرة ليدي برأيه فيه، و ليعلّق، و يضيف، و يحذف، و يعدّل، و يصادق، و يعارض، و هذا ما قام به فعلاً المجلس الإسلامي الأعلى. و كذلك تكلم في مسائل أخرى عديدة تتصل بالبنوك و مواضيع أخرى متنوّعة. فهو يجتمع من حين لآخر حسب المواضيع، تتصل بالطبّ مثلاً، و زرع الأعضاء، و قد جاءت طلبات فتاوى حتى من لبنان، فعرضناها على المجلس، و هذا المجلس عندما يتكلم عن مواضيع طيبة يدعو

أطباء من الجامعة و يحضرون بكلّ حُسن إستعداد، فيشرحون لهم الموضوع من الناحية الطبيّة، والأساتذة أعضاء المجلس الإسلامي الأعلى يُصدرون الفتوى على ضوء العلم للتوفيق مع الدين. وهذا المجلس ليس مكوّنًا من موظّفين من الوزارة، أو من العلماء بالمعنى التقليدي، فقط، و لكن هناك أيضًا أساتذة من مختلف الجهات، من الجامعة، و من المحامين، و من فيئات عديدة أخرى ﴿(22)﴾. و قد أشار مولود قاسم في كلامه هذا إلى تلك المفتشية التي تهتمّ بشؤون المغزبين من أبناء المسلمين في الخارج، وخاصة في دول أوروبا حيث تتواجد أعداد كبيرة من هذه الجاليات المسلمة، و تعتبر هذه المفتشية من الإنجازات و المؤسسات التي نمت و بُنيت في فترة تولّيه هذه الوزارة، و هو يقول بنفسه عن ذلك: ﴿سنكمل هذه الجهود بما سيأتي، و هو أنّ قرارًا إتخذ، و سيدخل إن شاء الله حيّز التنفيذ، بإنشاء مفتشية دائمة قارة لهذه الوزارة في باريس لتركيز عملها على جاليتنا، على العمّال، و الأسر الجزائرية، و المغربية، و الإسلامية عامّة في أوروبا﴾ ﴿(23)﴾.

و يذكر مولود قاسم أنّ هذه المفتشية قد تمّ إنشاؤها بالتنسيق مع وزارات الشؤون الدّينية لبعض البلدان الإسلامية الأخرى، و أنّه من مهامّها الوصاية على مسجد أو جامع باريس و إنشاء مركز ثقافي إسلامي بجنبه إلى جانب مدرسة عربية، و هذا ما يوضّحه قائلا: ﴿هناك أيضًا مساع مشتركة تقوم بها البلدان الشقيقة، المغرب، و تونس، و الجزائر، لتحويل جامع باريس الموجود حاليًا، و الذي يعيش ظروفًا تعلمونها... و قد قامت الدول الثلاث بمساع مشتركة لدى السلطات الفرنسية، التي أبدت إستعدادًا للتّفهم، و التّفاهم، و إيجاد حلّ جذري نهائي لهذا الموضوع، و هو أن يُعاد هذا الجامع إلى أهله، و يُنظّم من أهله، و يضمّ إليه - و هذا ما تكلمنا فيه مع الإخوان التونسيين و المغاربة، و أستطيع أن أقول لكم أنّ هذه الدّول الثلاث كذلك موافقة و مصادقة على هذه الخطّة. و قد تكلمت مع الرئيس بومدين هنا، و تكلمت مع جلالة الملك الحسن الثاني في الرباط منذ أشهر، و هما مؤيّدان كلّ التأييد لهذه الخطّة، و كذلك الإخوان التونسيون، على مختلف المستويات، متفقون معنا كامل الإتفاق، فسبّوسّع

هذا الجامع، و سيُضاف إليه مركز ثقافي تُلقى فيه المحاضرات، و تعرض فيه أشرطة، و يكون ملتقى بين الثقافات، الثقافة العربية الإسلامية، و الثقافات الأوروبية المتعدّدة وغيرها من الثقافات... و إلى هذا سيكمل - و هذا الإقتراح، و وافق عليه كذلك الكثير، و سيتم إن شاء الله - سيكمل الجامع و المركز الثقافي بثانوية مزدوجة Bilingue ﴿24﴾.

و بخصوص المراكز الثقافية، فإنه كوّن شبكة لها داخل أرض الوطن بدأها بالمركز الثقافي الإسلامي بالجزائر العاصمة، و لازالت هذه المراكز الثقافية الإسلامية تحتلّ، إلى يومنا هذا، معظم مدن الجزائر و تقوم بنشاط ثقافي أصلي، و هو بعض من حسنات مولود قاسم. يقول الأستاذ المأمون القاسمي: ﴿أما عن المركز الثقافي الإسلامي الذي أنشأه في العاصمة، و خطّط لإقامة فروع له في جميع ولايات الوطن، فأكتفي بالإشارة إلى أنه كان يُتابع بنفسه برنامجه الأسبوعي الذي كان حدّه الأدنى محاضرة أو ندوة، أو فيلمًا علميًا أو تربويًا متبوعًا بمناقشة. و كان لا يغيب عن محاضرة الأسبوع، إلا إذا كان خارج الوطن، بل و فرض على إدارات الوزارة دون إستثناء حضور نشاط المركز﴾ ﴿25﴾.

و قد ركّز مولود قاسم أيضًا على توسيع عدد المساجد و الجوامع داخل البلاد، و ساهم في بناء عدد كبير منها بواسطة القرار السياسي و إدراج بناء المساجد في مخطّطات التنمية للدولة الجزائرية. و قد أُجري له حوارٌ نشرته جريدة «الشعب» يوم 2 فيفري 1992، يرّد فيه على بعض تنكّرات وزير الشؤون الدينية وقتذاك لجهود من سبقه على رأس الوزارة، إذ قال فيه: ﴿بالنسبة للمسجد فليعلم حضرة الوزير إذا لم يكن قد سأل مساعديه أو راجع وثائق الوزارة أنّ عدد الجوامع بل حتى المساجد سنة 1970 عندما كُلفتُ بهذه الوزارة لم يبلغ 4500 مسجد بما فيه مساجد أبعد القرى، و هذا العدد الآن حسبما نُشر عبر الإعلام يُقدّر بحوالي عشرة (10) آلاف مسجد، و إذا تولّى الوزارة في السّنة الماضية فقط فلا أظنّ أنه هو الذي أنشأ بعضى موسى أو خاتم سليمان هذه ال 5500 مسجد أو أكثر في ظرف سنة واحدة، فهذه الجوامع و المساجد كانت الدّولة تُؤسّس مباشرة عددًا منها ليس فقط ألف مسجد لألف قرية زراعية

و المساجد موجودة، و لكنّ حتى في المدن الكبرى و المدن الصغرى، و مساعدة الدولة تبرز في الحقيقة أكثر في تدعيم الجهود الشعبية أي تيّرات المواطنين بمبلغ متدرّج سُجّل حتى في مخططات التنمية الثلاثية و الرباعية» (26).

و لتعمير هذه المساجد بأئمة ممتازين متصدّين للعمل الدّعوي بالكفاءة و العلم و الذكاء، فإنّ مولود قاسم فكّر في إنشاء معاهد لتكوين الأئمة بدأها بمعهدين في كلّ من البليدة و تيزي-وزو، ثمّ تطوّرت الفكرة إلى إنشاء جامعات و كليات إسلامية، و كان له ذلك بحدود غير الشّكل الذي كان قد نواه و تخيّل، و السّبب في ذلك هو إلغاء مشروع التّعليم الأصلي الذي أسّسه مولود قاسم و رعاه بنفسه.

يقول الأستاذ مأمون القاسمي عن إنشاء المعاهد الإسلامية: «أنشئت المعاهد الإسلامية، في الجزائر، سنة 1963، و كانت محدودة، كمّا و نوعًا، ينتهي التّعليم فيها بشهادة الأهلية التي لم تكن معادلة و لا مرسّمة بنصّ قانوني.

كان يُسمّى «التّعليم الديني» و سمّاه مولود قاسم «التّعليم الأصلي» إشارة إلى التّعليم، كما كان في العهود الزاهرة في الإسلام، في عهد ابن سينا، و ابن رشد، و ابن الهيثم، و البيروني و الرّازي و الخوارزمي، و غيرهم، حيث كان العلم بأسرار الكون و التّحكّم في الطبيعة واجبًا دينيًا، يُعلّم مع الدّين و علوم الدّين» (27).

و يحكي مولود قاسم بنفسه عن إرسائه هذه المؤسسات كإلجاز رائع يضاف كذلك إلى حسناته الكثيرة على الشّعب الجزائري و الصّحوة الإسلامية، فيقول:

«بالنسبة للتّكوين الديني، فليعلم حضرة الوزير الدكتور الهمام أنّه زيادة على تكميليات و ثانويات التّعليم الأصلي التي كانت تهتّى للباكالوريا ببرنامج مزدوج، برنامج التّربية الوطنية و برنامج إسلامي، و إذا كان هو قد أشار فعلاً إلى التّعليم الأصلي و إيقافه سنة 1976 بالميثاق الوطني الأوّل - فهناك خاصة المعاهد العديدة في الجهات الأربع للبلاد من تامنغاست إلى سيدي عبد الرحمان بجرجر

(جرجرة بالفرنسية) و إلى تلاغمة و غيرها. فضلاً عن معاهد أخرى مؤسّسة لهذا الغرض مثل أدرار، بل و تدعيم المعاهد الحرّة مثل المعهد الحرّ بأدرار و معهد مفتاح بولاية البليدة، كانت كلّها مخصّصة لتكوين السلك الدّيني (أئمة خطباء، مؤذنين) و بصفة أخصّ جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة التي أعلن عن تأسيسها سنة 1971 و ليس في 1984 كما قال سيّدنا الوزير - وهو موجود في الإعلام و من السهل التأكّد منه- و ذلك بعد جلسة رسميّة برئاسة المرحوم الرّئيس هواري بومدين و حضره المرحوم محمد الصديق بن يحيى و عبد الرحمن أو شيش مدير مؤسّسة البناء للجيش (دي، أن، سي) و المتحدّث الآن بصفتي وزير التّعليم الأصلي و الشؤون الدّينية.

و إسمحو أن أذكر لأوّل مرة للإعلام أنّي أنا الذي اقترحتُ توسيع مشروع قسنطينة إلى جامع كاملة بعد أن كان في عاصمة ماسينيسا و أحمد باي و ابن باديس (قسنطينة) زيادة على جامع كبير جدّاً الأوّل الذي اقترحتهُ اللّجنة الدّينية في قسنطينة بإشراف العقيد عبد الغنيّ مقتصرًا على الجامع فقط، و قلتُ للرّئيس الرّاحل أن الجوامع عندنا موجودة و كثيرة نسبيّاً و الذي نفتقر إليه أكثر خاصّة في قسنطينة و العاصمة الأولى منذ ما قبل الإسلام نفتقر إلى جامعة إسلامية كبيرة تمتدّ فروع كليّاتها المتعدّدة من الهندسة و الطبّ و الزّراعة... إلخ، إلى سائر أنحاء البلاد، و هذا زيادة طبعًا على الكليّات الإسلامية التّقليدية الموجودة في البلدان الإسلامية و هي كليّات الشريعة و أصول الدّين و اللّغة العربيّة» (28).

أمّا على المستوى العام، فإنّ مولود قاسم سعى إلى تطوير بعض المؤسّسات بزيادة صيغها الإعلامي و حيّزها من النّشاط الثقافي الوطني العام، فأسّس مجلة دورية أسماها بإسم «الأصالة»، كما وسّع نشاط ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت منتدّى سنويّاً يحتلّ حيّزًا هامًا في كلّ مدينة من مدن الجزائر التاريخية على التّوالي، ثمّ عبر كلّ السنة في التّلفزة التي كانت تعرض محاضرات و مناقشات الملتقيات بصفة دورية و منتظمة. و يقول عن كلّ ذلك الأستاذ الصحفي سعد بوعقبة: ﴿كان رحمه الله يعزّز بالمولود الجديد الثقافي الذي أصدره في وزارة

الشؤون الدينية و هي مجلة الأصالة التي أصدرها خلفاً للقبس التي كان يصدرها الوزير السابق العربي سعدوني. وقتها دوّخني رحمه الله بالحديث الغزير عن مفاهيم الإنّيّة و الأصالة، و قد ذهبت إليه في إطار عمل صحفي لكي يحدّثني عن مشروعه لتحويل «المسجد» من نظام «صليّ و ارفع سبّاطك» إلى نظام آخر يعلم القرآن و يمحو أميّة المسلمين!

كان رحمه الله يحدّثني عن المساجد كمراكز إشعاع ثقافي، و يحدّثني عن مشروع المعاهد الإسلامية التي تنتشل المطرودين من المدارس من الضياع و الجهل، و يحدّثني عن ملتقيات الفكر الإسلامي التي ينبغي أن تخرج عن صيغة الحديث عن مبطلات الوضوء إلى الحديث عن إسلام العلم و الإيمان، إسلام الإسهام في الحضارة الإنسانية، و يحدّثني عن النشر و الثقافة و المراكز الإسلامية، و كنتُ لا أستوعبُ ما يقول فأعمد إلى كتابته كما أنزل منه...! ﴿29﴾. هكذا يختم سعد بوعقبة بأسلوبه الخاص كلامه عن أهم إنجازات و مؤسسات الإنّيّة و الأصالة التي أرساها مولود قاسم أيام تولّى وزارة الشؤون الدينية، و التي سعى بها إلى إحياء العمل الثقافي الأصلي و شحن الفكر المسلم بفكر تنويري يساهم في البناء الحضاري الوفي لإنّيّة الأمتة.

كفاحه في إرساء مؤسسة
ملتقى الفكر الإسلامي

لقد سعى مولود قاسم نأيت بلقاسم -رحمه الله- و بذل كلّ الجهد لإرساء بعض المؤسسات التي تعكس تحرك الأمة نحو تحقيق أصالتها والحفاظ على إنيتها. و إتجه أكثر في عمله إلى الميدان الفكري لكونه كان يرى أنّ تشكيل المنظومة الفكرية هو الضامن لبقاء العمل الحضاري الأصلي الفعّال، فأرسى في ميدان التربية والتعليم منظومة تربوية لم تعش طويلاً، و لكنّها أثّرت بشكل عام على المنظومة التربوية العامة التي جاءت بعدها بمجموعة أولئك الذين إقتنعوا أو ربّاهم التعليم الأصلي و الذين تغلغلوا في هياكل التربية والتعليم، و أرسى فكرة الجامعات الإسلامية و لو بصفة مبتورة مقتضبة. و أرسى -أو بالأحرى طوّر- مؤسسة ملتقيات الفكر الإسلامي كسوق عكاظ يجلب إليه الإهتمام من العام و الخاصّ و حتى من القيادة السياسية للبلاد.

و عن هذه المنجزات الرائعة لمولود قاسم التي ساهم بها في ترشيد النخبة الفكرية للمجتمع الجزائري حتى ينطلق في بناء حضاري أصالي، يقول الدكتور أحمد بن نعمان متكلمًا عن جدّية و تفاني الأستاذ مولود قاسم:

﴿من الأعمال الكثيرة الشاهدة على تأصل هذه السّمة في شخصية الفقيه هو القمّة التي بلغتها ملتقيات الفكر الإسلامي في عهده، و كذلك هيكلية التعليم الأصلي و تأطير مؤسّساته و تشييد منشآته، ذات الطابع الخاص و الأصيل في كلّ جهات الوطن، و من علاماته الشائعة و الشاهدة مسجد و جامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة و كذلك مبنى المعهد العالي لأصول الدّين بالخروبة في النّاحية الشّرقية من العاصمة، و الذي إختار هو موقعه و اقترح تصميمه العربي الإسلامي الأصيل،

لُيَطاول به كنيسة «سَيِّدَتهم الإفريقية» من الناحية الغربية للعاصمة!! و قد خاض معارك حامية من

أجل إقامة هذا المعلم الشامخ في المكان و الزمان المحددين!! ﴿(30)﴾.

و من هذه القمّة التي بلغت ملتقيات الفكر الإسلامي على يده، يقول مولود قاسم بنفسه:

﴿بالنسبة إلى ملتقيات الفكر الإسلامي، ينبغي أن أقول للتاريخ أنها كانت قد بدأت الثلاثة الأولى منها قبل أن آخذها بيدي، و لكنها قبل ذلك كانت في إطار ضيق جداً من حيث عدد الطلبة و من حيث المكان، و من حيث المواضيع، و من حيث الأساتذة المدعوّون و المشاركون و المحاضرون و أجهزة الإعلام لم تذكرها و لا مرة واحدة حتى ذلك الوقت. فإذاً حتى من حيث الصدى الدولي لها. ففي كلّ هذا غيرنا الكثير، و نوعنا الكثير، و هذه سنة الحياة، فلا بدّ من تنمية مستمرة و تطوير متواصل﴾ ﴿(31)﴾. و عن هذه التنمية المستمرة و هذا التطوير المتواصل لملتقيات الفكر الإسلامي، بل عن النقلة الفريدة و النوعية، يقول مولود قاسم في موضع آخر: ﴿عندما عُيِّنت وزيراً للتعليم الأصلي و الشؤون الدينية في شهر جوان 1970 كان قد سبق و أن نُظِّمت ثلاث ملتقيات للفكر الإسلامي قبل تعييني في الوزارة، و قد شاركتُ في هذه الملتقيات مجرد مشاركة، و كانت تُعقد في المدارس الداخلية هنا و هناك في ابن عكنون مثلاً و مدرسة مفتاح لتكوين الإطارات الدينية في وسط شيق و إطار ضيق كذلك حيث لا يتجاوز عدد المشاركين فيها بضع عشرات من الطلبة و عدد ضئيل جداً من الأساتذة، و لم يكن يسمع أحد بهذه الملتقيات نظراً لإطارها الضيق و قلّة المشاركين فيها و عدم حضور وسائل الإعلام، و قد كُنْتُ آنذاك مستشاراً للشؤون السياسية و الدبلوماسية بالرئاسة، و عندما عُيِّنت كما أسلفت على رأس وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية كان الملتقى الأوّل الذي أعددتَه و أشرفتُ عليه هو الملتقى الرابع للفكر الإسلامي الذي إنعقد في قسنطينة و إنطلاقاً من هذا الملتقى واصلتُ الإعداد للملتقيات التالية و الإشراف عليها إلى غاية

الملتقى الثالث عشر الذي أعددت له و حضرته من غير أن أشرف عليه نظراً لرجوعي إلى منصب المستشار بالرئاسة ﴿32﴾.

إن مولود قاسم كان أغلب إهتمامه في السنة منصباً على الإعداد لهذه الملتقيات و توفير كل الشروط المادية والمعنوية لإنعقادها و نجاحها، و كان يضع جدول أعمالها بنفسه بحيث يختار نقاط المناقشة في كل ملتقى، موظفاً هذه النقاط لبلوغ أهدافه الفكرية و الفلسفية و الدعوية أيما توظيف. و في ذلك يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: ﴿و على ذكر ملتقى الفكر الإسلامي أشير إلى أنه كان إحدى الوسائل التي عرف سي مولود كيف يُوظفها لطرح أفكاره و ملء الفراغ الثقافي الديني الذي كان يسود الجزائر. ففي غياب المؤسسات الثقافية -الدينية التقليدية ذات الجذور الراسخة (كالأزهر)، كان ملتقى الفكر الإسلامي منبراً سنوياً يطرح فيه سي مولود في كل مرة موضوعاً رئيسياً و محاور فرعية، و يُجند له عدداً كبيراً من العلماء و الباحثين من شتى أنحاء العالم﴾ (33). هذا الإعداد و التحضير و التوظيف، كان هدفه الإعداد لتأسيس مدرسته الدعوية و الفكرية و الحضارية المبنية على الإنيّة و الأصالة مع تحقيق بعض الأهداف الثانوية التي بدورها -بشكل أو بآخر- تساهم في الهدف الأساسي الحاسم في مستقبل الأمة الجزائرية و في مواجهة الأفكار والطروحات الحضارية الدخيلة و المفروضة عليه، بحيث حاول مولود قاسم و من خلال مؤسسة هذه الملتقيات أن يُنشئ صحوة فكرية أصالية تُعيد النظر في البناء الحضاري الحاصل، أو على الأقل تعمل على ترشيده و توجيهه مستقبلاً، و يقول في ذلك أيضاً الدكتور أبو القاسم سعد الله: ﴿و قد أصبح الملتقى مدرسة لتكوين رأي عام شعبي لمقاومة المدّ الإشتراكي (و لا أدري إن كان ذلك قد جاء عن قصد و تخطيط أو كان عفويّاً أيام الثورة الزراعيّة و غيرها من المظاهر التي فهم منها أنها من التأثير الشيوعي) و أصبح أيضاً مدرسة لإحتضان جيل من الشّباب و الشّابات الذين كانوا بدون مأوى فكري﴾ (34).

فهذا الرّخم من التغيير الحاصل في حياة الأمة الجزائرية لما بعد الإستعمار قد يخرج بالفرد الجزائري عن إنية الأمة الجزائرية، بل أن مولود قاسم أيقظ في هؤلاء الشّباب و الشّابات معنى الفعل الحضاري الأصلي المتأصل إلى إنية و شخصية الأمة لضمان تواصل عملية الحركية نحو العودة إلى الذات بعد مسخّر دام قرناً و ثلاثين عاماً من الإحتلال

و الإستدمار الفرنسي، فهو عملٌ تجديدُ الرّوح و إحياء لمكان الأمة و للأفكار النّائمة في ضمائر شبّابنا و نُخبها المثقّفة. و يقول مولود قاسم عن الهدف الأساسي من تنظيم هذه الملتقيات: ﴿إذا أردنا أن نلخص هذا الهدف في جملة واحدة، قلنا بأنّه يتمثّل في شحذ الفكر، و إستقلال الذات﴾ (35)، فشحذ الفكر هو إحياء له و بعثُ للرّوح النّقدية فيه، أمّا إستقلال الذات فهو محاربةٌ للمسّخ و النّسخ و الفسخ الذي ضرب أطنابه في النّخب الفكرية الجزائرية. و إن كانت -طبعًا- مولود قاسم أهدافُ أخرى من تنظيم هذه الملتقيات، كلّها ترمي و تصبّ في نفس الوعاء الفكري و الفلسفي الذي أراد أن يبعثه في المجتمع، و خاصّةً في شبابه، إذ يقول في موضع آخر: ﴿الخلاصة يمكن إستنتاجها من الهدف الذي نرمي إليه من تنظيم هذه الملتقيات، و لهذا الهدف عدّة جوانب منها:

• الحثّ على البحث و التفكير.

• التّشجيع على النقاش، و الحوار، و الإستقلال بالرّأي، و الإبتعاد عن التّبعية الفكرية،

من أجل الوصول إلى أحسن النتائج بالمنطق السّليم، و مقابلة الأفكار، و المنهجية

العلمية، و النزاهة الفكرية.

... و نظنّ أنّ هذه الأفكار التي نرمي إليها من خلال هذه الملتقيات قد بدأت تتحقّق بما نلاحظه

جميعًا من مظاهر هذه الرّوح المتأصّلة المتفتّحة، في الوقت نفسه، من خلال كثيرٍ مما يُذاع، و يُتلفز،

و يُنشر في الكتب، و الجرائد و المجلات، و يُلقى في المحاضرات. و تتمنّى لشبّابنا مواصلة البحث

و النقاش بهذه الرّوح، و المنهجية، و النزاهة العلمية، كما نرجو له مطلق النّجاح﴾ (36).

إنّ الهدف الأساسي -إذن- يتضح في تعبير مولود قاسم القائل بالرّوح المتأصّلة المتفتّحة في الوقت نفسه، و هو

غرس أطروحته الفلسفية في بناء الحضارة القائلة بأن يكون الإنسان ابن عصره مع البقاء على أديم مصره و دون

أن يُصبح نسخةً غيره، و هو ما ضمّنه في كتابه «إنيّة و أصالة» حين تكلم عن هذه الملتقيات و سمّى الفعل الأصلي

بمعرفة الإسلام في حقيقته بين التيارات الفكرية و الحضارية العالمية، أي محاولة إكتشاف الذات المتميّزة عن الدّوات

الحضارية الأخرى و هو معنى الإنيّة، إذ يقول: ﴿و نظنّ أنّنا بفتح مجال المناقشة واسعًا، و نشر هذه

المحاضرات بواسطة الإذاعة، و التلفزة، و الصحافة، و أيضًا بجمعها مع المناقشات في مجلدات، و نشرها بلغتين أو ربّما بلغات، نساعد شبابنا و العالم على معرفة الإسلام في حقيقته بين التيارات الفكرية و الحضارية العالمية، و نعمل على التفاهم و التعاون بين البشر ﴿(37)﴾.

لقد كان مولود قاسم -رحمه الله- هو الذي يضع جدول أعمال كلّ ملتقى و يحدّد مواضيع تدخّلات العلماء و الباحثين بحيث يبعث إليهم مسبقًا بعنوان البحث أو الموضوع الذي سيعدّونه لأشغال الملتقى. و كان كلّ مرّة يستهدف إلى إحياء فكرة من الأفكار الحضارية الأصالية أو إلى ترسيخ فلسفة في الحياة تبعث روح المناقشة و البحث لدى الشباب عن جزء من إنية المجتمع الجزائري و عن تاريخه خاصّة. يقول الأستاذ المأمون القاسمي:

﴿كان الوزير مولود يحدّد بنفسه جدول أعمال الملتقى، و يدرج على رأس برنامج كلّ ملتقى نقطة تختصّ بالمدينة أو الناحية التي تستقبل الملتقى، حيث كان له «سنة» تنقل التظاهرة بين كبريات مدن الوطن﴾ (38). و قد إكتسى الجانب التاريخي الذي كانت تحببه هذه الملتقيات طابعًا هامًا بالنسبة لأفكار مولود قاسم الداعية إلى التمسك بالإنية و التثبث بالشخصية، و بالنسبة لذاكرة الأمة إذ ساهمت هذه الملتقيات في كشف الستار عن مراحل و محطات هامة في كلّ مرّة من محطات تاريخ الشعب الجزائري. و يقول مولود قاسم عن ذلك: ﴿و فما يخصّ المساهمة الحقيقية التي قدّمتها أعمال الملتقى لعملية إعادة تاريخنا، أرى شخصيًا أنّها هامة جدًا، لكونها صادرة من آفاق مختلفة، حاملة روايات عديدة، مستعملة لكثير من المصادر و المنهجيات﴾ (39). هذا إلى جانب مسائل هامة من الحياة الإسلامية داخل المجتمع الجزائري و خارجه

في مختلف المجالات من سياسية و إقتصادية و فكرية و حتّى فنية، إذ يقول مولود قاسم: ﴿الموضوع الأوّل الذي يُدرس في كلّ ملتقى من ملتقيات التعرف على الفكر الإسلامي، كان يتصل دائمًا بالمنطقة أو المدينة التي يعقد فيها، و تاريخنا، ثمّ تنترّق إلى مواضيع أخرى تتصل بهموم العالم الإسلامي، و الفكر الإسلامي، و التعاون الفكري، و كذا بالحضارة الإسلامية فيما مضى و في علاقاتها بالحضارات الإنسانية و العالمية، و ما أسهم به الفكر الإسلامي و الحضارة الإسلامية في التراث البشري

المشترك، و كُنّا دائماً نتعرّض للإعلام و أجهزته و للتّصير و التّبشير و نقاط عديدة أخرى، بحضور العديد من الأساتذة من الغرب و الشرق، من أوروبا و أمريكا و آسيا و حتى من أستراليا، و قد حضر هذه الملتقيات شيوخٌ كبار في الفكر الإسلامي من أمثال الشيخ محمد الغزالي رئيسي المجلس العلمي لجامعة الأمير عبد القادر الإسلامية بقسنطينة، و الإمام موسى الصّدر الذي كان مسؤول نبيه برّي و غيرهم من الشّخصيات الفكرية و العلمية» (40).

لقد كانت نقاط و مواضيع هذه الملتقيات متنوّعة و مختلفة في كلّ مرة، إلى درجة أنّها شملت تقريباً جميع جوانب الحياة الحضارية، إنطلاقاً من شمولية الفكر الإسلامي و من شمولية الإسلام لكلّ نشاطات الإنسان فردياً و جماعياً، و إنطلاقاً من محاولة تجسيد الحلول الإسلامية لهموم و إنشغالات المسلمين المعاصرة، لتكون بحقّ هذه الملتقيات مرجعيةً فكريةً و مؤسسة للفتوى المعاصرة التي تحقّق إنتقاء جمع غفير من العلماء و إجماعهم على بعض المسائل و الأمور. يقول الأستاذ المأمون القاسمي: «لقد ربطت هذه الملتقيات العشرة بيم الموضوعات الثقافية أو الدينية، و مجالات الحياة الوطنية و العالمية عموماً، حاضرًا و مستقبلًا، و تناولت على سبيل المثال مجالات: الشّباب، و الأسرة، و المغزبين، و الفلاحة، و الصّناعة، و التّعليم، و التّربية، و الثّقافة... إلخ. و ثَمّا يجدر التّنويه به، في حديثنا عن الملتقيات، حرص الأستاذ مولود قاسم على نشر وقائعها كاملة: محاضرات، و أبحاثًا، و مناقشات، و أجوبة على أسئلة الطلبة تعميمًا للفائدة» (41).

و كانت هذه الملتقيات طابعًا نقديًا حتى للتراث و الفكر الإسلامي، حتى يتبيّن المسلمون الطّريق السّليم الذي يجب أن يسلكوه، و ذلك في أسلوب منهجيّ و علميّ هادئ كان مولود قاسم يؤكّد عليه في كلّ مناقشات وفعاليات الملتقيات، إذ كان يقول مثلاً:

«الرّجاء ثمّ الرّجاء: التّقيد بالمنهج، و التّكلّم بأسلوب علميّ هادئ! نحن هنا لا نحتاج إلى وعظ و إرشاد، و إن كُنّا نحتاج إليه في حياتنا اليومية... هنا في مستوى عال، في مستوى معيّن، نتكلّم في إطار جدول الأعمال بكلّ وضوح، و منهجيّة، لنخرج منه بنتيجة» (42). هذه المنهجية و الموضوعية اللتان يرى مولود قاسم أنّهما سبب تقدّم الآخرين و تأخّر المسلمين عامّة، إضافة إلى التّفاني في الإخلاص للعمل

و الإتيان له، و لذلك كان يتوجّه بالنقد حتى للأساتذة و العلماء الحاضرين للملتقيات، إذ قال مثلاً لبعضهم في الملتقى التاسع للفكر الإسلامي:

﴿الرجاء عدم الخروج عن الموضوع! و ألخ و ألخ! و الرجاء كذلك ملازمة الموضوعية قدر الإمكان!، الصراحة لا بدّ منها هنا. لنصّاح بعضنا. لهذا جئنا، لنخرج بشيء، لا نبقي في حدود المجاملات الفارغة، و التّحليق في الأجواء الإصطناعية. و لكن في نفس الوقت نبتعد عن الكلام الجارح و الخارج عن الموضوع﴾ (43).

وصلت هذه السّمة النقدية إلى ذروتها حين إمتنع مولود قاسم في الملتقى التاسع للفكر الإسلامي المنعقد في تلمسان سنة 1975 عن دعوة أساتذة و مفكرين أجنب عن العالم الإسلامي لصفة الملتقى النقدية لبعض التّراث الإسلامي و كذلك لوضع الأمة الإسلامية في حاضرها. إذ يقول: ﴿أقول: كُنّا نودُّ أن يحضروا، و لكن كان هناك هذا الجزء الثّاني، و هو وضع الأمة الإسلامية اليوم، و الإنتقادات و الإتهامات التي ربّما يوجّهها هذا أو ذاك ضدّ هذا البلد الشّقيق أو ذاك... هذه الأشياء كلّها، هذه الحساسيات، إن عرضناها فيما بيننا - و لا بدّ أن نعرضها فيما بيننا - فلا بأس، نستخلص منها الدروس، و لكن ليس من اللاّحق بنا أن يحضرها أجنب عنّا، فذلك لا يليق إطلاقاً﴾ (44).

كان مولود قاسم يرفع من نخوة كلّ المشاركين في هذه الملتقيات لأنّ يُقدّموا أحسن ما يمتلكون من قُدرات، ذاكرًا إيّاهم مكانة الملتقى و أهمّيته و خصوصيته المفردة عن باقي الملتقيات، إذ يقول: ﴿أودُّ أن أسأل: في أيّ ملتقى في العالم رأيتم الطلبة يطلعون إلى المنصّة، و يرُدُّون على علماء أعلام، و على أساتذة كبار في الجامعات المختلفة من الشّرق و الغرب؟ في أيّ بلد؟ لم يحدث هذا إلاّ في الجزائر!﴾ (45)، و كان يحثّهم على بذل الجهد نحارية الرّكود و الهمود و الجمود، و للتغلّب على أمراض الشعوب المسلمة غير المكترثة بوضعها المتردّي السّيء، و خاصة الأساتذة المشاركين الذين لربّما أكثر من مرّة يلذّعهم بالنقد الجارح و أمام الملاءم كمثل ما حصل في الملتقى التاسع للفكر الإسلامي الذي إنعقد بتلمسان عام 1975 حين وقف يصرخ من أعلى المنصّة على أغلبية الأساتذة المحاضرين مقارنًا إيّاهم بجمع من الأساتذة و الطّلبة السّويديين الذين أقاموا ملتقى لمدة

أسبوع في دير لا يخرجون منه، إذ يقول: ﴿والآن فالمنافسة تستمر، إذا أردتم أن تستمر، أن نبقي هنا، إذا كنتم مسلمين مجاهدين، ونحن في موضوع الجهاد، فاستمروا هنا. لماذا تخرجون لتستريحوا؟ وتناموا؟ ولم تخرجون كل خمس دقائق، وأنتم تجيلون مراوحكم، زيادة عن المراوح الكهربائية في القاعة؟ إصبروا! إشتغلوا، إبقوا هنا! إشتغلوا كما إشتغل السويديون و السويديات، طلبة وطالبات، وقساوسة وقسيسات! أولئك رجال ونساء! أولئك نعم! إشتغلوا مدة أسبوع كامل في دير في إستوكهولم. نعم، في مدينة النور، إشتغلوا مدة أسبوع كامل، في دير لا يخرجون. يتغذون في الدير، و ينامون في الدير، والعمل ليلاً ونهاراً، إلا ساعات قليلة من الراحة في مدة أسبوع كامل!.. أمّا أنتم فتنتظرون إلى الساعة كل دقيقة تقريباً! تنظرون إلى الساعة متى تذهبون، و تتفسحون، و تذهبون إلى الأروقة، و تمرحون بأنفسكم، و تذهبون إلى الفندق لتكلموا في الكلام العادي غالباً، و ليس في موضوع الملتقى. نعم، المفروض أنكم تركّزون كلامكم في موضوع الملتقى، نحن جئنا إلى هنا و تستفيدون بعضكم من بعض، و تُفيدوننا، و تُفيدون الطلبة﴾ (46).

و إذا ما ألقينا نظرة شاملة عابرة على المواضيع و النقاط المدرجة ضمن جداول البحث خلال هذه الملتقيات والتي أخذناها على لسان مولود قاسم، إكتشفنا كيف أنه حاول أن يلمم بكثير من الموضوعات الهامة في حياة الأمة الإسلامية ككل، و في حياة الأمة الجزائرية بالخصوص، كالأمر و النواحي الإقتصادية من الإسلام و المرتبطة بواقع التنمية في الجزائر و في العالم الإسلامي الواسع، و كمسألة الفنون و كيفية التعامل معها، و كقضية إختلاف العلماء و نشأة المذاهب الإسلامية و كيفية الإستفادة من ذلك و عدم تحويله إلى مرض و شرخ في صرح الأمة، و كقضية توحيد التواريخ القمرية لتوحيد الأيام و الأعياد بين مختلف أنحاء و بلدان العالم الإسلامي، و كأطروحة الغزو الثقافي الغربي في بلدان المسلمين و كيفية مواجهته أو التعامل و التعايش معه، و كطرح فكرة الإثنية و الأصالة في عملية البناء الحضاري، و كظاهرة التبشير و التمسيح المستشرية في جسم الأمة الإسلامية، و كقضية حياة الجاليات الإسلامية في البلاد الغربية المسيحية و مستقبلها، و كثير من القضايا السياسية و التاريخية و الثقافية و الإقتصادية، إذ يقول عن بعض هذه المواضيع و الملتقيات: ﴿في الملتقى التاسع الذي إنعقد بتلمسان سنة

1975 طرفنا موضوع تاريخ الدولة العثمانية و الأندلس و عاجنا بعض أركان الإسلام، كالزكاة و كذا دور الفنون: كالموسيقى، و الرّسم، و النّحت، و المسرح، و الشعر، و الأدب، و تقوية الأمة و إعلاء شأنها، أو في إرهابها و إضعافها و إنهيارها و سقوطها. و في سنة 1976 إنعقد الملتقى العاشر في عنابة، و قد ضمّ الملتقى على غرار الملتقيات الأخرى عددًا من الأساتذة من مختلف بقاع الأرض و تميّز بإصدار فتوى تتصل بالنّاحية الإقتصادية، تتصل بالذين يعملون في مصنع الحجّار، أمام الفُرن و الصّلب و أما النّيران، و طبّقناها على الذين يعملون في الحصاد، و في مختلف الأنشطة الصّعبة و الأعمال الشّاقة في شهر رمضان و حكم الشّريعة في ذلك، و قد أصدر هذه الفتوى مجموع علماء الإسلام من: مالكية و شافعية و حنبلية و زيدية و جعفرية و شيعية و ظاهرية و جميع المذاهب الشّمانية التي كانت قد سبق و أن إجتمعت في تيزي-وزو سنة 1973 و إجتمعت من جديد في عنابة سنة 1976 و قد زُرنا بالمناسبة مصنع الحجّار و الأسلاك الشّائكة -خطّ شال- الذي يقع قرب القالة بشرق عنابة، و زُرنا المنطقة كلّها،... أمّا الملتقى الحادي عشر فقد إنعقد في ورقلة - ورجلان- و قد درسنا في هذا الملتقى تاريخ الدولة الرّستمية و في أحضان العاصمة الثانية لهذه الدولة بعد العاصمة الرّستمية الأولى تيهرت... زُرنا سدراته و وادي ميزاب و غرداية و غيرها من المدن و المعالم التاريخية بالمنطقة و تطرّقنا كذلك إلى موضوع الطاقة و النّفط و الزّفت و الغاز، و هل هي نعمة أم نقمة على الاعالم الإسلامي؟، و إنتهينا إلى أنّها إن إستغلّت لصالح شعوب العالم العربي و الإسلامي فهي نعمة، و إن أدّت إلى التّكاسل و الإهمال و قلة العمل و التّواكل و التّبذير و الإنحلال و التّفسّخ فهي نقمة.

و في الملتقى الثامن عشر الذي إنعقد في باتنة تحدثنا فيه عن تاريخ المنطقة و دورها في الكفاح التحرري عبر العصور، كما عالجنا فيه موضوع العلاقات بين الجزائر و العالم... إلى غير ذلك من المواضيع التي أدرجت ضمن جدول أعمال الملتقى (47).

أما عن صدى هذه الملتقيات و فعاليتها في الحياة السياسية و الثقافية و الإقتصادية داخل المجتمع الجزائري، فإن مولود قاسم يقول: ﴿إنهم هنا في الجزائر، أساتذة الجامعات و طلبتها، و شباب الثانويات المتعطش للثقافة و رجال الإعلام و الصحافة، يستفيدون من الآراء التي تُطرح في الملتقيات، و من الحوار الذي يجري بينهم و المدعوين لهذه الملتقيات من رجال الفكر الإسلامي و غيرهم من المفكرين الأجانب. بل إننا على مستوى أجهزة الدولة الثقافية نتبنى كثيراً من الأفكار التي يصل إليها الملتقى و التوصيات التي يحنتم بها أعماله﴾ (48).

هكذا أسس مولود قاسم مؤسسة ملتقيات الفكر الإسلامي، و كان يحدّد نقاط جداولها الموضوعية للبحث، وهكذا كان يسعى إلى جعل توصياتها تُطبّق و تؤثر في الحياة العامة للدولة الجزائرية و شعبها.

كفاحه في تحديد منظومة

فكرية إسلامية

نشأ مولود قاسم في أمة إسلامية تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة في كلِّ مجالات الحياة، خاصة و أنه فتح عينيه على احتلال و إستعمار مسيحيين إحتلَّ معظم تراب الأراضى المسلمة. و بالرغم من أن البلدان المسلمة قد سعت في غالبها و على رأسها الجزائر بثورتها المشرفة، إلى طرد المحتلين، و لكنَّها لم تتخلص من طردها من عقول شبابها للعجز الفكري و الحضاري الضارب أطنابه في نُخبها قبل ذمائها. كتب مولود قاسم مُحللاً هذا الوضع الذي تعيشه الأمة الإسلامية و مشخصاً لبعض أمراضها في مقدمة كتابه «أصالية أم انفصالية؟» يقول: ﴿تمرُّ أمة الإسلام اليوم بظروف عصبية، إن لم تعالجها بسرعة تصبح مصيبة، ظروف حرجة خانقة، إن تبادت فيها أضحت شائقة!، تجربة مرّت بأمام مضت، و عرفتها حضارات قضت! ...

... تعلقت قروناً بالخرافات، أصبحت تكملها الآن بالإنحرافات ! فبعد أن وقفت من التّقدم الحقّ موقف السلب، إنقلبت على القيم بالسبّ و الثلب ! فلا تقدُّماً فعلاً حققت، و لا تخلفاً حقاً سحقت، و لا رواسب عميقة محقت، و لا بالركب السائر لحقت! ... فلا هي أنجزت هذه التّسمية، و لا حفظت لشخصيتها عدا التّسمية ! فإذا بها في الخسران مثل تركيبة، فقدان و مسخّ مثل الحرّكيّة! ... إنها بزائف الرُقّي هي الحاملة، و لأصالتها هي الثّالمة، و لإنتها هي الكاملة، و لنفسها عين الظّالمة، عمدًا و كأنها غير العالمة ! فأمست في قُبْح التّقليد غراباً، و ياليتها كانت تُراباً ! و في البلادَة تحكي النّعامَة، و كلّ قبيلة في ذلك تنوي الرّعامَة ﴿(49).

هذه الأوضاع المزرية التي آلت إليها الأمة الإسلامية و ما شخصه مولود قاسم من أمراض عرضنا لها فيما سبق من هذا البحث و عددناها في الجمود و الهمود و الخمود و المركوبة و الانفصالية و المسخ و الفسخ و النسخ، هي التي دفعته إلى بذل جهد - في حدود إمكانياته - لبعث منظومة فكرية إسلامية تستطيع مستقبلاً إن توسع أنصارها أن تُقيم بناءً حضاريًا في مستوى طموحات الأسلاف من أحفادهم في أمتهم المسلمة. و لقد سخر من أجل ذلك قلمه و لسانه، و عقله المهيكل للتعليم الأصلي و الجامعات الإسلامية، و للملتقيات الدورية للفكر الإسلامي خاصة، و أسس من أجل ذلك مدرسة فلسفية و فكرية سماها بمدرسة الإنية و الأصالة شرح في عدة مناسبات أهم أعمدها و معانيها، و أكد أنها المخرج من وضع الأمة المسلمة الحالي، و هي أن تكشف ذاتها و ما تمتلك من إنية أو هوية متميزة، ثم تمضي في تنقية هذه الذات من كل دخيل غير أصيل فيها، و هذا أمرٌ يحتاج إلى وقت، إذ يقول: ﴿و لا بدّ هنا أن نعترف طبعًا أن رواسب الإستعمار لا يمكن أن تُمحي هكذا بجرّة قلم، و بعضا موسى. فهذا يتطلب مجهودات متواصلة، متوالية، منتظمة، و لمدة طويلة، لتتدارك النقص الذي ورثناه عن عهد إستخرابي طويل، و عن عهد طويل أيضًا من الهمود، و الجمود، و الخمود﴾ (50). و بعد ذلك سوف يتسنى لهذه الأمة أن تبني حضارة أو أن تستأنف حضارتها الممتدة في التاريخ منذ هجرة الرسول - صلى الله عليه و سلّم - إلى يشرب إلى سقوطها تحت نير الإستعمارات المختلفة. ولكن هذا سوف يكون إنطلاقًا من أيديولوجية أو مرجعية فكرية سماها مولود قاسم بالفكر الإسلامي. فالأيديولوجيات و الأنماط الفكرية هي التي تبني الدول و الحضارات، كذلك بالنسبة للفكر الإسلامي، فإنه محطّ أمل مولود قاسم في أن يتولى التنظير لبناء حضاري إسلامي في وطنه الصّغير الجزائر، و في وطنه الإسلامي الكبير. و قد كتب عن مفهوم الفكر في نظره و عن دوره في حياة الأمم و بناء الحضارات مركزًا أكثر على الفكر الإسلامي، يقول: ﴿مفهوم الفكر في نظرنا، كما هو مفهومه لدى غيرنا، هو مجموع النتاج العقلي و الروحي و الحضاري لأمة من الأمم، و في هذه الحال بالذات للأمة الإسلامية، من دين، و أخلاق، و فلسفة، و حضارة، لأنّ الفكر من التفكير الذي به الإنسان إنسانًا، و بالفكر الإسلامي يكون الإنسان مفكرًا إسلاميًا. أمّا المظاهر التي يتجسّد فيه فهي مسيرته العقلية، و سلوكه الأخلاقي،

وتصرفه كمواطن مسلم و كإنسان في حياته اليومية و القومية، و لا أرى هناك أي فرق بين الفكر و الأيديولوجية، و إذا كان هناك فرق فهو في اللفظ و التركيب: فكلمة الفكر كلمة عربية بسيطة، بينما الأيديولوجية إسم يوناني مركب من كلمتين يونانيتين هما: الأيديو: و هي الفكر، و لوجيا وهي العلم، أي علم الفكر، و من هنا يترجمها الدكتور الحبابي: الفكرولوجيا، كلمة هجينة عربية يونانية ﴿51﴾.

هذا الفكر الإسلامي سبق و أن أقام حضارة عادلة مزدهرة مُحَقَّقة للحقّ و داحضة للباطل، ناشرة الأمن و الأمان و العلم و الكرامة و الحرية، هذه المبادئ التي يجب أن تبني عليها الحياة الإنسانية، و أفاد كل البشرية من رصيده الإنتاجي شاءت أم أبت، إذ يقول مولود قاسم: ﴿و إذا لم تصبح البشرية كلها مسلمة فإنها كلها إستفادات و إستضاءات كثيراً بنور الإسلام بطريقة أو بأخرى، و لا يزال يعترف الكثير منهم، حتى من أعداء الإسلام، بهذا من حين لآخر، من حيث يشعرون أو لا يشعرون﴾ (52).

لكنّ مولود قاسم كان يعلم أنّ في ضمن هذا الفكر و النتاج العقلي شطحات و رتجات لا يجوز أن تؤخذ ضمن البناء الحضاري الإنوي و الأصلي، بل يجب أن يُنقى تراثنا ثمًا يشوّهه و يتصادم مع القيم و المبادئ التي تبني عليها الحضارات، إذ يقول مثلاً: ﴿يبقى أنّ هذا التراث لا يُؤخذ هكذا على علّته، بحسناته و ويلاته، بل يراجع، كما يراجع كلّ شيء غير مُنزّل و يُغربل، و يُنتقى منه الأصلح و الأوفق للعصر﴾ (53).

إنّ فكر مولود قاسم علمي أكثر منه دغدغة للمشاعر و تغنّ بالماضي و نظم للشعر المنمّق و المزوّق الفارغ الأجوف، أو إستغرافات في جانب من جوانب الحياة دون أخرى، لذلك فهو يتكلّم عن الفكر الصوّفي ويقول: ﴿و لو لم نطرحه فنكون قد قصرنا كثيراً، و نكون قد أعطينا صورة مشوّهة للشباب، و نكون قد صددنا الناس عن سبيل الله من حيث لا نريد، إذا كُنّا متقصرين على التصفوّف، على مُحيي الدين بن عربي، و ابن الفارض، أو الحلاج... أو جلال الدين الرومي، أو الدجوي، أو الحجوي، أو عفيف الدين التلمساني، أو أيّ درويش في الأرض، أو السّماء، أو فيما بينهما !. أقول، و الله

أعلم، أنهم كلهم، بنسب متفاوتة، دراويش، ضرّوا الأمة الإسلامية، وجرّوها إلى ما هي عليه اليوم، و كان لهم دورٌ كبيرٌ فيما عليه اليوم الأمة الإسلامية، أولئك الدراويش الذين يُدعون بالصّوفية ﴿54﴾.

و يتكلّم مولود قاسم عن قيمة الجدّ والعمل و بذل الجهد و الصبر عليه و المصابرة و المثابرة و الإستمرارية في الإنتاج سواءً كان فكرياً أو عمرائياً، فيقول: ﴿إنّ اليونان و الرومان و أوروبا و أمريكا، لم تتزّح منذ البدء على الأريكة، و دمشق و بغداد و الأندلس بالأمس، و أمّا أخرى هي الآن في الرّمس، إنّما إنتهت إلى العري و الرقص، اللّذين هما البداية في النقص، بعد الكمال و القمّة، و لم تبدأ بالسقوط و ضعف الهمة !. و صلوا إلى النّهاية بعد البداية، لا كعالم الإسلام اليوم أعوزته الهداية، فعكسَ الترتيب كالأحق الأجهل، لأنّ الإنحدار أسرع و أسهل، و الصّعود بطبيعته أصعب و أمهل﴾ (55).

و كذلك يجب أن يكون حال الأمة المسلمة من جدّ و عمل و تفان في بذل الجهد الفكري و العمراني و الإتقان في كلّ ذلك. هكذا كان يرى مولود قاسم القيام الحضاري النّاجح بغضّ النّظر عن ماهية المرجعية الفكرية أو الأيديولوجية التي ينبنى على أساسها، إذ أنّ هذه الأمور سننٌ إجتماعية لا محيد للمجتمعات الآملة في التألّق الحضاري عنها إذا رغبت أن يكون لها بين الأمم اسمٌ و رمزٌ و مكانة. و لذلك فإنّه أبهر مولود قاسم بالقيام الحضاري الجاذ الذي قام في بعض دول آسيا الشرقية كالصّين و كوريا و نوّه به إذ يقول: ﴿و اسمحو لي، هنا، أن أعود إلى كوريا و الصّين، فقد أعجبتني هناك أنّنا رأينا من البشر بعدد حبات الرّمل، تدبُّ إلى العمل في سير منتظم ديبب النّمل ! و لو شاهدت في شوارعها في أوقات العمل جموعاً تتزاحم و تتشائم، و لا متسكّعين و متسكّعات، و لا في اللّيل مترنّحين و مترنّحات، و لا أحلاساً قصيرة، و مخيخات لكلّ سنخف أسيرة، و لا أنذالاً و إبتدالاً ! و أنّ كُتابها و فنانيها ليسوا مخربشين و غرباناً مرضى، يحومون حول الجيف، و يدعون إلى الكسل، و الإنحلال، و الفوضى !.

أعجبني في الصّين و كوريا أنّ المقياس فيهما للتّوريّة و التقدّم بالمصانع لا بالمقاهي، و بالمزارع لا بالملاهي، و بالمطابع لا بالمزاهي، و أنّ العبرة فيهما للعلم، و العمل، و السّيرة، لا بالرّقص، و القمار، و البيرة!... و قد تقول أيّها القارئ المسلم الكريم: و لكنّهم شيوعيون!؛ و أجيبك: نعم شيوعيون، و لكنّهم صينيون و كوريون، و لو شهدوا لكانوا هم المسلمون الحقيقيّون؛ و مجتمعهم هو ذلك المجتمع المثالي الذي طالما حلم به الفارابي و الفلاسفة الطوباويون!. إيه أيّها المسلمون! حطين أم طين! و على كلّ فهذا هو إنطباعي عن كوريا و الصّين! و إنطباع كلّ عقل حصين رصين! ﴿56﴾.

و كان أيضًا مولود قاسم -رحمه الله- يرى أنّه يجب أن يدخل ضمن منظومتنا الفكرية الإسلامية مسألة الحرية كقيمة مطلقة نتأقلم معها ثمّ نقولها حسب طموحات و آمال أمتنا إذ لا وجود لحرية بدون حدود أو مفاهيم محدّدة و معيّنة، لكنّها دائمة و أبدًا تدعى الحرّية و لدى كلّ الشعوب و الحضارات و الأمم. فلا إبداع و لا فكر إلاّ بوجود فسحة من الحرية تحسّ فيها النّفس البشريّة بالطلاق حتّى لا تركز إلى الحمود و الهمود و الجمود.

و لقد تأثر مولود قاسم بمدرسة المعتزلة في مجال مفاهيم الحرّية دون غيره من المجالات، و كان يراهم أنّهم أوّل الديمقراطيّين في الحضارة الإسلامية حين أعطوا للعقل قيمة مرموقة و لو على حساب النصّ و النّقل، و بذلك حرّروه -و لو نرى أنّهم مخطئون في تطرّفهم هذا- من كلّ قيد، و حتّى مولود قاسم إنّقدهم في هذه المساحة من المفاهيم المطلقة للحرّية، إذ يقول عنه الدكتور عبد الرزاق قسوم: ﴿وجدنا في فكر مولود قاسم التوجّه العقلي الذي يُنقذ الفكر من الضلال، فتجلّى لنا ذلك في تكوينه الفلسفي، و هو ما يعني لوناً منهجيّاً متميّزاً من ألوان المعرفة الإنسانيّة و ممّا يعكس هذا التوجّه، إشادته بمقولة الحرّية كبعد إنساني لا يمكن إثبات التشخيص بدونه... و من شدّة تعلق فقيدنا بالمنهج العقلي، إختياره ضمن الأصالة لمدرسة المعتزلة لبحثه الجامعي المسجّل في جامعة السّوربون، و مفهوم الحرّية بالذّات عند المعتزلة. لذلك نجده في كتابه «أصالية أم إنفصالية؟»، و من خلال إحدى مداخلته في المنتدى الثّاني عشر للفكر الإسلاميّ بباتنة، يقول: أنا أحبّ التّحديد، و حتّى الحرّية محدّدة و الحرّية محدّدة لدى

المعتزلة، و لدى ديكرات، و لدى كانط، فحريتك تنتهي عند حدود حقوق الآخرين (57). و قد تمس كثيرا لهذا الفكر المعتزلي - و لسنا نعلم لماذا - إلى درجة أنه سرًا يكتشف مخطوطات لهم في اليمن، و لا نفسر هذا سوى من حيث أنه ينتصر للنزعة العقلية للحضارة الإسلامية إلى جانب تأثير النقل اللأمتناهي، و قد تكلم عن هذا السرور إذ قال: ﴿و إن آثارهم قد بدأت تبرز إلى الوجود، و ستكثر في المستقبل بعد أن إكتشف أخيرًا في اليمن عدد كبير من المخطوطات عن هذا التيار المعتزلي الخصب، و إن بحوثنا عنهم قد أخذت تتعدّد لحسن حظّ الفكر الإسلامي، و الإنساني عمومًا، و آخر بحث صدر عنهم هو رسالة لدكتوراه الدّولة التي قدّمها و ناقشها أخيرًا الدكتور الشيخ أبو عمران من جامعة الجزائر في باريس تحت عنوان «مشكلة الحرّية الإنسانية في الفلسفة المعتزلية» - «Le Problème de Liberté humaine dans la philosophie Mou'tazilite» - ، و نحن إذ نهنيّ الدكتور أبا عمران بحرارة على هذا الجهد المشكور، يجلو لنا و على سبيل الذّكرى، أن نشير هنا إلى أن هذا الموضوع بالذّات الذي سجّلناه لرسالة دكتوراه الدّولة في السّوربون في خريف 1954، أي منذ ما يقرب من ربع قرن، تحت عنوان:

«الحرّية عند المعتزلة».... «La Liberté chez les Mou'tazila»، و لم تُتممهُ لظروف الإضراب و التفرّغ للكفاح التّحريرى ثمّ الإنشغال بالعمل بعد إسترجاع الإستقلال. و نرجو أن نعود إليه في شكل كتاب يومًا ما (58).

و ربما كان مولود قاسم يرى أن المدرسة المعتزلية في الفكر السياسي هي النّجاة و العلاج لصراعات القرن العشرين في هذا المجال داخل العالم الإسلامي بين العلمانيّين و الأصاليّين لإمكانية التّعاشيس السّلمي و التّآلف و التّعاون لبناء وطن واحد.

إنّ مولود قاسم كان شديد التمسك بأفكاره و طروحاته و بمدرسته الفلسفية التي أنشأها و هي مدرسة الإنّيّة و الأصالة، إذ يقول مثلاً في إفتتاحية إحدى ملتقيات الفكر الإسلامي: ﴿أمامنا للحضار و النّقاش نقاط خمس،

سنطرقها بصراحة وجهاراً لا بالتواء و همس، و ستبقى هذه طريقتنا كما هي اليوم و بالأمس، حتى نعجز عن النطق و القراءة و إن باللمس، و نكون إذ ذاك أجدر بأن يطوينا الرّمس، و نختفي عن الضّوء و الشّمس، و لكن لن يلحق روح الملتقيات الطّمس! ﴿59﴾.

و قد سخّر كلّ مشاريعه التي باشرها في الحياة الجماعية للأمة من أجل ترسيخ هذه المدرسة الفكرية و الأصالية و الفلسفية، و من بين هذه المشاريع مؤسسة ملتقيات الفكر الإسلامي التي رفع صوتها إلى أن أصبحت لها مكانة دولية، و قبل ذلك تأثير في سياسة و تسيير الدّولة الجزائرية، إذ يقول هو بنفسه: ﴿إنّهم هنا في الجزائر، أساتذة الجامعات و طلبتها، و شباب الثانويات المتعطّش للثقافة، و رجال الإعلام و الصحافة، يستفيدون من الآراء التي تُطرح في الملتقيات، و من الحوار الذي يجري بينهم و المدعوّين لهذه الملتقيات من رجال الفكر الإسلامي و غيرهم من المفكرين الأجانب. بل إنّنا على مستوى أجهزة الدّولة الثّقافية نتبنّى كثيراً من الأفكار التي يصل إليها الملتقى و التّوصيات التي يختتم بها أعماله﴾ (60)، و قد استغلّها و استعملها أيّما استعمال كوسيلة لطرح أفكاره و منظومته الفكرية و مدرسته الفلسفية، إذ يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله: ﴿و إذا كان عكاظ قد اشتهر بالشّعور و التّجارة فإنّ الجزائر اشتهرت في كلّ صيف باستقبال أصحاب العمائم و القنادير و الجلايب و الطّرايبش من الفقهاء و الفلاسفة و الإقتصاديّين و المفسّرين و حفاظ الأسانيد و سنده التّراث. و كان سي مولود يستعرض خلال ذلك عضلاته اللّسانية الفكرية، فكان يتدخل أيضاً في كلّ المواضيع تقريباً، ليس مفتتحاً و مختتماً فقط و لكن معلّقاً و مُحبّذاً و رافضاً و مُؤيِّداً و مُضيفاً، و قد يصل به الأمر إلى أن يأمر أحد المحاضرين بالتوقّف، و أحد الواقفين بالجلوس، و قد يرُدّ على بعض المستشرقين بالعلم و الحجّة، و إذا رأى أنّ ذلك لا ينفع معه ردّ عليه بعبارات أخرى يعرفها عن سي مولود كلّ من خالطه، عبارات ليست من العلم و لا من الحجّة في شيء﴾ (61).

و كذلك فعل بمشروع التعليم الأصلي إلى أن سُحِبَ البساط من تحت قدميه، و سُدَّتْ أمامه أبواب التغيير الدعوي و الفكري و الفلسفي، خاصة في أنجع وسيلة له و أخطرها و هي المدرسة، و لذلك قال الدكتور أبو القاسم سعد الله: ﴿و قد بلغ سي مولود تنويهي بالتعليم الأصلي في عهده و دوره فيه، فإرتاح لذلك، و لكن ماذا يفيد ذلك و قد رأى آماله تتحطّم، و عاش حتى رأى بلاده تتمزّق، ثم تركها تبحث عن منظومة تربوية أخرى؟﴾ (62).

لقد حاول مولود قاسم أن ينظر لقيام حضاري أصالي بإرساء منظومة فكرية ذكرنا بعض معالمها ، لكن محاولاته في الغالب أجهضت .

الموامش:

- (1) المأمون القاسمي، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نابت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 289-290.
- (2) سعيد آيت مسعودان، عن د/ أحمد بن نعمان، المصدر السابق، ص 279.
- (3) المأمون القاسمي، عن د/ أحمد بن نعمان، المصدر السابق، ص 289-290.
- (4) أحمد شقار الثعالبي، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نابت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 29.
- (5) مولود قاسم نابت بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 229-230.
- (6) المأمون القاسمي، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نابت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 296.
- (7) مولود قاسم نابت بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 230.
- (8) المصدر السابق، ص 204.
- (9) نفس المصدر، ص 229.
- (10) مولود قاسم نابت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 125.
- (11) المأمون القاسمي، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نابت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 295-296.
- (12) مولود قاسم نابت بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 282-283.
- (13) المصدر السابق، ص 380.
- (14) مولود قاسم نابت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأول، ص 241.
- (15) المأمون القاسمي، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نابت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 294.
- (16) مولود قاسم نابت بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 324.
- (17) مولود قاسم نابت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأول، ص 274.
- (18) المصدر السابق، ص 248.
- (19) مولود قاسم نابت بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 324-325 بتصرف.

- (20) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأول، ص 275.
- (21) المصدر السابق، ص 381.
- (22) مولود قاسم نایت بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 336-337.
- (23) المصدر السابق، ص 329.
- (24) نفس المصدر، ص 330-331 بتصرّف.
- (25) المأمون القاسمي، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 294.
- (26) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 229.
- (27) المأمون القاسمي، عن د/ أحمد بن نعمان، المصدر السابق، ص 290.
- (28) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 230-231.
- (29) سعد بو عقة، عن د/ أحمد بن نعمان، المصدر السابق، ص 326.
- (30) د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 256.
- (31) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 166.
- (32) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، المصدر السابق، ص 186.
- (33) د/ أبو القاسم سعد الله، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 268.
- (34) المصدر السابق، ص 268-269.
- (35) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 175.
- (36) المصدر السابق، ص 146-147 بتصرّف.
- (37) مولود قاسم نایت بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 341.
- (38) المأمون القاسمي، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 293.
- (39) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 341-342.
- (40) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 188.
- (41) المأمون القاسمي، عن د/ أحمد بن نعمان، المصدر السابق، ص 293.

- (42) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 168 بتصرف.
- (43) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، الجزء الأول، ص 128.
- (44) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، الجزء الأول، ص 208.
- (45) المصدر السابق، ص 219-220.
- (46) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، الجزء الأول، ص 200.
- (47) مولود قاسم نايث بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نايث بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 188-189 بتصرف.
- (48) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 254.
- (49) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، المقدمة، ص 11-12 بتصرف.
- (50) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، الجزء الأول، ص 233.
- (51) المصدر السابق، ص 85.
- (52) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 198.
- (53) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، المقدمة، ص 34.
- (54) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، الجزء الأول، ص 387.
- (55) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، المقدمة، ص 21.
- (56) مولود قاسم نايث بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 592-593 بتصرف.
- (57) د/ عبد الرزاق قسّوم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نايث بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 282.
- (58) مولود قاسم نايث بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 92-93.
- (59) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 283-284.
- (60) المصدر السابق، ص 254.
- (61) د/ أبو القاسم سعد الله، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نايث بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 269-270.
- (62) المصدر السابق، ص 272.

الفصل الثاني:

الكفاح الدعوي في عمل

مولود قاسم الثقافي

• المبحث الأول: كفاحه في إرساء الفكر الإسلامي داخل المدرسة
الجزائرية.

• المبحث الثاني: كفاحه في إرساء الفكر الإسلامي داخل الجامعة
الجزائرية.

• المبحث الثالث: كفاحه في ترشيد العمل الثقافي و الفني بالخصوص.

• المبحث الرابع: كفاحه في ترشيد الثقافة الإجتماعية للأمة الجزائرية.

تمهيد:

إن مولود قاسم نأيت بلفاسم بحكم تكوينه المعرفي كطالب في الفلسفة و باحث فيها، و الفلسفة تشمل كلّ نواحي الحياة بالإستفسار و التحليل و التّفسير، فإنّه حاول أن يرشد الثورة الثقافية الحاصلة في البلاد بما أوتي من أفكار و معارف. و لقد حاول أن يُشكّل منظومة ثقافية إنطلاقاً من فكرة الأصالية، فباتجه إلى ميدان التّعليم بقطاعاته المختلفة و حاول التّأثير فيه، ثمّ كانت له آراء و طروحات في المجال الثّقافي على العموم و خاصّة منه المجال الفنّي حيث حاول التّرشيد قدر الإمكان. هذا كتنظير للمجتمع الجزائري الذي كان يبحث عن نفسه و يبحث عن منظومة ثقافية يبني عليها مستقبله. فاجتهد مولود قاسم لإيجاد هذه المنظومة فوفّق في أمور و مشاريع، و سحّب البساط من تحت أرجله في أمور و مشاريع أخرى.

و ارتأينا أن نتناول هذه الجوانب من الكفاح الدّعوي و الحضاري الشاقّ لمولود قاسم من خلال أربعة مباحث:

← المبحث الأوّل: كفاحه في إرساء الفكر الإسلامي داخل المدرسة الجزائرية.

← المبحث الثّاني: كفاحه في إرساء الفكر الإسلامي داخل الجامعة الجزائرية.

← المبحث الثّالث: كفاحه في ترشيد العمل الثّقافي و الفنّي بالخصوص.

← المبحث الرّابع: كفاحه في ترشيد الثّقافة الإجماعية للأمة الجزائرية.

أمّا في حياته الخاصة فمولود قاسم كان بحقّ إنساناً مثقّفًا متحضّرًا يضع لمركزه الفكري و المعرفي و الثّقافي مكانًا هامًا و ترجمةً في الواقع، إذ يحكي عنه الأستاذ محمد الصالح الصديق فيقول: ﴿كان شديد الحرص على النظام

ورعاية الأدب في السلوك، و كان يُؤلمه جدّ الألم أن ينتهك أحد حرمة النظام، أو يتصرّف تصرّفًا غير حضاريّ، أو يُخالف الوعد بلا مبرّر شرعيّ، أو يستهين بعمل فيؤخّره عن وقته!! . كلّ هذا كان يثير غضبه، و يُفجّر ثورته، و يجعله أحيانًا يتصرّف تصرّفًا لا يقبله منه إلاّ من عرف طيبة قلبه، و حُسن نيّته، و قد يتخذ أحيانًا مواقف قد يندم عليها!! ﴿1﴾ . و من موقعه الثقافي هذا و الحضاري حاول أن يُؤثّر فيمن حوله و في المنظومة الثقافية للدولة الجزائرية ليرشدها إلى الهدى و الصواب و الصّلاح و الإصلاح.

عبد القادر القاسم للعلوم الإسلامية

كفاح مولود قاسم في إرساء الفكر

الإسلامي داخل المدرسة الجزائرية

أدرك مولود قاسم أن أكبر وسيلة لضمان الأصالية الثقافية و تواصل الإنتماء الثقافي جيلاً بعد جيل داخل المجتمع، هي المدرسة. فذهب بكل ثقافته و رصيده الفلسفي يخطط لمنظومة تربوية وهيكل هذه المنظومة حتى تُرسى على منهاج للتعليم أسماه بالتعليم الأصلي، و ما أمسك بوزارة الشؤون الدينية إلا بعد أن ناقش رئيس الدولة شخصياً و عرض عليه مشروعه في تطوير هذه الوزارة و إلحاقها بفرع آخر يُمتُّ بصلته إلى التربية و التعليم، لتُسمّى في الأخير بوزارة الشؤون الدينية و التعليم الأصلي.

و يحكي لنا مولود قاسم بنفسه تفاصيل هذا النقاش الذي جمعه بالرئيس بومدين سنة 1970، فيقول: ﴿دُعيتُ إلى الوزارة من قبل الرئيس الراحل هواري بومدين سنة 1970، و كانت آنذاك تُسمّى وزارة الأوقاف، و حيث أن اسم وزارة الأوقاف يعني الإهتمام بالزوايا و التكايا و الصدقات و الفقراء... إلخ، و نحن لم نُعد لنا أوقاف، إذ صادرها الإستعمار الفرنسي كلّها... فقد اقترحت على بومدين إذا إستلمت هذه الوزارة أن أسمىها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، لأنّ التعليم هو الأساس و هو الوسيلة الأولى في بناء الأمة، و على كلّ هو شرط عمل هذه الوزارة و إلا فلا معنى لها. فقال بومدين ربّما سيعترض البعض، فقلت له وافقني أنت على هذه التسمية و أنا سأجيب على المعترضين...﴾

واقفني بومدين على ذلك، و بعد هذا دخلنا في الموضوع، فحدّدتُ أهداف هذا التعليم و وضعناها أمامه، و لنا أنّ التّعليم ينبغي ألاّ يقف عند تلك الحدود الضّعيفة، التي سار عليها قبل تلك الفترة و إلى ذاك الوقت، لأنّ الشيخ توفيق المدني -رحمه الله- هو الذي بدأ ما يُسمّى بالمعاهد الإسلامية ثمّ سار على ذلك النهج السيّد أنور هدام ثمّ العربي سعدوني - رحمه الله - الذي تلاه، و هم مشكورين على ذلك. و لكنّ ظلّ التّعليم الأصلي محدودًا جدًّا من حيث العدد و الإمكانيات و من حيث الآفاق و البرامج و من حيث الصّدق في البلاد و حتى الأهلية غير موجودة، و المعادلة غير موجودة، فقلنا ينبغي أن تكون الأهلية رسمية ثمّ البكالوريا بمعادلة عالمية، ليس فقط في الجزائر، و تمت الموافقة على هذا كلّه و أنشأنا الشّعَب الثّلاث؛ الشّعبة الشّرعية الأدبية، و الشّعبة العلمية، و الشّعبة الرياضية، و من ثمّة نشئ نواة جامعة إسلامية كاملة شاملة فرعها الأوّل كلية قسنطينة للشّريعة الإسلامية و الفقه المقارن، و ليست كما تُسمّى الآن هذا إسم على غير مُسمّى، فهي كليّة لا غير، كما هي موجودة في بلدان إسلامية أخرى، و حتّى في أوروبا يُسمّون كليّة اللاهوت، لأنّ تسمية جامعة يُعتبر إعتداء على اللّغة العربيّة و إعتداءً على الشّريعة و على مضمون الإسم و محتواه، فهذه كليّة.

و أنشأنا إلى جانبها ثلاث مدارس لتكوين الأئمة، أي خاصة بهم، زيادة على ثانويات التّعليم الأصلي الكثيرة الأخرى، و المدارس الثّلاث هذه لتكوين الأئمة إحداها في سيدي عقبة (بسكرة) و الثانية في سيدي عبد الرحمن (تيزي وزو)، و الثالثة في تلاغمة (ميلة) و كانت ستتلوها مدارس أخرى في المخطّط الرّباعي الثّاني. بعد ذهابنا لم تُنشأ أيّ مدرسة أخرى إلى يومنا هذا، و لا واحدة فريدة شريفة! فهذه الإنجازات كلّها من عهد بومدين، و إن كان للرجل سلبات فله إيجابيات ﴿(2)﴾.

هكذا يوضح مولود قاسم إرتباط هذا المشروع بشخصه، وأنه هو مؤسسه و راعيه، و لم يرع أحد المشروع من بعده للأسف، و ما حَقَّق في هذا الميدان كلَّه من معاهد و جامعات إسلامية بعض من حسناته. و قد رسم خطوط و خطوات المشروع بدقة إذ كتب في سنة 1970 مقالاً ضمَّنه فيما بعد في كتابه «إتيّة و أصالة»، يقول فيه:

«و بخصوص الجزائر، فإنها إذ تعمد الآن إلى إصلاح تعليمها، و إعطاء لغتها و ثقافتها الإسلامية مكانتها، و إلغاء كلِّ قسم فرنسي بمجرد ما يقوم مجنبه قسم باللّغة القومية في جميع مستويات و موادّ التّعليم، فإنها في نفس الوقت قرّرت تعزيز التّعليم الأصلي الذي له الآن معاهد ثانوية في كلِّ ولاية، و فروع إضافية أحياناً في نفس الولاية، و سيُتوجُّ هذا التّعليم الذي يقوم في مستواه الثّانوي على برامج وزارة التّعليم الإبتدائي و الثّانوي مع زيادة التّركيز على العربية و المواد الإسلامية، بإنشاء ثلاث كليات للتّربية و أصول الدّين، و اللّغة العربية في المَدن الكبرى الثّلاث؛ قسنطينة، الجزائر، وهران» (3)، ثم كتب على الهامش عن هذه الكليات يقول: «الأولى هي في طور متقدّم من بنائها الآن بقسنطينة، و الثانية تقرّر البدء في الإعداد لبنائها منذ أيام قليلة في وهران، و الثالثة ستبناها في العاصمة كنواة أولى لإنشاء جامعة إسلامية كاملة على طراز الجامعة الأزهرية» (4).

و كان مولود قاسم يرعى هذا المشروع أيّما رعاية، و يبذل الجهد و الوقت لإرساء هياكله و مدارسه و معاهده، و يُقيم العلاقات مع سلّطات القرار طمعاً في دعمها له، و يُهيئ الأرضية لإقامة جامعات و كليات على طراز فريد تُخرّج متخصصين في كلِّ علوم الدّنيا و الحياة متشبعين بعلوم الدّين و تعاليمه. و قد مشى شوطاً كبيراً جدّاً في إرسائه لهذا المشروع، و كان يخطّط أن يكون التّعليم الأصلي بديلاً عن المنظومة التّربوية المعتمدة قبل سنة 1970 بعد مرحلة إنتقالية تدوم على الأكثر عشر سنوات. لكنّ الأيدي الآثمة قد وصلت و طالت هذا المشروع فكادت له حتى نسفته، و يحكي مولود قاسم بنفسه كذلك هذه المؤامرة الميّتة من أعداء الإتيّة و الأصالة، فيقول: «إنّ بومدين كان متحمّساً لهذا العمل، لكن نظراً لنجاح هذا المشروع (التّعليم الأصلي) بحيث وصل عدد المنخرطين فيه إلى عشرة آلاف طالب مسائين و ثلاثين ألف نظاميين، و زاولوا دراستهم إلى البكالوريا التي كانت لها معادلة عالمية، و نظراً إلى المسابقات التي كانت تُعرض في التّلفزة بين

الثانويات و تفوق طلبة التعليم الأصلي (أبناء الفقراء و اليتامى الريفيين في الغالب) - هنا دمعت
عينا الأستاذ مولود قاسم متأثراً بالموقف - على طلبة وزارة التربية و التعليم، حتى أن الرئيس
بومدين سألني في مجلس الثورة و الحكومة، (والمحاضر مسجلة) فقال: هل تُعلمون طلبة التعليم
الأصلي التربية العسكرية ؟ (لأنه صدر في الجرائد أن طالبة من ثانوية صلاح الدين الأيوبي (باتنة)
تفوقت على الرجال في السباق الرياضي في المركب الأولمبي (كرين). فقلت: نحن لا نُعطي الذكور
و لا الإناث التربية العسكرية، و لكن نعلّمهم و نعلّمهنّ الرياضة في حشمة و أخلاق بلباس محتشم
و هنا علمتُ أن بعض المصالح و بعض الشخصيات «تورطت» و قالت لبومدين «إنّ التعليم
الأصلي شبكة للإخوان المسلمين»، شبكة رجعية ستطوّق الإشتراكية و ستخرّب لك النظام، لأنهم
عندما ينتشرون في كليات الطبّ و الهندسة و الزراعة و الجيش و الداخلية سيتغلغلون في المصالح
و يقبلون عليك النظام و يقضون على الإشتراكية، خاصّة أنّهم يتلقّون تكويناً عسكرياً. فخاف
بومدين و اقترح في الصيغة الأولى لوثيقة الميثاق الوطني التي ناقشناها (المسودة) سنة 1975 فجاءت
وحدة التعليم و إلغاء التعليم الأصلي بالعبارة التالية: «أما التعليم الأصلي فتجب إزالته في أسرع
الآجال»، و هنا تساءلتُ لمّ الإلغاء في أسرع الآجال بعد أن أثبت طلبة التعليم الأصلي التفوق في
الرياضيات و الهندسة و كلّ العلوم، و قد رأى الشعب بعينه النتيجة» (5).

و لقد كتب مولود قاسم في مقدّمة كتابه «أصالية أم إنفصالية؟» عن إلغاء و إجهاض هذا المشروع الرّسالي مبرّناً
لدمته أمام الله ثمّ أمام الشعب الجزائري و أمام التاريخ بأسلوب من غدير به، فقال: «نودّ أن نكرّر هنا
إحتجاجنا و تعبيرنا عن أسفنا العميق على إلغاء التعليم الأصلي عندنا. و أنّ الإلغاء، عوض تعميمه،
الذي نادينا به في كتابنا «إنيّة و أصالة»، و كرّرنا ذلك على جميع المستويات الرّسمية و الشعبيّة في
البلاد، لسوف يبقى نقطة سوداء في تاريخنا الحديث. و ستصبح، و تضحى، و تُمسي، و تظلّ
صومعتنا ثانوية بلكين بن زيري... و أخواتها خلال القطر حتى تمنغست، لسوف تبقى شاهدة على

فداحة الخطأ، مشهدة للجميع ! و ستخلد الصوعتان المذكورتان ما خلدت البناية، صارخةً إلى ربّ الأرباب، وارث الأرض و من عليها و هو خير الوارثين ﴿6﴾.

و لقد ظهر على أحوال مولود قاسم -رحمه الله- في تلك الأوقات أنه كان يقف أمام مؤامرات ميّنة دقيقة التسج، و أنه قد تجاوزته الأحداث خاصةً أنه لم يلقِ الدّعم من بعض أولئك الذين ظنّهم من مُناصري الإنيّة والأصالة فوجد نفسه معزولاً مغلوباً منهزمًا لا نصير له من شيعته، و هكذا كانت حاله في إجهاض كثير من مشاريعه، إذ يحكي عنه الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، فيقول: ﴿كان يحسّ بالعرقلة لمشاريعه و تصوّراته في الرقيّ بهذا الوطن، فكان يُجاري أحياناً كما تقتضي المسؤولية التي يتحمّلها، و لكنّه كان أحياناً يعبّر عن إحباطه بالإشارات المعبّرة و بالكلمات الساخنة التي كان يتفوّه بها على الملأ و التي كان يغلفها بنكته مرّة أو تلويحة بيده إلى المجهول. و لعلّ أقوى إحباط واجهه سي مولود تمثّل في مشروعيه العزيزين على نفسه و هما: التّعليم الأصلي و مجّمع اللّغة العربية. ففي الأوّل رأى الهرم الذي أخذ يشيّده ينهار بين يديه، و في الثّاني وقفت العراقيل المرثية و المخفية دون ظهوره للنور... و كان يرى أبناء مدرسته كسالى و مشتتين و سطحيين و غير منظمين و لا منتظمين، و من ثمّة فوّتوا على أنفسهم فرصاً ثمينة لو عرفوا كيف يتحرّكون و ينسّقون و يستهدفون هدفاً بعيداً بوسائل فعّالة لصنعوا بها المعجزة التي كان هو يريد تحقيقها بهم و معهم. و في نفس الوقت كان لا يستطيع أن يعاديهم أو يثور عليهم لأنّهم هم حزبه و عشيرته ﴿7﴾.

فكان مولود قاسم فريداً وحيداً بمشروعه المجهّض بين يديه، لا حول له و لا قوّة خاصّة و أن زارعي السّوء والشّحناء قد نجحوا في التّأثير على أوّل و أعلى سلطة للقرار و هي رئاسة الدّولة، و استطاعت أن تطول هذا لمشروع فستعبده عن ميدان التّربية و التّعليم، و يحكي مولود قاسم كذلك عن ذلك و يقول في حوار نُشر له في مجلّة «الإرشاد» في شهر ماي من سنة 1992 ما يلي: ﴿و بومدين أمام ضغط جماعة تراجع عن التّعليم الأصلي.

الإرشاد: الجماعة الضاغطة على الرئيس كانت من مجلس الثورة أم من الحكومة ؟

مولود قاسم: كان بعضهم من مجلس الثورة و بعضهم من الحكومة، و الجماعة كلهم أحياء بإستثناء

إثنين أو ثلاثة توفوا، و التسجيل موجود بالأرشيف الوطني بكامله.

و هناك مصالح الأمن كانت هي أيضاً تضغط على الرئيس، فقرر إلغاء هذا التعليم نتيجة التخويف

الذي ذكرناه، و قد هلل لهذا الإلغاء للتعليم الأصلي الحزب الشيوعي «الجزائري» في نشرته السريّة

العلنيّة و كذلك الصحافة الفرنسية !.

و اقترحوا بعد ذلك - كعوض عن التعليم الأصلي - شعب العلوم الإسلامية بالثانويات، و قلتُ

أنّ ذلك ينبغي أن يبدأ من الأوّل الابتدائي و المتوسط، و لم يُستجب لذلك ﴿(8)﴾.

و ما يدلّ على أنّ مولود قاسم كان وحيداً و معزولاً من السلاح في معركته هذه لإبقاء التعليم الأصلي على قيد

الحياة، ما رواه الدكتور أبو القاسم سعد الله عنه و عن نفسه إذ يقول: ﴿و أمام إمكانات الجزائر الماديّة

و إمكانات سي مولود الفكرية توسّع التعليم الأصلي و أخذ يتجذّر بمدارسه و معاهده عبر الوطن،

ثمّ أخذ سي مولود يتحدّث عن مواصلته إلى الجامعة، و وضع لذلك مشروعاً... إنّ مشروع التعليم

الأصلي قد أخذ يثير الرعب في الأوساط الشيوعية و الفرنكوفونية معاً...

و أخذت المكائد تحاك ضدّ المشروع إلى أن حانت فرصة مناقشة ميثاق 1976 فاغتنمها الخصوم

للمناداة جهاراً بإلغاء التعليم الأصلي باسم توحيد التعليم. و أشهد أنّي شخصياً كنتُ من الذين

آمنوا بتوحيد التعليم من أجل توحيد التفكيرين الوطنيين و الإنسجام بينهم، تفادياً لما حدث لنا نحن

أثناء العهد الإستعماري إذ تخرّج الجزائريون من مدارس مختلفة، فكان ذلك سبباً في التنافر و التباعد

بيننا. و لم أكن وقتها أدرك الأبعاد التي يرمي إليها الخصوم إذ كانوا يتخذون (توحيد التعليم) غطاءً

فقط ﴿(9)﴾.

و لم تطب بعد ذلك نفس مولود قاسم -رحمه الله- لأي عمل يُتُّ بصله إلى التربية و التعليم إلا بعد مُضيّ عدّة سنوات حتى أتى إلى الميدان من باب آخر و مدخل مخالف حين إهتمّ بمسألة التعريب و تولّى مسؤولية المجلس الأعلى للغة العربية في بداية الثمانينات، و حاول من خلاله أن يؤثر على المنظومة التربوية للمدرسة الجزائرية شكلاً و مضموناً. و لعله قد ارتكب خطأ إستراتيجياً هاماً حين إبتعد لهذه المدة عن هذا الميدان، خاصة و أنّ الفرصة قد أتاحت له لأن يتولّى وزارة التربية و التعليم، فرفضها لكونها مقرونة بشروط كان يراها إهياراً لفلسفته و فكرته في بناء المدرسة الجزائرية و بالتالي الثقافة الشعبية للبلاد، ففضّل الإنسحاب بدل الخوض في تجربة كان يراها غير مجدية يكون فيها مجرد موظف يتلقّى البرامج من جهة مجهولة و هو الذي عُرف عنه أنّه مُنظّر. و يحكي مولود قاسم هذا فيقول: ﴿حصل نقاشٌ بيني و بين بومدين، فقد قال لي: تأخذ وزارة التربية، و لكن بشرط إيقاف التعليم الأصلي، فقلتُ أنّ إيقاف التعليم الأصلي لا يمكن أن يقع على يديّ، و كنتُ أتمنى ألا يكون على يديك أنت أيضاً كرئيس دولة، و لا يمكن أن يتمّ على يديّ ذلك ما دُمتُ في وزارة الشؤون الدينية أو وزارة التربية﴾ (10). فلم يحتمل مولود قاسم هذه المرة المجازاة و الصبر، و انحاز إلى أخذ الموقف بدل الحيلة و الخنكة، فمن جهة يُعتبر هذا الحدث محمداً من محامد الأستاذ، و من جهة أخرى قد يكون مأخذاً من مأخذه الرجعة إلى طبيعته الإعتزالية و العنادية التي ربّما قد فوّتت عليه الكثير من المسائل و المشاريع، لكنّها هي حياة بشر إجتهاد، و في كلتا الحالتين فإنّه مأجور بإذن الله تعالى.

و يُحوصلُ مولود قاسم تجربته المبتورة هذه و ما خلفه إلغاؤها بحيث يمسنّ أدواء المدرسة الجزائرية و منظومتها التربوية و منهجها للتعليم المُفرغ من كثير من قيم الأصالة و الإنيّة، فيقول: ﴿من الآثار السلبية لإلغاء هذا الجانب الأساسي من تكوين شبابنا و شبّاتنا و من شخصيتنا و هويتنا، أنّ فقدوا شخصيتهم إذّ لما أُلغيت و عوّضناه بهذه الشعب القليلة التي ما أدّت الغرض، لأنّ هناك مراحل تمهيدية أُلغيت و إكتفينا بالتعليم الثانوي، و هذا بترّ و تزويرٌ للموضوع، و كذبٌ و تحديرٌ للنفس و الطلبة الذين يذهبون بهذا التكوين إلى كليتة قسنطينة بتكوين أعرج أعوج، و بهذا الشكل الأبرّ فُتح الباب في

وجه المنقرين و الملحدين و اللادينيين و اللائكيين و كل ما هو نسخ و فسخ ﴿11﴾. و إنا لله و إنا

إليه راجعون، و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني:

كفاح مولود قاسم في إرساء الفكر

الإسلامي داخل الجامعة الجزائرية

كانت الجامعة من الإهتمامات الكبرى لمولود قاسم نابت بلقاسم حتى وصل به الأمر إلى إدراج نقطة من نقاط ملتقى الفكر الإسلامي الثاني عشر سنة 1978 تتكلم عن الجامعة و أحوالها ثمّ عن آفاق مستقبلها الذي أراد أن يرسمه مولود قاسم من موقعه الفكري و الإستشاري في رئاسة الدّولة، فإفتتح الملتقى بكلمة قال من ضمن محتواها: ﴿و النّقطة الثالثة هي: «نظرة جامعة على الجامعة»، عن دور الإسلام في تطويرها من جامع إلى جامعة، و كيف لم تُعدّ شمسها طالعة، و بدورها كما ينبغي ضالعة، بل أصبحت لكلّ إهانة بالعة، و لتقاليدها قالعة، و لسلطتها بنفسها خالعة، و أمام كلّ شرذمة هالعة.

و هكذا لم تعد مكانتها لامعة، و لا إدارتها للفوضى قالعة، و من زميعة غدت زامعة، و لم تعد لصوتها سامعة، بل في رضى بنديت طامعة، فإستحقت هذه الدّراسة الجامعة، بعزم و عين دامعة. إيه، سيّدتنا الجامعة ! أتبقين في ضلالك هامعة ؟. فلقد قلّ فيك المحتوى، و يصبح المعين الزلال المشتوى، و للطلاب الجادّين هو المكتوى، و للأخلاق و السّلوّك هو الملتوى، و عن مصلحة الشعوب أقصى المتوى ! ﴿(12). و تُركّز في مقال مولود قاسم على تلميحه إلى دور الإسلام في تطوير الجامعة و إدخال الضابط الأخلاقي الذي يجب أن يكون مرتبطاً و لصيقاً بالعلم و التّحصيل العلمي لتكوين نخبة المجتمع.

و لعلّ إلغاء التّعليم الأصلي كمنظومة تربويّة سنة 1976 هو الذي دفع بمولود قاسم إلى الإهتمام بالجامعة كبديل لنقل مشروعه الفكري و الحضاري الرّسالي إليها ليبدأ في إعداد النّخبة المثقّفة التي تتولّى عملية التّغيير في مستقبل

قد لا يكون قريباً. و كان مولود قاسم قد إهتمّ بهذه الجامعة قبل سنة 1978، و حاول أو يوجد نواة أولى لجامعة كلياتية شاملة تهتمّ بكلّ العلوم تحت مظلة العلوم الإسلامية، فقد أورد في كتابه «إتية و أصالة» نصوصاً عن هذا المشروع الحلم الذي كان يعدُّ له من بداية السبعينات، فكان لما كتب يقول: ﴿أما في التّعليم العالي، فنحن الآن بصدد إنشاء الكليّة الأولى في قسنطينة، كليات الشريعة و القانون المقارن، كنوانة لجامعة إسلامية كاملة بمعنى الكلمة، و ليس بالمعنى التقليدي المعروف الذي يقتصر على كليات أصول الدين، و كليات الشريعة، و كليات اللّغة العربية، و إنّما جامعة إسلامية كما كانت في العصور الزّاهرة للإسلام، الذي سميّناه التّعليم الأصلي، أو كما هي حالياً في مصر. فالجامعة الأزهرية الآن فيها كليات علميّة كالطبّ، و الهندسة و الزّراعة إلخ، كالجوامع الحديثة الأخرى، و إنّما الفرق أنّهم يدرسون المواد الإسلامية إلى جانب العلوم الأخرى﴾ (13).

و كان مولود قاسم -رحمه الله- واثقاً في مستقبل مشروعه و واضحاً آملاً كبيرة فيه دون تردّد ما دام هو المستشار المقرب من شخص السيّد رئيس الدّولة بومدين، و كان يحلم -و يحقّ له أن يحلم- باليوم الذي تقوم فيه هذه الجامعة على أعمدتها، دون أن يدري أنّ المشروع سوف يلقي قدرًا صعباً يؤدّي به إلى الختف أو إلى البتر و التّزييف و التّحريف، فكان قد كتب قائلاً: ﴿ستكون هذه الجامعة على أحدث طراز، و ستتكمّل و تتعاون مع الجوامع الأخرى، و بالنسبة للكليّة الأولى منها، و هي في قسنطينة، فالمفروض أنّها ستفتّح أبوابها سنة 1976، و تستقبل حوالي 700 طالب﴾ (14). و لم تفتح هذه الجامعة أبوابها -و بغير الوجه الذي أرادته و خطّطه مولود قاسم- إلاّ في سنة 1984 بتأخير واصل إلى ثماني سنوات بعد أن بدّلت وخرّفت أهداف هذه الجامعة عن تلك التي هيّئت لأجلها، و أفرغت هياكل الكليّة هذه من مضمونها الذي سبق و أن أرساه الأستاذ مولود قاسم، إذ يقول:

﴿أعود الآن إلى الكليّة التي ذكرها الأستاذ توفيق المدني لأقول أنّها في قسنطينة، و هي الآن في طور البناء، و جدرانها صاعدة، و هي الكليّة الأولى، و لكننا سوف لا نبقي عند حدّها، و لقد أعلن الرئيس بومدين في خطابه في جامع عقبة ابن نافع في القيروان، في السّنة الماضية، أنّ هذه الكليّة

هي نواة فقط لجامعة إسلامية شاملة، كاملة الكليات بمختلف أنواعها، من الكليات التقليدية، كما يُقال اليوم، ككليات أصول الدين و تاريخ الأديان المقارن، و كلية الشريعة، و كلية اللغة العربية، إلى كليات أخرى حديثة، ككليات العلوم، و كلية التجارة، و الزراعة، و كلية الهندسة، و كلية الطب... فستكون جامعةً كاملةً و ستكون هذه الكليات مزروعة -إن سمحتم لي بالتعبير- و ممتدة من أقصى شرق البلاد إلى أقصى غربها، و من شمالها إلى جنوبها، فستكون كلية في سوق أهراس، و في عنابة، و في قسنطينة، و في سطيف، و في بجاية، و في تيزي وزو، و في الجزائر العاصمة، و في وهران، و في تيارت، و في الأصنام، و تلمسان، و بسكرة، و تمنراست، ليُعمّ شعاعها البلاد كلها، إذ أنّها إلى جانب التعليم الخوض ستقوم بنشاط ثقافي متنوع شامل (15).

و لم يتحقق شيء من هذا المشروع الذي كان يُعدّه مولود قاسم، أو تحقق مبتوراً مفصلاً عن الفكرة الإبداعية التي أنتجها مولود قاسم والتي تتعدى الطريقة التقليدية للنظر إلى علوم الدين على أنّها علوم قرآن وعلوم حديث وعلوم لغة و فقه وكفى!. و قد واجهه في فكره الإبداعي هذا حتى أصحاب مدرسته من أئمة مساجد و مثقفين ثقافة شرعية إذ أنّه لما ألقى كلمته المرتجلة بمناسبة تدشين المدرسة الوطنية للإطارات الدينية بمفتاح (ولاية البليدة) في جانفي 1976، كان ممّا قاله في مواجهة بعض الألسنة التي بدأت تتكلم عن محتوى البرامج المسطرة لتكوين طلبة المدرسة و التي لم ترفههم أو كانت في أعينهم خارجة عن نطاق تكوين إمام المسجد، فقال لهم: ﴿نعطيكم أيضاً الإتجاهات الاقتصادية، و تاريخ الأديان المقارن -وقد يقول البعض منكم: ما فائدتي أنا اليوم في دراسة اليهودية، و المسيحية، أو كذا من الأديان المنزلة مثلاً، أو البوذية، أو المنوية، أو الزرادشية، أو اليهودية، أو الإتجاهات السياسية المعاصرة؟، ما فائدتي أنا في دراسة النازية؟ والشّيعية ما دخلها هنا في مدرسة تكوين الأئمة؟ ما المبرر لهذا؟ ما القصد من تدريس الإتجاهات الاقتصادية و التيارات السياسية المعاصرة، رأسمالية، و اشتراكية، و شيوعية، و غيرها؟، ما معنى هذا؟ ما مكانه من الإعراب، كما يُقال؟ ما مكانه في هذه المدرسة؟.

هذا كَلِّه لا بدّ لكم منه، لا بدّ لكم من هذا كَلِّه و من علم الإجتماع و الفلسفة. قد يقول أحدكم: لماذا أدرس أنا هنا الوجودية، و كتب أفلاطون، و كتب زرادشت... قد يقول بعضكم هذا، و قد يضيف آخر كذلك: ما معنى تدريس النظام الإداري في الجزائر؟ لماذا أدرس أنا هنا النظام الإقتصادي، و السياسي، و الإجتماعي، في الجزائر؟ ...

... نعم، لا بدّ أن تدرسوا هذا كَلِّه! هذا من واجبكم... و الإسلام دين و دولة، و ليس للقراءة على الأموات، و كتابة «الحروز» و التّمائم» (16).

لقد كان مولود قاسم يريد أن يُعدّ المثقف الجزائري الذي يحقق بالفعل فلسفة الإنّيّة و الأصالية، و هي أن يكون الإنسان ابن عصره، مع البقاء على أديم مصره، دون أن يصبح نسخة غيره، إذ كان كما قاله عن هذا مايلي: «هناك تيارات أخرى مختلفة مركّزة علينا، و حيث أنّ شبابنا غير مسلّح، فنحن نعطيهِ المعلومات اللاّزمة و لا نمنعه من دراسة الشّيوعية، أو الصّهيونية... فحتّى الصّهيونية يجب أن ندرسها، يجب أن نعرف كلّ شيء، كيف بدؤوا يهيّؤون منذ زمان، و يقولون «إلى اللّقاء في أورشليم، في القدس»!، لازم أن نسلّح أبناءنا، و نعلّمهم عناصر الدّيانة المسيحية، و اليهودية و الماركسية، و الشّيوعية، و الإشتراكية... و الرأسمالية، و سائر التّيارات السياسية الحديثة، و الإتجاهات الإقتصادية المعاصرة، و مختلف المذاهب، و الأيديولوجيات، و تاريخ الأديان المقارن، و نعطيهِ وجهة نظرنا، و مذهبنا، و تكويننا، لكي يكون مُحصّنًا، و مسلّحًا، ليدافع عن نفسه» (17).

و كان مولود قاسم يحاول من خلال مشاريعه هاته تصويب خطوات الجامعة الجزائرية حتى لا تسقط في الثالوث الجهّمي الذي أسماه بالمسخ و الفسخ و النّسخ و الذي بدأ منذ أن وطئت أقدام المستعمرين أرض الجزائر، و حتى لا تُؤدّي بالمتجمع إلى الانفصالية عن إنّيته و شخصيّته و هويته بنخبة مثقّفة مسلوّبة الرّوح الجزائرية بكلّ مضامينها المتوارثة عبر أجيال منذ قرون، فكان يرى إنشغاله بالجامعة من قبيل تصليح الأوضاع و تصليح الأحوال التي أفسدها الإستعمار الفرنسي، و ذلك بإصلاح أفكار و عقول نخبة المجتمع المثقّفة، فكان يقول مثلاً: «إذن بهذه

المناسبة التي ذكرتها، بكلية قسنطينة للشريعة و القانون المقارن، و كلية وهران لأصول الدين و تاريخ الأديان المقارن، و غيرهما، و تطوير هذه المدرسة فيما بعد إلى مستوى أعلى، و جامعات أخرى إن شاء الله ستتلوها، بهذا كله سنصحح الأوضاع فقط، سنعيد شيئاً إلى مكانه، بعد أن أزيح عنه بفعل الإستعمار، الذي كان سلاحه، كما تعلمون كلكم، كما أعلن هو بنفسه عن ذلك على لسان أعمدته: «السيف، و المحراث، و الصليب!» (الجنرال بيجو، الكردينال لافيغري، و غيرهما) (18). و كان قد وضع أهدافاً حضارية كبرى من إنشاء جامعات و كليات أصيلة تبعث التعليم الأصلي من واقع التاريخ إلى واقع الحياة، و رمى إلى تحقيقها و تعميمها على كل الهيكل الجامعي للدولة الجزائرية في الغد البعيد، بأن تكون هذه الجامعات الأصيلة نواة إشعاع علمي و ثقافي و أكاديمي يُعمم ليشمل كل بقاع البلاد. فكان قد تكلم عن الجامعة الإسلامية بقسنطينة ضمن هذا السياق من الأهداف الحضارية بعيدة المدى التي كان يحلم بها مولود قاسم - و متى ستُحقق؟!، أو ربما لن تتحقق إذ مات الرجل و ماتت مدفونة معه-، فقال: ﴿هذه الجوانب الأربعة للجامعة الإسلامية بقسنطينة لتكوين الأئمة الممتازين التي كان ينبغي أن تنتشر عبر الوطن تتلخص إذن في:

1. تعريب الجامعات الأخرى بتجهيزها بأساتذة معربين.
2. مراعاة البعد الأخلاقي في الطبيب و المهندس و المزارع و غيرهم بتزويدهم بأخلاقيات الإسلام.
3. إطلاعهم على إسهام الحضارة الإسلامية في مجالات التخصص العلمية بإنشاء كرسي الحضارة الإسلامية في الكليات.
4. تكوين الأئمة و الخطباء الممتازين للمساجد الكبرى و المتوسطة بمستوى الليسانس و الدكتوراه لرفع التحديات و مقارعة سائر محاولات المسخ، و ردّ

الهترات و التّوابع الواردة إلينا بل و المسرّبة تسريّا علميّا، أيدولوجيّا

للتشويش علينا و مسح شبابنا .

هذا بعد ما أنجزته هذه الوزارة قبل أن تأتي إليها يا سيادة الوزير، و توقف ذلك بفعل فاعلين هداهم الله أو لعنهم كما يشاء» (19). و كان موجّهًا كلامه و خطابه إلى سيادة وزير الشؤون الدّينية في ذلكم الوقت سنة 1992، و لعلّ خاتمة كلامه في قوله «و توقف ذلك بفعل فاعلين هداهم الله أو لعنهم كما يشاء» تُنبئُ عن كثير من الأمور و الأحاسيس في خلجات نفس المرحوم ياذن الله مولود قاسم، و كيف أنّ الرّجل سلّم أمره لله بعد أن إستنفد كلّ الجهود و كلّ الوسائل في سبيل تحقيق مشاريع أصالية تؤسّس لجامعة جزائريّة أصيلة تسري فيها بحقّ روح الفكر الإسلامي.

المبحث الثالث:

كفاح مولود قاسم في ترشيد العمل الثقافي والفني بالخصوص

من الجوانب الهامة في حياة مولود قاسم -رحمه الله- التي تبيّن وتبرز صفة الفيلسوف و الذّاعية على شخصه، و أنّه كان مهتمّاً بكلّ مجالات الحياة إنطلاقاً من ثقافته الإسلامية التي طابعها الشمول، و إنطلاقاً من ثقافته الموسوعية متعدّدة المشارف والرّوافد، ثمّ إنطلاقاً من روح المسؤولية التي كانت تسكنه و تبتّ في نفسه القلق على كلّ صغيرة و كلّ كبيرة من حوله، مسألة إهتمامه بالعمل الثقافي المنتوج داخل البناء الثقافي الجزائريّ خاصة منه العمل الفنيّ بكلّ إبداعاته و مجالاته و وسائله.

كان مولود قاسم نايث بلقاسم مهتمّاً خاصة بالميدان الفنيّ و ما يدور فيه من إبداعات و تحركات، شعوراً منه بالخوف على مصير شعبه و فكرة الإنيّة و الأصالة فيه، مثل ذلك الوالد الذي يرفع أولاده و يبحث عن مؤثّر في حياتهم خوفاً على بنائهم الشّخصي و الثقافي و الأدبي و الأخلاقي، فكذلك كان مولود قاسم مع شعبه في علاقته بالثقافة عموماً و بالفنون خاصّة.

فالثقافة بمختلف مضامينها، و خاصّة منها الفنون هي في صلب فلسفة مولود قاسم المتمثّلة في الإنيّة و الأصالة، فهي تمثّل جوهرًا و تمثّل في الوقت نفسه آليّة و وسيلة من وسائل البناء الأصالي للحضارة الجزائرية إذا ما إعتني بها أحسن الإعتناء و بُنيت فيها الرّوح الأصالية من فكر إسلامي و ضابط أخلاقي و تحقيق الآمال الحضارية الكبرى الموضوعة على عاتق هذه الأمة، ثمّ التي تكون معبرة عن الإنيّة التاريخية و اللّغوية و القومية و الدّينية للأمة التي تُبدع فيها و لأجلها.

يحكي الدكتور عبد الرزاق قسوم - عميد معهد أصول الدين بجامعة خروبة بالعاصمة الجزائرية - عن هذا الإهتمام الشديد من طرف مولود قاسم بالميدان الثقافي على العموم و بالميدان الفني و الذوق الجمالي في بناء الحضارة، فيقول: ﴿إذا إنتقلنا إلى مكونات العقل كالذوق مثلاً وجدنا لفقيدنا سبحات و شطحات على لغة المتصوفة... فهو يدعُو إلى التعامل مع الفنون الجميلة «كمقوم من مقومات الذوق، و لكن مع تحديد دقيق لمعنى الفن». فإذا كان دعاة «الفن للفن» عندنا من موسيقى و رسم، و نحت، لا يأخذون منها إلا الشكليّات، كإطلاق الذقون و الشعور الطويلة، و نوع من اللباس الشاذّ، فإن هذه الفنون، بالنسبة له هي وسيلة ناجحة و فعالة للدفاع عن قيم الأمة، و تعزيز أصالتها، و إبراز شخصيتها، والتي تعبّر عن آمالها، و آلامها، و تحفيزها نحو الأمام، فعل ذلك بيكاسو، و بتهوفن و بونسكو، الذين وظّفوا الفن للحياة.

إنّ الفنون إذن هي سلاح ذو حدين، فإمّا لتقوية الأمة، و تعزيز قيمها، و تحصيلها، أو لتذويبها، و تخنيثها، و تانيثها، و بثّ الإخلال فيها، و التعجيل بإنهيارها ﴿20﴾. و قد كان هذا نهج مولود قاسم في نظره إلى الثقافة و الفنون على أنّها تحتمل الوجهين، فقد تُستعمل للإصلاح كما تُستعمل للإفساد، و تُستعمل للبناء الحضاري الأصلي كما قد تُستعمل للمسح و الفسخ و النسخ و الانفصالية عن مضامين الإنيّة و الأصالة، و هو بنفسه يقول: ﴿لأننا نرى أنّ هذه الفنون كلّها سلاح ذو حدين، أو من الأضداد، كما يقول العرب، فيستعملها الإنسان للغرض الذي يريد منها، فإمّا لتقوية أمته، و تعزيز قيمها، و تحصيلها، أو لتذويبها و تخنيثها و تانيثها، و بثّ الإخلال فيها و التعجيل بإنهيارها﴾ ﴿21﴾.

و وصل الحدّ بإهتمام مولود قاسم بالفنون إلى إدراج نقطة حولها في جدول أعمال ملتقى الفكر الإسلامي التاسع المنعقد بمدينة تلمسان سنة 1975، ليتناقش المفكّرون و العلماء و النخبة في الإبداع الفني و دوره في تغيير المجتمعات إمّا إلى الأحسن و إمّا إلى الأسوأ، و إختتم أعمال الملتقى بكلمة ختامية محوولة لنتائج الملتقى - كما تعود أن يفعل - قال فيها ما نصّه: ﴿و نقدتم النظرية القائلة بأنّ الفن للفن، و رأيتم أنّ الآداب و الفنون

ليست غاية في ذاتها، لإشباع نزوات الأمة و لذاتها، وإنما هي وسيلة و سلاح ذو حدين، للدفاع عن الأمة أو سلخها، و لإبراز شخصيتها أو مسخها، و لرفع معنوياتها أو إحباطها، و أنه آن الأوان لأمتنا خاصة أن تدرك هذا و تفيق، قبل أن يلحق بها الإنحلال و يحيق! ﴿(22)﴾.

و كان مولود قاسم يرى أن الإبداع الثقافي و الفني يجب أن يكون مضبوطاً بدستور الأمة الشفهي من ضوابط أخلاقية غير مكتوبة، و يجب أن يُجسد عملية التّواصل مع عادات و تقاليد المجتمع ليكون بدوره من تراث الألقين المعبر عن الإتيّة والشخصية كما كان إبداع السابقين لنا في الثقافة و الفنّ إتيّة و بطاقة تعريف لنا، فكان يقول: ﴿و التراث ليس الآثار التاريخية فقط، و ليس الكتب، و المخطوطات فحسب، بل و أيضاً العادات الصّالحة و التقاليد، التي تحفظ لها جزءاً من كيائها، و توطّد مظهرها من مظاهر وحدتها، و تمثل العرف العام الجامع بينها، و هو السلوك العام المشترك بين جميع أفراد الأمة، و الدّستور غير المكتوب المتعارف عليه بينهم﴾ (23)، فيجب أن يكون العمل الثقافي و الإبداع الفني مضبوطاً بهذا الدّستور و معبراً في نفس الوقت عنه و عن الإستمرارية الحضارية على نفس السكّة للأمة. فالعمل الثقافي عند مولود قاسم له معادلة خاصة تخرج بين الإبداع و الذّوق الجمالي و الضّابط الأخلاقي. و هذا حال كلّ الأمم التي تودّ إحترام نفسها و إتيّتها إذ يحكي مثلاً فيقول: ﴿بعض الدّول الأوروبية الكبرى مثل إنجلترا تعمل بدستور غير مكتوب، و لكنّه محفوظ في أذهان و قلوب الجميع، أي عقلياً، و عاطفيّاً، و روحياً، و يطالب الجميع بالعمل به، و يحاسب الجميع على خرقه ! و هل هناك أعلى من الدّستور في حياة الأمة، و خاصّة أمة أوروبية، عريقة و حديثة معاً، مثل إنجلترا ؟. و لكنّ أين نحن، معشر مسلمي اليوم، من هذا كلّه، و نحن الذين لدينا المكتوبات، المقدّسة منها و المكرّسة، و لا نغيرها أيّ إهتمام، كُنّا بالقبّعات أو ذوي إعتمام!﴾ (24).

إنّ الإبداع الفني عند مولود قاسم هو أولاً مضبوطٌ بذوق جماليّ، لذلك فإنّه كان من المعجبين بالموسيقى التي كانت تسمّى كلاسيكية عالية، و كان لا يتحرّز من حضور حفلاتها و لا إحياء أيام تاريخية فيها كذكرى وفاة عبقرّي من عباقرتها، و كان يهدف من وراء ذلك أن يستحثّ الهمم في عقول الشباب الجزائريين إلى إقتفاء أثر هؤلاء العمالقة

الذين غيروا مجرى الفن -والموسيقى- من إطار النبلاء والأغنياء إلى تحقيق الإستقلالية عنهم و رفع آمال و آلام الشعوب بالنغمة و الكلمة الرسالية كما فعل مثلاً بيتهوفن بموسيقاه.

و قد ألقى مولود قاسم -و هو وزير الشؤون الدينية- كلمة إفتتاح الذكرى المائة والخمسين لوفاة الموسيقار الألماني و العالمي الشهير لودفيغ فان بيتهوفن (26 مارس 1827-26 مارس 1977) التي أقيمت بالمركز الثقافي الإسلامي بالجزائر يوم السبت (26-03-1997م)، تحت عنوان: ﴿بيتهوفن، الفنان العبقري، و الأخلاقي الثوري﴾ (25)، و قال فيها ما نصه: ﴿لقد كان بيتهوفن أول من حرر الموسيقى و الموسيقاريين من التبعية لأهل القصور من القياصرة و الأباطرة، بعد أن كان أصحاب الآلة - كما نقول عنهم في الجزائر- جزء من مستخدمي قصورهم، في العالم كله، لتسليتهم و تمكينهم من التفاخر بتبعيتهم لهم، تمامًا كما كان الشعراء و الضحّاكون -Les bouffons des Rois- من ضروريات البلاطات في كلّ من الدّول الأوروبية و الإسلامية، و خاصّة منها الأموية و العباسية، و الأندلسية، و بصفة أخصّ عند ملوك الطوائف و الطويفات، يُضحكون هذا على حساب ذاك، و يمدحون هذا بدمّ ذاك، و في ذلك يتنقلون من أحدهم إلى الآخر حسب العرض و المكافأة المرتجاة !. فقد كان بيتهوفن أول من حطّم تلك الأغلال و القيود، و استقلّ بنفسه، و رفض عروض أباطرة، و قياصرة، و ملوك، و أمراء، في أن يضمّنوا له راتبًا قارًا مقابل إلتحاقه بقصورهم... في ظروف كان في بعضها يتضوّر جوعًا﴾ (26).

لكنّ الإبداع الفنّي عند مولود قاسم، و المطبوع بدوق جماليّ رفيع يجب أن يكتسي ثوبًا أخلاقيًا منطلقًا من تعاليم الدين و من عُرف الأمة، بعد أن يكون فنّا رساليًا حاملًا للآلام و الآمال و رائدًا في رفع طموحات الشعوب من طرف نخبها المثقفة و الفنيّة المبدعة حتى لا يكون الفنّ مجردًا من أهداف حضاريّة أو فنّا من أجل الفنّ فقط، و في تلك يقول مولود قاسم -مشيرًا إلى دور الفنّ في تحريك العقول- نقلًا من حوار دار بينه و بين الأستاذ محمد الصالح الصديق، و الذي رواه هذا الأخير إذ يحكي و يقول: ﴿قال... فكلّ ما يُشاهد على وجه الأرض من إنجازات في مختلف مجالات الحياة إنّما حقّقه تحريك الأعلى من الإنسان، و كلّ تأخر و إنهزام، و كلّ جهود و تحجّر، و كلّ ضعف و إنحلال، إنّما كان بتجميد الأعلى من الإنسان، أو بتحريك

الأسفل منه، فمن أراد العُلا و التقدّم فليحرك رأسه و يديه، ففي هذه الحركة بركة... فقلت
ممازحاً: و لكن لا ينبغي أن ننسى أن العداء قد يحقق برجليه ما لا يحقق العالم أو الأديب أو المفكر
برأسه. فقال: ذاك في بلادنا، حيث لا وزن و لا قيمة للرأس و ما يبدعه» (27). و كان مولود قاسم
في هذا الحوار أصلاً يشير إلى الرقص الذي أدرج ضمن الفنون، و هو له رأي فيه من حيث أن هذا العمل بالرغم
من أنه إبداع إلا أنه ليس مضبوطاً بضابط أخلاقي، لأنّ الفن له معادلته عند مولود قاسم، و نستطيع إيضاحها فيما
يلي:

$$\frac{\text{إبداع} + \text{ذوق جمالي} + \text{رسالة}}{\text{ضابط أخلاقي}} = \text{الفن}$$

و الرقص يخرج عن نطاق هذه المعادلة، إذ هو بنفسه يقول عنه: «أنا شخصياً لم أكن و لن أكون أبداً من
أنصار الرقص، و لم يسبق لي أن اعتبرته و لن اعتبره من مظاهر الحضارة، و الرقي، و التقدّم، بل
كان دائماً، على مرّ العصور، و في جميع الحضارات، علامة على التفسّخ البورجوازي، و الإنحلال
الأرستقراطي، حتى فيما يسمّى بأعلى صورته الكلاسيكية، وهذا من اللعب الليلية إلى أرقى
الأوبرات و الباليهات في العالم. و لم يكن العريّ و شبهة في يوم من الأيام من علامات النهضة،
و الرقي، و الثورة، و التفتح، و التقدّم، و التطوّر!» (28).

هكذا يحتلّ الفنّ و الإبداع و الذوق الجماليّ عند مولود قاسم مكانة محرّك في هيكل الحضارة الأصيلة، إلى حدّ أن
وصل الأمر بمولود قاسم أن أدرج مادّة الفنّ بكلّ فروعها تقريباً ضمن مقرّرات التعليم الأصلي. ففي كلمة إفتتاح
مرتبلة بالمركز الثقافي الإسلامي بالجزائر العاصمة يوم 09 فيفري 1976، مفتوحاً بها ملتقى التّدريب العملي لمديري
التعليم الأصلي و الشّؤون الدّينية بالولايات ورؤساء مؤسسات التعليم الأصلي بها، قال مانصّه -مشيراً إلى إدراج
بعض الفنون في مقرّرات هذا التّعليم:-

﴿بشأن توزيع الحصص، فينبغي أن تراعوا الجانب التربوي. البعض منكم يُراعي الأساتذة، فيأتيه الأستاذ و يقول له: «بودّي أن يكون درسي في الرياضيات على الساعة الخامسة مساءً، لأنّ في الصّباح عندي كذا ... و كذا». لا، أبدأ! درسُ الرياضيات يُعطى في الصّباح، عندما يكون ذهن التلميذ مستعداً للتقبّل، و الإستجابة، و للبحث، و لتتبّع الأستاذ. و يتلقّى درس الموسيقى في المساء، الإنشاد، الرّسم، و الفنّ عموماً، لتقبّله في كلّ وقت﴾ (29).

و ليبيّن مولود قاسم دور هذا الفنّ في الهيكل الحضاري العام فإنّه يضرب مثلاً على ذلك بتحفيظ الأناشيد الدّينية و الوطنية للنّشء الصّغار من أبناء المدارس الابتدائية و حتى المدارس الثانوية، و المغزى البعيد من ذلك، فيقول: ﴿و حفظ الأناشيد؟ قد يقول البعض: لماذا؟، و قد طبعنا هذه الأناشيد في سنة 1392هـ/1972م، و وزّعناها، و نشرناها... نحن قلنا: نعلّمهم الأناشيد الوطنية التي عذّب من أجل نظمها و توزيعها كثيرون، و ربّما أعدم بعضهم بسببها! و بهذا نغذّي في نشئنا هذه الرّوح. و في نفس الوقت نغنيهم عن كثير من السّفاسف و السّخافات التي يهدون بها... و قد طبعناها، و وزّعناها عليكم لتحفيظها في الثانويات، و إنشادها في المناسبات، و خاصّة في الفسح الأسبوعية التي أعطيناكم أيضاً تعليمات بمنشور لتنظيمها في الطّبيعة مع التّلاميذ و التّلميذات... هكذا الدّول، و هكذا تُغرس روح القومية، روح الأصالة، روح التمسك بالجدور، روح الإستمرارية! روح الدّوام عبر الأزمنة!﴾ (30).

إنّ الثقافة الأصالية و الفنّ الرّسالي عند مولود قاسم هما الضّمانان الأساسيان لضمان الإستمرارية و روح التمسك بالجدور و انسجام الحركة الفعلية الحضارية بالواقع التّاريخي السّابق شكلاً و مضموناً، لذلك فهما الإبداع اليومي الذي به تعيش الأمة أصاليتها و تترجم به إبتها لإبراز ذاتها و بطاقة تعريفها. فالفنّ مثلاً لا يخضع لتفكير ساذج منطلق من فهم سطحيّ لنصوص الإسلام، يقضي و يحكم بجرمة الغناء مثلاً أو الموسيقى أو بهدم تماثيل الحضارات السّابقة كحضارة الفراعنة العريقة إستناداً إلى فهم نصوص شرعية ثابتة و مسندة، بل الأمور بمقاصدها و أهدافها و تخضع لتفكير بشري عميق يخضع لفقّه الموازنات بين المصالح و المفاسد. و الفنّ - و منه

الموسيقى والغناء- له مكانة هامة في تشكيل الحياة الحضارية الأصالية و حمل رسائل عظيمة اللبّ و الجوهر و المقصد، لذلك فإن مولود قاسم يقول: ﴿إن أنجع الطرق لغرس هذه الروح الإسلامية و نشر الفكر الإسلامي لهما طبعاً التربية و الثقافة، اللتان هما الإسمت الروحي الذي تلتئم به الأمم، و السيلان الدائم الذي يضمن تواصل أجزائها، و تماسك أعضائها، و وجود ذهنية واحدة لديهم تجاه القضايا المصيرية، تجسّم ما سمي إجماع الأمم﴾ (31).

و كذلك الأمر بالنسبة للكتابة و الأدب نثراً و شعراً، إذ هما من فنون الثقافة و يحتلان عقل المجتمع و الأمة كما يحتل الكاتب و الأديب قيادة المجتمع و الأمة فكرياً و في حمل الطموحات و الآلام و الآمال، فيبرز مولود قاسم ذلك و يقول: ﴿إن الكاتب هو أمته برمتها التي تبرز من خلال تلك الصفحات المطبوعة، إمّا مشرقة، و ممثلة أحسن تمثيل، و إمّا مشوهة، ممسوخة، «مبهذلة»!﴾ (32)، و يقول في موضع آخر عن دور الكاتب و مهمّة الفنّان في مجتمعها و عن الآمال المعلقة فيهما: ﴿إن مهمّة الكاتب و الفنّان فيها من واجبات، و مسؤوليات و إلتزامات أكثر مما تتضمن من حقوق و إمتيازات، و إن كتابنا و فنّانينا لن يكونوا على مستوى مسؤولياتهم إلاّ اليوم الذي يفهمون جدّ الفهم هذه الحقيقة.

إن الإنتاج الفكري و الفنيّ أسمى و وظيفة إنسانية، لا بالمعنى الوظيفي الإداري الذي هو عرضة للزوال و النسيان، ولكن بالمعنى العضوي الروحي الذي يتجاوز المكان و الزمان﴾ (33).

و قد كتب مولود قاسم هذه الفقرات خلال سنة 1968 في مقاله تحت عنوان: ﴿دور المثقف في المجتمع﴾، و هو عنوان إستلهمه من موضوع للفيلسوف الألماني «فيخته» تحت عنوان «دور العلماء في الدولة». و أوضح مولود قاسم من خلال هذا المقال الدور الرّسالي للمثقف كاتباً أو رسّاماً أو شاعراً أو موسيقاراً أو مغنّياً، و رشّد من خلاله العاملين في ميدان الثقافة و الفنّ بفلسفته المبنية على الإنيّة و الأصالة، فكان كما قاله فيه: ﴿إن الكاتب كموجه لأمتّه، و كمتّرجم عنها خارج الحدود، بفضل كتاباته، إمتداداً لأمتّه كلّها إلى الخارج ! و لهذا فهو يتحمّل مسؤولية كبرى، إذ أنّه حتّى إذا لم يتخطّ بجسمه حدود بلاده فهو السّفير الأكبر

لأمته، لا لدى رئيس دولة، و في بلاد واحدة، ولكن في العالم بأسره، و لمدة تتجاوز عمره إلى أجيال، و أحياناً إلى قرون، أي أن سفارة الكاتب و الفنّان الأصيلين تتجاوز المكان و الزّمان !.

... إنّ الترجمة عن الأمة بالكتابة أو الفنّ لشرف عظيم حقاً، ولكن هذا الشرف يتضمّن أيضاً مسؤولية كبرى، هي الإلتزام نحو هذه الأمة، أي تمثيلها أحسن تمثيل في تراث ماضيها، و أعباء حاضرها، و آمال و مشاريع مستقبلها. و ليكن كلّ منّا على مستوى هذا الشرف العظيم و هذه المسؤولية الكبرى!.

و أوّل مستلزمات هذه المسؤولية، والشّروط الأساسي لإستحقاق هذا الشرف، هو الأصالة، الأصالة في الشّكل و المحتوى!... و إذا عمل الكتاب و الفنّانون بهذه الأصالة و هذا الإلتزام نحو الأمة تحتم على الدّولة أن تهَيّ لهم أسباب الإنتاج، أي أن تشجّعهم بمختلف الوسائل الماديّة و الأدبيّة ﴿34﴾.

فالثقافة و الكتابة و الفنّ عند مولود قاسم إلتزام نحو الأمة و رسالة شريفة أصيلة الشّكل و المحتوى، مضبوطة بالضوابط الأخلاقية و تلتزم بتمثيل تراث الماضي و أعباء الحاضر و آمال و مشاريع المستقبل، بعيدة عن الإسفاف و عن الميوع و الإنحلال، فهو يقول فيما يرويه عنه الأستاذ محمد الصالح الصديق: ﴿قاطعنا الأخ مولود و قال: و إذا تغلّبت الحيوانية كان الإنسان أعظم ضرراً من الحيوانات المفترسة لأنّه أقوى منها عقلاً و أوسع حيلةً فيستخدمها في طلب ملذّاته فيرتكب في ذلك جرائم و موبقات !!﴾ (35). و كان مولود قاسم ينتظر من الأدباء و المفكرين و المثقّفين و الفنّانين خاصّة، أن يبعث من بينهم من يقود الأمة لتحقيق أصالتها و إستمراريتها الإنبويّة كما فعل مثلاً ذلك فيلسوف ألمانيا «فيخته» - و لعلّ مولود قاسم كثيراً ما تقمّص في السّر شخصية هذا الفيلسوف و وجد نفسه في جلده أمام أمتّه - فهو يقول عنه و عن الدّور الرّسالي لأمثال فيخته من الكتاب و المفكرين و ربّما الفنّانين - و كلّ فنّانٍ في ميدانه - ﴿تلك الأمة هي ألمانيا، وهذه الشّخصية الفدّة هو أحد فلاسفتها العظام، أحد الفلاسفة العظام على الإطلاق في سائر العصور، الذين كانوا يخلّقون في آفاق التجريد المحض و المثالية الخالصة العليا، و مع ذلك لم يفقدوا الإتّصال

بالمحسوس، و لم يكتفوا بالحديث عن جنس الملائكة و خلود الرّوح، بل إهتمّوا أيضًا وبالدرجة الأولى بالقضايا الوطنية و الإنسانية اليومية، بآلام الشعب و مصير الأمة كآمة، فوضعوا طاقتهم، كلّ طاقتهم، في خدمة أمتهم و إنقاذها، و ضمان خلودها و أقصد بهذه الشخصية الفذة الممتازة يوهان غوتليب فيخته» (36).

و لذلك فإن مولود قاسم لما أسّس مجلّة «الأصالة» في شهر مارس من سنة 1971 كتب في افتتاحية العدد الأوّل منها كلامًا يُنبئ عن دور الكتابة و الثقافة الرّسالية الأصيلة الملتزمة نحو الأمة في ماضيها و حاضرها و مستقبلها، يقول: «سُتُحاول هذه المجلة أن تعبّر عن هذا القطاع من النّشاط القومي كما ينبغي أن يكون، و إلّا فالأحسن ألا يكون!». و سوف تصدع بما تظنّ أنّها مأمورة من وحي ضميرها و منطق كيائها هذا، و لا يمكنها أن تكون إلّا كذلك، خاصة و البلاد مُقبلة على ثورة ثقافية رويّة تقتلع أوتادًا ناشزة من أصولها. و تجتث أوضاعًا شاذة من الغرائب المستوردة بفروعها و جذورها، و ستعتمد إلى الإقناع، إقناع عجائب المخلوقات لدينا، بضرورة الرّجوع إلى الجاذبة المستجدة، و الصّراط المستقيم المستعاد» (37).

و من الأحداث التي تُحكى عنه في ترشيده للعمل الفنّي و خاصّة منه الإنتاج و البثّ التّلفزي ما حكاه عنه الدكتور أحمد بن نعمان في مسألة بثّ مؤسسة التّلفزة الجزائرية لمسلسل «جمال الدّين الأفغاني» و دوره في إيصال هذا المنتج الهام للجماهير من منطلق إحساسه بالفنّ الرّسالي، فيقول: «سنة 1985، صادف أن إستورد المسؤولون على البرمجة في التّلفزة الوطنية مسلسل جمال الدّين الأفغاني "الشّهير" الذي كان محضورًا في معظم البلاد العربية و خاصّة في المغرب العربي، و نظرًا لحساسية الموضوع فقد إستقدم التّلفزيون مجموعة من الشّخصيات السياسية في ذلك الوقت لمشاهدة المسلسل بغرض الحصول منهم على تأشيرة العرض... فكان كلّ من يشاهده يردّد في إعطاء الرّأي بالإيجاب خوفًا على كرسيّه !!

فلم تجد وزارة الإعلام حينئذُ بدءاً من أن تستعجد «بسي مولود» فطلب منهم هذا الأخير تمكينه من مشاهدة كلّ الحلقات، فكان له ذلك و كنتُ أرافقه في معظم الأحيان ...

لما إنتهى العرض الذي إستغرق عدّة أيام، كتّب الفقيه للمعنيّين ما يفيد أنّ المسلسل «القمة» ليس ممكناً عرضه على الجمهور فحسب، بل هو واجب مقدّس !! و طمأن الوزارة في ذلك الوقت مؤكّداً لهم تحمّل مسؤوليته كاملةً أمام الشّعب الجزائري و التّاريخ و أمام «جهات الرّئاسة»!! وهكذا تمّ عرض المسلسل في شهر رمضان من نفس العام، وحقّق نجاحاً منقطع النظير (كما هو معلوم) ثمّ جعل التّلفزة تقرر إعادة عرضه في السنّة الموالية تحت إلهام المواطنين، كما جعلها أيضاً و لأوّل مرّة تستقطبُ ملايين المشاهدين للشّاشة الوطنية من الأشقاء في كلّ من المغرب و تونس !! و أشهدُ للتّاريخ أنّي رأيته مراراً، في قاعة العرض للمسلسل يبكي بسخاء متأثراً ببعض المشاهد و المواقف البطوليّة النّادرة لجمال الدّين الأفغاني في صراعه المتواصل و المستميت مع قوى «الإستعمار» الإنجليزي و الفرنسي و الصّهاينة الجواسيس، و دسائس و مؤامرات «فقهاء الحيض و النّفاس» في مقرّ الخلافة في الأستانة !! ﴿38﴾.

هكذا كان الأستاذ الرّاحل مولود قاسم نابت بلقاسم يرشد العمل الثّقافي و الإبداع الفّنيّ الحاصل في الجزائر لمدار أكثر من عشرين عاماً، ينشر فكرته و رؤيته للفنّ و الثّقافة من موقعه كمفكّر و داعية و فيلسوف أسّس لمدرسة حضارية أعمدها الإنيّة والأصالة، معلناً في كلّ طروحاته ما نلخصه في المعادلة التالية:

إبداع + ذوق جماليّ + رسالة

_____ = الفنّ

الضابط الأخلاقيّ

أي أنّ الفنّ هو كلّ إبداع له رسالة حضارية شريفة ينبع منه الدّوق الجماليّ، بشرط أن يكون مضبوطاً بمحدود أخلاقية، وذلك لتحقيق الأصالية في ميدان الثّقافة.

المبحث الرابع:

كفاح مولود قاسم في ترشيد الثقافة الإجتماعية للأمة الجزائرية

نقصد بالثقافة الإجتماعية ذلك النمط الإجتماعي من بناء أسريّ و مكانة الذّكر و الأنثى و مكان الذريّة و الأبناء في المنظومة الإجتماعية، و تلك التركيبة الإجتماعية المحكومة بثوابت لا يُفترطُ فيها لصبغ المجتمع بصبغة أصلية يحافظ بها على إنية الأمة كما تركها لنا الأسلاف.

إنّ النمط الإجتماعي الذي يعيش عليه المجتمع يُعتبر ثقافة لن سيأتي بعدنا لأنّه يُوجدُ و يخلق العُرف العام و هيكل الأمة الذي يشكّل وجهها و جوهرها في تمسّكها بانيّتها أو إنفصاليتها عنها.

لقد كانت لمولود قاسم -رحمه الله- بحكم موقعه الفكري و الفلسفي و الدّعوي كفاحات عديدة بشتّى وسائل الحياة، وحتى في حياته الشخصيّة الأسرية -و هو الوزير و المفكّر و المتفرّغ للشؤون السياسيّة و الثقافيّة المنصرف إلى العمل على مستوى أعلى هيئات الدّولة و الذي يحسب وقته بالدقيقة ليُسْتَغَلَّ جميعه- حيث تفتن إلى ضرورة، مثلاً، الإهتمام باللّقاء للتكفّل بهم، كإسهام منه ضمن المنظومة الإجتماعية التي أراد نظام الأسرة الجزائري أن يُرسيها بفضل رجال يعتبر مولود قاسم واحداً منهم. و يتّضح هذا الأمر في بطاقة الإستعلامات التي كتبها

مولود قاسم عن نفسه في يوم 20 فيفري 1984، جاء من ضمن ما جاء فيها، ما يلي: ❖

بطاقة إستعلامات

الإسم: مولود قاسم

اللقب: نایت بلقاسم

الإسم المستعار: بلقاسم

تاريخ و مكان الميلاد: 6 يناير 1927 في بلعيا (أقبو) ولاية بجاية.

الحالة العائلية: متزوج عدد الأطفال: 1 (+ ثمانية في الكفالة) (39).

ولننظر إلى هذا التفاني اللامتناهي من طرف مولود قاسم في تطبيقه لأهمّ تعاليم الإسلام في حماية هؤلاء الفئة من الأطفال من الضياع، يُعطي القدوة للآخرين ممن يملكون الثروة والإمكانات، و بكم تكفل؟!، بثمانية مرّة واحدة. يا لعظمة الموقف!!.

أما فيما يخصّ قانون الأسرة الجزائري و الذي كان في بعض الزمن السالف حُلماً، و أصبح الآن واقعاً، فإنّ مولود قاسم قد ساهم في إيجاده و إرسائه أيما إسهام حتى تمّ ترسيمه سنة 1984، بحيث أنه تكلم عنه قبل ذلك بأكثر من عشر سنوات في إحدى ملتقيات الفكر الإسلامي و هو الملتقى السادس المنعقد سنة 1972 أيام كان وزيراً للشؤون الدينية و التعليم الأصلي و كان تحت مسؤوليته المجلس الإسلامي الأعلى التابع في ذلك الوقت للوزارة حيث يقول: ﴿و قد قال لكم في السنة الماضية، بالنسبة للذين حضروا منكم ملتقى وهران، قال لكم الدكتور بوعلام بن حمودة، وزير العدل، أنه وضع بين يدي المجلس الإسلامي الأعلى هذا مشروع قانون الأسرة ليبدلي برأيه فيه، و ليعقب، و يعلّق و يضيف، و يحذف، و يعدّل، و يصادق، و يعارض. و هذا ما قام به فعلاً المجلس الإسلامي الأعلى... و الأساتذة أعضاء المجلس الإسلامي الأعلى يصدرون الفتوى على ضوء العلم للتوفيق مع الدين. و هذا المجلس ليس مكوّناً من موظفين من الوزارة، أو من العلماء بالمعنى التقليدي، فقط، و لكن هناك أيضاً أساتذة من مختلف الجهات، من الجامعة، و من محامين، و أطباء، و من فئات عديدة أخرى﴾ (40).

و يحكي عنه الأستاذ الدكتور الوزير الأسبق بوعلام بن حمودة في إسهامه في هذا المجال و ترشيد الثقافة الإجتماعية بالمشاركة في إعداد المنظومة الطويلة المدى من القوانين التي تصنع وجه المجتمع الجزائري في الميدان الإجتماعي، إذ يقول: ﴿فزيادةً على أنه عيّن سنة 1970 وزيراً للتعليم الأصلي و الشؤون الدينية، فإنه قد بقي مستشاراً للرئيس هواري بومدين -رحمه الله- في شؤون الإتجاهات الكبرى. فأذكر أنه عيّنه ليحضر معي الخطاب الهامّ المتعلّق بإلغاء التشريع الموروث من العهد الفرنسي، و هذا الإلغاء قد

أعدته بجدّ و بصعوبة في وزارة العدل، و قد تمّ بالفعل يوم 05 جويليا 1975، فبهذه المناسبة حضّرتُ
بمعيّة الأخ مولود قاسم خطاباً عرضناه على الرّئيس الرّاحل في منزله، و لما وصلنا إلى الفقرة التي
تنصُّ على أنّ التّشريع الجزائري يجب أن يُستمدّ أساساً في المستقبل من الإسلام، سألنا الرّئيس:
«أيجب أن نُشير إلى ذلك؟»، فقلنا له نعم، لأنّ تصريح أوّل نوفمبر 1954 ينصّ أنّ الجزائر المستقلّة
ستكون جمهورية ديمقراطية إجتماعية، في إطار المبادئ الإسلامية، فبقيتُ الفقرة كما هي في النصّ
المُقرّح. فأوردتُ هذه القصّة لأبّين للقراء أنّ مولود قاسم لم يكتف بدفع عمليّة التعريب فقط، بل
حاول بكلّ ما يملك من قوى و إرادة أن يوجّه القيادة إتّجاهاً إسلامياً عربياً وطنياً، مستغلاً العصرنة
للسيطرة على التّنمية و لمواجهة العدوّ الخارجيّ و تقدّمه التّكنولوجيّ (نحو وسيلة لا كنموذج حياة
مادّيّة بدون روح) ﴿41﴾.

و قد كان لمولود قاسم صولات و جولات في حماية المجتمع الجزائري من بعض الأفكار الانفصالية عن أصلته
وإنّيته، تلك التي تُسرّبُ إليه من مجتمعات أخرى ليس لها نفس المرجعية الفكرية و الحضارية مع الشعب الجزائري.
من هذه الأفكار مثلاً مسألة تحديد النّسل تحت دعاوى و تبريرات إقتصاديّة و ثقافية عديدة، فأتخذ مولود قاسم
- من موقعه السّلطويّ و الفكريّ والدّعويّ - موقفاً حاسماً و كتب يقول: ﴿إنّ الدّعوة إلى التّحديد دعاية
إستدمارية بحتة فعلاً، لأنّ البلاد الغربية، البلاد الأوروبية عموماً، و الغربية منها خاصّة، و أمريكا
أيضاً تضمّ إليها، هي التي تدعو إلى هذا خوفاً لما سمّاه أحد الإخوان جحافل ياجوج و ماجوج !
يخافون من هذا المليار من المسلمين أن يصبح مليارين أو ثلاثة، و إذ ذاك ماذا يحدث؟ رغم أنّهم
سيكونون بسواعد عارية، حقاً، و لكن مع ذلك كقوة لها وزنها، العدد له وزنه أيضاً، أقول، هذه
البلدان تحاول أن تجد حلولاً لنفسها، عن طريق تعقيد مشاكلنا نحن، و تقول: «قفوا هنا و لا تزيدوا
من السّكان!»، أمّا نحن فنرى أنّ الحلّ هو الإنتاج! ﴿42﴾.

فحاول مولود قاسم من موقعه أن يصدع بكلمة الحق التي ترشد مجتمعه لعدم الوقوع في إتياع خطي الغير من الأمم والحضارات الأخرى، و لو دخلوا جحر ضبّ أرادوا دخوله وراءهم، ويقول في موضع آخر: ﴿نحن في الجزائر إتخذنا موقفاً رسمياً في الدّاخل و في الخارج ضدّ تحديد النّسل، لأننا نرى أنّ كلّ بلاد لها وضعها، ونحن في الجزائر -وقد يصلح هذا كذلك لبلدان إسلامية أخرى- نرى أنّ هذا التّحديد خطأ كبير جداً، و أنّه لما سمّناه بحلول الكسالى، الذين عوض أن يُضاعفوا الإنتاج، و هم الذين لهم أراضٍ شاسعة واسعة لا تكاد تُحدّد، و عوض أن يشتغلوا، و يفلحوا هذه الأراضى، و يزرعوها،... أقول: عوض أن نزرع هذه الأراضى، نتكلّم عن تحديد النّسل!﴾ (43).

من الأفكار و الطّروحات التي إهتمّ بها مولود قاسم -أيضاً- مسألة تحرّر المرأة الجزائرية و حقوق النّساء عموماً، و قد إنتهج في ذلك طريقاً وسطاً فهمه من وسطية الطّرح الإسلامي لكلّ المسائل المتعلّقة بكرامة الإنسان، بعيداً عن التّقاليد و العادات الرّائدة و عن الأفكار و الطّروحات الوافدة، و يوضّح مولود قاسم ذلك فيقول: ﴿إذا جاز لأحد الفريقين اللّذين يؤلّفان البشرية أن يتّهم الآخر بالعداوة، فذلك أحقّ للمرأة، لأنّ الرّجل أقدر على تكييفها من مقدرتها على تكييفه، و الرّجال قد أسأؤوا معاملة النّساء على صورتين، فقد كانوا يعتبرونهنّ إمّا بمنزلة خادّات و جوار، أو بمنزلة آلات للزّينة و الزّخرفة، فالمرأة ليست هذا و لا ذاك -ليست خادّمة الرّجل و لا آلة سروره- بل هي شريكته و رفيقته و لها وظيفة إجتماعية لا تقلّ عن وظيفته شأنًا!﴾ (44). هذه الوسطية في الطّرح تحارب الجمود كما تحارب الانفصال عن اللّذات الحضارية، و تتماشى مع الفكرة الفلسفية التي أرساها مولود قاسم و سمّاها الإنيّة و الأصالة ملخّصة في أن يكون الإنسان ابن عصره مع البقاء على أديم مصره دون أن يصبح نسخة غيره.

فمن جهة محاربة الجمود و الرّضوخ لعادات و تقاليد بالية لا تُمتُّ لروح الدّين بصلّة، فإنّ مولود قاسم يقول مثلاً في إحدى مناقشات ملتقى الفكر الإسلامي موجّهاً كلامه إلى الطّالبات المشاركات: ﴿إذن قلتُ للبنات الطّالبات الأخوات أنشدن أننّ الأناشيد، إذا كان الطّلبة لم يحفظوها، أو يتكاسلون عن الإنشاد،

ويطلبون من الطالبات أن يُنشدن و هم يتفرجون ! وقالت إحداهن: نحن لا ننشد، لأن صوت المرأة عورة. قلتُ لها: لقد كانت السيدة عائشة تروي الحديث. هل كان صوت عائشة عورة؟ ﴿45﴾، ويقول عن مشاركة المرأة في الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية -عكس ما كان عليه العرف الاجتماعي خلال هذا القرن في مجتمعات المسلمين-: ﴿نرجو من السيدات أن يُشاركن في كل شيء إيجابي، كما شاركت المرأة في العصور الزاهرة من التاريخ الإسلامي في كل شيء إيجابي. لكنني شخصياً لو كانت لدي بنت أو أخت لفضلت على دراستها أن تبقى في بيتها مع زوجها، اللهم إلا إذا إتفقت مع زوجها على أن تواصل دراستها، فلها ذلك مع زوجها، لا أَدْخُل في شؤونهما﴾ (46).

و من جهة محاربة المسخ والفسخ والنسخ والإنفصالية في مجال الأخلاق العامة والبناء الاجتماعي للأمة وعلاقة الجنسين فيما بينهما، فإن مولود قاسم قد تصدّى مثلاً لتداخل مفاهيم الحرية والمساواة بين الجنسين إلى الوصول إلى تناسي وظائف كل طرف على حدى، إذ يقول مثلاً: ﴿عندما تسترجل النساء، و يتخنث و يتأنث الرجال﴾، فتعكس الأدوار، و تقع الكارثة ! إنه التغني بالغلما... و التفرغ للصيد و مختلف أنواع اللّهو و الإستهتار بشؤون الدولة و الأمة ! هذا ما حدث لبابل و الفراعنة، و هذا ما صار لليونان و الرومان، و للأمويين و العباسيين، و هو نفس ما تسبّب في إنهيار دولة بني حماد بعدها و دول أخرى بعدها... و أخرى ستلوها! ﴿47﴾.

ثم يتخذ موقفاً من عمل المرأة و مشاركتها في المجتمع بناءً و تشييداً و إضطلاعاً بمهامها ك نصف الأمة، فيقول: ﴿و لقد سبق لنا أن عبّرنا عن رأينا بخصوص هذا الموضوع، و قلنا للمرأة أن تصبح إن شاءت الوزيرة و الرئيسة و الداية، على شرط فقط ألا تعكس الآية ! فهناك لعملها قطاعات، على ألا تجعل منها إقطاعات، و لها في العمل ميادين، مع حفظ أخلاق و دين، و لها فيها ما يشرفها، و لتبتعد عما يحرفها، و نحن في هذا مع ابن باديس القائل: إن امرأة تلدُ لنا ولدًا يطير، أحسن من

التي تطير بنفسها! ﴿48﴾. و يتخذ موقفاً من الحركات و التحركات التي تنادي بتحرر المرأة من الدين و الأخلاق و المبادئ الحضارية لأمة المسلمين، فيقول: ﴿بل أكثر من هذا: ألم يخرج قطعاً من أمثال تلك الميخانات الهزيلة في مظاهرة في العاصمة الفرنسية بعنوان «رابطة النساء العربيات في باريس»، و هنّ يصرخن: «إرتعد أيها الإسلام!» مطالبات «بتحرير المرأة» في منشور و زعنه هناك؟. أصالية أم إنفصالية؟ تحرر من أي شيء؟ و الإسلام يرتعد منكّن؟ طبعاً لا! فالإسلام كرسالة إلهية لا يرتعد، و لكن بقية أركان العالم المنتسب إليه، أي العالم الإسلامي، ستنهار، إذا إستمرّ الحال على هذا المنوال، و ستحقيق به أشدّ الأهوال، و ستكون عنه للتاريخ أحكام و أقوال! ﴿49﴾.

و يضع مولود قاسم المرأة في مكانها داخل المجتمع و ضمن منظومته الفكرية و قاعدته الفلسفية القائلة بالإئبة و الأصالة إذ يُنيطُ بها مسؤولية عظيمة عظم خطورة دورها في البناء الحضاري، فيقول: ﴿إنّ المرأة في نظرنا، و في نظر كلّ ذي عقل سليم و أدنى مستوى من الثقافة، هي حامية التقاليد و العمود الفقري للأسرة، التي هي القاعدة الأساسية للمجتمع، و خليته الأولى، و آية حياة أخلاقية أو منحلّة في الأسرة و المجتمع تعود بالدرجة الأولى إلى سلوك المرأة... و من أجل ذلك فإنّ دور المرأة فاصلٌ في حياة المجتمع﴾ (50)، و يقول عنها في موضع آخر بالربط المباشر مع الإئبة و الأصالة: ﴿و قد يُقالُ لنا: «هل المرأة في نظركم هي كلّ الأصالة و الأصالية؟»، فنقول: المرأة هي اللّغة، هي الدين، المرأة هي التاريخ، المرأة هي حبّ الوطن، المرأة هي مربية الجيل، المرأة هي عماد الرّجل، المرأة هي عماد الأسرة، المرأة هي عماد المجتمع، المرأة هي عماد الأمّة، المرأة هي الإنسانيّة! هي الإئبة، هي الحصانة، هي الأخلاق، هي الثّقافة! هي الأصالة، هي الأصالية، هي الوجود، هي البقاء!.

و المرأة هي الخراب! و المرأة هي الإنحلال! و المرأة هي الإختلال! و المرأة هي الفساد! و هي الإنفصام! و هي الإنفصال! و هي الإنفصالية! و هي العدم! و هي الفناء! و هي قيام السّاعة! ﴿51﴾.

و بعد ذلك يُرسي مولود قاسم قضية التضامن الإجتماعي داخل المجتمع الجزائري كقيمة من القيم الحضارية والإجتماعية التي تربط الأفراد فيما بينهم وتشكل المسؤولية الجماعية عن مصير أي فرد من أفراد الأمة، فيقول مستدلاً بالتاريخ الإسلامي و حضارته عسى أن يُترجم ذلك إلى واقع مُقنن: ﴿شمل نظام العدالة الإجتماعية هذه، أو التكافل الإجتماعي، فئات عديدة من العجزة صحياً، كالشيوخ، حتى الذايمين، مثل الحادثة المعروفة بين سيدنا عمر و اليهودي المُسنّ إذ قال له رضي الله عنه: «ما أنصفناك أن أكلنا شبيبتك ثم ضيعناك عند الكبر» ! و أخذه في الحال إلى منزله فأعطاه من قوته ثم أمر له بمعاش من بيت المال لبقية أيامه. و نفس الترتيب وضع للفقراء و المساكين عموماً، و المرضى، و العميان، و المقعدين، و المتشردين، و الأسرى، و قد ذكرنا اليتامى، و العجزة، و اللقطاء» (52).

إن العدالة الإجتماعية عند مولود قاسم هامة جداً، لكونها إذا تحققت أغنت فئات كبيرة من المجتمع عن الحاجة، و بالتالي عن التفسخ و الإنحلال و التشرد و الضياع، فيحفظ النسيج الإجتماعي المبني على الأسرة و نظام العرس و الشرف من الانفصام و التمزق، و تحافظ الأمة بذلك على ثقافتها الإجتماعية و وجهها المشكل للإنية و الشخصية. يقول مولود قاسم: ﴿من بيت المال كان عمر الفاروق يأخذ المرتبات التي كان يجريها على الزمنى، أي العجزة، و منها أيضاً كان يأخذ المنحة التي عممها على الشيوخ، و العجزة، مسلمين كانوا أم غيرهم. و قد كان الإسلام أكرم و أعدل من النظريات الحديثة في توزيع المنح العائلية. فأبوبكر عممها على سائر الأطفال، خلافاً للنظم الإجتماعية الحديثة التي تقصرها على أبناء الموظفين و العمال فحسب. و قد بلغ من رحمة ذلك النظام في العهود الزاهرة للإسلام أن شملت تلك المنحة حتى اللقطاء، و عمر المتشدد في المبادئ، الصارم في الحفاظ على الأخلاق و معاني الرجولة، هو الذي أحدثها، و كان يرى ألا يعاقب الأطفال على أخطاء أمهاتهم و آبائهم. و قل مثل ذلك في الوليد بن عبد الملك الذي زاد من تعميم هذا النظام، و كذلك في عمر بن عبد العزيز الذي جعل هذه المنحة العائلية تتجاوز الأولاد من ذكور و إناث لتشمل الأم أيضاً، بفضل هذا

النظام الاجتماعي الرائع الذي يتمثل في الزكاة، التي هي الركن الاجتماعي البارز من أركان الإسلام ﴿53﴾.

و لقد حاول مولود قاسم أن يحيي مؤسسة الأوقاف مُذكِّراً بالأدوار الهامة التي تقوم بها لتشكيل نسيج التضامن الاجتماعي وحماية الفئات الضعيفة من التشرّد و الضياع أو من الإنحلال الآتي من الفقر و الإدقاع، فكان مما كافح به جملة محاضرات تكلم فيها عن العدالة الاقتصادية و العدالة الاجتماعية، حيث قال في إحداها: ﴿بل و كانت هناك أوقافٌ خاصّةً بالحيوانات و الطيور، لحمايتها، و جبر كسرها، و علاجها حتى شفائها، كما كان ذلك في دمشق و فاس مثلاً حتى إلى عهد قريب.

... هذا كلّه فضلاً عن الأوقاف المخصّصة لمؤسّسات الخيرية • مثل المعاهد العلمية، و الطّرق، والأيتام، و المقابر، و المساجين، و الآبار، و المستشفيات، و المكتبات، و المساجد، إلخ. هذه أمثلة قد تبدو للبعض لا تكاد تصدّق، لجانبها التنظيمي الرائع، التقدّمي كما يُقال اليوم، و وجهها الإنساني حتى مع غير الإنسان !.

هذا شيء من كثيرٍ لما بلغه الإسلام، و حقّقته حضارته، و إن بقي أثراً بعد عين !، و عزاًؤنا، بل و أملنا، بل و يقيننا، أنّ ما أمكن بالأمس يمكن اليوم، إذا ما سيرنا على نفس الدّرب، و رجعنا إلى تلك الجادة ﴿54﴾. هذا كلّه أملاً في الحفاظ على الثقافة الاجتماعية و النمط الاجتماعي للأمة الجزائرية ووجهها الشخصي و الإنوي.

الهوامش:

- (1) محمد الصالح الصديق، «خواطر و ذكريات عن الأستاذ الراحل مولود قاسم نایت بلقاسم»، ص 81-83.
- (2) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 242-243 بتصرف.
- (3) مولود قاسم نایت بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 122.
- (4) المصدر السابق، ص 122 على الهامش.
- (5) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 244.
- (6) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، المقدمة، ص 24-25 على الهامش.
- (7) د/ أبو القاسم سعد الله، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 264-265.
- (8) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 245.
- (9) د/ أبو القاسم سعد الله، عن د/ أحمد بن نعمان، المصدر السابق، ص 271-272 بتصرف.
- (10) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، المصدر السابق، ص 245.
- (11) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 246.
- (12) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 285.
- (13) مولود قاسم نایت بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 537.
- (14) المصدر السابق، ص 539.
- (15) مولود قاسم نایت بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 428-429.
- (16) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأوّل، ص 246-247 بتصرف.
- (17) مولود قاسم نایت بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 533.
- (18) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأوّل، ص 238-239.

- (19) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 232.
- (20) د/ عبد الرزاق قسّوم، عن د/ أحمد بن نعمان، المصدر السابق، ص 284.
- (21) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، الجزء الأوّل، ص 84.
- (22) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص 228.
- (23) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، المقدمة، ص 32.
- (24) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، المقدمة، ص 33.
- (25) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 245.
- (26) المصدر السابق، ص 247-248 بتصرّف.
- (27) محمد الصالح الصديق، «خواطر و ذكريات عن الأستاذ الراحل مولود قاسم نایت بلقاسم»، ص 135-136.
- (28) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، الجزء الأوّل، ص 344-345.
- (29) المصدر السابق، ص 306-307.
- (30) نفس المصدر، ص 304-305-306 بتصرّف.
- (31) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم انفصالية؟»، المقدمة، ص 23.
- (32) مولود قاسم نایت بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 98.
- (33) المصدر السابق، ص 99.
- (34) نفس المصدر، ص 98-99 بتصرّف.
- (35) محمد الصالح الصديق، «خواطر و ذكريات عن الأستاذ الراحل مولود قاسم نایت بلقاسم»، ص 122.
- (36) مولود قاسم نایت بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 53-54.
- (37) المصدر السابق، ص 153.
- (38) د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم، رمز كفاح أمة»، ص 259.
- (39) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن: محمد الصالح الصديق، «خواطر و ذكريات عن الأستاذ الراحل مولود قاسم نایت بلقاسم»، ص 7.

- (40) مولود قاسم نايث بلقاسم، «إتيّة و أصالة»، ص 336-337 بتصرّف.
- (41) د/ بوعلام بن حمودة، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نايث بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 276-277.
- (42) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأوّل، ص 394-395.
- (43) المصدر السابق، ص 393.
- (44) مولود قاسم نايث بلقاسم، عن: محمد الصالح الصديق، «خواطر و ذكريات عن الأستاذ الراحل مولود قاسم نايث بلقاسم»، ص 94.
- (45) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأوّل، ص 137.
- (46) المصدر السابق، ص 133.
- (47) نفس المصدر، ص 140.
- (48) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، المقدمة، ص 61.
- (49) المصدر السابق، ص 60-61.
- (50) مولود قاسم نايث بلقاسم، «إتيّة و أصالة»، ص 134.
- (51) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، المقدمة، ص 62.
- (52) مولود قاسم نايث بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأوّل، ص 321.
- (53) مولود قاسم نايث بلقاسم، «إتيّة و أصالة»، ص 345.
- (54) المصدر السابق، ص 347-348 بتصرّف.

الفصل الثالث:

الكفاح الدعوي في رؤى

مولود قاسم السياسية والإقتصادية

• المبحث الأول: الكفاح الدعوي في رؤى مولود قاسم السياسية.

• المبحث الثاني: الكفاح الدعوي في رؤى مولود قاسم الإقتصادية.

كانت لمولود قاسم نيت بلقاسم إنشغالات سياسية ميدانية و أخرى فلسفية و فكرية و نظيرية، و كان من أوائل السياسيين القلائل الذين ربطوا بين الأيديولوجية و الممارسة السياسية. و بالرغم من إبتعاده عن المجال الإقتصادي حيث لم يشغل وزارة تَمَّتْ إليه بصلة من الصّلات، إلاّ أنه أدلى بدلوه في هذا الميدان محاولةً منه في ترشيد البناء الإقتصادي للدّولة الجزائرية، سواءً من خلال محاضراته و كتاباته، أو من خلال نقاط جدول أعمال ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت تُعقد سنويًا، و تستقطب إهتمام الجميع من رُعاة و رعيّة.

و لهذا أردنا أن نُفرد هذا الموضوع فصلاً كاملاً، نبين فيه مدى نظرة مولود قاسم الشّمولية لنواحي الحياة المختلفة، هذه الشمولية التي إستقاها من شمولية الإسلام كدين و دولة و نظام إجتماعي كامل، إنطلاقاً من موقعه كداعية إسلامي قبل أن يكون رجل ثقافة أو أحد رجال السياسة البارزين.

سنتناول هذا الموضوع من خلال مبحثين، هما:

- المبحث الأوّل: الكفاح الدّعوي في رؤى مولود قاسم السياسية.
- المبحث الثّاني: الكفاح الدّعوي في رؤى مولود قاسم الإقتصادية.

و إخترت قصداً كلمة «رؤى»، جمع رؤية، لكون ما يأتي من آراء مولود قاسم نيت بلقاسم تُعتبر إجتهادات خاصّة له تحتمل الصّواب و الخطأ، و يتحمّلها مولود قاسم في سياقها التاريخي، و من إجتهاد فأخطأ فله أجر. وسيأتي التفصيل فيها من خلال ما سوف يأتي.

الكفاح الدعوي في رؤى

مولود قاسم السياسية

- المطلب الأول: مساهمة مولود قاسم في المسيرة السياسية الوطنية.
- المطلب الثاني: دعوة مولود قاسم العلماء للمشاركة في الحياة السياسية
- المطلب الثالث: دعوة مولود قاسم لتحقيق الوحدة الإسلامية سياسياً
- المطلب الرابع: دعوة مولود قاسم لإرساء نموذج للمجتمع المسلم.

الكفاح الدعوي في رؤى

مولود قاسم السياسية

تمهيد:

لقد شغل مولود قاسم نايث بلقاسم عدّة مناصب سياسية في كلّ مراحل حياته من بداية الخمسينات إلى نهاية الثمانينات، وبلغ مراكزًا هامّةً قريبةً من القرار السياسي الحاسم في البناء الحضاري بعد إسترجاع الإستقلال إبتداءً من إشتغاله في وزارة الشؤون الخارجية ثمّ في أمانة الرّئاسة كمستشار ثمّ في وزارة الشؤون الدّينية و التّعليم الأصلي ثمّ في إستشارة وزارة الثقافة إنتقالاً إلى الأمانة الدائمة للجنة المركزية لجهة التحرير الوطني التي كانت لها بعض سلطات القرار في عهد الحكم بالحزب الواحد أو ما سُمّي بالأحادية الحزبية. وهذا الإشتغال المتنوع في مجال السياسة جعل مولود قاسم يترك بعض بصماته ورؤاه ومواقفه في هذا الميدان سجّلها له التاريخ في ذاكرة الأمة الجزائرية. وقد إتبع نهجًا سياسيًا ينبّي عن ثقافة حضارية و سياسية عميقة تنبع من إنسان لا يصلح إلا أن يكون مُنظرًا لقيام حضاري ساهم فيه أيما مساهمة، إلى جانب النزاهة و الأمانة اللّتين كان يُوصف بهما طوال حياته. و إذ نحن نطرق هذا الموضوع في حياة مولود قاسم لتوضيح كفاحه الدعوي المنطلق من قناعاته الإيمانية و الفكرية و الحضارية، فإننا نتناوله من خلال المطالب التالية:

- المطلب الأوّل: مساهمة مولود قاسم في المسيرة السياسية الوطنية.
- المطلب الثّاني: دعوة مولود قاسم العلماء للمشاركة في الحياة السياسية
- المطلب الثّالث: دعوة مولود قاسم لتحقيق الوحدة الإسلامية سياسيًا
- المطلب الرابع: دعوة مولود قاسم لإرساء نموذج للمجتمع المسلم.

المطلب الأول:

مساهمة مولود قاسم في المسيرة السياسية الوطنية

شغل مولود قاسم - رحمه الله - عدّة مناصب سياسية جعلته يتدخل تدخلاً مباشراً في هيكلية المسيرة السياسية في جزائر ما بعد إسترجاع الإستقلال، إمّا من خلال بعض التدابير التي إتخذها شخصياً، أو من خلال الكواليس التي كان مولود قاسم أحد جنودها البارعين الذين يحسنون التخفي وراء الستار للتأثير في الحياة السياسية الوطنية و في مسارها، و إمّا من خلال مواعظه وخطبه المتكرّرة من فوق منابر ملتقيات الفكر الإسلامي أو وسط الوزراء و المسؤولين السياسيين داخل المجلس الوزاري الذي كان عضواً فيع لأكثر من عشرين سنة. يقول الدكتور بوعلام بن حمودة - الوزير الأسبق - أحد زملاء المرحوم مولود قاسم، عنه: ﴿إِنَّ إِطْلَاعَهُ عَلَى مَا جَرَى فِي بَلَدِهِ مِنْ أَحْدَاثٍ مِنْذُ الْقَدَمِ، إِلَى آخِرِ التَّطَوُّرَاتِ كَانَ وَاسِعًا، وَ كَذَلِكَ إِطْلَاعُهُ عَلَى مَا جَرَى وَ يَجْرِي عَصْرِيًّا فِي الْعَالَمِ، فَالْإِطْلَاعُ هَذَا لَمْ يَبْقَ أَكَادِيمِيًّا فَقَطْ بَلْ حَاوَلَ الْمَرْحُومُ أَنْ يَسْتَلْهِمْ كُلَّ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ فِي عَمَلِيَّةِ بِنَاءِ الْوَطَنِ، وَ ذَلِكَ بِتَذْكَيرِ الْقَادَةِ السِّيَاسِيَّةِ فِي أَثْنَاءِ كُلِّ الْإِجْتِمَاعَاتِ الرَّسْمِيَّةِ وَ غَيْرِ الرَّسْمِيَّةِ. إِنَّ قُوَّةَ ذَاكِرَتِهِ جَعَلَتْهُ يَشْرَحُ الْأَحْدَاثَ بِكُلِّ تَفَاصِيلِهَا وَ تَوَارِيخِهَا. أَمَّا صِرَاحَتُهُ فِي التَّعْبِيرِ وَ شَجَاعَتُهُ فِي الدَّفَاعِ عَنْ آرَائِهِ فَهَمَا مَعْرُوفَتَانِ لَدَى الْجَمِيعِ. إِنَّ آرَاءَهُ تَتَمَحَوَّرُ حَوْلَ ضَرُورَةِ التَّمَسُّكِ بِالْإِسْلَامِ وَ الْعُرُوبَةِ وَ التَّفَتُّحِ عَلَى الْعَالَمِ (الإنفتاح) وَ تَحْقِيقِ التَّنْمِيَةِ الشَّامِلَةِ مَعَ تَجْسِيدِ الْعَدَالَةِ الْإِجْتِمَاعِيَّةِ﴾ (1). و يتضح من خلال هذه الشهادة التاريخية للدكتور بن حمودة أنّ مولود قاسم كان من بين

المنظرين السياسيين لمسار القيام الحضاري داخل الدولة الجزائرية، خاصة أن كثيراً من آرائه قد تحققت في مشاريع مجسدة في الميدان، بعضها لا يزال حياً و بعضها أجهض أو أزهقت روحه، تلك الآراء التي ذكرها الدكتور في معرض حديثه عن الكفاح السياسي للمرحوم مولود قاسم. بل إن الدكتور بوعلام بن حمودة يذهب إلى أبعد من ذلك في شهادته، ليصرح أن مولود قاسم من جنود الخفاء و الكواليس الذين كانوا يصنعون يوم الجزائر و غدها من وراء الستار و من وراء شخصية الرئيس، رئيس الدولة لكونه مستشاراً له، سواء الرئيس هواري بومدين -محمد بوخروبة- أو الرئيس الشاذلي بن جديد، لكونه سياسياً و مفكراً في نفس الوقت، إذ يقول الدكتور: ﴿لا بد أن يعرف القراء أنه كان المساهم الأكبر في تحرير الخطب التي ألقاها الرئيس هواري بومدين -رحمه الله- في مناسبات عديدة، كإستقبال الرؤساء الأجانب و الندوات الدولية في مستوى القمة، فهذه الخطب التي نفخ فيها مولود قاسم روح الثورة على الإستعمار الجديد، والإمبريالية، و الرأسمالية، و الصهيونية، ساهمت في إكساب الجزائر التقدير من قبل العالم الثالث، و العالم العربي، و المخيم الإشتراكي و حتى من قبل الدول الرأسمالية﴾ (2).

في نهاية السبعينات، و بالتحديد من سنة 1966 إلى سنة 1970، شغل مولود قاسم منصب مستشار سياسي و دبلوماسي في الرئاسة منتدباً إليها من وزارة الخارجية بطلب من رئيس الدولة نفسه، و قد شهدت مرحلة السبعينات تحولات سياسية كبرى و مصيرية في حياة الدولة الجزائرية، بداية بمسألة التأميمات ثم العلاقات العسكرية مع الإتحاد السوفياتي -سابقاً- ثم التحرك الفعال في حركة دول عدم الإنحياز، ثم رئاسة الجمعية العامة هيئة الأمم المتحدة سنة 1974، و التحرك العربي العربي النشط جداً، و الإتصالات الأفروآسيوية الحثيثة، و تحويل الإهتمامات إلى دول العالم الثالث، و محاولة إيجاد ثقل إقتصادي و سياسي في العالم من خلال تأثيرات منظمة الأوبك بالثروة البرولية... إلخ. هذه الأحداث السياسية الكبرى وصولاً إلى وضع ميثاق و دستور الدولة الجزائرية، لا يُستبعد أن يكون مولود قاسم -رحمه الله- من أحد رجالها الفاعلة و منظرها أو طارحي الأفكار من حولها، خاصة و أنه كان مفكراً و سياسياً في وقت ندر فيه المفكرون في الطاقم السياسي الذي كان يقود البلاد في تلك الحقب من الزمن في عمر الدولة الجزائرية. و شغل منصب وزير لدى الرئاسة من سنة 1977 إلى سنة 1979، و منصب عضو في اللجنة المركزية لجهة التحرير الوطني و وزير مستشار بالرئاسة من سنة 1979 إلى سنة

1983، الشيء الذي يوضح جلياً مدى وزنه و ثقله السياسي في حياة المسار الحضاري للدولة الجزائرية أين كان ملتصقاً بأعلى سلطات القرار في البلاد لسنوات عديدة .

و يقول الدكتور بوعلام بن حمودة مواصلاً في الإدلاء بشهادته التاريخية عن المرحوم: «زيادة على أنه عُيِّنَ سنة 1970 وزيراً للتعليم الأصلي و الشؤون الدينية، فإنه قد بقي مستشاراً للرئيس هواري بومدين -رحمه الله- في شؤون الإتجاهات الكبرى. فأذكر أنه عيَّنه ليُحضَّرَ معي الخطاب الهامّ المتعلّق بإلغاء التشريع الموروث من العهد الفرنسي، و هذا الإلغاء قد أعددتُه بجدّ و بصعوبة في وزارة العدل، و قد تمّ بالفعل يوم 5 جويلية 1975، فبهذه المناسبة حضرتُ بمعِيّة الأخ مولود قاسم خطاباً عرضناه على الرئيس الراحل في منزله، و لما وصلنا إلى الفقرة التي تنصّ على أنّ التشريع الجزائري يجب أن يُستمدَّ أساساً في المستقبل من الإسلام، سألنا الرئيس «أيجب أن نُشير إلى ذلك؟»، فقلنا له نعم، لأنّ تصريح أوّل نوفمبر 1954 ينصّ أنّ الجزائر المستقلّة ستكون جمهورية ديمقراطية إجتماعية، في إطار المبادئ الإسلامية، فبيّنتُ الفقرة كما هي في النصّ المقترح، فأوردتُ هذه القصّة لأبيّن للقراء أنّ مولود قاسم لم يكتفِ بدفع عملية التعريب فقط، بل حاول بكلّ ما يملك من قُوى و إرادة أن يُوجّه القيادة إتجاهاً إسلامياً عربياً وطنياً، مُستغلاًّ العُصرنة للسيطرة على التّسمية و لمواجهة العدوّ الخارجي و تقدّمه التكنولوجي (نحو وسيلة لا كنموذج حياة ماديّة بدون روح) (3).

و الشيء الذي يهّمنا في كلّ هذه الشهادة إلى جانب التأثير المباشر لمولود قاسم في عملية التعريب و توجيه القيادة السياسية توجيهاً إسلامياً، و التّطرّق إلى ترشيد مسيرة التّسمية الإقتصادية الوطنية ببعث المبادئ و الرّوح و القيم فيها، هو بقاء مولود قاسم مستشاراً للرئيس حتى بعد تولّيه وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية فيما أسماه الدكتور بن حمودة بشؤون الإتجاهات الكبرى. و كان مولود قاسم مدافعاً عن ميثاق 1976 و دستور الدولة آنذاك إنطلاقاً من بعض المواد التي ضُمّنت في الدستور و بعض الفقرات التي حوّاها الميثاق، إذ يقول: «و قد أقرّ

الميثاق أمراً واقعا بالفعل بتصريحه حرفياً بأن الإسلام دين الدولة. أما المتعصبون من كل نوع و لون، فإنهم موجودون دائماً و سيوجدون ﴿(4)﴾.

كان مولود قاسم يتصرف - وهو وزير مستشار لدى الرئاسة- تصرف صاحب القرار، للمكانة التي كان يحتلها في هرم السلطة، و مثالاً واحداً فقط يبين هذه الميزة في المرحوم، إذ يحكي عنه الأستاذ صادق سلامية فيقول: ﴿كان غيوراً على الجزائر و رفض أن يستقبله في موسكو رجل ليس في مستواه، و عاد إلى الجزائر لأن الذي يمثل المليون و نصف المليون شهيد في موسكو ينبغي أن يستقبله إنسان في مستوى المرحوم. و قد اعتبر مولود قاسم ذلك الإستقبال إهانة للجزائر و لشخصه رحمه الله. و لم يجد الراحل هواري بومدين رحمه الله ما يقوله له بعد أن وضح له الأمر سوى قوله معك الحق، و لم يجد الإتحاد السوفياتي و هو رب نصف الأرض في ذلك الوقت ما يفعله إلا تقديم لائحة إعتذار للسيد الرئيس ﴿(5)﴾.

إن السعي الحثيث لمولود قاسم في التأثير على مسار الحياة السياسية للدولة الجزائرية، جعله عرضة لعدة مؤامرات و مناورات من أشخاص و جماعات و تكتلات من داخل السلطة، أولاً لإجهاض بعض المشاريع التي أرساها و وضع لها مؤسسات، وثانياً من هرم السلطة و مراكز القرار السياسي الهامة، إذ يقول الأستاذ أحمد شقار التعالبي: ﴿سعى خصوم الأصالة لإبعاده نهائياً عن الوزارة خوفاً مما عسى أن يفاجئهم به رغم تجريده من أخطر سلاح يهدد مشاريعهم التحذيرية، و عاد إلى الرئاسة مستشاراً سياسياً مرة أخرى... و منها إنتقل إلى رئاسة المجلس الأعلى لتعميم استعمال اللغة العربية، فبذل جهوداً تنوء بها الجبال، و لكن دون جدوى لأن خصوم الأصالة كانوا يتتبعون خطاه بأسلوب مخابراتي جهنمي، فلا يكاد ينتهي من وضع لبنة مكهربة حتى يُنتزع منها الفتيل، و تستفرغ من شحنتها الإيجابية بكل حُبث ودهاء ﴿(6)﴾.

لقد كان مولود قاسم شُعلَةً وقَادَةً في المجال السياسي و عمله، فمنذ نهاية الأربعينات من هذا القرن، و أثناء الحرب التحريرية الكبرى أين شارك في تمثيل الجزائر خارج البلاد و خاصةً في أوروبا، و شارك في محادثات إيفيان حيث كان من بين الذين كُلفوا بالقيام بأبحاث تاريخية لتدعيم أوراق المُفاوضين من جبهة التحرير الوطني. وكان شديد الحرص على تمثيل الجزائر و ثورتها أيما تمثيل، فتعلّم الكثير من لغات العالم من أجل ذلك، حيث يحكي عنه الدكتور أحمد بن نعمان في هذا الموضوع و يقول: ﴿دفعهُ حُبُّه الفعليّ لتمثيل الجزائر عن جدارة و استحقاق إلى الإعتكاف لعدّة أيامٍ بلياليها على تعلّم اللّغة السّويدية ليُفاجئ خلق الله هناك بعد أسابيع قليلة من وصوله بخطبة عصماء مرتجلة بالسّويدية (الفصحى!)، في ميدان ستوكهولم، رفقة أولف بالم الذي ظلّ منذ ذلك اليوم مبهورًا بعظمة الجزائر حتى مات!!﴾ (7).

أما بالنسبة لرؤاه السياسية لتحوّلات نهاية الثمانينات التي عرفتها الجزائر دولةً و شعبًا، فإنّ مولود قاسم طرح القضية ضمن سياق تاريخي كان مخطّطًا له و يجب أن يحدث، إذ توجّهت له مجلة «الجمهورية» لشهر جويلية من سنة 1989، بسؤال هو: «هل تعتقدون أنّ هذه الإصلاحات جاءت في سياق منطق التاريخ أم أنّها جاءت في سلسلة الانقلابات التي عرفناها...؟». فكان جوابه هو: ﴿لا أبدًا، لم تأت كذلك، و الدليل على ذلك أنّ الرّئيس الشاذلي في ديسمبر 1987 قال أنّنا مقبلون على إصلاحات و تعديلات سياسية و في جميع الميادين، بمعنى أنّ هذا الكلام قيل سنة قبل أحداث أكتوبر 1988، و يجب ألاّ ننسى أنّ التّعديدية موجودة عند إخواننا الجيران، و هي ظاهرة عالمية... وحتّى مسألة الحزب الواحد هي مُخادعة للنفس، فجبهة التحرير أصلًا متكوّنة من عدّة أحزاب، و إلاّ ما علاقة بن خدّة بفرحات عباس... إلخ، و استمرّ الوضع إلى اليوم حتى مع حزب جبهة التحرير الوطني فنجد عدّة تيارات في مجلس الحكومة و في المكتب السياسي، و في الأمانة... إلخ. و الآن نعتقد أنّ نظام الشورى والديمقراطية هو أفضل نظام...»

... نظام الحزب الواحد سابقاً إقتضته الصّرورة و الظروف، و حتى آنذاك لم يكّم هناك حزب

واحد بل التعدّد و التناقض و الإختلاف كان غير ظاهر و غير مرئي ﴿8﴾.

و نفس الكلام تقرّياً ضمّنه كتابه «أصلية أم انفصالية؟» فيما يخصّ تحليل ما سبق أن نهجت على نهجه الدولة الجزائرية من سياسة أنه إقتضته الصّرورة و كان الحلّ الأنسب بوضع الأمة دولةً و شعباً آنذاك، إذ يقول: ﴿ما كان من المنتظر من آية سلطة في الأرض، مهما كان نظامها، مهما كانت منظّمة، أن تلتفت إلى جميع الجوانب، و أن تعالج جميع المشاكل في مثل هذا الوقت القصير. و هذا ليس أبداً تبريراً لما حدث من نقص، و إنّما هو تفسير فقط، و لكن ينبغي ألا نستمرّ على هذا﴾ (9).

كان مولود قاسم كثير الحرص أن تكون الإنشغالات الكبرى للدولة الجزائرية هي تدعيم الحصانة الرّوحية لتحقيق الأصالية في المجال السياسي ضمن مبادئ و قيم مستمدة من روح الشريعة الإسلامية. و لذلك فإنّه كان كثير الغضب كلّما إنتهكت حرمة الدّين و القيم و المبادئ في مسار الحركة السياسية، إذ يحكي عنه مثلاً الأستاذ بوعلام بن حمودة قائلاً: ﴿كيف لا يغضب و التّلفزة الجزائرية تعرض أفلاماً فيها خلاعة ليلة الإحتفال بأول نوفمبر؟ (و لقد كلّمني هاتفياً و ليلاً في مناسبة من المناسبات و هو ساخطاً على التّلفزة الوطنية)، و كيف لا ينفجر غضباً في إجتماع الحكومة و قد عُرضَ عليها مشروعٌ لإنتاج الويسكي؟﴾ (10).

كان همّ مولود قاسم الأكبر أن يوجّه القيادة السياسية توجيهاً إسلامياً، و ذلك على مدار ما يزيد عن العشرين

عاماً.

دعوة مولود قاسم العلماء للمشاركة

في الحياة السياسية

لقد كان مولود قاسم نابت بلقاسم من خلال دعوته للعلماء لحضور ملتقيات الفكر الإسلامي يريد أن يُقربهم من الحكماء، وخاصة في الجزائر، حتى يستفيد أصحاب القرار من آرائهم الفقهية، ويستفيد العلماء من أداء دورهم المنوط بهم بإقامة الحجّة ونشرهم لعلمهم ليُجسّد في مشاريع ثقافية واجتماعية واقتصادية تحقّق للأمة المسلمة حياة أصالية.

فكان يعقد بينهم وبين أصحاب القرار في البلاد إجتماعات ومأدبات عشاء ولقاءات مصغّرة، ليفسح أمامهم المجال لتوطيد الودّ بينهم وبين أولئك عملاً على توحيد الجهود نحو إقامة نموذج لجمعية مسلم مضطلع بمهامه الحضارية ومحقّق للكرامة الإنسانية في أسمى صورها.

ولذلك فقد علق على دور العلماء الذي ينبغي أن يقوموا به، وإلّا لما قاموا بالمسؤولية المنوطة بهم، في أحد

ملتقيات الفكر الإسلامي، حين قال: ﴿أودُّ أن أضيف إلى هذا كلمة قصيرة عمّا قاله في الأخير شيخنا

الجليل -محمد أبوزهرة- من «أنّ العلماء ليسوا هم الذين يثورون، وإنّما ذلك واجب الشعب»،

لأقول أنّ الشعب إذا لم يوجهها العلماء فسيوجههم، أو يرشدهم، أو يضلّهم، غير العلماء،

فيكون هكذا المجال فسيحاً للمشوّشين، والمهرّجين المثيرين، أو المثبّطين، المخدّرين، المؤمن للأمة،

فتكون النتيجة عكس ما ترجون. فعلى العلماء أن يقوموا بهذا الدور ﴿(11)﴾. خاصة وأنّ مولود قاسم

قد لاحظ أنّ الأئمة في الدين والعلماء فيه قد إنصرفوا إلى حياة إنعزالية، لا يهتمون بأمر الأمة الكبرى وهم

ورثة الأنبياء من بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، غافلون عن دورهم و نائمون عن المسؤولية الشرعية

و الحضارية المنوطة بهم، ساقطون في نفس ما سقطت فيه الطرقية القديمة و الصوفية المتزهدة الهامدة الجامدة و الخامدة، فعلق على ذلك يقول: ﴿موضوع الطريقة موضوع قديم. و هو داء من الأدواء (لا الأدوية!)، التي عانى منها العالم الإسلامي، و خاصة منذ بداية إنهيار الحضارة الإسلامية في أواخر العصر العباسي، و ازداد هذا الداء إستفحالاً فيما سماه ابن خلدون عصر الجمود، و زدنا له الجمود و الهمود!.

و قد لعبت الشطحات الصوفية و غير الصوفية دوراً بالغ السلبية في التعجيل بإنهيار العالم الإسلامي، كما كانت معولاً الهدم لما تبقى له من طاقة و حيوية، عند قدوم الإستعمار الأوروبي ﴿(12).

و كان مولود قاسم من جانب آخر، يجذّر أن يقع العلماء في ممالأة الحكام، و يسقطوا في موالات عمياء لهم دون حمل لرسالة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر. فمن جهة يدعوهم إلى المشاركة في المسار السياسي لمجتمعاتهم، و من جهة أخرى ينهاتهم عن الإفراط في الدخول ضمن علاقات مشوبة مع الحكام كما يفعل بعض رجالات الدين و العلماء الدواجن الذين إستثنى منهم مولود قاسم الإمام الخميني قائد الثورة الإسلامية في إيران الذي يعدّه إمام العلماء في عصره بما أحدثه من ثورة سياسية بداية من قمة المجتمع، و في ذلك يقول مولود قاسم معجباً بتدخل الإمام الخميني في الحياة السياسية: ﴿و خاصة علماء اليوم الذين يطوفون حول القصور الأميرية، أو الملكية، أو الأباطورية، أو الجمهورية، كالبيغاوات، أو «العلماء الدواجن»، كما سماهم الأستاذ عبد المجيد مزيان، فيما سمعت، همهم إصدار الفتاوى الإدارية، و تحرير البرقيات المنمقة، تأييداً لخطى و بوادر، مهما كانت للأمة خدعاً غوادر، و لولا طابعها المأسوي لكانت أشبه بالنوادر!.

و من هنا فإننا مهما مجدنا هذا الإمام الخميني، و سابقيه أمثال الإمام الكاشاني، فلن نفهم حقهم، فالخميني خاصة قد ردّ الإعتبار لعلماء الإسلام، و شيوخه، و مفاتيحه، و ردّ الإعتبار لرجال الدين عمومًا، و ردّ الإعتبار للإسلام في نظر الشعوب الإسلامية و غير الإسلامية، بل و العالم بأسره!.

وسوف يسجل له التاريخ هذه المأثرة، و سيُخلد له هذه المفخرة، فلقد ردّ للقيم قيمتها ! و أعاد الحقّ إلى نصابه، و الحياة إلى مجاريها الطبيعية ! إنّه القبس الحيّ للإمام عليّ، كرمّ الله وجهه ! فليحيى الخميني، و لتكثر أمثاله في ديار الإسلام! ﴿(13)﴾.

و قد أعجب مولود قاسم أيّما إعجاب بحرّية الإمام آية الله الخميني في إحدائه لثورة شعبية عارمة أعادت الأمور إلى نصابها و حفظت للأمة كرامتها و عزّة دينها و مهّدت الطّريق للتّفكير في السّير على درب هؤلاء العلماء العاملين الثّائرين المجاهدين، القائمين بدورهم الرّسالي الحضاري، و العلماء ورثة الأنبياء في قيادة شعوبهم و أمّتهم، إذ أنّ أشدّ من يُحاسبون يوم القيامة العلماء لأنّ المسؤولة عليهم كبيرة في النّهي عن المنكر و الأمر بالمعروف، و في الصّدق بالحقّ، و إقامة أركان الدّين في مجتمعه بكلّ المقاصد التي هدّفت إلى تحقيقها الإسلام كدين و دنيا و نظام اجتماعي متكامل كما كان يحلو لمولود قاسم أن يصفّه.

و لذلك كتب عن ثورة الإمام الخميني في إيران الذي خاض غمار السياسة بعزيمة المصلح الماسك بزمام الأمور والذي لا يرضى لأمتّه أن تواصل في نومها و سباتها و هذيانها و تقاعسها عن مهامها الرّسالية الحضارية الكبرى، يقول: ﴿و إنّني لأظنُّ أنّ الإمام الأكبر - وهو الوحيد الآن في العالم الإسلامي الذي يستحقّ هذه الصّفة! - آية الله روح الله الخميني، قد أراح جلابب المذلّة، و الهوان، و المسكنة عن جميع الأئمة في العالم الإسلامي، على مختلف المستويات! و كم نأملُ أن يمتدّ هذا القبس الإلهي، الرّباني، الإنساني إلى جميع الأئمة في جميع أنحاء العالم الإسلامي الواسع، ليهزّوا هذا المليار من البشر النّائمين، ذوي الإمكانيات القصوى اليوم... و لكن ذوي المنزلة الدّنيا في العالم!﴾.

و إنّنا لنكاد نحلم، و نحن نستمتع إلى أخبار إيران! ﴿(14)﴾.

و قد أعاب مولود قاسم بالمقابل على علماء أهل السنّة و الجماعة الذين لا ينتفضون و لا يتحرّكون و لا يحملون روحاً ثوريةً تُنقذُ أمّتهم من الهوان و الذلّ و الطّغيان، هذه الروح التي هي سارية دوماً فيمن كانوا يُسمّون قديماً بالخوارج الذين لا يعترفون بالسلطة الظّالمة، و منهم من يُدعون بالشيعة، فقال -داعياً العلماء إلى الإلتفات إلى هذا الدّور الهامّ و المصيري في حياة الأمة-: ﴿تلك هي الإمامة و السياسة! فهو الإمام عليّ و معاوية في

واحد، و هو الأشعري و ابن العاص متكاملين؛ إنها حقيقة ثابتة أنّ الذين نُسّمِيهم الشيعة و المعتزلة و الزيدية و الخوارج، أجنح إلى قول الحق و لو كانت تهددهم السيوف و الطائرات و البوارج، فهم دائماً أحياء، و حسّهم السياسي مرهف، و تعلّهم بالعدل و الكرامة شديد، ثم هم بعد ذلك و قبله إلى الثورة دوماً ميّالون!.

أمّا نحن و أنتم يا من نسّمِيهم أهل السنّة و الجماعة، المعروف عن أكثرهم بالقراءة و المشاهدة و السّماع، أنهم هم العلماء الأجلّاء الميامين، المشهورون أخيراً برفع الأُكفّ و قوله آمين، و تأكيدهم دائماً لذوي السّاعة عميق الولاء، مهما كانوا على شعوبهم هم عينُ البلاء، و ليلتكم زاهية هنيئة سعيدة، و أحلامٌ لذيذة عن آمال الأُمّة بعيدة؛ طاب نومكم، و لو تعذب قومكم، الذي ضرب فيه الإنحلال أطنابه، و غرسَ فيه الإستدمار أذُنابه، يحرق الإستغلال الفاحشُ أجنابه. ﴿15﴾.

و ماذا عساني أن أعلّق عن هذا الكلام الممتلئ حسرة، ثمّ نقمة على العلماء الدّواجن، و المستحثّ لهممهم للقيام بدورهم الرّسالي الذي ما خلّفوا إلاّ لأجله. هكذا عاش مولود قاسم يحلمُ أن يولد أكثر من إمام خميني في رحاب العالم الإسلاميّ الواسع، التي عجزت أن تلد علماءً ثائرين تركنُ إليهم الأُمّة كما كان يركن المؤمنون إلى أنبياء الله.

المطلب الثالث:

دعوة مولود قاسم لتحقيق الوحدة

الإسلامية سياسياً

كان مولود قاسم -رحمه الله- في هذا المجال متأثراً بفكر جمال الدين الأفغاني الذي كان يدعو المسلمين إلى التوحد و الابتعاد عن نظام الدويلات المتشرذمة أمام القوى العالمية المتكتلة سياسياً أو على الأقل إقتصادياً. وقد حضر مولود قاسم سنة 1989 عن فكر الأفغاني و حاول أن يأتي بوصفة طيبة من عبادة هذا الداعية و المفكر الإسلامي المهتم بعموم المسلمين، و قد شخص قبل ذلك الأدواء فقال: «مرضان إثنان، هما سبب كل ما حدث من غزو أجنبي، و إحتلال، و سيطرة، و إستغلال، و إذلال، و هما البدع التي ألصقت بالدين، و الدين عند الله الإسلام، «و التفرق»، «و التشتت»، «و انفصام العرى بين المسلمين». و نحن نلخص غاية التلخيص، بالتركيز على نقطتين إثنين كشرطين أساسيين:

1. إستبعاد الشوائب التي ألحقت ظلماً و بهتاناً بالدين الحق، «و أن يسعوا جُهدهم في تخليص العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع»، و أن تُعمم التربية الدينية على الجميع.

2. إستعادة «وحدة الأمة الإسلامية»، ليس بالضرورة بأن يكون على قمتها رئيس دولة واحد، ولكن أن يتحدوا على كتاب الله و سنة رسوله، في حكومات متألّفة، متحالفة، متعاونة، متضامنة، متآخية، متكاملة، موحّدة الكلمة و الفعل لضمان المصير الواحد للأمة الواحدة» (16).

ثم في آخر محاضراته، علق على ما تقدم من عرضٍ لأفكار جمال الدين الأفغاني، و مركزاً على ضرورة تحقيق الوحدة السياسية بين شعوب الأمة الإسلامية، فقال: ﴿هذا هو مشروع المجتمع الإسلامي الجديد الذي خرج من عيادة السيد جمال الدين الأفغاني، كتشخيصٍ لأمراضٍ كثيرة، و كوصفةٍ للدواء و العلاج لهذه الشغائب و الدويلات و الأمميات الإسلامية إذ ذاك و الآن! . أما ما قاله عن الوحدة الإسلامية في ذلك الوقت، فلو عاش عصرنا هذا، عصر التجمّعات الكبرى في العالم، في سائر العوالم، على الأقلّ في العالم الأوروبي، و الوحدة الأوروبية، و الإرهاصات - بل و التصريحات - بانضمام صهيون إليها، فماذا كان سيقوله عن وجوب تجمّع المسلمين في وحدة شاملة، منسجمة، متألّفة، متضامنة، متماسكة، موحّدة، واحدة؟﴾ (17).

و قد كتب قبل ذلك بوقت عن ضرورة تحقيق الوحدة الإسلامية، في بداية السبعينات من هذا القرن، نابذاً ظاهرة الرجوع إلى الشعوبيات و النعرات الجاهلية من قوميات كان يراها سخيّةً و مؤدّيةً بالأمة إلى الهاوية و التخاذل عن القيام بدورها الحضاري في العالم، راضحةً لنعق النّاعقين من بعثيين و شيوعيين و شعوبيين، فكان ثمّ كتب قوله: ﴿الأمة الإسلامية كلّها مهدّدة بالخطر الصهيوني، و ستضيع إذا ما إستمرت بهذه الطّريقة تفكّر بهذه الشعوبيات الضيّقة، و بهذه القوميات السّخيفة، التي يزرعها شيوعيون، و يزرعها مارونيون، و يزرعها بعثيون، و يزرعها صليبيون، و يزرعها جميع الأعداء هذه الأمة الضّائعة!﴾ (18). فكان مولود قاسم يحلم بأن يتحقّق الجسد الواحد للأمة الإسلامية، الذي إذا إشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسّهر و الحمّى، و أن يهتمّ المسلمون بعضهم بهموم البعض، و تتوخّد أهدافهم الحضارية و ينوا عزّتهم و كرامتهم بأيديهم المتكاتفّة المتعاونة، فكتب -حالمًا- يقول: ﴿و لكنّ الهدف، المثل الأعلى في نظري، و نحن في عصر التجمّعات، في عصر السّوق المشتركة في غرب أوروبا، و الكوميكون في شرقها، أي في البلدان الشيوعية، و في عصر التجمّعات بصفة عامّة، أنا أظنّ أن أحسن حلّ لهذه الأمة المشتتة،

الممزقة، المفرقة، المبعثرة، المعذبة، الفقيرة، الجاهلة، المتأخرة، المتخلفة، هي الوحدة الإسلامية، الأمة الإسلامية، تحت راية الإسلام!، فيه ازدهرت بالأمس، و به تعود أمة! ﴿(19)﴾.

و لكن مولود قاسم إصطدم بالواقع المرّ و الأليم للأمة الإسلامية من تشرذم و زيادة فرقة و إماتة لبوادر التوحيد و التلحيم و التألف، أمام توحد الغير و تكتلهم لتكوين قرى تزيد العز لها و الحصانة، فقال عن هذا الواقع: ﴿و أخيراً و ليس آخرًا، و هذه كلّها على سبيل الأمثلة لا الحصر، يكفينا أن نقول أن المسلمين يذهبون حتّى إلى قبر الرسول بجواز سفر و تأشيرة خاصة، فضلاً عن تبادل الأسفار و الزيارات بين البلدان الإسلامية المختلفة. بينما بلدان أوروبا جميعها ألغيت بينها جوازات السفر، و أصبحت تعتبر نفسها وحدة سياسية و إقتصادية في سوق أوروبية مشتركة لأوروبا الغربية، و سوق أوروبية مشتركة لبلدان أوروبا الشرقية، و في توحيد برامج ثقافية هنا و هناك في القطاعين و أين العالم الإسلامي من كلّ هذا؟. و من هنا قلنا أن ليست هناك مع الأسف صحوة، بل نومٌ ضحوة في أميمات و دويلات إسلامية رخوة! ﴿(20)﴾. و خاصة بعد أن نهجت الأمة المسلمة منهج الفردانية في مجابهة العدو الصهيوني، بأن بدأت مصر بتوقيع معاهدة السلام «كامب دايفيد» في نهاية السبعينات، الشيء الذي منح للقوى المناصرة لإسرائيل و للصهيونية أن تجر بقية الدول المسلمة واحدة تلو الأخرى للتوقيع بدورها على معاهدات السلام و الإستسلام للتواجد الإسرائيلي في المنطقة الإسلامية. و قد حكى الأستاذ محمد الصالح الصديق عن مولود قاسم يقول: ﴿لما كتبت مقالاً عن (أنوار السادات) بمناسبة موقفه من فلسطين، هنأني تهنة حارة و قال: سيثير مقالك هذا بعض الحساسيات، و تلو كك بعض الألسن، ثم قال: لقد مُنحت جائزة نوبل للسلام لـ (مناحيم بيغن و أنور السادات)، فهل هذا سُخرية بهذه الجائزة، و من يعطونها أبلغ من هذه السُخرية عند ذوي العقول الذين يزنون الأمور بميزان المنطق و الحق؟. إن (بيغن) لا نقول فيه شيئاً، لأن الكلام عنه أو فيه يحطّ من قيمة المتحدث، أمّا شريكه في الجائزة

(أنور السادات) فهو الذي سهّل له إصباغ رداء الشرعية على جرائمه، و يُهيئُ له أسباب البقاء

و السيطرة العسكرية و السياسية و الثقافية و الإقتصادية في بلاد العرب و المسلمين!! ﴿21﴾.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المطلب الرابع:

دعوة مولود قاسم لإرساء نموذج للمجتمع المسلم

كان مولود قاسم نايت بلقاسم - رحمه الله - من أولئك السياسيين القلائل الذين كانوا يتكلمون عن معاني الحرية و أبعادها وضرورة تحقيقها، في ظلّ نظام أحادي لا يعترف بوجود معارضة سياسية، ناهيك عن أن يفسح لها المجال للمنافسة أو المشاركة السياسية. فكان يتكلم عن الفكر المعتزلي، إحدى المدارس الفكرية و الفلسفية التي تأثر بها المرحوم في مجال فهم حركية المجتمع في علاقة الراعي بالرعية، إذ كان يسميهم بأول الديمقراطيين في الإسلام. وقد حاول تقديم رسالة دكتوراه حول الفكر المعتزلي بجامعة السربون عام 1954 تحت عنوان: «الحرية عند المعتزلة»، و عن ذلك يقول: ﴿إن آثار المعتزلة قد بدأت تبرز إلى الوجود، و ستكثر في المستقبل بعد أن أكتشفت أخيراً في اليمن عددٌ كبيرٌ من المخطوطات عن هذا التيار المعتزلي الخصب، و إنّ بحوثنا عنهم قد أخذت تتعدّد لحسن حظّ الفكر الإسلامي، و الإنساني عموماً.

... و نوذّ أن نضيف هنا أنّ هذا التيار الفلسفي (المعتزلي) الخصب لم تكن له تأثيراته على الفلسفة الأوروبية لدى المسيحيين، أو من هم من نشأة مسيحية، فحسب، مثل من ذكرنا: ديكارت، كمنط، و غيرهم، بل أيضاً على الفكر اليهودي مثل موسى بن ميمون، تلميذ ابن رُشد، و سبينوزا قرونًا بعد ذلك...

... و نحن أردنا بهذا أن نقول بأن الفكر المعتزلي المتلخص في حرية الاختيار، أو نظرية العدل، التي هي أساس الأخلاق، و الثواب و العقاب، ظلّ خصباً و كانت له آثاره حتى على الفكر المسيحي و اليهودي، و إن لم يُنسب إلى أهله الأصليين ﴿(22)﴾.

إلى جانب هذه الحرية المتأصلة في مولود قاسم، فإنه حاول أن يُبصر المسلمين في مجتمعاتهم إلى ضرورة إقامة بناءٍ سياسيٍّ أصاليٍّ روحاً، و عصريٍّ وسائلًا، و ذلك بالاستفادة من كلّ مستجدات العصر من آليات و مؤسسات تحقق في بُناها و جوهرها مقاصد النصوص الشرعية التي تستند إليها الشريعة الإسلامية كنظام حياة، فقال مثلاً: ﴿لا يليق بالمسلمين أن ينتظروا من غيرهم حلولاً لمشاكلهم، بل حلّوهم تكمن لديهم و في أرضهم، و على أساس واقعهم و أصالتهم، مع الاستفادة من تجارب الأمم﴾ (23).

و ينبغي على المجتمعات المسلمة أن تصل - في نظر مولود قاسم - إلى وعي سياسي ينتشر بين أفرادها إنتشار الثقافة اليومية ليتحوّل إلى سلوكات و مواقف ترفع من حركية الأمة سياسياً لبلوغ مهامها الحضارية المنوطة بها. و على الفرد المسلم أن يسعى من جانبه إلى إيجاد عقدٍ إجتماعيٍّ يربطه بباقي المسلمين، يكون هذا العقد أساس قيام الأمة سياسياً، و كرامة الفرد في ظلّ نظامٍ عادلٍ منصفٍ يمنح الحرية في حدود الطموحات الحضارية الكبرى أو ما يُسمّى بالآمال المشتركة. يقول مولود قاسم: ﴿فالمجتمع الإسلامي... مجتمع متوازن، يتكوّن من أفراد ينبغي أن يشعر كلّ منهم أنّه يكوّن مع الآخرين وحدةً متماسكةً، متضامنةً، تقوم على التآخي، و التكافل الإجتماعي، و المساواة في أصل الحقوق و الواجبات، تعمل لهدفٍ واحدٍ، و ينظّم أنشطتها الحكم العدل الذي يضمن العدل للجميع حسب الطاقة و الكفاءة، و من منطلق تكافؤ الفرص، و يوزّع نتاج الأمة في مجموعها بالقسطاس حسب الحاجة على مجموع أفرادها على أساس التكافل الإجتماعي﴾ (24).

أما المبادئ و القيم التي يبنى عليها النموذج الأمثل للمجتمع المسلم الذي سيقوم بمهامه الحضارية الرّسالية بين أمم العالم لإقامة الحجّة على الناس و الشهادة عليهم، فإنّ مولود قاسم يلخصها من عيادة جمال الدين الأفغاني متيناً لها،

فيقول: ﴿وريشما تتحقق هذه الوحدة الإسلامية، فلا بد أن يُبنى مجتمع إسلامي على أساس حكومات تقوم على:﴾

أ. الشورى: بأن تكون هناك «حكومات شورية»، من الشورى القرآنية، وحتى الرسول المعصوم، صلى الله عليه وسلم، أمر بصريح القرآن بمشاورة المسلمين، فقال تعالى: «و شاورهم في الأمر»، فكيف بالواحد منا مهما أوتي من علم، و تجربة، و مران؟ على أن هذه الشورى لا ينبغي أن تكون شكلية، أي أن تأخذ طابعاً ظاهرياً، صورياً، يتحكم فيها (في هذه الحكومة الشورية، النّياية، الدّستورية) الحكّام و الدّول الأجنبيّة، بل أن تكون بانتخاب الشعب، في إنتخابات حرّة، و إشراك الأمة في حكم البلاد إشراكاً حقيقياً.

ب. العدل: و هو يلحّ كلّ الإلحاح على هذا العدل: «فالعدل أساس الكون، و به قوامه، و لا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم، عدلّ، و عدالة شرعيّة، و عدالة إجتماعيّة».

ت. نشر العلوم و المعارف و الصّنائع: خاصّةً منها «الصناعة الحرّية»، و لكن أيضاً، الزراعيّة، و سائر الأنواع الأخرى ﴿(25)﴾.

الهوامش:

- (1) د/ بوعلام بن حمودة، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 276.
- (2) المصدر السابق، ص 277.
- (3) نفس المصدر، ص 276-277.
- (4) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصلية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 105.
- (5) صادق سلايحية، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 245.
- (6) أحمد شقار الثعالبي، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 30.
- (7) د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 254.
- (8) «الجمهورية» ل: 2 جويلية 1989، عن د/ أحمد بن نعمان، المصدر السابق، ص 227.
- (9) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصلية أم إنفصالية؟»، الجزء الأول، ص 386.
- (10) د/ بوعلام بن حمودة، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 277.
- (11) مولود قاسم نایت بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 495.
- (12) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصلية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 179.
- (13) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصلية أم إنفصالية؟»، الجزء الأول، ص 362-363.
- (14) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصلية أم إنفصالية؟»، الجزء الثاني، ص 359.
- (15) المصدر السابق، ص 364-365.
- (16) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 115.
- (17) المصدر السابق، ص 117.
- (18) مولود قاسم نایت بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 458.
- (19) المصدر السابق، ص 304-305.
- (20) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 123.

(21) محمد الصالح الصديق، «خواطر و ذكريات عن الأستاذ الراحل مولود قاسم نایت بلقاسم»،

ص 105-106.

(22) مولود قاسم نایت بلقاسم، «إنيّة و أصالة»، ص 92-93 على الهامش بتصريف.

(23) مولود قاسم نایت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، الجزء الأول، ص 347.

(24) المصدر السابق، ص 317-318.

(25) مولود قاسم نایت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة»،

ص 115-116 بتصريف.

المبحث الثاني:

الكفاح الدعوي في رؤى

مولود قاسم الإقتصادية

المطلب الأول: دعوته لتحقيق العدالة الإقتصادية.

المطلب الثاني: دفاعه عن النمط الاشتراكي للإقتصاد الجزائري.

المطلب الثالث: إرساؤه لمعايير القيام الإقتصادي.

لم يشغل مولود قاسم نايث بلقاسم أي منصب وزاري أو حكومي مختص مباشرة بالاقتصاد أو ببناء هيكل من هياكل التصنيع والزراعة والتجارة، ولا كانت له انشغالات و مهن شخصية مرتبطة بالاقتصاد داخل المجتمع فيما يسمى الآن بأرباب العمل أو " الباترونا "، إلا لربما اشتغاله كمستشار لرئيس الجمهورية قبل أن يتولى وزارة الشؤون الدينية والتعليم الأصلي. ولكنه، وبالرغم من ذلك، كانت له آراء وتدخّلات و طروحات هامة أفحم بها نفسه في مسيرة الدولة الجزائرية اقتصادياً، إما في كتاباته أو محاضراته داخل وخارج الوطن، وإما في مناقشاته الدورية داخل ملتقيات الفكر الإسلامي. فحاول أن يُدلي ببدئوه في تحديد بعض الأهداف و التوجّهات لإقامة اقتصادٍ متينٍ مبنيٍّ على القيم الدينية و التاريخية والحضارية و الشرعية الملقاة على عاتقه، وانطلاقاً من موقعه كداعية إسلامي لم يترك مجالاً من مجالات الحياة العامة إلا و دعا فيه إلى القيم و المُثل العليا المرتبطة بالدين الإسلامي، وإرساءً لمدرسته الدعوية و الفلسفية الموضوعة على أعمدة الإنيّة والأصالة.

إرتأينا أن نقسّم هذا البحث إلى ثلاثة مطالب - بحسب الإهتمام الذي أولاه مولود قاسم لهذا الجانب من البناء الحضاري - هي:

• المطلب الأول: " دعوته لتحقيق العدالة الاقتصادية " و فيه توضيحٌ من مولود قاسم لأهم تجليات الحياة الاقتصادية العادلة التي أرساها الإسلام حضارياً و تاريخياً، وبقاء القيم و المبادئ التي تحتاج إلى اجتهادٍ عصريٍّ يترجم هذه العدالة الاقتصادية إنطلاقاً من تعاليم الإسلام وقواعده العامة.

• المطلب الثاني: " دفاعه عن النمط الاشتراكي للاقتصاد الجزائري " . و فيه إبرازٌ للاجتهاد الاقتصادي الذي أنتهجه الجزائر في الستينات و السبعينات من هذا القرن، و الذي يتضح أنّ مولود قاسم كان من أحد المنظرين له من وراء الستار في الكواليس، إنطلاقاً من فهمٍ عصريٍ لنصوص الدين.

• المطلب الثالث: " إرساؤه لمعايير القيام الإقتصادي "

- وفيه تأكيد على انتهاج مولود قاسم لفكرة الإنيَّة و الأصالة في كلِّ مجالٍ من مجالات الحياة العامَّة ومنها مجال البناء الإقتصادي الذي بإمكانه أن يكون أصاليًّا، سواءً داخل الجزائر أو داخل أيِّ بلدٍ مسلم طموح للتحضُّر و الرقيِّ.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

دعوة مولود قاسم لتحقيق العدالة الاقتصادية

إنّ أولى الاهتمامات الرئيسية لمولود قاسم في مجال الحياة الاقتصادية للأمة ككلّ، والمجتمع الجزائري و دولته على الخصوص، هي دعوته لتحقيق العدالة الاقتصادية الحافظة لكرامة الإنسان كفرد، والحافظة لكيان الأمة والدولة كهيكل لتوزيع الثروات ومراقبتها. و كان يربط بين مفهوم العدالة الاقتصادية و مفهوم العدالة الاجتماعية، لكون العدالة الاجتماعية مفهومًا وقيمةً، وكون العدالة الاقتصادية وسيلةً إليها و إلى تحقيقها داخل المجتمع. ولذلك فقد عنون موضوعًا ومقالاً في كتابه «أصالية أم انفصالية؟» بالعنوان الآتي: «وسائل العدالة الاجتماعية أو العدالة الاقتصادية» (1)، وكتب فيه يقول: ﴿هذه لمحة عن مفهوم العدالة في الإسلام، نصًّا، وروحًا، ومقاصد، وتطبيقًا في العهود الزاهرة للإسلام، وعن مضمون العدالة الاقتصادية التي عليها تقوم، إذ الأولى مشروطة بالثانية التي تمدّها بالوسائل التي تُعطي مفهومها مضمونها، و إن سمحتم باستعمال تعبير لفيلسوف أوروبي هو إيمانويل كنت الذي قال: "إنّ الإدراك يتكوّن من عنصرين متكاملين: المفاهيم والإحساسات. فالمفاهيم بدون الإحساسات فارغة، لا مضمون لها و لا محتوى، والإحساسات بدون المفاهيم عمياء لا مغزى لها و لا مدلول". قلتُ إنّ العدالة الاجتماعية مفهوم، و الاقتصادية مضمونها، ومحتواها، وشرط تطبيقها﴾ (2).

لقد كتب مولود قاسم و حاضر أكثر من مرة حول ضرورة تحقيق هذا الموضوع، وربّط بين العدالة الاجتماعية و العدالة الاقتصادية و بين مقاصد الشريعة الإسلامية التي يرمي إلى تحقيقها الدّين الإسلامي داخل حضارته التي تتبناه و توجهه، ولذلك قال: "نودُّ أن نُوردَ بضع إشاراتٍ عابرة عن تلك العدالة الاقتصادية التي هي الشرط في

العدالة الاجتماعية و المتكاملة معها، إذ هما صنوان متلازمان " (3)، و دعا إلى هاتة العدالة الاقتصادية انطلاقا من تشبُّعه بالقيم الإسلامية و تأصيلاً إليها، و إبرازاً لهذا الجانب التشريعي من الدين الذي يَبْنِي الحياة المادّية في الأمة، فقال: ﴿ و كيف يكون الأمر غير ذلك في الإسلام و هو الذي يؤكد أنّ حقّ الفرد مُقيّدٌ بحقّ الجماعة، و يقَدِّم المصلحة العامة على المصلحة الخاصّة، و مصلحة الأمة على مصلحة الفرد، و كلّ ذلك بدون أن يخنق الفرد، و يغمطه حقوقه، و يذيبه في المجتمع!. كيف يكون الأمر غير ذلك و هو دين و دولة، و نظام اجتماعي كامل ﴾ (4).

لقد كان مولود قاسم نيت بلقاسم، و من خلال منابر ملتقيات الفكر الإسلامي يشير بطريقةٍ أو بأخرى، مباشرة أو غير مباشرة، إلى هذا الجانب الهامّ من التشريع الإسلامي، و الذي يستطيع أن يقوم و يُرتقى به باستعمال الأصالية إلى تعاليم الدين لبناء اقتصادٍ سليم و متين، و ضامن للحقوق الجماعية و الفردية على أساسٍ من التوازن لا يهضم حقوق البعض و لا يضع الثروة دولةً بين الأغنياء من المجتمع . هذه العدالة الاقتصادية التي يجعل مولود قاسم فيها الدولة حاملةً المسؤولية في حماية الضعفاء من الأمة بامتلاكها لبعض الثروات العامة واسعة الاستهلاك التي يُخافُ فيها أي يستعمل الأشخاص الاحتكار للإضرار بالآخرين. ولذلك علّق عقب المنتقى التاسع للفكر الإسلامي المعقد في تلمسان سنة 1975، على النقاط المدرجة فيه للنقاش، فقال:

﴿ و من خلال النقطة الخامسة: " العدالة الاجتماعية و الاقتصادية في الإسلام و أوضاع الأمة الإسلامية اليوم "، إرتأينا أن نستعرض معالم النظرة الإسلامية إلى العدالة في الجانب الاجتماعي و الاقتصادي لكلّ من الفرد و المجتمع، و انتهينا إلى أنّ الإسلام ليس، كما يظنّ البعض من الأعداء الحاقدين، و "الإخوة" الجاهلين أو المتجاهلين، ديناً يضرب صفحاً عن هذا الجانب، و لا أداةً للاستغلال و الاستعباد، بل هو دين العدالة الاجتماعية الحقّة، التي تضمن، إذا ما طبقت حقاً و صدقاً، الرفاهية الاقتصادية للجميع، مع الحرية و احترام الكرامة الإنسانية، بينما خصومه، من جميع الأطراف، إمّا يحققون، في أحسن الأحوال، جانباً واحداً، أو، في أغلب الأحوال، لا يحققون أيّ

جانب إيجابي، بل يجمعون بين البؤس المادي و الخلق المعنوي، شراً على شراً، و بؤساً على بؤس،
وسيرى الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون! ﴿5﴾.

و كان مولود قاسم يدق ناقوس الخطر على حال الأمة إذا تغالفت عن تحقيق العدالة الاجتماعية مجسّدة في العدالة الاقتصادية، إذ كتب في أسلوب تهكمي يُنبئ عن حقائق إيمانية هامة في حياة الأمة، يقول: ﴿إذا كان الذي يدع اليتيم و لا يحضُّ على طعام المسكين مكذباً بالدين، و كان الذي يبستُ شَبَعَانَا و جَارُهُ جَائِع، غير مؤمن بالله و اليوم الآخر، و كان اليوم الآخر هو العدل الإلهي، فإنّ أيّ مجتمع يقول عن نفسه أنّه مسلم و لا يحقّق هذا العدل ليس له من الإسلام إلاّ الإسم، فضلاً عن أن يكون مؤمناً﴾ (6).

إذ إنّه يذكر بمعاني الإيمان التي وردت في أحاديث عدّة ثابتة عن الرسول- صلى الله عليه وسلم- و التي فيها يصف المؤمن في أدقّ واجباته تجاه أخيه المؤمن، و يشدّد على الذي لا يهتم بأمر أخيه و يخذله إذا احتاج منه المساعدة. و لقد كتب مولود قاسم يقول: ﴿وأودُّ أن أختم بالتعبير عن تحوّفي، بدوري، و أقول أنّ المسلمين، إذا استمرّ انعدام هذه العدالة الاجتماعية بينهم، و فصلوا المسجد عن المزرع، و المصلّي عن المتجر و المصنع، و كانوا بذلك يراؤون و يمنعون الماعون، فويلٌ لهم ثمّ ويلٌ في هذه الدنيا قبل الآخرة، حتّى إذا لم يكونوا من الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾ (7).

و كان مولود قاسم يربط بين التعلّق بالدين على أنّه مجرد شعائر تعبديّة و تنسّكات لاهوتية كهنوتية و بين كون الذين باعنا نهضة حضارية راقية متوازنة تحفظ للإنسان الكرامة، و تبلغ به إلى الاكتفاء و التّعفّف إذا ما انطلقت الأمة في العمل لإثبات ذاتها و إبراز وجودها الحضاري، فقال عن ذلك: ﴿الفقر بسبب الكسل و الخمول لا تشمله هذه العدالة، لأنّ الإسلام لا يقرّهما، و لا يجوز لأيّ أحدٍ التّسوّل، إذ يمنعه الإسلام منعاً باتاً، و على المحتسب أن يأمر المتسوّل القادر بالعمل، و إلاّ عزّره، حتّى يُقلع، و لا يُشجّع الإسلام روح الاتكال على الغير، و الاستكانة إلى الزّوايا و التّكايا﴾ (8).

فتقوم هذه العدالة الاقتصادية ابتداءً من تحقيق حقّ العمل بل وجوبه على كلّ قادرٍ، ليضمن الجميع حياةً رغدةً تحفظ لكلّ واحدٍ كرامتهً. و من العمل يستطيع الفرد أن يُلبّي حاجياته الأساسية في الحياة من مسكنٍ و مطعمٍ و مشربٍ و ملبسٍ و دابةً و تحقيق أسرةٍ، وهي الأمور و الأشياء التي تنبني عليها آية حياةٍ مهما كانت بسيطة أو معقّدة، إذ هي الأرضية المضمونة للجميع داخل المجتمع المسلم. وفي ذلك يقول مولود قاسم: ﴿هناك أحاديث نبويّة عديدة في حماية أجر العامل، من حيث كلّ من مبلغ الأجرة و سرعة إنجازها. و يضيف صلى الله عليه و سلّم في حقوق العمّال: " من ولى لنا عملاً و ليس له منزلٌ فليتخذ فليتخذ منزلاً، أو ليس له زوجة فليتزوّج ، أو ليس له دابةٌ فليتخذ دابةً ". و يعلّق المرحوم الشيخ أبوزهرة فيقول: " و كلّ ذلك لا ريب من بيت مال المسلمين، لأنّ الرّاحة التي ينالها العاملون توقّر خيراً يعود على الجماعة الإسلاميّة ".

و هذا يضمن مجانيّة الإسكان، والمواصلات، بل التزويج أيضاً من الدّولة عند الحاجة! فضلاً عن المنح العائلية التي كانت تُعطى في وقت الرسول و أبي بكر للزوج، والزوجة، والأولاد. وقد كانت تُعطى في وقت عمر بن خطّاب رضي الله عنه للأبناء بازدياد مبلغها تصاعدياً مع السنّ، فكلّمًا نما الولد زاده، و لم يكن عمر يضمنها للأبناء الشّرعيّين فحسب، إذ كانت تشمل حتّى اللّقطاء! و استمرّ على ذلك عثمان و علي و من بعدهم مدّة ﴿ (9).

و قد علّق على قيمة العمل بربطه بعشرات المصانع التي أقمته الجزائر في السبعينات و منها مصنع الحجّار الذي يختصّ في تحويل خام الحديد إلى موادّ مصنّعة كثيرة، وبيّن كيف يحقّق العمل عزّة الأمة ككلّ إلى جانب عزّة الفرد في الاكتفاء الذاتي، و أنّ أساس العدالة الاقتصادية هو دفع عجلة الاستثمار لتشمل الجميع موقرة لهم العمل الذي بدوره يوفّر الإنتاج للأمة والذي تتعفّف به عن باقي الأمم، فقال مولود قاسم: ﴿ إنّ العمل عبادة، و هو ضروري للأمة، و كذا هذه المصانع. الأمة الإسلاميّة الآن تشتري أسلحتها من الغرب و الشرق، و هي متوقّفة على هذا، مع الأسف، متوقّفة عليه حتّى في مصير حياتها اليومية. و إن كان مصنع

الحجّار لا يصنع أسلحةً، بل يصنع الجرّارات، و يصنع السيارات، جرّارات الفلاحة، و يصنع الصّفائح لمصانع السيارات، و الأشياء الّتي يحتاجها المسلم في حياته اليومية، يحتاجها الإنسان عموماً، هذا ما ينتجه مصنع الحجّار ﴿(10)﴾.

ولمّا كان الإسلام، و بنصّ الحديث النبوي الشّريف السّابق، يضمن لكلّ فردٍ ذكرٍ حقّ العمل، حتّى يتعفّف عن السّؤال، و حتّى يتخلّص من البؤس و الشقاء، فإنّه بذلك هو دين العدالة الاجتماعيّة، إضافةً إلى ما فرضه من حقوق العمّال، و من فرض الزّكاة كدعمٍ إضافي للفقراء و المحتاجين، و بمراقبته لعملية الاحتكار، و احتكار الدّولة للثروات و للقطاعات الكبرى واسعة الاستهلاك الّتي فيها النّاس شركاء كما ورد في الحديث الشّريف المشهور. و على ذلك يقول مولود قاسم:

﴿قلنا: إنّ الإسلام، بالعكس من هذه الادعاءات، هو دين العدالة الاجتماعيّة الحقّة كما طبّقها خاصّة الرّسولُ و العُمَيران (عمر بن الخطّاب و عمر بن عبد العزيز)، و كما هي في الشّريعة الإسلاميّة، مقاصد، و نظريات، و تطبيقيّاً، في العهود الزّاهرة للإسلام، و ما تزال صالحة اليوم و غداً، مع الاجتهاد، و مراعاة الزّمان و المكان، و أخذ مصلحة الأُمّة في الدّرجة الأولى بالاعتبار، و هو جوهر مقاصد شريعتنا السّمحاء، ثمّ لا يستبعد إطلاقاً الاستفادة من تجارب الأمم، النّاجحة منها و الفاشلة، بل الإسلام يحنّنا على الاستفادة من تجارب الأمم على أساس جوهرنا، مهما كانت ديانة هذه الأمم، أو جنسيتها، أو مكانها و زمانها ﴿(11)﴾.

في محاضرة ألقاها مولود قاسم في المؤتمر الإسلامي الدّولي بلندن يوم 9 أفريل من سنة 1976، و نشرت في عدد 32 من مجلّة "الأصالة" (أفريل 1976)، تحت عنوان: "مفهوم العدالة الاجتماعيّة في الإسلام"، فصّل مولود قاسم أهمّ بنود و آليات هذه العدالة بعد أن بيّن أنّها من مقاصد الشّريعة الإسلاميّة الضّامنة لقيّم المال و الكرامة الإنسانيّة في المجتمع، نلخصها بتصرّف عن محاضرتّه بما يلي، إذ يقول: ﴿وسائل العدالة الاجتماعيّة أو الاقتصاديّة :

1. الزّكاة: و ما حكمها... الرّكن الثالث من أركان الإسلام، و العمود الاجتماعيّ الأساسيّ في البناء الإسلاميّ، و ليست صدقةً و لا منّةً، و لكنّها واجبٌ، و مانعها عمداً كافراً يُقتل، كما حدث ذلك

في حرب الردة التي حسم بها سيّدنا أبو بكر رضي الله عنه، الأمر الذي كاد أن يستفحل و يعود بكثير من المسلمين إلى الجاهلية الأولى، و يقسم ظهر أمة الإسلام. وهي إلى كونها عبادة، تقرب العبد من ربّه، كسائر العبادات، تكافل مع المجتمع، و تربيّة للذات على التغلب على الأنانية، و ترويضها على البذل و التضحية، و طمأنة للنفس بأداء الواجب، و إرضاء للضمير إزاء الله...

2. باب الحقّ سوى الزكاة: و هو المورد الثاني كما سماه ابن حزم. و قد علّق على الحديث الشريف الذي رواه الإمام عليّ كرم الله وجهه من أنّ الرّسول صلى الله عليه وسلّم قال: "إنّ الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقرائهم"، بما يلي: "فرض على أغنياء كلّ بلد أن يقوموا بفقرائهم، و يجبرهم السّلطان على ذلك إنّ لم تقم الزكوات بهم"، و أفتى هو و آخرون بديّة من مات جوعاً بين قوم، و اعتبروه قتيلاً لهم عليهم ديّة... و قد قال سيّدنا عمر رضي الله عنه: "لو عشت لأخذت فضل أموال الأغنياء فردّتها على الفقراء. ليس أحد أحقّ في هذا المال من أحد، و سألق أو أخير الناس بأوائلها..."، و من هنا يتّضح أنّ لوليّ الأمر العادل أن يتدخل لمنع الظلم و الإجحاف، و لتحقيق العدالة و الإنصاف، بالعدالة الاقتصادية، و بالتالي الاجتماعية، في الأمة، عندما تكون هناك فجوات في وسطها، و يكون هناك بذخ و ثراء يقابلها فقرٌ و إدقاع.

3. ملكية الأمة: و ذلك بنزع الملكية الكبيرة، عموماً، في حالة وجودها، لتعود للدولة، إذا اقتضت مصلحة الأمة انتزاعها، و بمنع نشوئها ابتداءً، إذا كان في ذلك احتكارٌ لها و مضارّة للصّعاء، و هو ما يحدث عموماً. و مقصد الشريعة من هذا، و هي التي تحترم أساساً الملكية الفرديّة، و تحميها، هو تحقيق العدل بمنع تكدّس الثروات في أيدي قليلة من الأغنياء يعيشون في البذخ و الترف و يكون المال

دولة بينهم... فقد " همى " الرسول صلى الله عليه و سلم أرضًا بالمدينة يُقال لها " النقيع " لِترغى فيها خيول المسلمين، أي جعلها ملكيةً للأمة كلها، كما " همى " عمر أيضًا أرضًا بالربذة لنفس الغرض... ومعنى الحمى هنا هو اقتطاع مساحةٍ من الأرض كانت ملكًا خاصًا لجعلها ملكًا للجماعة، أي للأمة، في أشخاص المحتاجين إلى ذلك من أفرادها... و ما فعله عمر هنا تطبيقًا للحديث الشريف: "الناس شركاء في ثلاث، الماء، والكلاء، والنار"، و طبقًا للقاعدة المعروفة: " يتحمّل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى " ﴿12﴾.

كلّ هذه الوسائل و الآليات تُضاف إلى حقّ العمل لكلّ مسلمٍ ذكرٍ بالغٍ عاقلٍ قادرٍ حتّى يصل الجميعُ إلى ضمان أدنى حاجيات الحياة دون شقاء و لا عناء. فأساس البناء الاقتصادي عند مولود قاسم هو تحقيق العدالة، بطريقةٍ أو بأخرى، كما سنرى في المطلب القادم يدافع بشدّة و قوّة عن النموذج الاشتراكي للاقتصاد الجزائري كونهُ يحقق هذه العدالة الاجتماعية أو هذه العدالة الاقتصادية، و الأمورُ بمقاصدها كما سيوضّحه من خلال دفاعه هذا النموذج.

دفاع مولود قاسم عن النمط الاشتراكي
للاقتصاد الجزائري

يتضح من الدفاع الشديد الذي بذله مولود قاسم لحماية الاختيار السياسي الجزائري للنمط الاشتراكي كنموذج اقتصادي، أنه كان من أولئك المنظرين له، خاصةً وأنه كان مستشاراً لرئاسة الجمهورية لعدة سنوات، و كان مساهماً حتى في العدد الأكبر من خطابات الرئيس الراحل هواري بومدين، و كأنه العقل المدبر وراء القرارات السياسية و الاقتصادية الكبرى، أو هو من رجال و جنود الحفاء كما يُقال. لذلك فإنه لم يكن يتحرّج من إطلاق كلمة « اشتراكية » حتى أمام علماء الأمة في ملتقيات الفكر الإسلامي التي كانت سوق عكاظ الجزائر، و كانت كثيرٌ من نتائجها تؤخذ بعين الاعتبار في التغييرات السياسية الكبرى لجزائر السبعينات و الثمانينات، و كان يربط بين كلمة " اشتراكية " و بين الإسلام ربطاً منطقيّاً دون تناقض، كما يُربط الوعاء بمضمونه أو الهيكل بلحمه... " فكسونا العظام لحمًا ثم أنشأناه خلقًا آخر " (13)، و لله المثل الأعلى، فكان يخطب من خلال ملتقيات الفكر الإسلامي مثل هذه الخطابات فيقول: ﴿ و للطالب كامل الحرية في أن يشارك في أية واحدة من العمليات الوطنية المتكاملة لبناء مجتمع مسلم اشتراكي، تتوفر فيه الأصالة الحقّة المشتملة على المعاصرة و القيم الصّحيحة الموروثة ﴾ (14)، و يقول: ﴿ نحن نقول بأنّ الاشتراكية جانب تنظيمي، شكل تنظيمي فقط، و معناه و لفظه، نأخذهما كذلك أيضًا من الإسلام ﴾ (15)، و يقول: ﴿ هذا ونحن لا نرى ضرورة و لا فائدة في أن نخضع تجربتنا، التي ترجع إلى سياستنا الداخليّة، لأحكام يصدرها عليها الأجانب، حتى و لو كان هؤلاء الأجانب إخوة لنا، اللهم إلا أن يكون الأمر في عين المكان، مثلاً كما حدث عند زيارة مركّب الحجّار، أو آية قرية اشتراكية يقوم في وسطها مسجد ثابت الأركان، عالي

البيان ﴿16﴾، و يقول: ﴿فدين الدولة هو الإسلام، و اللغة الوطنية هي العربية، لغة رسمية. يبقى النظام الاقتصادي الذي، نختاره، التجربة الاقتصادية التي نختارها كطريقة تنظيمية، كطريقة علمية، تطبق بها، و حتى الكلمة نفسها المعبرة عن هذا النظام: "الإشترابية"، و قد قُلتها لجلالة الملك فيصل- رحمه الله - و إن كنتُ أكره كلمة الجلالة، لأنها لا ينبغي أن تطلق إلا على واحدٍ هو الله! أقول: قُلتها، و هنا في القاعة بعض الإخوة حضروا معي عندما قُلتُ ذلك للمرحوم، قلتُ له عندما فاجأني لدى بدء المقابلة... وقال لي: "لماذا تستعملون هذه الكلمة: "الإشترابية"... الخ؟، فقلتُ له: العبرة بالمضمون ﴿17﴾.

و كان مولود قاسم دائم التأكيد على مسألة أن الأمور بمقاصدها، و أن العبرة بالمضمون مهما كانت المسميات والألفاظ أو الأنماط حتى. فكان يقول: ﴿لماذا نفر من هذه الكلمة؟ إذا كان مضمونها متفقا معنا، متفقا مع أصولنا، و جذورنا، و أصلتنا، و ديننا، و مبادئنا، و أخلاقياتنا، و معنوياتنا؟، إذا كان متفقا مع هذا الإسلام، لماذا لا نأخذ الكلمة؟، و نحن نستعمل الآن تكنولوجيا، فلماذا لا نقول فنّ كذا... و فنّ كذا؟ فحتى التقنية كلمة يونانية ﴿18﴾، و يستدلّ مولود قاسم على ذلك بأقوال علماء و أساتذة كبار لا يستكفون من إطلاق أمثال هذه المسميات مادامت تحمل المضمون الذي يريد مطلقها، فيقول: ﴿أقول: إذن، قال الأستاذ الأزهرى (الدكتور الشرباصي): لم نستعمل كلمة تكنولوجيا اليوم، أو التقنية بالنسبة لأسلافنا، و نفر من استعمال كلمة الإشترابية، إذا كانت تُغطّي المضمون الذي يتفق معنا أصلتنا، و ديننا، و مع أخلاقياتنا...؟، لماذا نفر من هذه الكلمة؟ و الكلمة بنفسها، كما قُلتُ، موجودة عندنا في الأصل: الناس شركاء في ثلاث... و من الشركاء اشتقت الكلمة التي تريدها في هذا المعنى اشتراكي، و اشتراكية، و كذا... و ما تشاء. العبرة بالمضمون، و باختوى، وليس بالكلمة ﴿19﴾.

كان مولود قاسم يبذل أيما الجهود حتى يجعل الأسماع والأذهان لا تتقرّز من سماع كلمة الاشتراكية ما دام مضمونها إسلامياً، وحتى يجعل خاصة نفوس الشباب من الأمة لا تمّجّها، لأنّ كبار السنّ منهم قد تعودوا على معاداة كلّ ما هو جديد دون النظر إلى مضمونه، فكتب يقول: ﴿هناك مقالٌ وُزِعَ عليكم، وهو لدى الكثير منكم في مجلّة (الأصالة)، عن الحديث المعروف: "الناس شركاء". فحتّى الكلمة نفسها: الاشتراكية، فهي اشتراك واشترائية، تُشتقُّ من الحديث بالنسبة لنا حتّى ولو كان اسم "Socialisme" جاء من كلمة سوسيتاس "Societas"، الكلمة اللاتينية، ولكن لا يمنع من استعمالها بالمعنى الذي نريده" ﴿(20)، وكان يؤكّد على ضرورة الإعتناق من الجمود والانغلاق والتّعميم على الأفكار الجديدة، والغريب أنّه يفعل هذا دون طرح البديل، بل بالنقد واللدع والكلام والاستغراق في الرّفص الذي هو نومٌ عن بلوغ الغايات الحضارية الكبرى. وكان مولود قاسم يرى أنّ الرافض للاشتراكية بمضمونها الإسلامي جاهل بتعاليم الإسلام الأساسية والمعلومة من طرف كلّ من يختصّ في علومه، فكانت ما قاله: ﴿لقد كان الإسلام دائماً دين الكرامة الإنسانية، والعدالة الاجتماعية، والقيم الأخلاقية، لذلك أعتقد أنّه لا يمكن لمن تشبّع بالإسلام روحاً ومعنى ألا يكون من أنصار تحقيق العدالة الاجتماعية، وبالتالي من مؤازري الاشتراكية طالما طرحت على أنّ تكون نظاماً اقتصادياً واجتماعياً يراعي القيم الروحيّة والخلقية للإسلام وينسجم مع مبادئه الأساسية ﴿(21).

ويظلّ مولود قاسم مكافحاً من أجل حمل العقول على تقبّل هذه الكلمة إن كان مضمونها متماشياً مع تعاليم الدين وموروث الأصالة والإنيّة، خاصة وأنّها متضمّنة في قواميس اللغة العربية واستعملها حتّى رسول الله صلى الله عليه وسلم لفظاً في أحاديثه الشريفة وجسدها واقعاً، ثمّ جسّد مضمونها خلفاؤه الرّاشدون من بعده، فيقول: ﴿الاشتراكية لفظ، معناه كان موجوداً في الإسلام، بل وحتّى اللفظ من إنشاء الإسلام. فبقطع النظر عن الحديث المعروف هل كان صحيحاً أو غير صحيح، وهو: "الناس شركاء في الثلاث"... فحسن البناء ولا نظنّ أنّ أحداً منكم يشكُّ في إسلام حسن البناء- سمّاها اشتراكية

الإسلام، (انظروا هذا في كتاب جودت السحار عن أبي ذر الغفاري)، إذن فالعبرة بالمحتوى،
و ليست بالألفاظ، و الاصطلاحات و التعابير، و الصيغ، و الشعارات ﴿(22)﴾.

و يستند مولود قاسم إلى فهم حسن البنّا - رحمه الله - أحد مجددين لفهم الدّين في هذا القرن، و يتبنّاه برغم كلّ
الانتقادات اللادعة التي لقيها حسن البنّا بخصوص هذه المسألة، لأنّ مولود قاسم كان يرى أن فهم هذا الرّجل نابغ
من الغور في مضامين الكلمات و في تعاليم الدّين و مقاصده و أهدافه من إقامة حياة بشرية مبنية على الكرامة
الإنسانية كقيمة من القيم، فيكتب قائلاً: " و الواقع هو كما بيّنه الشهيد حسن البنّا، في مقدّمة لكتاب عن أبي ذر
الغفاري رضي الله عنه (أبو ذر الغفاري أو الإشتراكية في الإسلام)، إذ كتب رحمه الله: ﴿ و من المشاهد أنّه
كلّما ارتقى العقل الإنساني الحاضر في فهم حقائق الحياة، و اكتشف خوافيها، واقترح شتى
الحلول لما يواجهه من مشاكلها، غُدنا نحن المسلمين إلى ديننا، بعد رؤية هذه الحلول، عودة المرء
الذّاهل إلى ماضيه الحافل، و قد اتّصل بهذا الماضي فجأة ما أشرقت به صفحته، و تجددت به
ذكرياته، و سرت فيها كربة أخرى حياته، لأنّ الخير الذي يبرق خلال طائفة من مناهج الإصلاح
المعاصر إنّما هو بعض ميراثنا، فيما آل إلينا من دينٍ عظيم، ذلك الدّين القيم، و لكنّ أكثر النّاس لا
يعلمون". و يقول عن الكتاب: " و بين يدي القارئ بحث علمي دقيق في الإشتراكية الإسلامية، يجلو
هذه الحقيقة، و يؤكّدها". " و من المهمّ أن يعرف النّاس أنّ الإسلام لا يحارب الثّروات العامّة أو
الخاصّة، و إنّما يحارب تجرّد بعض النّاس من الثّروة على حساب تضخّمها في ناحية أخرى ﴿(23)﴾.

و يذكر مولود قاسم نماذجاً عن مفهوم هذه الاشتراكية مطبّقة في العهود الأولى من فجر الإسلام و حضارته، بدايةً
من عهد الرّسول صلى الله عليه و سلّم أين كان النّبىّ الأمر و النّاهي، مروراً بعهود الخلفاء الرّاشدين من بعده،
و خاصّة عهد عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الملقّب بالعدل الفاروق، ليبيّن أنّ مضمون هذه الكلمة كان موجوداً
منذ حكّم الإسلام تصرفات البشر بتأسيسه لحضارة العدالة الاجتماعية مجسّدة في العدالة الاقتصادية، فيقول:
﴿ و حدث أنّ أقطع الرّسول صلى الله عليه و سلّم قطعة أرضٍ لأحد النّاس، و لما جاء عمر إلى
الخليفة علّم أنّه تركها بوراً، دون أن يزرعها، فاستدعاه عمر و أنذرته بالزرع أو الرّد، فلمّا لم يُوفّ

انتزعها منه و أقطعها لمستحقّ يفلحها، و لما عارض الرجل ذاكرًا بأنّ الرّسول أقطعها إياه، عنّفه عمر و ضربه بدرّته.

و مثلٌ آخر حيّ من أعمال عمر، فقد كان الرّسول أقطع أرضًا لأناسٍ من بني مزينة لا ليستملكوها فحسب، بل ليعمروها، فإن لم يعمروها أعطيت لغيرهم كي يعمروها، و حيث أنّ بني مزينة لم يعمروا أرضهم هذه وجاء أناسٌ آخرون فعمروها، و لما احتكم الفريقان إلى عمر بن خطاب قال: "من كانت له أرضٌ ثم تركها ثلاث سنين لا يعمرها فعمرها قومٌ آخرون فهم أحقّ بها" ﴿24﴾، و كان مولود قاسم من خلال هذا الكلام يحاول أن يؤصّل لعملية توزيع الأراضي لمن يخدمها في ما سُمّي بالثورة الزراعيّة بدايةً من سنة 1974. و التي انتهجتها الجزائر كنموذج اقتصادي و كفكرة لتسمية القطاع الفلاحي من البناء الحضاري لدولة ما بعد استرجاع الحرّيّة. ثمّ نجده يبرّر ما عمدت إليه الدّولة الجزائرية من تأميم بعض القطاعات الكبرى التي تقوم عليها العجلة الاقتصاديّة، و يحاول أن يؤصّل لها هي أيضًا في التّاريخ الإسلامي الأوّل ببعض الأحاديث النبويّة التي تكلمت في هذا الموضوع أو لمّحت إليه تلميحًا، فيقول: ﴿يوضح الشيخ أبو زهرة إذ يقول حرفيًا:

﴿و إنّ الأحاديث كثيرة في أنّ الاحتكار حرامٌ، مهما تكن الأصناف التي تكون موضوع الاحتكار، ما دام حسبها يضرّ بالنّاس، سواء أكانت ثيابًا، أم طعامًا، أم غيرهما. " و بذلك يُعدّ من الاحتكار أن يضيق على الصّغار امتلاك الأراضي الزراعيّة، و الاختصاص فيها، بأن يكون هناك مُلاكٌ كبار لهم الأراضي الواسعة الكثيرة، و كلّما ظهرت الأراضي استولوا عليها بطريق الشراء، فلا يستطيع صغار الزّارعين أن يُغالبوهم في شرائها، فيكون على وليّ الأمر التّدخل".

هذا و الشيخ أبو زهرة رحمه الله معروف بمواقفه الصّلبة فيما كان يراه الحقّ، و لم نسجّل عليه مالمأة الحكام، و لا التّقلّب حسب أهواء أنظمة الحكم. و لذا فلا يمكن أن يُقال أنّهُ كتب هذا في ظروفٍ

معينة، و تحت ضغطٍ معيّن، و هو الذي صمد على مواقفه و عانى في ذلك بعض الشيء، و ظلّ هو هو إلى أن مات، على الأقلّ فيما نعلم، والله أعلم ﴿(25)﴾.

و كان مولود قاسم في كلّ مرّة و مناسبة يحاول فيها التّأصيل لكلمة الاشتراكية و لنموذجها الاقتصادي، يؤكّد على ضرورة إعطائها مضموناً و محتوى إسلاميين، و توجيهها توجيهاً يوافق تعاليم الإسلام، و يلائم ظروفنا المادّية بطريقة علميّة تراعي الواقع و الإنيّة لتصنع فعلاً اقتصادياً أصلياً يحقق العدالة الاجتماعية كما ترمي إلى ذلك تعاليم الإسلام في توجيهات الرّسول صلى الله عليه و سلّم و في فهوم الصّحابة أمثال أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، و في تطبيقات عمر بن الخطّاب الفاروق من خلفاء الرّسول الرّاشدين، فيقول مثلاً: ﴿ و يطول بنا الحديث - و هنا أساتذة متخصّصون سيعرضون ذلك علينا لا شكّ أثناء المحاضرات.. لو أردنا أن نذكر نبذاً عن تفسير أبي ذر لاشتراكية الإسلام، و عن تطبيقها من طرف عمر بن خطّاب، و عمر بن عبد العزيز، و غيرهما من رجالات الدّولة في الإسلام. هذه أسسنا، و بعد هذا ليس هناك مانع من الاستفادة من آخر التجارب النّاجحة في العالم في تطبيق العدالة الاجتماعيّة و الاشتراكية الحقّة في المجال الاقتصادي، على ألاّ نكون إمّعات، قوماً تّبّعاً، فلدينا أصالتنا و مناعتنا، و لدينا ديننا الحنيف. فنأخذ ما يلائمنا من تجارب الغير، و نستفيد من أحدثها يادراجها في قالبنا الإسلامي، لصقلها و إدماجها في جوهرنا... ولقد أخذ أجدادنا عن تجارب الغير، و اشتقّوا منها ما يليق بهم، و يلائم بيئتهم، و يتجانس مع دينهم، و تستسيغه عبقريتهم ﴿(26)﴾.

و كان يلخص تدخّلاته و آراءه في هذا المجال بأمثال هذه الفقرة التي نسردها إذ يقول: ﴿ و من هذا يتّضح أنّ أصول الاشتراكية قد وجدت منذ أربعة عشر قرناً، و ذلك في روح الإسلام و نصّه، و هو دين العدالة و الإنصاف، و التضامن، و الرّحمة، مع المحافظة على حرّية المبادرة، و التنافس في العمل البناء، و مع الاحتفاظ بالقيم الروحيّة و الأخلاقية العليا، التي بها يتماسك المجتمع و يقوي بنيانه، و ذلك كلّ ما نودّ أنّ نسمّيه بأصالة مجتمعتنا الاشتراكي ﴿(27)﴾.

ثم نجد مولود قاسم يلعب دور الموفق بين مُتبنّي النهج الاشتراكي وبين القابعين على معاداة كلّ ما هو جديدٍ دون النظر إلى كنهه و ماهيته و محتواه، فريق أولئك الجامدين الذين يجارون ما خرج عن الفهم السطحي لنصوص الإسلام، فيحاول إيجاد أرضية مشتركة بينهما، هذه الأرضية التي هي المخرج الوحيد لمشاكل الأمة التي تعيشها في عصر سقوط العزة بسقوط أسباب تحققها من عُدّة و عدد و أخلاق و مبادئ و قيم، فيكتب ويقول: ﴿هل هناك من عدالة اجتماعية مزدهرة أكثر من هذه؟، سموها كما شئتم، المهم أن ينتفي بها الطغيان، والاستغلال، والإذلال، و تكون شاملة، و أن تكون فيها كرامة للجميع موفورة، و القيم الروحية مصونة، و الحريات مضمونة، و دين الله قائماً! . سموها العدالة الاجتماعية، مع الشهيد سيد قطب، سموها التكافل الاجتماعي، مع الشيخ أبي زهرة، أو سموها الاشتراكية مع الدكتور محمد المبارك إذ يكتب ما يلي: " فالقول أن ليس في الإسلام اشتراكية ينطوي على جهل بحقيقة الاشتراكية، و على قصورٍ في فهم الإسلام، و تعاليمه، و أهدافه، و بُعدٌ عن معرفة أحكامه المتعلقة بهذا الموضوع"، أو سموها اشتراكية الإسلام، مع الدكتور مصطفى السباعي، أو سموها الاشتراكية الإسلامية، مع الشهيد حسن البنا، أو بأيّ اسمٍ آخر قد يتدع، إذا كان لنفس المدلول، و لا بُدَّ له من مدلول، و إلاّ فهو مجرد شعار! . فالعبرة ليست بالأسماء، و الصيغ، و الشعارات، وإنما بالمضمون، و المحتوى(28).

المطلب الثالث:

إرساء مولود قاسم لمعايير القيام الاقتصادي
(أو التنظير الإقتصادي الإسلامي من وجهة نظر مولود قاسم)

إن رغبة مولود قاسم - رحمه الله - في تحقيق الأمة الإسلامية عامة، و المجتمع الجزائري خاصة، لقيام اقتصادي كانت شديدة بحيث شغلت باله طوال حياته حتى أقحم نفسه في مسائل بعيدة عن تخصصه. ولكنه ما اهتم بهذا المجال إلا لكونه داعية إسلامياً ينظر إلى الأمور بنظرة شمولية، تنبع من شمولية الإسلام لكل ميادين الحياة، و كونه فيلسوفاً يريد أن يوجه خطوات التعمير في مجتمعه، و شعوراً منه بالمسؤولية التي يحملها المفكر في بلده و شعبه.

كان مولود قاسم يرى أن الصّحة الحقيقية للعالم الإسلامي و أمته، لا تتمثل فقط في تنامي الشعور الإسلامي الأجوف، البعيد عن تحقيق العزة و السيادة لكونه لا يقف على تجسيدات ماديّة تدغمه، بل كان يرى الصّحة الحقيقية تلك التي تشمل كلّ ميادين الحياة لمنافسة الأمم و التسابق معها نحو الحضارة، و أول هذه الميادين الميدان الاقتصادي الذي يحتلّ محلّ الجسد في الأمة، و عقل هذا الجسد هي الموجهات الأخلاقية له من دين و شعور به.

و أول شروط القيام الاقتصادي هو إعادة الاعتبار لقيمة العمل في الأمة على أنه واجب كفاي يراعى كما تراعى باقي الواجبات و الفروض و ربّما أكثر لأنّ الأمة مشتركة في المسؤولية عليه، إذ يقول مولود قاسم: ﴿ هذا العمل ليس فقط قوتاً يومياً للعامل، ينبغي أن يكون هذا واضحاً في الأذهان لمن لم يتضح بعد ذلك في ذهنه، بل هو عمل ضروري للأمة، و من تسمّونه الأمة، إذا كان فيكم بقيّة من هذه الأمة! و لم

تكونوا عليها مصيبة و غمّة!.

جميع الأمم الإسلامية الآن تستورد أسلحتها من بلاد الغرب و الشرق، بل جميع الدول الإسلامية، أو ما سمي بالدول الإسلامية ليست هناك دولة إسلامية واحدة في الأرض حالياً، أنا أؤمن بهذا، ليست هناك بلاد واحدة تطبق الشريعة الإسلامية في عاصمتها، على بناتها و أبنائها، و حتى إذا ما تظاهرت بشيء من هذا في عاصمتها، فانظرهم في الخارج! لم تصلْ بعدُ مع الأسف! ﴿29﴾، و كأن مولود قاسم يربط قيام الأمة بإعادتها لقيمة العمل إلى مكانتها الحضارية، إذ لا استقلالية لها دون ذلك القيام الاقتصادي حتى ولو أرادت فعلاً أن تُعلي حضارة القيم و الأخلاق و المبادئ، إذ يقول في موضع آخر: ﴿إنَّ العمل عبادة، و هو ضروري للأمة، و كذا هذه المصانع. الأمة الإسلامية الآن تشتري أسلحتها من الغرب و الشرق، و هي متوقفة على هذا، مع الأسف، متوقفة عليه حتى في مصير حياتها اليومية. وإن كان مصنع الحجارة لا يصنع أسلحة، بل يصنع الجرارات، و يصنع السيارات، جرارات الفلاحة، و يصنع الصِّفائح لمصانع السيارات، و الأشياء التي يحتاجها المسلم في حياته اليومية، يحتاجها الإنسان عموماً، هذا ما ينتجه مصنع الحجارة. و لكن ينبغي في هذا الميدان أيضاً أن تستقل الأمة الإسلامية، أن تُحقّق استقلالها في هذا المجال أيضاً ﴿30﴾.

فليس القيام الحضاري بقائم إلا بتوفّر وسائل الاستقلالية في القرار التي من أولها تحقيق الاكتفاء الاقتصادي بدفع عجلة العمل بالاستثمار و الشّعور بقداسته.

أمّا ثاني شروط القيام الاقتصادي فهو تكريم الإنسان و جعله محور الحضارة، إذ هو الذي يقوم بها و تقام لأجله، و ما الحياة إلا تعامل البشر فيما بينهم و تعاونهم على ألا يجوعوا و لا يضمؤوا و لا يشقوا و لا يعرّوا في الأرض. فالحضارة بنت الإنسان إذ هي من نتاجه، و هي أمّه إذ هي تُؤويه و يُولّد في حضنها فرعاها و تُنشئه و تُؤثّر فيه قبل أن تتأثّر به، إذ يقول مولود قاسم:

﴿ لنبدأ هذا بالتذكير بأن الإسلام ينظر إلى ابن آدم، الذي كرمه الله، و جعله خليفةً في الأرض، على أنه كائنٌ متآلف من جسم و روح، له حاجاته المادّية، كغيره من الكائنات الحيّة، و لكن له أيضًا كرامته، و جوانبه الروحية، و الخلقية، و الاجتماعية عامّة ﴾ (31).

أمّا ثالث شروط القيام الاقتصادي و معاييره فهو تقييد هذا القيام المادّي بمحدود أخلاقية و نفخة روحية سامية تراعي الآداب و القيم و المثل العليا. و هو الجانب الآخر من الحضارة غير الجانب العمراني المحض، إذ يقول مولود قاسم: ﴿ غالبًا ما يتحدثون عن ترقية الإنسان إلا أن هذه الترقية لا ينبغي أن تقتصر على الجانب المادّي، و مجرد الرخاء المادّي، و تلبية حاجات الاستهلاك التي يترتب عليها ضمور الرّوح، فهذا ينشأ عنه لا محالة اختلالٌ في التّوازن، و يجرّ إلى الخراب الذي كان مصير كثيرٍ من الحضارات من بابل إلى الأندلس، لأنّ هذه تتهاون في الجانب الرّوحي و الفكري ﴾ (32).

فالتّرقّي بالإنسان يجب أن يشمل كلّ نواحي التّكوين البشري من فكر و روح و جسد و مشاعر في تربية متوازنة و متناسقة، لا تُغفل جانبًا من جوانب الحياة ليخرج الفرد أو المجتمع مختلّ الشّخصية و التّكوين، فيه من بوادر البقاء و بوادر الفناء ما يجعله كائنًا منتحرجًا يقتل الحياة في نفسه بيده، و يقضي على الحضارة الحقّة باسم الحضارة من حيث لا يشعر و لا يدرك، و في ذلك يقول مولود قاسم: ﴿ فالازدهار المادّي وحده من غير أبعاد أخلاقية و روحية مثله مثل التّعليم من غير تربية و مثل جسدٍ من غير روحٍ يمكن أن ينشأ عنه الشّرّ، و أنّا غالبًا ما غفّلنا عن هذه المظاهر الأخلاقية و الرّوحية، و خلقنا بعضًا من الفراغ في شببتنا اليوم، و هذا بارز فيما يمكن أن نسمّيه في الوقت الحاضر بالتّفكّك الأخلاقي و بالرّوح الإستهلاكية، في حين أن المجتمع الإستهلاكي ينتهي دائمًا إلى استهلاك المستهلك و القضاء على الحضارات ﴾ (33). فلا ينبغي أن يفصل البناء المادّي عن البناء الأخلاقي و الرّوحي الذي هو بمثابة الرّوح في الجسد، إذ لا حياة لهذا الجسد إلا بالرّوح التي تسري فيه و تحرّكه و توجهه، و قد لخصّ مولود قاسم ذلك في عنوان حديثٍ مترجم من حديث بالفرنسية نُشر في مجلّة " الثّورة الإفريقية " بتاريخ 1976/8/5، ضمّنه الجزء الثّاني من كتابه " أصاليّة أم انفصاليّة؟ " في الصفحة 103 منه، إذ يقول: " لا قيام بدون قيم ". و يقول في موضعٍ آخر من هذا الكتاب: " القوّة

المادية وحدها سراب، إذ في ترك الحصانة المعنوية هلاك و خراب " (34)، و كان يسمي الحضارة التي لا تقوم على القيم و الحصانة المعنوية و الروحيات و تحقيق كرامة الإنسان، بعملاقٍ من خزف، و كان ثما قاله في هذا المجال: ﴿إنَّ رَغْبَتَنَا هِيَ أَنْ نَحْفَظَ وَ نَحْصَنَ مَجْتَمَعَنَا مِنْ بَعْضِ التَّجَارِبِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي بِلْدَانِ بَلْغَتْ دَرَجَةَ عَالِيَةٍ مِنَ التَّصْنِيعِ. وَ مِنْ أَجْلِ هَذَا أَرَدْنَا أَنْ نَدَقَ جَرَسَ الْخَطَرِ قَبْلَ أَنْ نَضْحَى فِي وَضْعٍ مَادِّي بِحَتِّ يَكُونُ قَائِمًا عَلَى أُسْسٍ وَاهِيَةٍ وَ عَمَلًا قَاطِبًا بِرَجْلَيْنِ مِنْ خَزْفٍ﴾ (35). لأن هذا العملاق لن يسبح مكانه زماناً حتى يسقط و يتهاوى لكونه حطّم الإنسان في جانبه الروحي و الأخلاقي، لیسقط في الأخير فوق رأس هذا الإنسان بالذات الذي أقامه و أعلاه ليصل إلى تخمين الملائكة عليهم السلام حين أخبرهم الله بأنه جاعلُ آدمَ و بنيه في الأرض خلفاء، فقالوا: "أتجعل فيها من يفسد فيها و ينفك الدماء و نحن نُسبح بحمدك و نُقدس لك" (36).

فطبيعة الإنسان المادية، و الملائكة عرفت مما خلق آدم، تجعل منه كائناً خطيراً على المحيط به من بيته و أرض ككل، و حتى على نفسه إذ يبلغ إلى درجة سفك دمه، هذا إذا بقيت هذه الطبيعة الخلقية بعيدة عن الروح. و ما الروح إلا السبب المباشر لتكريم آدم على كثير ممن خلق الله تفضيلاً، إذ يقول تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (37)، فما أسجد له الملائكة و غير الملائكة إلا بعد نفخ الروح فيه، هذا على مستوى الفرد، فكذلك على مستوى الجماعة فيما يتعلق بعلاقة المادة بالروح و الأخلاق و المبادئ و القيم، و في ذلك قال مولود قاسم في أحد ملتقيات الفكر الإسلامي موجهاً خطابه إلى العلماء و المفكرين و المثقفين: ﴿نطلب من الأساتذة الأفاضل شيئاً آخر: منكم نطلب أن تعلموا كل ما تستطيعون طبقاً للجزء الثاني من النقطة الخاصة بمجدول الأعمال، النقطة الثانية: أن تتحاشوا كل ما يخالف الشريعة الإسلامية، من الخمر، و الانحلال، و مظاهره في الاختلاط بين العمال و العاملات، و كل شيء من هذا النوع... و كل ما يتصل بهذا، ثما يجره مجتمع الاستهلاك الذي قلنا عنه" أن التهالك على

الاستهلاك يؤدي إلى الهلاك"، هذا شيءٌ جرّبته الإنسانية كلها و تجرّبه الآن، في الشرق والغرب ﴿(38)﴾.

رابع شروط القيام الاقتصادي و معاييرهُ هو التوفيق بين مضامين الإسلام الاقتصادية و بين ضرورات العصر، توفيقاً و ربطاً علمياً يخضع للفتنة و الاجتهاد ليترجم النصوص الشرعية إلى مشاريع مؤسساتية عصرية تتجلى فيها العصرية انطلاقاً من المبادئ الكبرى التي رَسَى عليها الإسلام مجتمعه في المجال المادي و الاقتصادي. و لذلك قال مولود قاسم في إحدى مقالاته دفاعاً عن نظام الزكاة: ﴿قد يأتي إنسانٌ و يقول: "إنّ هناك ضرائب، هناك نظام ضرائب، إذن فالزكاة سقطت، و لم يعد لها محلٌّ من الإعراب، و لا من الإعجام﴾ (39)، و كأنه يدفع بالمسلمين أن يُقيموا مؤسساتٍ للزكاة كقيلة بلوغ الهدف و المغزى من فرضيتها من طرف الله تعالى، كما أقام الأولون بيت مال المسلمين الذي إليه تُجمع أموال الزكوات و توزعُ على المستحقين بشكلٍ علميٍّ مضبوط.

و في حديثٍ لجريدة "المجاهد" الصادرة بالفرنسية بتاريخ 1976/7/9، توجه مولود قاسم بنفسه و ضمنه كتابه "أصالية أم انفصالية؟" تحت عنوان: "استهلاك أم هلاك؟"، وُجّه له السؤال الآتي: "ما قولكم في التأثير المتبادل بين الإسلام و العصرية؟ هل تعتقدون إمكان التوفيق بين المفهومين؟"، فكان جوابه الآتي: ﴿أعتقد أنّ بينهما وفاقاً بالفعل. و الإسلام كما سبق أن بينّا- دينٌ صالحٌ لكلّ زمانٍ و مكانٍ. و هو، بفضل التأويل و الاجتهاد، يتّجه، في المقام الأول، إلى العنصر الرئيسي: الفكر، و صالح الأمة الإسلامية الكبرى. فالتصنيع و بلوغ مستوى العصرية يشكّلان إذن مطلباً قطعياً، و المطلوب هو بلوغ مستوى راقٍ جداً من التقدّم في جميع الميادين.... فيجب التوفيق إذن بين ضرورة هذا التصنيع، الذي هو واجب ديني بالذات، و القيم الخلقية و غايتها السامية التي هي تحصين هذه الأمة، و تقوية جانبها، و تميزها، لا تدميرها عن طريق التفسّخ الخُلقي، و الجري وراء الاستهلاك المادي، و التخلّي عن كلّ

ما يكبح جماح النفس، و عن كلّ القيم، إلى غير ذلك من العوامل التي تسببت في انحطاط كلّ الحضارات السابقة، بحيث أنّ الاستهلاك بدون قيم هو عين الهلاك ﴿40﴾.

و تتلخّص معايير القيام الاقتصادي في البناء الحضاري الإسلامي الحديث عند مولود قاسم في ضرورة تحقّق ما يلي:

• إعادة الاعتبار لقيمة العمل في الأمة على أنه عبادة و واجبٌ كفائي تأثم الأمة في حالة عدم الإتيان فيه.

• تكريم الإنسان و جعله محور الحضارة.

• تقييد القيام المادّي بحدود روحية و أخلاقية (الحصانة المعنوية).

• تطوير مضامين الإسلام في المجال الاقتصادي لتلائم حاجيات العصر و تطرّح البديل عن الأنظمة الوضعية الحديثة.

الهوامش:

- (1) مولود قاسم نایت بلقاسم، " أصاليّة أم انفصاليّة؟"، الجزء الأوّل، ص 325.
- (2) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص 332.
- (3) المصدر السابق، ص 325.
- (4) نفس المصدر، ص 332.
- (5) نفس المصدر، ص 103/102.
- (6) نفس المصدر، ص 317.
- (7) نفس المصدر، ص 337.
- (8) المصدر السابق، ص 319/318.
- (9) المصدر السابق، ص 320/319.
- (10) المصدر السابق، ص 371/370.
- (11) مولود قاسم نایت بلقاسم، " أصاليّة أم انفصاليّة؟"، الجزء الأوّل، ص 341.
- (12) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، بتصرف، من الصفحة 325 إلى الصفحة 329.
- (13) قرآن كريم، (المومنون، 14).
- (14) مولود قاسم نایت بلقاسم، " أصاليّة أم انفصاليّة؟"، الجزء الثاني، ص 176.
- (15) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص 85.
- (16) مولود قاسم نایت بلقاسم، " أصاليّة أم انفصاليّة؟"، الجزء الثاني، ص 106/105.
- (17) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص 84.
- (18) المصدر السابق، ص 86.
- (19) نفس المصدر، ص 87.

- (20) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم انفصالية؟"، الجزء الثاني، ص 85.
- (21) المصدر السابق، ص 105.
- (22) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم انفصالية؟"، الجزء الأول، ص 208/207.
- (23) مولود قاسم نایت بلقاسم، "إنية و أصالة"، ص 192.
- (24) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص 221.
- (25) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم انفصالية؟"، الجزء الأول، ص 331.
- (26) مولود قاسم نایت بلقاسم، "إنية و أصالة"، ص 194.
- (27) مولود قاسم نایت بلقاسم، "إنية و أصالة"، ص 115.
- (28) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم انفصالية؟"، الجزء الأول، ص 334/333.
- (29) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص 369/368.
- (30) المصدر السابق، ص 371/370.
- (31) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم انفصالية؟"، الجزء الأول، ص 317.
- (32) المصدر السابق، ص 355.
- (33) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم انفصالية؟"، الجزء الثاني، ص 99.
- (34) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص 93.
- (35) المصدر السابق، ص 100.
- (36) قرآن كريم، (البقرة، 30).
- (37) قرآن كريم، (ص، 72).
- (38) مولود قاسم نایت بلقاسم، "أصالية أم انفصالية؟"، الجزء الأول، ص 374.
- (39) مولود قاسم نایت بلقاسم، المصدر السابق، ص 388.
- (40) المصدر السابق، ص 359.



جامعة الأمير
على بن عبد العزيز
للعلوم الإسلامية

الخاتمة:

هناك صنفٌ من الرجال أعمارهم تستمرّ بعد وفاتهم و تسبح في دنيا الناس لسنواتٍ طويلة قد تخطُّ قرنًا إلى قرنٍ عبر مؤسسات و أعمال مؤثرة في حياتهم بحيث تكون قد غيرت مجرى التاريخ أو على الأقلّ أعادت التاريخ إلى سبّكته التي أتت من عمق الزمن و عبرت العصور بأهلها و بغير أهلها، و أظنُّ أنّ مولود قاسم نابت بلقاسم من أولئك الرجال، إذ أنّ بصمته في مسيرة المجتمع الجزائري لِمَا بعد استرجاع الحريّة أظهرُ من أنّ تطمس و يُغضُّ الطرفُ عنها. و يدلي الدكتور المؤرّخ أبو القاسم سعد الله بشهادته عن مولود قاسم و تلك المكانة التي تبوأها في حياة الناس و مصير الأمة فيقول: ﴿ كان القدماء يصفون من فقدوه من الأعزاء بالنجم الذي هوى والشمس التي غربت و البحر الذي غاض. أمّا فقيدنا العزيز علينا حقًا فلن نزيد عن وصفه بالظاهرة الفدّة في حياتنا الثقافية و السياسية. فحياتنا لم تدلم من بعده و لم تجفّ بحارنا بعد وفاته المفاجئة، و لكنّ حياتنا فقدت طعمها المعتاد، و ساحتنا السياسية و الثقافية أصابها فراغ مهول لا ندري من سيملؤه و متى. تلك الظاهرة الفدّة هي صوت و نشاط المرحوم مولود قاسم نابت بلقاسم- سي مولود ﴿(1).

إنّ الظواهر الفدّة لا تنتشر في المجتمع انتشارًا ظاهرًا بل يندر أن تولد إذا فُقدت و قُبِضت، فهي تحرق الظرف و الزمان و المكان و تصنع شبه المعجزات في زمن استحالة حصول النبوءات، و تترك بعدها الناس حيارى لا يدرون كيف يُغطّون الفراغ الذي أطبق على دنياهم بعد ذهابها و أفول شمسها عن نهار أيامهم، و قد تتغير مصائرهم و معالم مستقبلهم بتولي هذه الظواهر و موتها. يقول الدكتور أحمد بن نعمان عن مولود قاسم مُذليًا برأيه و إحساسه حول فقدان هذا الرجل، و هو الذي خالطه لعدّة سنوات: " ذلكم هو إذن مولود الجزائر الأمة

(1) د/ أبو القاسم سعد الله، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نابت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 261.

العزيزة و الشائعة، فهل غاب حقاً مستدمر الإستعمار؟ أم أنه سَيَظَلُّ حاضراً في وجداننا، وطنياً و وطنيَّةً، وتاريخاً و تضحيةً، و إخلاصاً و ثوريةً، و سلوكاً و شرفاً، و عِزَّةً و شموخاً و كبرياءً... مثلما ظلَّت الجزائر ساكنةً في أعماقه، و في كلِّ خليةٍ من خلايا دمه حتَّى تجلِّط و تجمِّد و فارقَ بسبب ذلك هذه الحياة الفانية إلى الدار الباقية، ليلتقي هناك بالخالدين الذين أَحَبَّهُمْ حُبًّا جَمًّا و اقتدى بهم، فَنَبَّوْا في تاريخ الأُمَّة و الوطن مكانته الخليق بها والخليقة به بين جميع الأخيار و الأحرار و الأبرار من أبناء الأُمَّة.

فَرَحِمَ اللهُ الفقيه في الرّاحلين و سدّد حُطَى التّابعين من الرّفقاء الأوفياء و الصّادقين في مواصلة درب الجهاد من أجل المحافظة " على الأقلّ " على هذا الاستقلال على أيّ حال، لأنّه إذا كان كلّ احتلال يحمل بدور استقلال بفضل وجود الرجال... فإنّ أيّ استقلال بدوره يحمل بدور احتلال أو " استتلال " إذا غاب أو غيَّب أمثال هؤلاء الرّجال!!" (1).

إنّ مولود قاسم حاول بكلّ ما يملك — بعد أن بذل و بشهادة التاريخ عقله و علمه و وقته بل و مصيره الثقافي والشخصي من أجل استقلال الجزائر سياسياً — من ملكة ذهنية و مكانة سياسية أن يحقّق الاستقلال الحضاري الكامل بتجسيد أولى سماته الأساسية و هو الاستقلال الثقافي. و لقد حاولت من خلال هذه الدراسة أن أسلّط الأضواء على هذا الجهد في أبعاده المختلفة التي تصبّ كلّها في النشاط الحضاري و الدعوة إليه من طرف مولود قاسم، و لعنتي و قفت على أهمّ محطات هذا الجهد التي تجلّي للقارئ العمل التغييري و الدعوي الذي قام به هذا الرّجل الظاهرة، و هو الذي لم يُنصَف إلى حدّ هذا اليوم من طرف الباحثين الجامعيّين المسؤولين عن تقديم أبحاثٍ رساليّة تعكس حياة الأُمَّة الجزائرية و أفذاذها من صنّعوها و إبتها أو على الأقلّ حافظوا عليهما — و في هذا عملٌ جبارٌ و عظيم —. و لقد قال الدكتور عبد الرزّاق قسوم في كلمة تابينيّة عن المرحوم مولود قاسم: " إذا كنّا لا نستطيع في حفلٍ تابيني كهذا، يلفّه هولُ الفاجعة، و يتقلّ جَوْه الإحساسُ بفراغ مهول الفاجعة، لاخفاء مولود من الأندية الثقافية، إذا كنّا لا نستطيع تناول محطات البناء الفكري لدى مولود قاسم، لأنّ ذلك سيكون

(1) د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نابت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 260.

موضوع الباحثين الجامعيين... ففي نقده لواقع الأمة الإسلامية، تنجلي تلك الشجاعة الأدبية التي هي من مقومات شخصيته، فربط بين الأمة و الأصالة و الأصالية..... أيها الإخوة! هذا هو مولود قاسم... الأديب في خلق، والمثقف في الإنزام، و الإيديولوجي في وطنية، و إننا مهما كتبنا و مهما تحدثنا فلن نفيه حقاً. فلقد أعطى لهذا الوطن كل ما يملك، من عرق و دم، و حبر، فلندعه للتاريخ الذي سينصفه و لا شك، و نستودعه الله الذي لا تضيع ودائعه" (1).

و أنا إذ أتت هذه الرسالة و الدراسة المتواضعة، أشعر بأنني بدأت أول خطوة في تنبيه و إيقاظ وعي التاريخ المتمثل في أبناء الأمة الأصاليين، لينصف هذا الرجل العظيم في عيني، بالرغم من أنه لا يخرج - طبعاً - عن طينة البشر. و التاريخ قد بدأ ينصفه بأول رسالة جامعية تبحث في مجهوده الفكري و الدعوي و الحضاري، بل و في مدرسته التي أسسها و وضع لها أعمدها و دعائمها و حاول تجسيدها واقعاً في مشاريع كان ينوي و يأمل ألا تموت و لا تزول بموت و زوال الرجال.

إن البناء الفكري لمولود قاسم الذي ذكره الدكتور عبد الرزاق قسوم في كلمته التأبينية عنه، و هو ما حاولت أن أبسطه أمام القارئ من خلال هذه الدراسة، و خاصة في بابها الأول منها، حيث تطرقت إلى أعمدة هذا البناء الفكري و تلك المدرسة التي إن شئت أسميتها فلسفية أو دعوية، أو حضارية حتى، مدرسة الإنية و الأصالة. خرجت الدراسة بتركيبة و توليفة فكرية للبناء الذي أسس عليه مولود قاسم أعماله و جهوده في كل مجالات الحياة العامة و المصيرية للأمة، تتكون من مستبعدات جعلها مولود قاسم أمراضاً يجب للمجتمع أن يتخلص منها، و من محفزات يجب عليه أن يتبناها و يحافظ عليها و يوقظها في ضميره الحضاري حال البناء للحاضر و المستقبل. تلك المستبعدات التي أسميناها بموجهات الفكر الدعوي عند مولود قاسم من جهة السلب، تتمثل في ظواهر أفرزتها عصور الانحطاط من حياة الأمة الإسلامية، ثم واقعها المر بعد التأثر بالإستدمارات الحديثة، لخصها في أربعة أمور، أولها نابع من الذات الحضارية المريضة و هي ظاهرة الجمود سواء في الفكر أو في الدين أو حتى في

(1) د/ عبد الرزاق قسوم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نايت بلقاسم رمز كفاح أمة»، بتصرف، الصفحات

معاملة سنن الله في الأنفس و الكون. و التخلّص من هذه الظاهرة هو نقطة الانطلاق التي لا بُدَّ منها و من إحداثها، لأنّ الجمود عكس الاجتهاد و التجديد اللذين يضمنان بقاء اتصال المسلمين بدينهم و بقاء اتصال دينهم بمستجدات الحياة و تغير الأفكار و العادات و تنوع أعراف المجتمعات. هذا جانب متطرف من التعلق بالماضي و التراث.

ثم إنَّ هناك جانباً آخر من التطرف في التعامل مع الماضي و التراث و هو ظاهرة الانفصالية و التي يُعبّر عنها مولود قاسم بالتخلّل عن الذات الحضارية بمعنى الخروج منها و من رصيدها الحضاري الطويل و العريق و الغني، و العيش في ذات و جلدة الغير مما يخلق انفصام الشخصية و ازدواجيتها داخل المجتمع الواحد، خاصّة مع ظاهرة العولمة الثقافية و تكسير حواجز الحدود الجغرافية و السياسية بظاهرة الإعلام العالمي الكاسح لكلّ بقاع الأرض.

و هاتان الظاهرتان موجودتان في مجتمع المسلمين تتصارعان في حرب لا يملك كلّ طرفٍ منها موقع الحقّ المقابل للباطل، إذ يقول مولود قاسم رافضاً الظاهرة معاً: " و استعذتم بالله من كلّ أعشى غاسق، من النور والأوكجسين آبق، سيد علينا منا فد الضياء و الهواء، ناصحاً باختيار الظلمة و الاختناق، و من كلّ أهوج فاسق، لكلّ آفة ناسق، يدعوننا إلى هتك السنّ، و ما يسمّيه التجرّر و الإنعتاق، يريد لأبوابنا الانشقاق، و لسقوفنا الإنفتاق"(1).

ثالثُ ظاهرة يريد مولود قاسم محاربتها و استنزافها من المجتمع خاصّة في نُخبه السياسية و المثقفة، هي ما سماه بالمركوبية، و التي عرّفَتْ عند المفكّر الجزائري مالك بن نبي بظاهرة القابلية للاستعمار، و التي هي انكسار نحوه الاعتراز بالنفس و تمجيد الذات

التاريخية و الحضارية، و تمهيد الطريق للغير للاحتلال بكلّ أنواعه و للإهانة في مجالات الثقافة و التاريخ، إذ يقول مولود قاسم:

" هذه الدعوة من المسلمين للدول الأوروبية إلى السيادة علينا: " يدعون أعدائهم للسيادة عليهم " كما يقول جمال الدين، هو سمّاه المرحوم مالك بن نبي: " القابلية للاستعمار... و سمّيته أنا " المركوبية "، أي تعالوا يا ناس لتركبونا! كالتبعية للمؤرّخين الأجانب، التقليد الأعمى لهم و اعتماد كلّ ما يكتبونه و يقولونه ضدّنا، و مُتعتنا بإذلالهم لنا و تلذّذنا بشتمهم لتاريخنا و ديننا و لغتنا و أصلتنا!"(2).

(1) مولود قاسم نابت بلقاسم، «إنية و أصالة»، ص 579.

(2) مولود قاسم نابت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نابت بلقاسم رمز كفاح أمة»، بتصرف، ص 112.

إنَّ المركوبية كما صورها مولود قاسم هي نوعٌ من الإحساس بالذُّونية من طرف المجتمع ككلِّ مُدَّلاً لأنَّ يُركب، شعراً بذلك أو لم يشعر، فهي عُقدَةٌ نفسيةٌ مستحكمةٌ في الأذهان و متجسدةٌ في التَّفكير و في الأعمال، تنزل بالمركوبيِّ أو القابل للركوب إلى أدنى مستويات التَّدال و الانهزام، لا يملك استقلالاً حضاريّاً، بل حتّى استقلالاً فكريّاً، فييدي احتقار النَّفس من تلقاء الذَّات دون دافع يضطرّه لذلك أو يضغط عليه.

هذه الأمراض الثَّلاث — الجمود و الانفصالية و المركوبية — كلّها منطلقة من الذَّات، لكنَّ المرض الرَّابع الَّذي سمَّاه مولود قاسم بالثالوث الجهنمي المسخ و الفسخ و النَّسخ، يتسبَّب فيه دخول الثقافات و بصمات الحضارات الأخرى في ظلِّ من الفراغ الثقافي و الحضاري المحلّي لتتحول الحياة بعد ذلك إلى غير ما كانت عليه، تحوُّلٌ في اللِّغة و في المفاهيم الأخلاقية و في العادات و التَّقاليد و في العُرْف العام و تجلّيات الدِّين في أهله.

و يتلخَّص هذا المرض في تبدُّل الشَّخصية بل موتها و دخول المجتمع في جلدة شخصية غيره.

أمَّا البديل لكلِّ هذه الأمراض، و العلاجات التي طرحها مولود قاسم و جعلها ركيزة فكرية لعمله الحضاري، فهي ثلاثية الإنية و الأصالة و الصَّحوة.

لقد تبنَّى مولود قاسم بعض المدارس الفلسفية كمدرسة ابن سينا و مدرسة الفيلسوف الألماني فيخته، و ذلك لِيُبَنِّوَرَ أفكاره و يعطيها طابعاً فلسفياً، و الفلسفة هي بانية الأفكار و الحياة. فحدّد مثلاً مفهوم الإنية الَّذي يقصده بقوله: " يرى فيخته، صاحب فلسفة الإنية أو الذَّاتية (و كلمة إنية هذه لابن سينا)، أن وجود أمة من الأمم بوجود إنيتها التي هي شخصيتها، و أن هذه الشَّخصية تتكون من عناصر ثلاثة: الدِّين، و اللِّغة، و حبِّ الوطن" (1).

فالإنية تمثّل الذَّاتية و الشَّخصية بكلِّ تحمل من رصيد موروث منذ قرون تراكمت فيها الأفعال الحضارية، وبالتالي فالشعور بهذه الإنية هو محاولة الاحتفاظ و التمسك بهذه الشَّخصية سواءً في حياة البقاء أو في حية البناء.

(1) مولود قاسم نايت بلقاسم، «إنية و أصالة»، ص 54.

أما فكرة الأصالة، فيقصد بها الفعل الحضاري السليم أثناء حياة البناء و الذي يحافظ على الإثنية و الشخصية، فعرفها بقوله: " هذا التجديد، أو الأخذ بإيجابيات العصر أو المعاصرة السليمة، بحيث يكون الإنسان ابن عصره، مع البقاء على أديم مصره، و دون أن يُصبح نسخة غيره، هو ما نقصده بالأصالة. و لولا استنكافنا عن إنشاء صيغة مذهبية جديدة، و زيادة ياء و هاء جديدتين، أو إزم ISM إضافي، إلى قائمة الإزمات التي هي كلها في الواقع صدقاً لأزمات، لسمينا اتجاهنا هذا بالأصالية" (1)، فهو يصرح أن الفكرة من إبداعه، و أنها مذهب جديد أسسه في الفعل الحضاري الباني، و الفكرة يُستساغ تطبيقها في كل مجالات الحياة الاقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية أو حتى فنية و معرفية. و لا يتأتى تحقيق هذه الأصالية إلا عن طريق الحفاظ على الإثنية و الإحساس القومي بالارتباط بها، فالأصالة و الإثنية ثنائية و توأم لا ينفصلان عن بعضهما البعض في عملية البناء الحضاري.

أما مفهوم الصّحة التي يأمل حدوثها مولود قاسم — إذ يرى أنها لم تحدث بعد — فهو ذلك الفعل الحضاري الشامل لكل مجالات الحياة الذي به تستيقظ الأمة من سباتها و هوانها على نفسها قبل عدوها. فالصّحة عنده صحوه كئلة أمة كاملة، لا صحوه نخبة مثقفة، أو صحوه دهماء حيت عندهم النخوة و اشتد الحنين و الشعور فيهم إلى الدين و الحضارة الإسلامية، إذ يقول: " و لكن في المجالات الأخرى و خاصة منها الاقتصادي، والاجتماعي، و الثقافي، و العسكري، و الصناعي التكنولوجي، و العلمي، ففي جميع هذه المجالات لم تحدث هناك صحوه و لا نهضة. فإن كلاً من الصّحة و النهضة لا يمكن أن تتمثل في مجرد الإقبال على المساجد و على شراء الكتب الدينية، فالإسلام دين و عمل " و العمل عبادة " كما ينص عليه الحديث الشريف.

ولماذا لا يمكن إطلاقاً أن يكون مجرد امتلاء المساجد ذالاً على صحوه إسلامية، و لا نوع من السلوكات الظاهرية المظهرية الشكلية السطحية، و لا الجدال العنيف و النقاش الحاد، و التفكير المتبادل في مسائل غاية في الجزئية و الشكلية، مثل السدل و القبض في الصلاة و مثل الذكر أو عدم الذكر بعد الصلاة... الخ" (2).

(1) مولود قاسم نابت بلقاسم، «إثنية و أصالة»، ص 17.

(2) مولود قاسم نابت بلقاسم، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نابت بلقاسم رمز كفاح أمة»، بتصرف، ص 120.

إنّ مولود قاسم يضع هذه الصّحوة مبنيةً على أساس إنبعاث الإسلام في ثوبٍ جديد، ليعود إلى قيادة أمته نحو العزّة والريادة والسّيادة والتّألق، هذا إذا ما رعت الأمة إنبعتها، وحوّلتها إلى مشروع حضاري يحقّق لها الأصالية التي تمكّنها من التّميّز وبلوغ الخيرية بأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر وإيمانها باللّه وسعيها في رزقها حتّى لا تدلّ ولا تُهان، واليّد العليا خيرٌ من اليّد السفلى.

إنّ العمل الحضاري الأصالي الذي كان يأمله مولود قاسم، والذي يحافظ على سِمات الإنيّة والشخصيّة، خاصّة داخل المجتمع الجزائري — ساحّة مباشرة العمل لمولود قاسم — يجب أن يُقولَب في إطار يضع بعض الأمور مواضيعاً ومنطلقاتٍ له، تُمثّل حقاً معالم الإنيّة الجزائرية ومحتوياتها، فحاول مولود قاسم بحكم انشغالاته السياسيّة المحدودة إقليمياً أن يُقولَب أفكاره ومفاهيم فلسفته ومدرسته الدّعوية الحضاريّة ضمن إطار الجزّارة تاريخياً ولغةً ودينياً وقوميّةً، لتكتمل عناصر النهضة ولو في حدود جغرافية محدودة.

لقد أوضح مولود قاسم محاور الإنيّة كأطرٍ للعمل الحضاري الأصالي ومواضيع له في بعض الأحيان حين تكلم عن هذه الإنيّة قائلاً: "إنّي بلغتي آلي كانت تناغيني بها أمي، وتقصّ لي بها القصص جدّتي، ويتفاهم بها جميع سكّان قريتي، أو حيّي في بلدتي أو مدينتي، و أتناغم بها مع أبناء وطني، وأتناجى بها مع آبائي وأسلافي، وأقرأ بها تاريخ وأجداد أمّي، ومنقوشةً بها جدران وصخور بلادتي، ألقيها أولاد أولادي، وأبلّغ بها رسالتي إلى أندادي، وأفاخر بها أضدادتي!". إنّي بديني الذي تربطني روحانياته وعقلانياته بالمولى، وبأهلي، و وطني، وبأمّتي، وبالإنسانيّة كإنسان!. و إنّي لبتراث أمّتي هذه، ومرتبطةً بتقاليدها، ليس فقط كإنسان، أي حيوان مفكّر، ولكن أيضاً كعضوٍ حيٍّ مثل أيّ عصفور مرتبط بسربه، متعلّق بنوعه، وحدةً مستقلةً و في الوقت نفسه جزءٌ لا يتجزأ من كلّ!" (1).

ولعلّ هذه الفقرة من كلام مولود قاسم إنّ حلّناها، إكتشفنا منها أبعاد هذه الإنيّة الجزائرية التي يريدّها، وهي تجسيد القوميّة الأمازيغيّة واقعاً، وتبويء اللّغة العربيّة مكانتها الحضاريّة، وإنزال الدين الإسلامي موقعه الرّوحي والعقدي والتّشريعي في حياة المجتمع والأمة، وتكريس بطاقة التعريف التاريخيّة بكلّ أجدادها القديمة منها والحديثة، ليكتمل المشروع الحضاري الأصالي بكلّ أبعاده ومواضيعه نظرياً وواقعيّاً.

(1) مولود قاسم نايت بلقاسم، «أصالية أم إنفصالية؟»، المقدمة، ص 68/69.

وَأَتَى الباب الثاني من هذه الدراسة ليرز كفاحات مولود قاسم الدّعوية في مجال البناء الحضاري الأصالي الّذي كان يأمله، و التي وضع لها مرجعية فكرية و فلسفية بمُرْتكزات من جهة السّلب و من جهة الإيجاب، و حدّدها ضمن إطار الجزارة تحديداً للإتية في قومية و لغة و دين و تاريخ. وقد كشف الباب بعديد من البراهين و الدلائل على أنّ مولود قاسم من المساهمين الكبار في مسيرة الدّولة الجزائرية السّياسية و الثّقافية، و الاقتصادية حتّى، باعتباره تقلّد عدّة مناصب سياسية في غاية الأهميّة بمكان خاصّة منصب المستشار لدى رئيس الجمهورية لأكثر من عشرين سنة، مع الرّئيس هواري بومدين، و مع الرّئيس الشاذلي بن جديد. و في هذا يقول الدّكتور بوعلام بن حمودة: " فزيادة على أنّه عيّن سنة 1970 وزيراً للتّعليم الأصلي و الشؤون الدّينية، فإنّه قد بقيّ مستشاراً للرّئيس هواري بومدين— رحمه الله — في شؤون الاتجاهات الكبرى. فأذكر أنّه عيّنه ليحضّر معي الخطاب الهام المتعلّق بإلغاء التّشريع الموروث من العهد الفرنسي... فبهذه المناسبة حضّرتُ بمعيّة الأخ مولود قاسم خطاباً عرضناه على الرّئيس الرّاحل في منزله، ولما وصلنا إلى الفقرة الّتي تنصّ على أنّ التّشريع الجزائري يجب أن يُستمدّد أساساً في المستقبل من الإسلام، سلّنا الرّئيس " يجب أن نُشير إلى ذلك؟"، فقلنا له نعم، لأنّ تصريح أوّل نوفمبر 1954 ينصّ أنّ الجزائر المستقلّة ستكون جمهورية ديمقراطية اجتماعية، في إطار المبادئ الإسلامية، فبقيت الفقرة كما هي في النّصّ المقترح، فأوردتُ هذه القصّة لأبّين للقراء أنّ مولود قاسم لم يكتفِ بدفع عملية التّعريب فقط، بل حاول بكلّ ما يملك من قُوى و إرادة أن يُوجّه القيادة اتجاهاً إسلامياً عربياً وطنياً، مستغلاًّ العصرنة للسيطرة على التّميّة ولمواجهة العدوّ الخارجيّ و تقدّمه التّكنولوجيّ (نحو وسيلة لا كنموذج حياة مادّية بدون روح)... لأبّد أنّ يعرف القراء أنّه كان المساهم الأكبر في تحرير الخطب الّتي ألقاها الرّئيس هواري بومدين— رحمه الله — في مناسبات عديدة، كاستقبال الرّؤساء الأجنبيّ و النّدوات الدّولية في مستوى القمّة، فهذه الخطب الّتي نفيخ فيها مولود قاسم روح الشّورة على الاستعمار الجديد، و الإمبريالية، و الرّأسمالية، و الصّهيوينية، ساهمت في إكساب الجزائر التّقدير من قِبَل العالم الثالث، و العالم العربيّ، و المخيم الاشتراكيّ و حتّى من قِبَل الدّول الرّأسمالية" (1).

(1) د/ بوعلام بن حمودة، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نايت بلقاسم رمز كفاح أمة»، ص 276/277، بتصرّف.

هذا إضافة إلى المنجزات التي تأسست على يديه كمشروع الجامعة الإسلامية الذي لم يكتمل كما رَغبه و أرادَه، ومشروع التعريب الذي خاض فيه معارك و حروبًا كَسِبَ بعضها و خسر بعضها الآخر، و تأثيره في تحديد المنظومة التربوية للمدرسة الجزائرية، أو على الأقل التأثير فيها في مجال المضامين دون مجال الهيكلة و التنظيم. و كذا مشروع تطوير هياكل وزارة الشؤون الدينية و الرفع من المكانة الاجتماعية و الاقتصادية لأئمة المساجد، إلى جانب مشروع المراكز الثقافية الإسلامية التي بلغت الآن كل مدن الدولة الجزائرية لبعث النشاط الثقافي الأصلي هذا إلى جانب تأثيراته في كل مجالات الحياة العامة من اقتصادية و ثقافية و حتى فنية.

إن مولود قاسم داعية من طراز رفيع، دخل غمار الحياة السياسية و حاول أن يغير من الدخّل بكل ما يملك من قوة و تخطيط و حيلة، أما من جانب القدرة العلمية فإن للرجل باع طويل في الفقه الحضاري الإسلامي للأمر السياسي و الاقتصادية و الثقافية. كان يجاري في بعض الأمور، و حاسما في أمورٍ أخرى مصيرية، إذ يقول الدكتور أبو قاسم سعد الله عنه :

" كان يعاني «الإغراب» في وطنه الذي أحبه حتى الثمالة، و كان يحسُّ بالعرقلة لمشاريعه و تصوراتِه في الرقي بهذا الوطن. فكان يجاري أحيانا كما تقتضي المسؤولية التي يتحملها، و لكنه كان أحيانا يعبر عن إحباطه بالإشارات المعبرة و بالكلمات الساخنة التي كان يتفوه بها على الملأ و التي كان يغلفها بكنة مرّة أو تلويحة بيده إلى المجهول. و لعل أقوى إحباط واجهه سي مولود تمثّل في مشروعيه العزيزين على نفسه و هما التعليم الأصلي و مجمع اللغة العربية. ففي الأوّل رأى الهرم الذي أخذ يشيده ينهار بين يديه، و في الثاني وقفت العراقيل المرئية و المخفية دون ظهوره للنور" (1).

إن مولود قاسم قد أسس مدرسة دعوية حضارية جزائرية بيّنت الدراسة في بابها الأوّل معالمها و أصولها و مرتكزاتها، تنتظر هذه المدرسة متبنيين يحيون فلسفة الإثية و الأصالة تفعيلاً للعمل الحضاري الأصلي، و مضيا على درب و خطى رجل أمة لوحدِهِ يحتاج من التاريخ أن يُنصفَهُ و من الجامعة الإسلامية و معهد الدعوة و أصول الدين — إحدى حسناته — أن يُعطوه حقَّهُ و يردُّوا له الجميل.

(1) د/ أبو القاسم سعد الله، عن د/ أحمد بن نعمان، «مولود قاسم نايت بلقاسم رمز كفاح أمة»، بتصرف، ص 264.

و قد جلستُ يوماً مع بعض الأحياب و الأصدقاء، و أنا في أثناء تحريري لهذه الدراسة المتواضعة عن مولود قاسم و مدرسته الدّعوية و مجهوده الحضاري، و كانت الظروف تُملِي عليّ حينذاك أن أتوقّف عن كتابتها، فتجاذبنا أطراف الحديث عن الهدف من إكمال هذه الدراسة إمّا للتاريخ و إمّا للحصول على الشهادة ، فقلّت يومها: ﴿لعلّ الله أهمني من عنده أن أهتمّ بهذه الشخصيّة عن طريق كتاباته، و أن أصادفه في طريق تكويني الفكري الشخصي - و أنا الذي أبحث عن فكرة و منظومة فلسفية تُهيكل فكري- لأجدها و أتبناها، ثمّ أجد نفسي فيها كمرجعية فلسفية و فكرية لكلّ عملٍ أباشره في الحياة- فكرة الإنيّة و الأصالة في كلّ شيء، فقلّت في آخر الحديث: «إشهدوا يا أصدقاء أنّي إن لم أكمل هذه الدراسة، فهي قد أكملتني و وهبتني نهجاً فلسفياً في الحياة. و ربّ ضارّة نافعة»﴾، و قد كنت أقصد بالضّارة إختياري لموضوع سائلك قد يُذهب عني شهادة جامعية أنا في أمسّ الحاجة إليها، كلّ الظروف أثناء إنجازها تدعو إلى اليأس و الإحباط خاصّة أيام كانت مشروع بحثٍ حُفّت بالصّعوبات و العراقيل حتى قُبلت من طرف المجلس العلمي للمعهد بعد جهد جهيدٍ و صبرٍ غداه فيّ أستاذي المشرف على هذه الدراسة الدكتور المحترم مولود سعادة -حفظه الله-.

قائمة مراجع البحث:

1. القرآن الكريم، رواية ورش عن نافع.
2. الصّدّيق محمّد الصّالح، "خواطر و ذكريات عن الأستاذ الراحل مولود قاسم نایت بلقاسم"، مطبعة "دار البعث" بقسنطينة/ الجزائر - 1993 م - .
3. برغوث الطّيب، "الدّعوة الإسلاميّة و المعادلة الاجتماعيّة"، دار البعث للطّباعة و النّشر، قسنطينة / الجزائر، الطّبعة الأولى - 1985 م - .
4. بن نعمان أحمد/ دكتور، "مولود قاسم نایت بلقاسم رمز كفاح أمة"، شركة "دار الأمة للطّباعة و التّرجمة و النّشر و التّوزيع"، الجزائر - 1993 م - .
5. جمعة أمين عبد العزيز، "الدّعوة قواعد و أصول"، دار الصّدّيقية للنّشر، الطّبعة الثّانية، الجزائر - 1989 - .
6. "لاروس"، "المعجم العربيّ الأساسيّ"، تحت إشراف المنظّمة العربيّة للتّربية و الثّقافة و العلوم (ALESCO، 1989).
7. نایت بلقاسم مولود قاسم، "أصاليّة أم انفصاليّة؟"، الجزء الأوّل و الجزء الثّاني، المؤسّسة الوطنيّة للكتاب، الطّبعة الأولى، الجزائر - 1411 هـ - 1991 م .
8. نایت بلقاسم مولود قاسم، "إنيّة و أصالة"، منشورات وزارة التّعليم الأصلي و الشّؤون الدّينية، مطبعة البعث(قسنطينة/الجزائر) - 1395 هـ - 1975 م - .
9. نایت بلقاسم مولود قاسم، "ردود الفعل الأوّليّة داخلاً و خارجاً على غرّة نوفمبر أو بعض مآثر فاتح نوفمبر"، دار البعث للطّباعة و النّشر، الطّبعة الأوّليّة، قسنطينة - الجزائر - 1984 م - .
10. نایت بلقاسم مولود قاسم، "شخصيّة الجزائر الدّولية و هيّتها العالميّة قبل سنة 1830"، الجزء الأوّل و الجزء الثّاني، دار البعث للطّباعة و النّشر، الطّبعة الأولى، قسنطينة / الجزائر - 1405 هـ - 1985 م - .
11. نایت بلقاسم مولود قاسم، مجلّة "الثّقافة" تصدرها وزارة الثّقافة و السّياحة بالجزائر، السّنة السادسة عشرة - العدد 94-، (ذو العقدة/ ذو الحجّة) 1406 هـ (يوليو/أغسطس) 1986 م، عنوان الموضوع: "مفاهيم و صيغ خاطئة عن تاريخنا".

فهرست الآيات

- ﴿ و قال ربكم اذعونى استجب لكم ﴾ - ص 16.
- ﴿ و لتكن منكم امة يدعون الى الخير و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر. و اولئك هم المفلحون ﴾ - ص 18.
- ﴿ و من يتبعني خير الاسلام حينما ظن يقبل منه و هو في الآخرة من الخاسرين ﴾ - ص 19.
- ﴿ فلذلك فادع و استقم كما امرت و لا تتبع أهواءهم. و قل آمنت بما أنزل الله من كتابه و امرت لأعدل بينكم. الله ربنا و ربكم. لنا أعمالنا و لكم أعمالكم. لا حجة بيننا و بينكم. الله يجمع بيننا و إليه المصير ﴾ - ص 19.
- ﴿ و كذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس و يكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ - ص 19.
- ﴿ انا و جدنا آباءنا على امة و انا على آثارهم مقتدون ﴾ - ص 62.
- ﴿ بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا. أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا و لا يمتدون ﴾ - ص 62.
- ﴿ و يتعق بما لا يسمع إلا دعاء و نداء. صم بكم عمي. فهم لا يعقلون ﴾ - ص 62.
- ﴿ ... اولئك كالانعام بل هم اضل ﴾ - ص 62.
- ﴿ و لا يزالون يقاتلونكم حتى يرحمكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ - ص 92/98.
- ﴿ و لن ترضى عنك اليهود و لا النصارى حتى تتبع ملةهم ﴾ - ص 92/98.
- ﴿ و اعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل ترهبون به عدو الله و عدوكم ﴾ - ص 133.
- ﴿ كنتم خير امة اخرجت للناس ... ﴾ - ص 135.
- ﴿ اذعوهم لآبائهم هو اقرب عند الله. فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين و هو اليكم ﴾ - ص 204.
- ﴿ ... فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر ... ﴾ - ص 383.
- ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها و يفسد السماء و نحن نسبح بحمديك و نقديس لك ﴾ - ص 393.
- ﴿ فإذا سويته و نفخت فيه من روحي فأتبعوا له ساجدين ﴾ - ص 393.

فهرست الأحاديث

- ﴿ إنا أمة أمية لا نقرأ ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا، أو هكذا وهكذا وهكذا، و عقد إبهامه، أي ثلاثون أو تسعة وعشرون يوماً ﴾ - ص 70.
- ﴿ إذا لم تستح فإصنع ما شئت ﴾ - ص 90.
- ﴿ لتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر، و ذراعا بذراع، حتى إذا دخلوا جحر ضب دخلتموه، قالوا: "أ اليهود و الناصري يا رسول الله؟"، قال: و من غيرهم؟! ﴾ - ص 98.
- ﴿ أطلبوا العلم و لو بالصين ﴾ - ص 128.
- ﴿ من ولى لنا عملا و ليس له منزل فليتخذ منزلا، أو ليس له زوجة فليتزوج، أو ليس له دابة فليتخذ دابة ﴾ - ص 379.
- ﴿ إن الله فرض على اغنياء المسلمين في أموالهم بقدر الذي يسع فقراءهم ﴾ - ص 381.
- ﴿ الناس شركاء في ثلاث: الماء و الكأ و النار ﴾ - ص 382.

فهرست الأعلام (حسب الترتيب الألفبائي)

(أ)

- ← آية الله الخميني - 363/362/361/196/69/68 .
- ← إبراهيم بيوض (عالم إباحي) - 192 .
- ← ابن الفارض (متصرف) - 303 .
- ← ابن الهيثم (عالم فيزيائي) - 288/217 .
- ← ابن حزم الأندلسي (فقيه ظاهري) - 381 .
- ← ابن حمزة الجزائري - 288/71 .
- ← ابن رشد القرطبي (فيلسوف) - 368/288/217/150 .
- ← أبو القاسم سعد الله (مؤرخ جزائري) - 320/319/308/307/293/261/259/256/202/161/148/
- 50/43/36/33 .
- ← أبو حنيفة النعمان (عالم فقيه) - 196 .
- ← أبو بكر الصديق (صحابي) - 381/379/345 .
- ← أبو ذر الغفاري (صحابي) - 388/386 .
- ← أبو علي بن سينا (فيلسوف و طبيب مسلم) - 288/150/128/125/121/120 .
- ← أبوليوس - 163 .
- ← أبو معطي الزواوي - 159/262 .
- ← أبو موسى الأشعري (صحابي) - 363/69 .
- ← أحمد باي (مقاوم جزائري للإستعمار الفرنسي) - 289/41 .
- ← أحمد بن نعمان - 358/337/291/35 .
- ← أحمد حماني (فقيه دزائري) - 208 .
- ← أحمد شقار الثعالبي - 357/275 .

- ← أحمد فؤاد الأهواني - 88.
 ← إدغار فور - 173.
 ← أرزقي الشرفاوي - 262/159.
 ← أرسطو (فيلسوف يوناني) -
 ← إسحاق باربروس (قائد عثماني) - 177/174.
 ← أفلاطون (فيلسوف يوناني) - 326/163 .
 ← الإدريسي - 217.
 ← البيروني (فلكي مسلم) - 288/217 .
 ← الحبيب بورقيبة (رئيس تونسي سابق) - 132 .
 ← الحجاج بن يوسف الثقفي (أمير أموي) - 199/81 .
 ← الحلاج (متصرف) - 303 .
 ← الخوارزمي (عالم رياضي) - 288/217/71 .
 ← الشاذلي المكي - 34 .
 ← الشاذلي بن جديد (رئيس جزائري سابق) - 358/355 .
 ← الشرباصي - 384 .
 ← الطيب المهاجي - 35 .
 ← الطيب برغوث - 23/22/21/20/18 .
 ← العربي سعدوني - 316/290 .
 ← الفارابي (فيلسوف مسلم) - 305 .
 ← المأمون القاسمي - 296/295/288/287/280/278/277/274/273/200 .
 ← المويلحي - 217 .
 ← الهادي الحسني - 169 .
 ← الوليد بن عبد الملك - 345 .
 ← إلياس بربروس (قائد عثماني) - 177/174 .

- ◀ إمرؤ القيس (شاعر عربي جاهلي) - 252 .
- ◀ أنور السادات (رئيس مصري سابق) - 367/366 .
- ◀ أنور هدام - 316 .
- ◀ أوغسطين القديس - 258/161 .
- ◀ أولف بالم - 358 .
- ◀ أوندرى جوليان (مؤرخ فرنسي) - 248/247/179 .
- ◀ إينغاوس - 78 .
- ◀ إيمانويل كنت (فيلسوف) - 376/368/37 .
- ◀ أينشتاين (فيزيائي ألماني) - 150 .

(ب)

- ◀ بابا عروج بربروس (قائد عثماني) - 177/174 .
- ◀ بابلو بيكاسو (رسّام) - 330 .
- ◀ بلقاسم راجف - 43 .
- ◀ بوعلام بن حمودة (وزير سابق) - 359/356/355/354/340/285 .
- ◀ بول بالطا - 172 .
- ◀ بولوكين بن زيري (مؤسس مدينة الجزائر) - 318/175 .
- ◀ بونسكو - 330 .
- ◀ بيجو (جنرال فرنسي) - 327 .

(ت)

- ◀ توفيق المدني - 324/316 .

(ج)

- ◀ جزائر نايت بلقاسم - 51/49 .
- ◀ جعفر الصادق (إمام شيعي) - 196 .
- ◀ جلال الدين الرومي - 303 .
- ◀ جمال الدين الأفغاني - 369/365/364/338/337/243/138/136/133/131/85/68/65 .
- ◀ جمال عبد الناصر (رئيس مصري سابق) - 255/250/246 .
- ◀ جمعة أمين عبد العزيز - 20/19/17 .
- ◀ جودة السحار - 386 .
- ◀ جون بول قوتيي - 179 .
- ◀ جيمس ماديسون - 180 .

(ح)

- ◀ حسن البنا - 389/386/385/68/57 .
- ◀ حسن الثاني (ملك المغرب سابقا) - 286/247 .
- ◀ حفيظ كرماني (وزير جزائري سابق) - 38 .
- ◀ حمورابي - 161 .

(خ)

- ◀ خير الدين التركي (قائد عثماني) - 253 .
- ◀ خير الدين بربروس (قائد عثماني) - 177/174 .

◀ خيمينيث (كاردينال إسباني) - 183.

(د)

◀ دو برومون (ماريشال فرنسي) - 125/98.

◀ دي غرامون (مؤرخ فرنسي) - 178.

◀ دي كارت (فيلسوف) - 368/120.

(ر)

◀ ربعي بن عامر (صحابي) - 18.

◀ رمسيس (ملط فرعوني) - 161.

(ز)

◀ زرادشت - 326.

◀ زلزلان (قائد نوميدي) - 164.

(س)

◀ سبينوزا - 368.

◀ سعد بوعقبة (صحفي) - 289.

◀ سعد دحلب - 38.

◀ سعيد آيت مسعودان (وزير سابق) - 273/262/191/159.

- ← سليم شيخاوي - 37 .
← سنماركو - 169 .
← سوستال - 223/100 .
← سيد أحمد غزالي (وزير سابق) - 203 .
← سيد قطب - 389 .
-

(ش)

- ← شارل العاشر (ملك فرنسي) - 183 .
← شارل دوغول (رئيس فرنسي سابق) - 248/179/173/172/170/126 .
← شعيب الدكالي - 132 .
← شكيب أرسلان - 133/132 .
← شوبنهاور (موسيقار) - 150 .
← شوقي مصطفاوي - 34 .
-

(ص)

- ← صادق سلايمية - 357 .
← صالح جودت - 254/250 .
← صبحي الصالح - 255 .
← صفوان قدسي - 260 .
← صلاح الدين الأيوبي - 318/206/83 .

(ط)

- ← طارق بن زياد - 262/159 .
← طاكفاريناس (قائد نوميدي) - 262/258/159 .
-

(ع)

- ← عابد فيلاي - 34 .
← عبد الحميد بن باديس - 343/289/262/159/132/127/118/68/66/41 .
← عبد الحميد مهري - 237/92 .
← عبد الرحمن الكواكبي - 140 .
← عبد الرحمن أوشيش - 289 .
← عبد الرحمن بن خلدون (فيلسوف وإجتماعي) - 361/261/260/247/67 .
← عبد الرحمن عبد الخالق (عالم كويتي) - 57 .
← عبد الرزاق قسوم - 330/305/120/109/48 .
← عبد العزيز الثعالبي - 132 .
← عبد العزيز كامل - 193 .
← عبد القادر الجزائري (أمين) - 262/173/171/168/166/159 .
← عبد الكريم شيتور - 156 .
← عبد الله الشماحي - 260/195/161 .
← عبد الله بن المقفع - 259 .
← عبد المؤمن بن علي - 262/253/159 .
← عبد المجيد مزيان - 361/68 .
← عثمان الكعاك - 270/260/259 .
← عثمان أمين - 122/120/109/34 .

- ≡ عثمان بن عفان - 379 .
 ≡ عفيف الدين التلمساني - 303 .
 ≡ عقبة بن نافع - 324/253 .
 ≡ علاء الفاسي - 132 .
 ≡ علي بن أبي طالب - 381/379/362/78/72/69/67 .
 ≡ علي شنتير - 208 .
 ≡ علي عبد الواحد وافي - 34 .
 ≡ عمر بن الخطاب - 388/387/386/382/381/380/379/345/207/114/83 .
 ≡ عمر بن عبد العزيز - 388/380/345/206/83 .
 ≡ عمرو بن العاص - 363/69 .

(غ)

- ≡ غاودا (ملك نوميدي) - 164 .
 ≡ غايا (ملط نوميدي) - 170/164 .

(ف)

- ≡ فالس استرهازي - 221 .
 ≡ فاليري جيسكار دي ستان (رئيس فرنسي سابق) - 259/173/170/164/162 .
 ≡ فخر الدين الرازي - 288/217 .
 ≡ فرانسوا ميتران (رئيس فرنسي سابق) - 169 .
 ≡ فرحات عباس - 358 .
 ≡ فرسانجيتوريكس - 170/163 .
 ≡ فيصل آل سعود (ملك) - 384 .

(ق)

◀ قاسم زدّور إبراهيم - 35 .

(ك)

◀ كاترين الثانية - 180 .

◀ كريم بلقاسم - 38 .

◀ كسرى ملك الفرس - 18 .

◀ كمال بوشامة (وزير سابق) - 227 .

(ل)

◀ لافونتين (أديب فرنسي) - 259 .

◀ لافيغري الكاردينال - 327/162 .

◀ لالة فاطمة نسومر - 262/159 .

◀ لودفيغ فان بيتهوفن - 332/330/38 .

◀ لورانس العربي - 249/175 .

◀ لويس الرابع عشر - 181/178/162 .

◀ ليلي الصبّاح - 177 .

(م)

◀ مازوخ (طبيب وفيلسوف نمساوي) - 85 .

◀ ماسينيسا - 289/258/173/171/170/164/161/160/41 .

- ← مالك بن نبي - 86/85/57 .
 ← مانديس فرانس - 83 .
 ← مبارك الميللي - 127 .
 ← مبروك عوادي - 195 .
 ← محمد أبوزهرة - 389/387/379/360 .
 ← محمد الشريف بن شيخ - 42/33 .
 ← محمد صالح الصديق - 366/336/332/313/255/200/169/155/98/49/44/43/34/31 .
 ← محمد الصديق بن يحيى - 289 .
 ← محمد العربي العلوي - 132 .
 ← محمد العيد آل خليفة - 259 .
 ← محمد الغزالي - 296 .
 ← محمد المبارك - 389 .
 ← محمد النخلي - 132 .
 ← محمد آقسوح - 31 .
 ← محمد أمقران شقار - 31 .
 ← محمد بن عبد الوهاب - 131 .
 ← محمد بن عثمان التركي - 253 .
 ← محمد خيضر - 46/34 .
 ← محمد رشيد رضا - 279 .
 ← محمد شريفي - 208 .
 ← محمد عبد الغني (عقيد) - 289/41 .
 ← محمد عبده - 243/133/132/68/65 .
 ← محمد نسيب - 155/31 .
 ← محمد وعمر جلواح - 31 .

- ← محمد يزيد - 34 .
 ← محمود الغزناوي الأفغاني - 253 .
 ← محيي الدين بن عربي - 303 .
 ← مستانابعل (قائد نوميدي) - 164 .
 ← مصالي الحاج - 132 .
 ← مصطفى السباعي - 389 .
 ← مصطفى صادق الرافعي - 37 .
 ← معاوية بن أبي سفيان - 362/69 .
 ← مفدي زكريا - 259/38 .
 ← مكيسا (قائد نوميدي) - 170/164 .
 ← مناحيم بيجن - 366 .
 ← موريس دي قندياك - 37 .
 ← موسى الصدر - 195/296/255 .
 ← موسى بن ميمون - 368 .
 ← موسى بن نصير - 253 .
 ← مولود حمروش - 237/92 .
 ← ميشال جوبير - 173/170 .

(ن)

- ← نابوليون بوناپارت - 131 .
 ← نبيه برّي - 296 .

(ه)

⇨ هواري بومدين - 40/41/246/273/286/289/315/316/317/318/319/321/

324/340/355/356/357/383.

⇨ هيرمن لاي - 201.

⇨ هيرودوت - 247.

⇨ هيلمهولتز - 78.

(و)

⇨ وليم سبنسر - 180.

(ي)

⇨ يوبا الأوّل - 164.

⇨ يوبا الثاني - 163/258.

⇨ يوسف بن تاشفين - 253.

⇨ يوسف بن خدة - 358.

⇨ يوغرطة - 154/159/160/161/163/164/170/171/177/249/250/258/259/262.

⇨ يوغرطة نايت بلقاسم - 49/50/51.

⇨ يوليوس قيصر - 164.

⇨ يوهان غوتليب فخته - 37/120/151/216/222/335/336/337.

فهرست الأماكن
(حسب الترتيب الأبجائي)

(أ)

- ← آسيا - 296/193/175 .
← أدرار - 289 .
← إسبانيا - 181 .
← إسرائيل - 229/199/81 .
← أستراليا - 296/136/97/88 .
← إسطنبول - 179/178 .
← إسليندا - 46/38 .
← إفريقيا - 193/175 .
← الإتحاد السوفياتي - 357/355 .
← الأرجنتين - 136 .
← الأردن - 236/220 .
← الأصنام - 325 .
← الأندلس - 304/299/171/153/95 .
← البليدة - 288/282 .
← الجزائر - /154/146/130/128/126/125/101/98/88/87/50/45/40/35/33
/210/196/183/182/180/179/178/177/176/174/173/169/168/167/155
/279/277/276/268/261/260/248/247/239/235/225/223/222/218/216
/342/333/332/330/325/317/316/306/302/301/300/298/288/286/283
387/383/379/355 .
← الجزيرة العربية - 163 .

- ◀ الحجاز - 391/383/380/379 .
- ◀ الخروبة - 330/291 .
- ◀ الدانمارك - 180/46/38 .
- ◀ الرباط - 194 .
- ◀ الزيتونة - 32/31 .
- ◀ السودان - 247 .
- ◀ السويد - 155/124/47/46/38 .
- ◀ الصحراء الغربية - 135 .
- ◀ الصربون - 368/306/305/50/35 .
- ◀ الصين - 305/304/229/175/167 .
- ◀ العراق - 255/251/225/220/177/161/135/101/36/34 .
- ◀ الفاتيكان - 171 .
- ◀ القالة - 299 .
- ◀ القاهرة - 260/235/194/131/35/34 .
- ◀ القبّة - 237/231 .
- ◀ القدس - 326/224/165 .
- ◀ القرارة - 274/192 .
- ◀ القيروان - 324 .
- ◀ الكوليزي - 164 .
- ◀ الكويت - 279/225/195/194/101/70 .
- ◀ ألمانيا - 336/229/193/180/50/38/35 .
- ◀ ألمانيا الغربية - 181/36 .
- ◀ المدينة المنورة - 382/208 .
- ◀ المغرب - 338/286/260/248/247/225/183/135/132 .

- ← المغرب العربي - 337 .
- ← النرويج - 46/38 .
- ← النمسا - 47/38 .
- ← الهند - 260/225/101 .
- ← اليابان - 193 .
- ← اليمن - 368/306/260/251/206/161/64 .
- ← اليونان - 304/95 .
- ← أمريكا - 341/304/296/180/178/136/97/95/88 .
- ← أمريكا اللاتينية - 194 .
- ← إنجلترا - 331/179 .
- ← أوروبا - 365/358/316/304/296/286/285/206/199/188/180/136/134/97/95/88 .
- 366/
- ← إيطاليا - 180 .
- ← إيران - 362/361/229/135/68 .
- ← إيفيان - 38 .

(ب)

- ← باب الزوار - 237/231 .
- ← بانة - 318/305/300 .
- ← باريس - 343/306/286/170/36/35 .
- ← باكستان - 225/101 .
- ← بجاية - 325/177/174/120/113/42/32 .
- ← براغ - 46/36 .
- ← برلين - 201 .

← بريطانيا - 194/193/181.

← بغداد - 304/249/95.

← بكين - 194.

← بلجيكا - 139.

← بلعياال (آقبو) - 340/31.

← بن عكنون - 292.

← بني عباس - 31.

← بني يزقن - 273.

← بور سعيد - 36.

← بولونيا - 199/81.

← بون - 46/38/37/36.

← بيت الله الحرام - 195.

(ت)

← تالة (تونس) - 32.

← تبسة - 136/32.

← تركيا - 301/177.

← تلاغمة - 316/289.

← تلمسان - 377/330/325/298/297/177/171/42.

← تمنغاست - 325/318/288.

← تونس - 338/325/286/248/247/225/177/132/45/34/33/32.

← تيزي وزو - 316/299/288/282/255/254/191.

← تيهـرت - 225/299.

(ج)

← جاكارتا - 108.

← جامع كشاوة - 277/276/162/125/98.

← جربة - 177.

← جيجل - 174.

← جينيف - 38.

(ح)

← حضرموت - 260.

← حطين - 305.

← حلق الوادي - 177.

(د)

← دمشق - 346/304/95.

(ر)

← روسيا - 229/180/167.

← روما - 193.

(س)

← سانسير - 38.

← ستوكهولم - 358/46/38.

- ◀ سدرااته - 299.
- ◀ سدّ مأرب - 161.
- ◀ سطيّف - 325/32.
- ◀ سوريا - 260/255/251/235/231/229/220/161/134/101.
- ◀ سوق أهراس - 325.
- ◀ سويسرا - 38.
- ◀ سيدي عبد الرحمن (تيزي وزو) - 288.
- ◀ سيدي عقبة (بسكرة) - 316.

(ش)

- ◀ شرشال - 163.
- ◀ شمال إفريقيا - 261.

(ص)

- ◀ صحراء نجد - 206/64.

(ط)

- ◀ طنجة - 108.

(ع)

- ◀ عمّوشة - 32.
- ◀ عنابة - 325/299/209/201.

(غ)

← غرداية - 299.

← غرناطة - 206/165/64.

(ف)

← فاس - 346.

← فرنسا - 325/285/229/196/194/183/181/179/178/176/169/139/137/36/34.

← فلسطين - 224/220/134.

← فنلندا - 47/46/38.

← فيتنام - 229.

(ق)

← قسنطينة - 327/324/321/317/316/296/292/291/289/203/42/41.

(ك)

← كندا - 136/124.

← كوريا - 305/304/229/134.

(ل)

← لبنان - 380/138/47.

← لندن - 380/138/47.

← ليبيا - 225/177/101.

(م)

- ◀ مالطا - 150.
◀ ماميرتينوم - 164.
◀ مداوروش - 163.
◀ مصر - 366/260/252/251/250/246/236/225/220/177/167/161/101/35/34.
◀ مفتاح - 325.
◀ مكّة - 208.
◀ منى - 208.
◀ موسكو - 357/40.

(هـ)

- ◀ هولندا - 181/180/178/38.

(و)

- ◀ وادي ميزاب - 299/274/192.
◀ واشنطن - 194.
◀ ورقلة - 299.
◀ وهران - 340/327/325/317/285/109/35.

(ي)

- ◀ يثرب - 302.

فهرست التنظيمات

(حسب الترتيب الألفبائي)

- ◀ اتحاد حزب الشعب الجزائري - 32.
- ◀ اتحاد حركة إنتصار الحريات الديمقراطية - 46/34.
- ◀ إستشارة رئاسة الجمهورية - 383/374/353/46/39.
- ◀ الأمانة الدائمة لجبهة التحرير الوطني - 355/353/234/229/47/45.
- ◀ الجامعة الجزائرية - 328/326/323.
- ◀ الحكومة الجزائرية المؤقتة - 172/38.
- ◀ الحلف الأطلسي - 38.
- ◀ السوق الأوروبية المشتركة - 134.
- ◀ الفاتيكان - 171.
- ◀ اللجنة المركزية لجبهة التحرير الوطني - 234/227/47/46/45.
- ◀ المجلس الإسلامي الأعلى - 340/286/285/283/274/195.
- ◀ المجلس الأعلى لتعميم إستعمال اللغة العربية - 262/256/235/234/229/47/45/39.
- ◀ 357/321.
- ◀ المجلس الشعبي الوطني - 234/229.
- ◀ المدرسة الوطنية للإطارات الدينية - 325.
- ◀ اليونسكو - 283.
- ◀ جامعة الدول العربية - 256/254/38/36.
- ◀ جبهة التحرير الوطني - 358/236/234/171/47/46/35.
- ◀ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين - 31.
- ◀ حركة دول عدم الإنحياز - 355.
- ◀ حزب الشعب الجزائري - 45/35/34/33.

- = حزب جبهة التحرير الوطني - 49.
 = رئاسة الجمهورية - 357/319/238/2346/234
 = مجمع اللغة العربية - 236/234/102/91/44.
 = مجلس الثورة - 320.
 = ملتقى الفكر الإسلامي - 210/209/205/200/195/191/123/117/102/96/41/40/39
 295/294/293/292/291/290/289/274/273/271/270/260/258/256/255/254/253
 383/377/374/360/354/351/342/340/330/306/305/302/300/299/298/297/296
 .393/383/377
 = منظمة الأوبك (الدول المنتجة للبترو) - 355.
 = هولي وود - 232.
 = هيئة الأمم المتحدة - 355/249.
 = وزارة الإعلام - 338.
 = وزارة التربية والتعليم - 321.
 = وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية - 374/356/353/315/285/273/70/45/39/37
 = وزارة التعليم العالي - 230.
 = وزارة الثقافة - 353.
 = وزارة الدفاع الوطني - 156.
 = وزارة الشؤون الخارجية - 355/353/46/39/38.
 = وزارة الشؤون الدينية - 315/290/289/283/277/275/270/267/208/47/46/41
 = وزارة العدل - 356.

فهرس الموضوعات

- 5 المقدمة ♦
- 16 مدخل في مفهوم الدعوة و البعد الدعوي ♦
- 16 1- مفهوم الدعوة
- 16 أ- الدعوة لغة
- 17 ب- الدعوة اصطلاحاً
- 23 2- مفهوم البعد
- 26 - المفاهيم
- 27 ♦ الباب الأول: المركز الفكري لمولود قاسم نايث بلقاسم
- 29 - تمهيد
- 30 - الفصل الأول: ترجمة حياة مولود قاسم نايث بلقاسم
- 31 أ- مولده و تعليمه
- 32 ب- انتقاله إلى تونس
- 32 ت- جهته و محاكمته
- 33 ث- في تونس
- 34 ج- هجرته إلى مصر
- 35 ح- انتقاله إلى باريس
- 36 خ- مغادرته لباريس
- 38 د- انتقاله إلى بلنبلدان أوروبا
- 39 ذ- بعد إعادته إلى بلنبلدان أوروبا

- 47 ر- مؤلفاته
- 48 ز- ميراثه
- 52 الهوام ش
- 55 ه- الفصل الثاني: موجّهات الفكر الدعوي عند مولود قاسم نابت بلقاسم
- 56 - تمهيد
- 59 - المبحث الأول: موجّهات الفكر الدعوي عند مولود قاسم نابت بلقاسم من جهة السلب
- 59 - تمهيد
- 60 - المطلب الأول: الجمود موجّهة الب
- 74 - المطلب الثاني: الانفصالية موجّهة الب
- 85 - المطلب الثالث: المركبية موجّهة الب
- 93 - المطلب الرابع: «الفسخ و المسخ و النسخ» التنازل الجهتمسي موجّهة الب
- 103 الهوام ش
- 108 المبحث الثاني: موجّهات الفكر الدعوي عند مولود قاسم نابت بلقاسم من جهة الإيجاب
- 108 - تمهيد
- 109 - المطلب الأول: «الأصالة» موجّهة الب
- 120 - المطلب الثاني: «الإنتهية» موجّهة الب
- 130 - المطلب الثالث: «الصحة» موجّهة الب
- 141 الهوام ش
- 144 - الفصل الثالث: الهوية قابلية ومنطلقا للدعوة عند مولود قاسم

- 145 - تمهيد
- 147 - البحث الأول: توظيف عنصر التواريخ
- 148 - المطلب الأول: إهتمام مولود قاسم بالتاريخ
- 158 - المطلب الثاني: تحقيق وحيدة التواريخ
- 166 - المطلب الثالث: ردُّ الإعتبار للدولة الجزائرية
- 174 - المطلب الرابع: التركيز على عظمة الدولة الجزائرية في الفترة العثمانية
- 184 - الهوامش
- 188 - البحث الثاني: توظيف عنصر الدين
- 188 - تمهيد
- 190 - المطلب الأول: إعتداد الدين بطاقة تعريف و عنصر توحيد و تلحيم
- 198 - المطلب الثاني: إعتداد الدين ثقافة و أيديولوجية و مرجعية فكرية
- 205 - المطلب الثالث: إعتداد الدين نظاماً للحياة
- 213 - الهوامش
- 215 - البحث الثالث: توظيف عنصر اللغة
- 215 - تمهيد
- 219 - المطلب الأول: التهيئة النفسية لإحياء الأصالية في اللغة
- 226 - المطلب الثاني: السعي الحيث لتأسيس الأصالية في اللغة
- 234 - المطلب الثالث: المصاهرة و المكابدة في مواصلة الأصالية في اللغة

- 240 - الهوامش
- 243 - المبحث الرابع - مع: توظيف الف القوم
- 243 - تمهيد
- 246 - المطلب الأول: الإنتساب القومسي تاريخياً
- 252 - المطلب الثاني: لبس الإنتماء العروبي المقصبي لغبيره
- 258 - المطلب الثالث: التوسط والإعتدال في الإنتماء القومسي
- 263 - الهوامش

- 265 الباب الثاني: الكفاحات الدعوية لمولود قاسم نيت بلقاسم
- 267 - تمهيد
- 269 - الفصل الأول: الكفاح الدعوي في عمل مولود قاسم الفكري
- 270 - تمهيد
- 272 - البحث الأول: كفاح مولود قاسم في تنظيم وزارة الشؤون الدينية
- 273 - تمهيد
- 276 - المطلب الأول: كفاحه في إستعادة رموز الوزارة التاريخية
- 280 - المطلب الثاني: كفاحه في إستعادة هيئة إمام المسجد
- 285 - المطلب الثالث: كفاحه في إرساء بعض المؤسسات في الوزارة
- 291 - البحث الثاني: كفاح مولود قاسم في إرساء مؤسسة ملتقى الفكر الإسلامي
- 301 - البحث الثالث: كفاح مولود قاسم في تحديد منظومة فكرية إسلامية
- 309 - المهرام
- 312 - الفصل الثاني: الكفاح الدعوي في عمل مولود قاسم النقابي
- 313 - تمهيد
- 315 - البحث الأول: كفاحه في إرساء الفكر الإسلامي داخل المدرسة الجزائرية
- 323 - البحث الثاني: كفاحه في إرساء الفكر الإسلامي داخل الجامعة الجزائرية
- 329 - البحث الثالث: كفاحه في ترشيد العمل النقابي والفني بالخصوص
- 339 - البحث الرابع: كفاحه في ترشيد الثقافة الإجتماعية للأمة الجزائرية
- 347 - هوام

- 350 - الفصل الثالث: الكفاح الدعوي في رؤى مولود قاسم السياسية و الاقتصادية
.....
- 351 - تمهيد
- 352 - البحث الأول: الكفاح الدعوي في رؤى مولود قاسم السياسية
.....
- 353 - تمهيد
- 354 - المطلب الأول: مساهمة مولود قاسم في المسيرة السياسية الوطنية
.....
- 360 - المطلب الثاني: دعوة مولود قاسم العلماء للمشاركة في الحياة السياسية
.....
- 364 - المطلب الثالث: دعوة مولود قاسم لتحقيق الوحدة الإسلامية سياسياً
.....
- 368 - المطلب الرابع: دعوة مولود قاسم لإرساء نموذج للمجتمع المسلم
.....
- 371 - الهوامش
- 373 - البحث الثاني: الكفاح الدعوي في رؤى مولود قاسم الاقتصادية
.....
- 374 - تمهيد
- 376 - المطلب الأول: دعواته لتحقيق العدالة الاجتماعية
.....
- 383 - المطلب الثاني: دفاعه عن النمط الإشعاعي للإقتصاد الجزائري
.....
- 390 - المطلب الثالث: إرساؤه لمعايير القوام الاقتصادي
.....
- 396 - الهوامش

398 الخاتمة
409 قائمة مراجع البحث
410 فهرست الآيات
411 فهرست الأحاديث
412 فهرست الأعلام
424 فهرست الأماكن
432 فهرست التنظيمات
434 فهرست الموضوعات

الأخير
عبد القادر للعلوم الإسلامية